المؤتمر الافتراضي الدولي الأول
العلوم الإنسانية والاجتماعية رؤية جديدة بعد الجائحة
24/23/22 ديسمبر2020

سلسلة أعمال مؤتمر

الفلسفة والعلم

-رؤية جديدة بعد الجائحة-

المشرف العام:
أ.د قلامين صباح
أ. هشام قاضي



خيال للنشر والترجمة
خيال للدراسات والأبحاث

دار خيال للنشر والترجمة ©
تجزئة 53 قطعة. رقم 27. بليمور
برج بوعريريج – الجزائر-
0668779826
Khayaleditions@gmail.com
ردمك :6-350-06-9931-978
الإيداع القانوني : السداسي الأول 2021.

تقديم الكتاب

نحن اليوم أمام بوادر نظام دولي جديد ومنظومة من القيم لم يسبق لها وجود، فها هو الفيروس المجهري يقلب موازين المقولات الفلسفية في كتابة التاريخ والتأريخ له ليشكل ابستيمية جديدة تدخل التاريخ، وتصنع التاريخ. لم يصبح التاريخ بعدها بمقولات الحداثة وما بعد الحداثة بل سيصبح التاريخ **ما قبل كورونا وما بعدها**. لن نتحدث بعد كورونا عن الحب السائل والشر السائل والحداثة السائلة...إلخ. بل سنتحدث عن **العدالة السائلة، والوباء السائل، والعلم السائل، والعنصرية السائلة، والإيديولوجيا السائلة.** وهذا ما يطرح العديد من التساؤلات **كيف استطاعت الجائحة أن تفرض نمطا معينا من المفاهيم؟ وكيف تمكنت بمقابل ذلك من قلب الكثير من المفاهيم التقليدية؟**

كورونا اليوم **أسقطت نظرية التفوق الإنساني**، وزعزعت ثقة الإنسان **بمركزيته الكوسمولوجية**، لتُضيِّق عليه مجاله الجوي والجغرافي وترسم له حدودا جديدة لا تتجاوز عتبة بيته. فأصبح قابعا في منزله بسبب الحجر، وحاصره الخوف من كل الجهات، لتضعه الجائحة أمام مساءلة نقدية ابستيمولوجية حول كل المفاهيم التراكمية التي صاغتها الاتجاهات التنويرية والحداثية، ودعت إلى تبنيها وتقديسها لتسقط اليوم أقنعتها وتظهر كمفاهيم عاجزة عن استيعاب المعاني الجديدة معاني ما بعد كورونا.

اليوم وأمام كورونا نشهد بروز معانٍ جديدة معانٍ لم نألفها يوما، ولم نعتقد أننا سنقوم بالنبش عليها ونحن ضعفاء، وهزيلو الأمل، علنا نصل إليها لنعبّر عن حجم ما عانيناه وعانته الإنسانية جمعاء، فها نحن نقوم اليوم بمنحوتات جديدة لمعاني مجتمع الجائحة أو مجتمع الكوفيد-19 علنا نتمكن من التأريخ للجائحة بأكثر موضوعية، وأقل أيديولوجية، وتعصبا للمعاني التقليدية التي فقدت الحياة بسبب الجائحة أو انتحرت. وهذا الكتاب الذي يجمع مختلف الدرسات لمختلف الباحثين يشكل رؤية وقراءة جديدة لما بعد الجائحة، كما يشكل قفزة في الكتابة حول الجائحة بروح تملؤها الشجاعة والمغامرة.

بقلم الباحث والكاتب

هشام قاضي/ رئيس المؤتمر

فهرس المحتويات

جائحَة كورُونا:
تشرُّدٌ في الجمهُوريّة الإبستمولوجيّة

هدى العواجي/ المملكة العربية السعودية
hona22@gmail.com

ملخص:

هزت جائحة كورونا Covid19 العالمَ من أقصاه لأقصاه، ومثّلت اختباراً عسيراً على عدة أصعدة؛ بدءاً من الأفراد مروراً بالأطباء وخبراء الأوبئة والممارسين الصحيّين وصولاً لصُنّاع القرار الذين وقفوا مشدوهين أمام سلسلة من الإجراءات الواجب اتخاذها بلا مُعطيات مسبقة كافية. إن قراءة المشهد إبستمولوجيًّا تُلقي الضوء على عدّة زوايا في النظر؛ فمِن زاويةٍ، نرى المسؤوليّة الإبستمولوجية التي واجهها **صُنّاع القرار** بعد أن فقدوا إمكانية الإرجاء المعرفيّ لإجماع الخبراء، ذلك الإرجاء الذي يلعب دوراً هاماً في تقييم السياسات الجديدة ذات الصّلة ويتنبأ بنتائجها، فواجه صانعُ القرارِ إثر صَمت خبراء الأوبئة جرّاء نقص المعطيات، وتضارب أقوال مَن نطق منهم، ما سمّاه الفيلسوفان جوليان سافوليسكو ونيل ليفي "عاصفة إبستمولوجية مثالية"(Levy & Savulescu, 2020)، ثمّ من زاوية **عامّة الأفراد غير الخبراء** حين واجهوا معضلة اللايقين معرفياً والمسؤولية أخلاقياً، فتوجّب عليهم اتخاذ قرارات دون سندٍ معرفيّ يقوّمها، إن كان البيولوجيّون أنفسهم وخبراء الأوبئة لم يكونوا متيقّنين مما يجب فعله، فكيف تقع على العامّة غير الخبراء مسؤولية اختيار قبول شهادةٍ دون غيرها ومن ثم بناء سلوكياتهم ذات العواقب الأخلاقيةّ عليها؟ والتي بدورها قد تؤدي لضررٍ يصل لفقدان الحياة إن بُنيت على شهادةٍ مغلوطة وكان الفرد حلقةً ساعدت على التصاعد الأُسّي المهيب للمصابين في مجتمعه. ألقي في هذه الورقة الضوء على الإرجاء المعرفي، إبستمولوجيا الشهادة، المسؤولية الإبستمولوجية، وأناقش لدى كلّ حقلٍ كيف لعب- ومازال- دوراً حاسماً في خِضمّ الجائحة.

الكلمات المفتاحية:

الشهادة، المسؤولية، الإرجاء المعرفي.

مدخل:

هزت جائحة كورونا Covid19 العالمَ من أقصاه لأقصاه، ومثّلت اختباراً عسيراً على عدة أصعدة؛ بدءاً من الأفراد مروراً بالأطباء وخبراء الأوبئة والممارسين الصحيّين وصولاً لصُنّاع القرار الذي وقفوا مشدوهين أمام سلسلة من الإجراءات الواجب اتخاذها بلا مُعطيات مسبقة كافية. إن قراءة المشهد إبستمولوجيّاً تُلقي الضوء على عدّة زوايا في النظر؛ فمِن زاويةٍ، نرى المسؤوليّة الإبستمولوجية التي واجهها **صُنّاع القرار** بعد أن فقدوا إمكانية الإرجاء المعرفيّ لإجماع الخبراء، ذلك الإرجاء الذي يلعب دوراً هاماً في تقييم السياسات الجديدة ذات الصّلة ويتنبأ بنتائجها، فواجه صانعُ القرارِ إثر صَمت خبراء الأوبئة جرّاء نقص المعطيات، وتضارب أقوال مَن نطق منهم، ما سمّاه الفيلسوفان جوليان سافوليسكو ونيل ليفي "عاصفة إبستمولوجية مثالية"(Levy & Savulescu, 2020)، ثمّ من زاوية **عامّة الأفراد غير الخبراء** حين واجهوا معضلة اللايقين معرفياً والمسؤولية أخلاقياً، فتوجّب عليهم اتخاذ قرارات دون سندٍ معرفيّ يقوّمها، إن كان البيولوجيّون أنفسهم وخبراء الأوبئة لم يكونوا متيقّنين مما يجب فعله، فكيف تقع على العامّةغير الخبراء مسؤولية اختيار قبول شهادةٍ دون غيرها ومن ثم بناء سلوكياتهم ذات العواقب الأخلاقيةّ عليها؟ والتي بدورها قد تؤدي لضررٍ يصل لفقدان الحياة إن بُنيت على شهادةٍ مغلوطة وكان الفرد حلقةً ساعدت على التصاعد الأُسّي المهيب للمصابين في مجتمعه. ألقي في هذه الورقة الضوء على الإرجاء المعرفي، إبستمولوجيا الشهادة، المسؤولية الإبستمولوجية، وأناقش لدى كلّ حقلٍ كيف لعب- ومازال- دوراً حاسماً في خِضمّ الجائحة.

1-المسؤوليّة الإبستمولوجيّة:

جادل إسحاق تشو إن العقل الصحيّ مسؤول إبستمولوجياً عن اعتقادات محددة ومُلزم باعتقادات أخرى (Chou, 2017)، بينما واجهت- على مستوى الإمكان- المسؤولية الإبستمولوجية تحديات عدة من قِبل فلاسفة ومنظرين كجون أوستن الذي زعم أن المرء غير متحكم باعتقاداته أو أحكامه "-Non

"Volunteerism"[1]، إلا أن كلاً من المعترضين والمدافعين اتفقوا على أخذها بمفهوم 'إمكان إلقاء اللَّوم'؛ أي الاعتقاد بإمكانية تطبيق المسؤولية على الاعتقادات.

إن جانباً من المسؤولية الإبستمولوجية يحضر في المعيش اليومي على الدوام، بدءاً من المحاججة الثقافيّة وانتهاءً بتعاطي الفرد مع دائرته المقربة وأصدقائه؛ ذلك التعاطي الذي يتضمن إقراراً مُسبَقاً بأنه إذا حضر الدليل أو الخبير الذي يملك دليلاً فيجب أخذ القضية التي يقررها والتسليم، إن من أبرز أوجه حضور تلك المسؤولية مجتمعياً ذلك الإرجاء المعرفي Epistemic Deference الذي يمارسه الفاعلون السياسيون/صُنّاع القرار من خلال العودة للخبراء داخل حقلٍ ما، من أجل تقييم سياساتهم ذات الصلة والتنبؤ بنتائجها. الأمر الذي جعل ذلك الحضور في مواجهة الجائحة غير المسبوقة من نوعها غائباً في اختبارٍ معرفيّ عسيرٍ غابت فيه معطيات كلّ من علماء الأوبئة والبيولوجيين، فوقفوا في وجه غياب ذلك الإرجاء المعرفي دون أن يسمح لهم الظرف الراهن بـ"الوقوف" دون اتخاذ قرارات غير مُسوغة/مُسنَدة، فهل نرى في هذه الفجوة- أو يتوجب أن نرى- مكاناً يستطيع الفلاسفة من إبستمولوجيين وعلماء أخلاق إشغاله في هذا المشهد؟ بالنظر أيضاً إلى الجدل الذي وقع قبيل إعلان الحظر الجزئيّ ثم الكليّ بين عموم من يرى بالتدخل وأولئك الذي نادَوا بالانتظار لحين توفر معطيات إضافية تساهم في إجراء الأبحاث، وهو جدل يقع في صميم حقلي الأخلاق والمسؤولية الإبستمولوجية. ثمّ إن كان الإرجاء المعرفي إلى شهادة/ إجماع الخبراء مصدراً حاسِماً عادةً بالنسبة لصانع القرار في سياساته ذات الصلة، ويجعل منه مواطناً من الدرجة الأولى في "الجمهورية الإبستمولوجية" كما صاغها بلانتينغا(Plantinga,1993)، فهل تركته الجائحة، دون هذا الإرجاء، مشرّداً في تلك الجمهورية؟

2- الإرجاء المعرفيّ وإبستمولوجيا الشهادة:

إن الإرجاء المعرفيّ كما يُتناوَل فلسفياً يشير إلى اعتماد الطرف الأول على طرفٍ ثانٍ وذلك من خلال قبول الأول قضيةً ما بسببٍ يعود، إلى حد كبير، إلى قول الثاني بها. من هنا نستطيع أن نلحظ كيف أن الشهادة تحتلّ حيزاً كبيراً في خارطة

---

[1] لنقاش أطروحة أوستن والرد عليها انظر Cusimano, Corey. “Defending Epistemic Responsibility”.

الإرجاء المعرفي رغم اتساع الأخير وتنوعه، وقد وصل الفلاسفة إلى اعتبار أن استخدام الشهادة إما لتناقل المعارف وانتشارها أو بوصفها مصدراً، ضروريّا في العالم (Coady, 1992; Lackey & Ernest Sosa, 2006).

حين يُخبرني(ج) عن القضية (أ)، فأقبلها وبالتالي أعتقد أنه (أ)، فإني قد بنيتُ اعتقاداً **مبنياً على الشهادة** أنه (أ)، ناقش الإبستمولوجيون أسئلة عدة في موثوقية الشاهد، والمعلومات التي يجب أن يعرفها/ يستقرئها المتلقي عن الشاهد لقبول إفادته، وفي الحِمل الإبستمولوجي الذي يتشكل في قائمة مَطَالب يتوجب استيفاؤها تقع على عاتق كل من الطرفين. وقد كان من المعقول أن يرتبط ثقل شهادةٍ ما في مؤشرات خبرة الشاهد، ومن ثم موثوقية تلك القضية التي يقررها. تلك المؤشرات التي لم يُتَفق عليها لكن ثمة اتفاق كبير على ملامحها"جدول1".

إن الإجازات العلميّة والدرجات الأكاديمية من أكثر الأمثلة شيوعاً على إخلاء المسؤولية الإبستمولوجية، فيتلقى العامة وغير الخبراء من صناع القرار أولئك حاملي تلك الإجازات/الدرجات بوصفهم خبراءَ في مجالاتهم، هو تفويضٌ مؤسساتيّ أزال عن كاهل الإنسان الحديث حِملَ التحقق المستمر من أجل اتخاذ قرارات مسوغة، بدءاً من اختيار مربٍّ/مربية لأطفالهِ وانتهاء باختيار طبيبه الخاص.

Credentials	Possession of a higher degree; institutional affiliation; membership of learned societies
Track record	Success at predicting events; publications in peer reviewed journals; awards and prizes
Intellectual honesty	Declarations of conflicts and funding sources; admissions of past errors
Argumentative capacity	Ability to counter arguments from rivals and to explain apparent anomalies
Consensus	Testimony from multiple experts outweighs testimony from a minority

جدول: مؤشرات الخبرة

Epistemic Responsibility in the Face of a Pandemic. *Journal of Law and the Biosciences.*

إلا أن الشهادة كما جرى تداولها فلسفياً على أنها" إقرارٌ واضحٌ بهدف تقديم معلومات"، وبمسوغاتها المعرفيّة من طرف الشاهد الذي بدوره لن يعتقد بدواحضَ لتلك القضية التي يقررها، والإرجاء المعرفي الذي يستند فيه غير الخبير إلى شهادة الخبير، غابت عن المشهد في جائحة كورونا، فتعارضت أقوال من نطَق من الخبراء رغم صمت معظمهم، الصمت المسوَّغ جراء نقص المعطيات في فيروس لم يسبق له الانتشار، فأمكن في ظل ذلك الخِلاف بين الخبراء إسقاط النزعة التوفيقية ومن ثمّ إضرام نار اللايقين المعرفيّ في الجائحة أكثر؛ حيث يرى التوفيقيون Conciliationists أن تعارض أقوال الأقران الإبستيميين epistemicpeers يوجب على كل طرفٍ منهم أن يخفِض من ثقته بأقواله.

3- صِناعة القرار في منظومة علميّة مُستقرة:

على الرغم من اختلاف الفلاسفة فيما يجب على المرء معرفته ليكون مسؤولاً في عملية اتخاذ القرار، سواء كان من المتوقع أن أثر الأخير يمتدّ على أفرادٍ كربّ العائلة لعائلته، أو جماعاتٍ كالفاعل السياسيّ للمجتمع، إلا أننا نرى اتفاقاً في نطاق واسع على أفضلية الإرجاء لإجماع الخبراء؛ ذلك لوقوع إجماع الخبراء في منطقة هامة- قال بعضهم إنها الأهم- في عملية اتخاذ قرار مسؤول، بينما المفارقة في وقوع الإجماع الذي يحدُث في المجتمعات بعد عدة قرارات بعضها خاطئ يستقرئ منها العلماء معطياتهم. على أيّة حال، يبقى من العقلانيّ تفضيل شهادة الإجماع عند تساوي بقيّة المتغيرات، ذلك أن الأفراد يتعرضون للوقوع في التحيزات على الدوام، أو الوقوع في حين غياب المعطيات بما سماه البعض"وهم العُمق التفسيريّ"(Candice &Frank 2004, Leonid & Frank 2002)، ذلك الوهم الذي يقع عادةً للعامة من غير الخبراء، وقد يقع- ويا للمفارقةِ- بسبب الإرجاء في المعرفة(Nathaniel & Philip & Steven, 2019) فنميل للاعتقاد بتفوق قدراتنا في حل المعضلات أكثر مما هي عليه في الواقع.

ما نودّ إقراره هنا، وقد دافع العديد من الفلاسفة، يتلخص بأنه حين يقع إجماع الخبراء في مجتمع معرفي يحكمه براديغم متسق؛ يجب الإرجاء المعرفي ممّن وقع خارج ذلك المجتمع (Levy & Savulescu, 2020)، ولعلّ عدم معقولية منكريّ تغير المناخ وجدوى اللقاحات والتي تعد من القضايا الكبرى المعاصرة، والهجوم

الساخر من انعدام- أو في أحسن الأحوال، هشاشة- مستند أولئك المنكرين المعرفيّ، يعود لإنكارهم ذلك الإجماع العلميّ دون مسوّغٍ.

5-اللايقين المعرفي وصناعة القرار في مواجهة الجائحة- تشرُّدٌ في الجمهوريّة الإبستمولوجيّة:

إن وقوف الدكتور فاوتشي بجانب الرئيس الأمريكي ترامب في النصف الأول من العام الجاري 2020، خلال مؤتمرات طارئة عقدها الرئيس في ظل الجائحة، ليس إلا مشهداً إبستمولوجياً يقوم فيه ذو الامتياز المعرفي(فاوتشي) بحماية اعتقادات المتلقين (المشاهدين غير الخبراء) من خطأ الشاهد (ترامب) حتى تكون الاعتقادات التي تُبنى على هذه الشهادة عند المتلقين مسوَّغة. إلا أن شرطاً أساساً يبدو مفقوداً في ذلك المشهد، دافع عنه إبستمولوجيون كُثُر في مسائل مشابهة بإبستمولوجيا الشهادة؛ وهو أن يكون ذا الامتياز المعرفي في حضوره المباشر مستعدّاً لتصحيح الشهادة حال وجدها خاطئة، وذلك حتى تتحقق المنفعة الإبستيمية epistemicbenefit؛ أي يكون الشاهد (ترامب في المثال السابق) تحت إقرار/نفي الخبراء المباشر، لا العكس[2].

إن الموقف الشكي الذي تبناه/ يتبناه الإبستمولوجيون وعلماء الأخلاق تجاه السياسات المتخذَة في الجائحة ليس استعلاءً معرفياً أو نفياً للإرجاء المعرفي للخبراء كما يروّج البعض(Levy & Savulescu, 2020)، بل لرؤيتهم غياب ذلك الأساس المتين المتمثل في استقرار الرأي العلمي، الأمر الذي يُغيِّب إمكان الإرجاء المعرفي ويجعل مساهمة كلّ من الفلاسفة في بنائه مجدداً تلعب دوراً هاماً كما الحال مع مساهمات خبراء الحقول الأخرى؛ وذلك للوقوف في النهاية وجهاً لوجه أمام الوباء ومعرفة ملامحه بدقة وطرق التعاطي معه من أجل البشرية.

تتطلب الأفعال المسؤولة شروطاً معرفية (Fischer &Ravizza, 2000)، وإن أهمية قرارٍ ما تتناسب طردياً مع واجباتنا المعرفية؛ إن قراءتك الحثيثة قبل قرارك شراء جهاز إلكتروني صغير لا تستوي من حيث الواجب المعرفي مع بحثك معلومات في مؤهلات مربية طفلك، أو تقصّيك معلومات في منطقةٍ ستنتقل

---

[2]نلحظمن هذه الزاوية أهمية الدور الإبستمولوجي الذي يؤديه الخبراء/المختصون المستعدّون للتدخل والتصحيح في المجتمع، وأهمية صناعة بيئة تكفل قيام مجتمع علمي حرّ يستطيع تمرير امتيازاته المعرفية داخل الإطار السياسي.

عائلتك إليها. حيث إن أنت أهملت الأخيرَين سيكون سلوكاً غير مسؤول. في سياق الشهادة، سيكون على متلقي الشهادة، وهو في هذا السياق صانع القرار، واجباً إبستمولوجياً أن يختار الأكثر كفاءة لإسناد المسؤولية المعرفية عليه من الخبراء، كما هو واجب المريض أن يختار طبيباً مناسباً وإن لم يعرف بنفسه الكثير عن الطب أو حتى يملك الحد الأدنى من معرفةٍ فيه، وذلك لأن الشاهد كما طرح غرين (2005) وكيل إبستمولوجي لدى متلقي الشهادة، كما يكون في مشهد الجائحة خبراء الأوبئة والأطباء والبيولوجيون وكلاء إبستمولوجيين لدى كلّ من صناع القرار وغير الخبراء ممن يتلقون شهاداتهم.

قد يتمنى صانع القرار والفاعل السياسيّ، مع اللايقين في ظل الوباء، إمكان اتباعه المبدأ الاحترازيّ، ذلك المبدأ الذي ينصّ على أننا حالما خُيِّرنا بين عدة خيارات، فإنه يتوجب علينا دائماً تجنب أي خيارٍ قد يؤدي إلى ضرر جسيم (Clarke, 2005)، وهو المنهج الذي قد بنى مَن دافعوا عن الحجر الكُليّ رؤاهم عليه، إلا أن ذلك المبدأ لا يتحقق إلا عندما تكون النتائج المتوقعة، من أضرار جسيمة وطفيفة، معلومة. حتى لحظة كتابة هذه الورقة؛ لا يبدو الضرر الاقتصادي الجسيم بعيد المدى معلوماً على نحو الدقة.

من الحلول المطروحة والتي مال إليها معظم المختصّين في الخبرة Expertise في مواجهة اللايقين وغياب الإجماع العلميّ؛ محاولة تحديد الأكثر موثوقيّة من الخبراء الأكفاء. التحديد الذي كان قد طور الفيلسوفان غولدمان وإليزابيث أندرسون (Anderson, 2011, Goldman, 2001) معايير له بهدف إمكانية التفرقة بين الخبير الموثوق وغير الموثوق/ أو الأقل موثوقية. ومع ظهور معارضات لهذا الحل (Coronavirus Spread Accelerates Again inGermany, Reuters, 2020)، إلا أن المعضلة التي تواجهنا لا تقع تحديداً في منطقة التفرقة بين الموثوق وغير الموثوق، بل في عملية اتخاذ قرارات في ظل التعارض الحادّ في أقوال أبرز الأكفاء الموثوقين في مجالاتهم؛ نيل فيرغوسون وجون أونيديس في بريطانيا أنموذجاً.

في حين كان على القادة السياسيين وصناع القرار الحِمل الأكثر ثقلاً من المسؤوليات الإبستمولوجية، إلا أن كلاً منا، نحن العموم أو الخبراء في مجالات متفرقة كان له تأثيره الخاص والحاسم، وإن كان عجز المجتمعات العلميّة قد أوقع

الجميع في مأزق عسير وتركهم مشردين في عراء اللايقين المعرفي، فالجميع سيعود من القارِعة إلى تلك المجتمعات ليساهم في نهوض يقينها (الظني) وبناء إجماعها (الغالب) من جديد، وإن كان أبرز عليّة الخبراء قد تضاربت أقوالهم فالزمن بما فيه من التجربة والخطأ كفيل بسد الفجوة. إن مشهد الجائحة وفّر وصولاً محدوداً للفلاسفة وعلماء الأخلاق المعاصرين لها ليروا روابط لم تكن تُطرح إلا بوصفها" أمثلة مضادة"، و"حججاً نظرية"، في النصوص الفلسفية ومعضلات الأخلاق، فكأنما معضلة "العربة" التي تجادل فيها الفلاسفة لقرونٍ، بدَت أمامهم مرأى العين يقودها صانع القرار والخسائر البشرية/الاقتصادية على مرأى الطريق، ولعلّ هذا مما رآه الفيلسوفَان جوليان سافوليسكو ونيل ليفي حين أطلقا على الجائحة في ورقةٍ نشراها هذا العام مسمى'عاصفة إبستمولوجية مثالية'(Levy & Savulescu, 2020).

المراجع:

1. *Levy, N., & Savulescu, J. (2020). Epistemic Responsibility in the Face of a Pandemic. Journal of Law and the Biosciences.*
2. *Steve Clarke, Future Technologies, Dystopic Futures and the Precautionary Principle, 7 Ethics Inf. Technol. 121–126 (2005).*
3. *Chou, Isaac. (2017). Another Defense of Epistemic Responsibility. 10.13140/RG.2.2.21448.78084.*
4. *Julian J. Koplin, Christopher Gyngell & Julian Savulescu,Germline Gene Editing and thePrecautionary Principle, 34 Bioethics 49–59 (2020).*
5. *Plantinga, Alvin, 1993. Warrant and Proper Function. Oxford: Oxford University Press.*
6. *C. A. J. Coady, Testimony: A Philosophical Study (1992); Jennifer Lackey & Ernest Sosa, TheEpistemology of Testimony (2006).*
7. *Candice M. Mills & Frank C. Keil, Knowing the Limits of One's Understanding: The Development of an Awarenessof an Illusion of Explanatory Depth, 87 J. Exp. Child Psychol. 1–32 (2004).*
8. *Leonid Rozenblit& Frank Keil,The Misunderstood Limits of Folk Science: An Illusion of Explanatory Depth, 26 Cogn. Sci. 521–562 (2002).*

9. *Nathaniel Rabb, Philip M. Fernbach& Steven A. Sloman,IndividualRepresentation in a Community of Knowledge, 23 Trends Cogn. Sci. 891–902 (2019).*
10. *John Martin Fischer & Mark Ravizza, Responsibility and Control: A Theory of MoralResponsibility (2000).*
11. *Coronavirus Spread Accelerates Again in Germany, Reuters, May 10, 2020, https://uk.reuters.com/article/uk-health-coronavirus-germany-cases-idUKKBN22M01K.*
12. *Elizabeth Anderson, Democracy, Public Policy, and Lay Assessments of Scientific Testimony, 8 Episteme144–164 (2011); Alvin I. Goldman, Experts: Which Ones Should You Trust? 63 Philos. Phenomenol. Res.85–110 (2001).*

الجائحة العادلة ... أي عدالة في زمن كورونا؟

1-د.رحيمة شرقي 2- هشام قاضي 3- فاروق جباري

4 - جامعة قاصدي مرباح ورقلة /rahima-chargi@hotmail.fr

5 - جامعـــة خمـــيس مليانـــة /مخبـــر التربيـــة والابســـتيمولوجيا

h.gadi@univ-dbkm.dz

6 - جامعـــة باتنـــة 01/مخبـــر حـــوار الحضـــارات والعولمـــة

djebbarifarouk.philo@gmail.com

مقدمة:

يعتبر مصطلح العدالة من أقدم المصطلحات التي عرفها الإنسان منذ القدم فليس من المبالغة التأكيد على أن تاريخ البشرية قد تميز بنضال من أجل تحقيقها على أرض الواقع. وذكر الفيلسوف الإسباني" خوليان ماریاس" " أن القرن العشرين لن يكون مفهوما بدون هذا المصطلح"، ومع ذلك سنحاول رصد وتتبع مفهمة هذا المصطلح بالقيام بعمل تأريخي مفاهيمي علمي، لنحاول فهم ماهية العدالة في المتون الفلسفية المتنوعة التي تحمل رؤى أهم الفلاسفة عبر كل حقب تاريخ الفلسفة إلى تجلي المفهوم الكوروني للعدالة وبروز مفهوم العدالة السائلة معه.

أولا: سؤال العدالة... أرشيفات تاريخية

1-العدالة في الفلسفة اليونانية والفلسفة الإسلامية:

تعتبر الفلسفة اليونانية من أهم الفلسفات الإنسانية التي اشتغلت حول مسألة العدالة، فقد اختلف سقراط عن الفلاسفة الذين سبقوه- فلاسفة ما قبل السقراطين- وركز سقراط في مساءلته الفلسفية على الأخلاق، وتحديدا استنطق سقراط فكرة ماهية الفضيلة ويعتقد أن العدالة لا يفرزها القانون بل يفرزها مبدأ مثالي في ذات الإنسان، فالعدالة السقراطية جاءت مناوئة لماهية العدالة السوفسطائية التي تبنى على المبدأ الطبيعي عكس العدالة السقراطية التي تؤسس على مبدأ تفرضه الفضيلة والأخلاق التي تنبع من الذات، فالعدالة فضيلة الفضائل عند سقراط ولذا تفطن سقراط إلى خطورة ربط العدالة بالطبيعة في

الخطاب السوفسطائي، كما أن العدالة السقراطية تصطدم بفكرة المساواة المطلقة فينتج عنه ضعف المجتمع الأثيني، وهذا ما يترجم ثورة سقراط على الخطابات السوفسطائية ودفاعه المستميت عن فلسفة القول بالأخلاق والقانون كأساس لسعادة المواطن. (بوعرفة، 2008، ص23)

أما مفهوم العدالة عند أفلاطون فهو يختلف عن مفهمة العدالة عند أستاذه سقراط، فمن خلال كتابه الجمهورية يتجرد أفلاطون من تعريفات السافلة والغير الأصيلة التي تعبر عن ظلال وأوهام الحقيقة، وتلك المفاهيم الثلاثة تظهر على النحو التالي:

أولها أن العدالة تكمن في إتقان عمل الإنسان وفق الموروث الاجتماعي، وثانيها كون العدالة هي تحقيق مصلحة الأقوى وفق شهوة السيطرة وسياج القانون، أما المعنى الثالث للعدالة فيعنى به اتفاق الناس فيما بينهم على أن لا يظلم بعضهم بعضا وأن يحترم الكل الكل، إن العدالة الأفلاطونية هي مفهوم متعالٍ صورتها الحقيقية في الإيدوس المتعالي، إنها مع الحكمة والشجاعة والعفة ولكي نتصورها تصورا حقيقيا لابد أن يكون استحضار العدالة ضمن آلية التذكر الأفلاطوني ثم ضمن النسق الهندسي الذي يفرضه اللوغوس علة موضوع التذكر(بوعرفة، 2008، ص24-25).

أما العدالة في الفلسفة الأرسطية تتأسس على فكرة الوسطية الذهبية، فالقانون في حد ذاته ضروري لكنه غير كاف لتحقيق العدالة مما يجعل تصحيحه وتعديله أمرا ضروريا وهذا ما يسميه أرسطو العدالة كإنصاف ومن ثمة يعتبر أرسطو أن كلا من العادل والمنصف خير بالرغم من أن المنصف أحسن من العادل فهو المصحح للعدالة الناموسية وليس عدلا بحسب الناموس ذلك أن الناموس أمر عام، وأن ثمة أحوال نوعية لا يمكن فيها وضع صياغة عامة تنطبق عليها بدقة (أرسطو، 1924، ص640).

كما يخصص أرسطو المقالة الخامسة في كتاب الأخلاق في دراسة العدل وماهية العدالة مشيرا إلى أن العدالة هي تلك الهيئة التي منها يكون فاعل الأشياء العادلة على عكس الظلم الذي يقصد به السلوك غير العادل، والعادل من يطيع القوانين

والظالم من يخالفها وهدف هذه القوانين تحقيق الحماية والسعادة للجميع (أرسطو، 1924، 604).

أما مفهوم العدالة في الفكر الإسلامي يختلف عنه في الفكر اليوناني، فنلاحظ عند الفارابي أن العدالة تقترن بفكرة المساواة، والمقصود ها هنا بالمساواة النسبية لا المساواة المطلقة، لذلك فهو يربط بين العدل التوزيعي والعدل القانوني، والحاكم أو القاضي هو المسؤول على حفظ حقوق الناس، فالعدل في مدينة الفارابي الفاضلة يأتي على يد الحاكم/ الفيلسوف(بوعرفة، 2008، ص112).

يعتبر العدل هو التغالب في منظور الفارابي والعدل هو أن يقهر ما اتفق منها والمقهور إما أن يقهر على سلامة بدنه أو هلك وتلف، وانفرد القاهر بالوجود أو قهر علة كرامته وبقي ذليلا مستعبدا والعدل الطبيعي هو الفضيلة وهذه الأفعال هي الأفعال الفاضلة فإذا جعلت الخيرات للطائفة القاهرة فينبغي أن يعطي من هو أعظم غناء في الغلبة على تلك الخيرات من تلك الخيرات الأكثر(الفارابي، 1990، ص134).

أما فيلسوف قرطبة الوليد بن رشد يركز علة فكرة العدل المدني الذي يبنى على الإنصاف، فالعدل يكون بين قوى نفس الفرد أو بين الفرد والمدينة، وفي هذا السياق يقول ابن رشد:" لقد تبين من ذلك أن العدل في نفس الفرد وهو بعينه العدل في مدينة، وبذلك يكون الظلم والجور في نفس الفرد هي بعينها الظلم والجور في المدن الجاهلة" (ابن رشد، 2011،ص120).

وقد حاول ابن رشد في كتابه الضروري في السياسة الدفاع عن فكرة المساواة بين النساء والرجال الذين يشتركون في الغاية الإنسانية والأفعال الإنسانية ويعبر قائلا:" فإذا كان ذلك كذلك، وكان طبع النساء والرجال طبعا واحدا في النوع، وكان الطبع الواحد بالنوع يقصد به في مدينة العمل الواحد فمن البين إذا أن النساء يقمن في هذه المدينة بالأعمال نفسها التي يقوم بها الرجال، وبما أنهن أضعف منهم فقد ينبغي أن يكلفن من العمال بأقلها مشقة." (ابن رشد، ،2011،ص120) ويؤكد ابن رشد على أن العدل يتحقق بالتساوي بين الرجال والنساء.

2- العدالة في الفلسفة الحديثة:

يعتبر الفيلسوف الألماني" كانط" من أهم الفلاسفة الذين تفلسفوا حول مسألة العدالة، وربط فكرة العدالة بفكرة الإلزام الأخلاقي، فالأخلاق عند كانط تتميز بكونها ضرورية مطلقة وعلى الإنسان الإلتزام الذاتي وطاعة القوانين الأخلاقية وفي هذا الصدد يقول كانط:" إن كل الإنسان لابد أن يسلم بالقانون الأخلاقي، أعني قاعدة الإلزام... هذه القاعدة ينبغي أن تلتمس في طبيعة الإنسان لا في ظروف العالم الذي وضع فيه، بل لابد من البحث عنها بطريقة قبلية في تصورات العقل الخالص وحدها (كانط، 1980،ص8).

فمبدأ الحق عند كانط هو شامل لجميع البشر والمستمد من الحتمية المطلقة من خلال مفهوم الإرادة الخيرة التي توجه الإنسان نحو غايات وأهداف لذلك يعتبر كانط أن القانون الأخلاقي أمرا واجبا ومن الضروري فرضه وإجبار الآخرين على طاعته. يقول كانط:" القانون هو مجموع الشروط التي يمكن أن توحد حرية الفرد مع حرية الآخر وفقا لقانون كلي للحرية (بدوي، 1979،ص26).

ويرى فيلسوف العقد الاجتماعي" جون جاك روسو" أن الناس أحرار ومتساوون بالطبيعة، لكن هذه الحرية والمساواة تطرح مشكلا إذا كان هؤلاء الأشخاص يجهلون بعضهم البعض خاصة إذا سيطرت عليهم أنانيتهم سيحدث حتما اختلال في الوضع الذي كانوا عليه، لذا يقول" روسو" في تعقيبه على ما ذهب إليه" هوبز" " كان عليه أن يقول عن حالة الطبيعة هي الحالة التي يكون فيها العناية ببقائنا أقل ضررا ببقاء الآخرين فإنها تكون النتيجة أصلح الأحوال للسلام وأكثرها ملائمة للجنس البشري، لكنه يقول العكس لأنه أدخل خطأ فيما يحرض عليه الإنسان المتوحش لحفظ بقائه فالحاجة لإشباع الكثير من الأهواء التي هي من صنع المجتمع والتي أوجبت وجود القوانين (روسو، 1991،ص68).

انطلاقا من عرضنا لأهم المواقف الفلسفية السياسية لأبرز فلاسفة الفكر السياسي الحديث، يمكن القول إن إشكالية العدالة أصبحت تتعلق أساسا بسؤال الأنسنة وفاعلية الذات الإنسانية في بناء تصورات جديدة مغايرة للطرح المدرسي السكولائي فبمقدار الإنسان أن يسن قوانين ورؤى يدافع بها عن حقوقه بعيدة عن التأويلات الدينية.

3- العدالة في الفلسفة السياسية المعاصرة:

يعد الفيلسوف الأمريكي المعاصر" جون راولز" من أبرز المنظرين في الفكر السياسي المعاصر ويعتبر كتابه" نظرية العدالة" الذي صدر سنة 1971 من أروع ما كتب في فلسفة العدالة، فالعدالة حسبه تعتبر حقا ومطلبا حيويا في الحالة الإنسانية الطبيعية عموما فضلا عن الحالة السياسية، فالموضوع الرئيس لنظرية العدالة في منظور" راولز" هو البنية القاعدية للمجتمع مركزا على دور المجتمع والجماعة في بناء مجتمع العدل عكس" نوزيك" الذي يركز على الفرد (الركح، 2013،ص1217).

ويؤسس" راولز" مبادئ العدالة على شروط وقواعد ينتفع منها الفرد والمتمثلة في الخيرات الأولية، أي تلك المتعلقة بالبنية القاعدية وهي إجمالا حقوق وحريات متعلقة بالمؤسسات السياسية من جهة المداخيل والثروات المترتبة عن البنى الاجتماعية والاقتصادية، فالمبدأ الأول في نظر راولز هو مبدأ المساواة في الحرية والمتمثلة في الحريات السياسية مثل حرية التعبير وحرية التفكير.. إلخ، وتعتبر هذه الحريات كحقوق اجتماعية أولية ينصب عليها الدستور، أما المبدأ الثاني فهو مبدأ الفرق ويتعلق أساسا بتحديد قواعد توزيع المداخيل والثروات وكيفية الالتحاق بالوظائف الحكومية وبمراكز المسؤولة في الدولة، وبالتالي يجب أن تنظم الفروق الاجتماعية والاقتصادية بطريقة نستطيع من خلالها أولا ضمان أن تكون في صالح كل شخص، وثانيا أن ترتبط بمواقف ووظائف مفتوحة للجميع (الركح، 2013،1217).

لقد أسهمت أفكار" راولز" في حوار معياري مثمر في منتديات عديدة، ولا بد لنا من الإضافة أن راولز نفسه توصل تدريجيا إلى نتيجة مفادها أن فكرة الوضع الأصلي تفترض نظرة خاصة إلى الإنسان بوصفه كائنا عاقلا، وأنه يحسن تفضيل نظرية سياسية مبنية على فكرة إجماع متشابك العقائد الشاملة والمختلفة (غنار ونيلز، 2012، ص929)

ويرى راولز أنه إذا أردنا أن نحقق مجتمعا مسالما من مواطنين يعتنقون نظرات مختلفة حول المسائل الأساسية، وجميعهم عقلاء[أحرار ومتساوون]، علينا أن نعرف أننا لا نقدر أن ندخل معتقداتنا الشخصية في السياسة، فعلينا بدلا من

ذلك أن نشيد المجتمع على إجماع متشابك للمواطنين الأحرار المتساوين، هذه النظرة تؤسس لفلسفة مجتمع عادل اختصر فيها الإسهام الفلسفي بالمقارنة مع نظرية العدالة المبنية على فكرة الوضع الأصلي، وقد سمى راولز هذه النسخة الجديدة لنظرية العدالة بـ" الليبرالية السياسية" وهو عنوان كتابه المشهور الذي صدر سنة 1993.(غنار و نيلز، 2012، ص929)

أما إذا عرجنا على مواطنه الآخر الفيلسوف الأمريكي" نعوم تشومسكي" السياسي اليساري والمناهض لسياسة النظام الأمريكي فكريا وإديولوجيا منذ حرب فيتنام، فبعد هجمات الحادي عشر من أيلول 2001 ازدادت الحملات الهستيرية الأمريكية في شتى الميادين عسكريا واقتصاديا ودينيا وثقافيا وإعلاميا على كل ما هو إسلامي وتنامت ظاهرة الإسلام وفوبيا فحاول تشومسكي مقاربة هذه الظاهرة مقاربة سياسية ناقدا لسياسة النظام الدولي الجديد الذي تتزعمه الولايات المتحدة الأمريكية وتحالفها مع الكيان الصهيوني وبعض من دول الغرب، فسياسة النظام الدولي الجديد في منظور تشومسكي هي سياسة اللاعدالة والظلم والهيمنة والقهر للدول الضعيفة.

ويرى تشومسكي أن تحقيق العدالة يبدأ أساسا من القضاء على الظلم وسياسة الهيمنة، فمفهوم العدالة عند تشومسكي واسع وشامل فهناك مآس كثيرة منها وفاة ملايين الأطفال عبر العالم بسبب الفقر وسوء التغذية وانتشار الأمراض التي يمكن الحد منها بسهولة بتخصيص مبالغ مالية مقارنة مع المبالغ التي تصرف في الميدان العسكري دون أن يستفيد منها الإنسان(بوعلي، 2008، ص141).

ولتحقيق العدالة يراهن تشومسكي على إرادة الشعوب وما يقوم به الناس وما يجب إنجازه، فلن يحدث أي شيئ من تلقاء نفسه إذ يجب أن يقوم به الناس كما عليهم إنجاز بقية الحقوق الإنسانية الأخرى، أي عبء التفاني والالتزام والكفاح، أما في غياب ذلك فلن يتحقق شيئ من هذا(بوعلي، 2008، ص143).

وتشومسكي من طليعة منتقدي أسطورة" السوق الحر" تلك الأنشودة المعسولة التي تصب في رؤوسنا عن كيفية اعتبار الاقتصاد تنافسيا ومنطقيا وكفؤا عادلا، إلا أن الأسواق كما يشير تشومسكي غير تنافسية في الغالب وأغلب الاقتصاد

تهيمن عليه شركات عملاقة وتسيطر سيطرة هائلة على أسواقه، وبالتالي لا تواجه أي منافسة من النوع الذي تتحدث عنه الكتب المدرسية وخطب السياسة، بالإضافة إلى ذلك فإن الشركات الكبرى هي في الواقع منظمات شمولية تعمل وفق نظم لا ديمقراطية، وكون اقتصادنا يتمحور حول مؤسسات كهذه يحد كثيرا من قدرتنا على إقامة مجتمع ديمقراطي(تشومسكي: 2000، ص18) الملاحظة المهمة في تصورنا أن نعوم تشومسكي وجه سهام النقد للأديولوجيات الغربية المتمثلة في نظامها الذي حاول التهام كل الدول الضعيفة، مع علم أن تشومسكي درس وتكون داخل هذه الحضارة فهو معروف بجرأته وشجاعته ونزوعه نحو العدالة وصاحب مواقف تاريخية وحامل لمشروع طموح همه الدفاع عن العدالة والقيم الإنسانية في زمن انسحاب العديد من المثقفين عن التزاماتهم الأخلاقية الكبرى.

ثانيا- العدالة الاجتماعية بين الافتراس النيوليبرالي ونوستالجيا الاشتراكية في زمن الجائحة:

نحاول من خلال هذا العنوان التركيز على موضع وموقع العدالة في الراهن النيوليبرالي الذي حاول افتراس كل القيم الإنسانية النبيلة من عدل ومساواة وتضامن... إلخ ففي زمن جائحة كوفيد19 اهتزت الأنظمة النيوليبرالية على وقع اللامتوقع بعد ظهور فيروس غير مرئي كشر عن أنيابه وأسقط كل الأقنعة وفضح هشاشة المنظومات الصحية النيوليبرالية التي كانت تتشدق في وقت قريب بصلابة ومتانة منظوماتها الصحية والطبية، مما جعل العديد من فلاسفة الغرب أن يستحضروا في خطاباتهم الحنين للقيم الاشتراكية كمخرج من المأزق الوجودي الذي فرضه علينا الفيروس، لذلك ارتأينا استدعاء مقاربتين مهمتين في هذا الشأن.

1- مقاربة سلافوي جيجك/ شيوعية الكوارث كترياق لرأسمالية الكوارث:

سلافوي جيجك فيلسوف سلوفيني ماركسي معاصر يوظف مناهج التحليل النفسي في مقاربته لقضايا مختلفة كالعنف والثقافة والإديولوجيا وغيرها، وهو من أبرز الفلاسفة المناهضين للرأسمالية المتوحشة، ويستند جيجك في مدارسته للإشكاليات الاجتماعية على منهج التحليل النفسي اللاكاني الذي طوره جان لاكان، ويعتقد جيجيك أن جائحة كورونا هي المسمار الأخير الذي دق في نعش

النظام الرأسمالي، فالنظام الرأسمالي المتوحش في منظور جيجيك حول الإنسان إلى مجرد آلة تعمل دون توقف من أجل الإنتاج والاستهلاك جعلت الإنسان مستلبا ومستهلكا ماديا، فالإنسان المعاصر اجتاحه الإعصار الرأسمالي المفترس وحوله إلى مجرد رقم للاستهلاك وكسب المال، ويعتقد جيجك أن الإنسان المعاصر يعيش في واقع وهمي أصيب بحالة التيه والاغتراب نتيجة طوفان السلعية والشيئية، فصورت الرأسمالية المفترسة للإنسان المعاصر مشهدا إغرائيا بكونه يستطيع أن يحصل على كل ما يرغب كالثروة والرفاهية والنجومية والسفر... إلخ وأصبحت هذه المبتغيات غايات أسمى، وبالفعل' استطاعت أقلية من الناس تحقيق ذلك أما الأغلبية فهي تعيش في حالة الاختناق المميت أو الاندماج دون أن يشعر أو انفجار والتشظي عبر اللجوء إلى أمور غير أخلاقية وغير قانونية لتحقيق هذه الغايات التي تنشدها الحضارة المادية الاستهلاكية(حسنابي، 2020)

وما يبرهن على سيادة المنطق الاستهلاكي المفترس وسيطرته على نفوس وسلوك الإنسانية المعاصرة هو الانتشار المهول والصارخ لتلك الأدوية المهدئة للأعصاب التي يتناولها الإنسان لمواجهة كمية الضغوط التي يعيشها في حياته اليومية، فهذه حقيقة النظام الرأسمالي الذي وظف العلم لخدمة الربح والأرقام التسلعية، ولم يهتم هذا النظام المفترس بأي جانب أخلاقي أو إنساني، جعل هذا النظام الناس متفردين، متباعدين، متفرقين، متصارعين من أجل المصلحة.

ويرى جيجك أن هذا النظام الفج ضرب القيم الأخلاقية بالدرجة الأولى ليصبح الإنسان كائنا مسجونا لمصلحته ومصلحة الطبقة المالكة للمال والنفوذ والمتحكمة في السوق العالمية، وما يحدث اليوم في زمن كورونا حسب سلافوي جيجك هو أنها فضحت هشاشة النظام الرأسمالي وانحادره الأخلاقي والقيمي، وأظهرت فشل هذا النظام وعجزه البنيوي في التعامل مع هذه الجائحة، أما على المستوى الفردي فقد أرجعت الجائحة البشر إلى حجمهم الطبيعي بعد ماكانت تعيش في القريب على وقع الإنجازات العلمية والتقنية الباهرة، كما أن هذا الفيروس عرى وكشف كل الزيف والوهم الذي كان الغرب يتبجح به في خطاباته وهو في حقيقة الأمر خطاب يؤسس للاعدالة والهيمنة وسحق المستضعفين والطبقات الفقيرة، فجاءت أزمة

كورونا لتسقط ورقة التوت التي تستر عيوب النظام الرأسمالي المتوحش (حسنابي، 2020)

ويصل سلافوي جيجك إلى استنتاج أقل ما يقال عنه أنه استنتاج جريء مفاده أن النظام الرأسمالي وصل إلى نهاية الطريق بمعنى أنه يجب علينا أن نفكر في نظام عالمي جديد عادل يدافع عن قيم العدالة ويقضي على كل الفروقات والطبقيات والعنصريات، يكون مقاوما لما تركه الوحش الرأسمالي من قيم بائسة، فبعد هذه الجائحة يجب علينا كشعوب أن نعزز تعاوننا مع بعضنا البعض لتأسيس النظام العالمي لمجابهة الأخطار الوجودية والظواهر الطبيعية والصحية ولن يتحقق ذلك حسب جيجك إلا بإنشاء خطة طريق جديدة نغير فيها تغيرا راديكاليا للقيم البرجوازية الفاسدة وجلب قيم- مكانها- تنشد الكرامة والقيمة الإنسانية في عالم تسوده العدالة والرحمة والمحبة ونبذ كل أشكال الصراع والحروب والتطاحن.

والبديل الذي يقدمه جيجك لمجابهة هذه الكارثة الإنسانية هو استدعاء فكرة "شيوعية الكوارث" لمجابهة هذه المخاطر وعلى رأسها مخاطر الفيروس التاجي، يستحضر جيجك فكرة الشيوعية الجديدة وهي كما يقول" ليست حلما غامضا، ولكن ببساطة مسمى لما يحدث بالفعل أو على الأقل ينظر إليها الكثيرون على أنه ضرورة، وهي تدابير يجري النظر فيها بالفعل وحتى فرضها بشكل جزئي، إنها ليست رؤية لمستقبل مشرق ولكن شيوعية الكوارث بوصفها ترياقا لرأسمالية الكوارث (جيجك، 2020، ص09).

2-مقاربة إدغار موران/ الفيروس اللامتوقع وتعرية الوحش العولمي الأبيض:

يستخلص الفيلسوف الفرنسي المعاصر" إدغار موران" أن الجائحة كشفت وعرت النظام العولمي المتوحش الذي أنتج في نظره مشكلتين أساسيتين لابد من علاجهما بشكل عاجل، أولها مشكلة العقيدة العلمية المزعومة المسيطرة على أغلب بلدان العالم، والتي تحصر كل سياسة في الاقتصاد، وثانيها مشكل إدارة دولة ذات بيرقراطية مهولة خاضعة في قمتها لضغوط ومصالح تعطل كل إصلاح(العيادي، 2020،ص114).

يحاول موران بحسه الفلسفي النقدي استخلاص أن جائحة كوفيد19 فضحت العجز البنيوي وقصور نظام العولمة الذي أنتج معظلتين أهمهما المعضلة الإيديولوجية العلمية المزعومة التي يتشدق بها الغرب، والمعظلة الثانية تتمثل في تحكم البيروقراطية في مفاصل تسيير الدول الخاضعة لكل الضغوطات، وبالإضافة للهث وراء المنافع الظرفية التي تعيق أي عمل تنموي.

وكما هو معروف على الفيلسوف إدغار موران تقديم رؤى استشرافية للمستقبل، يحاول أن يستنطق هذه الجائحة ليستخلص منها دروسا للمستقبل، فيعتقد موران أن لهذه الجائحة مزايا كثيرة أهمها أنها أنعشت الذاكرة بعد أن طمست الأوبئة الكبرى التي شهدها العصر الوسيط، حيث ظن الإنسان أنه كائن جبار فرض سيطرته على الطبيعة سيطرة مطلقة، كما أيقظت هذه الجائحة روح التضامن، ودفعت على مقاومة الفردانية الأنانية، ونبهتنا إلى اختلاف الأوضاع البشرية وفداحة التفاوت والشكوك العلمية، والمطلوب اليوم رفع التحديات التي تطرح على الإنسان منها تحدي العولمة المأزومة والتحدي الوجودي والسياسي والرقمي والإيكولوجي والاقتصادي (العيادي، 2020، ص14).

إن مناهضة موران لمقولة التقدم الغربي سببها الرئيس يعود لتصورنا الساذج والبسيط والمختزل لتفسير حدوث الأزمات فنحن نعتقد أن الماضي معلوم يقنيا والحاضر معلوم، وبالتالي يمكن التنبؤ بالمستقبل بناء على ماض معلوم وحاضر معلوم لكن يقرر موران ويزيد من عمق سطحيتنا لأننا نعتقد أن تفسير الأزمات رهين بمبدأ الحتمية لكن هناك اللامتوقع واللايقني يضفي حضوره الصادم علينا مثل صدمة الفيروس التاجي على البشرية وهذا ما يجعلنا نقف في حالة خوف من المستقبل.

فالتصور التبسيطي يعتقد أن الماضي والحاضر معلومان، وأن عوامل التطور معلومة، وأن مبدأ العلية مبدأ خطي، والمستقبل يمكن انطلاقا من ذلك التنبؤ به... فإذا كان الماضي معلوما والحاضر معلوما، و المستقبل يمكن أن يكون موضوع علم أي التنبؤ به... والواقع أن هناك دائما عملية تفاعل تبادلي بين الماضي والحاضر؛ حيث إن الماضي لن يسهم في معرفة الحاضر فحسب، وهو أمر بديهي،

بل إن تجارب الحاضر تسهم في معرفة الماضي، من هنا تعمل على تغييره(بلعقروز، 2014،ص320).

حاولت المقاربة المورانية إن جاز التعبير تشخيص الوضع الخطير الناتج عن سياسة المركز الأوربي والأمريكي والذي يمشى وفق فلسفة أنا ولا أحد أو كما يعبر هيغل الغير لا أحد، فهذه الرؤية المتعالية والمتركزة حول ذاتها نتج عنها وضع أقل ما يقال عنه أنه وضع يفصح عن قلق وجودي ومستقبلي للإنسانية وما يؤكد ذلك اجتياح الجائحة الجديدة للعالم بأسره لذلك يدعو موران إلى ضرورة وجود حلول مستعجلة.

ثالثا- كورونا ونحت مفهوم العدالة السائلة:

تعتبر العدالة من المقومات الأساسية التي تبنى عليها كل حضارة متقدمة، فهي مظهر من مظاهر الرقي الاجتماعي، والتطور الحضاري، والتشبع بالقيم الدينية والأخلاقية. ونحن كأمة إسلامية نشكل أمة العدالة ولكن للأسف العدالة عندنا مفقودة سائلة، أو تشهد هشاشة وضعف على مختلف الأصعدة، ليس لأننا لا نملك قواعد متينة لبنائها، أو لأنه ليس لدينا محاكم أو قوانين عادلة داخل منظومتنا القضائية. **وإنما لا نملك الفرد الذي يمكن أن تكون له قابلية لتكريس العدالة** وهذا طبعا ليس راجعا لعدم تشبع الفرد بقيمها، أو جهله ماهيتها، ولكن الأمر مردّه للمنظومة ككل بداية من الأسرة إلى التربية في مختلف مؤسسات التنشئة؛ حيث تغيب فيها مظاهر العدالة أو قد تنعدم في بعض الأحيان، لهذا فالفرد يفقد بوصلة ما يشكل حقيقة عدالة أو ما يمكن القول عنه حقا إنه فعل أو سلوك العدل.

نحن داخل الأسرة أو المجتمع الصغير لا نرى مظاهر العدل بين أفرادها، فالأم أو الأب، أو كلاهما قد لا يعدل بين أبنائه عاطفيا أو سلوكيا أو ماديا، وقد لا يكون عادلا في بعض الأحيان في كل شيء. والأمر نفسه يحدث داخل جدران المدرسة في بعض الأحيان. فنكرس فعل العنف الرمزي اللّا عَدَالِي بين الأبناء أو الطلاب **فنصنع جيلا لا يؤمن بالعدالة ولا يسعى إلى تحقيقها**؛ لأننا عودناه في سلم قيمنا بأن العدالة ليست ضرورية، أو تقع في قاع سلم القيم الاجتماعية- بالرغم من أن ديننا الحنيف يضعها في قمة السلم القيمي للمجتمع -، والأخطر من ذلك يتناول

دروسا في التربية الإسلامية حول أهمية العدالة والإنصاف ولكن لا يرى لها أي وجود على أرض الواقع، فمن هنا نفشل في تربية وتكوين نشء يمكن أن نعول عليه لبناء أمة عادلة بالرغم من أن العدالة تشكل أحد أعمدتها الحضارية.

وهذا الأمر ينطبق أيضا على الدول الغربية؛ فبالرغم من أنها تفوقت علينا كثيرا في منظومتها القضائية والتشريعية، حيث صنعت نظاما قضائيا يمكن من خلاله متابعة رئيس الوزراء، أو حتى رئيس الدولة لتطبيق القانون عليه بصفة عادلة كما يطبق على جميع المواطنين، ولكن هل فعلا الغرب استطاع أن يبني عدالة مثالية كما نعتقد؟ أم أنه يظهر لنا فقط بأن تلك الأمم أفضل حالا منا؟

إن العدالة الغربية هي عدالة سائلة لا تحقق معنى الإنصاف الذي يشكل روح العدالة وكينونتها وماهيتها، ولقد أثبتت المنظومة العالمية التي يقودها الغرب، والنظام الدولي السائد الذي تشكل قواعد لعبته القوى الكبرى والمؤسسات العابرة للقارات، بعدهم التام عن أن يكونوا عادلين ومنصفين. فإذا عرفوا معنى العدالة مع شعوبهم فهم لا يعترفون بها بين الأمم، لأنهم تمكنوا من السيطرة على العالم بوسائل لا أخلاقية وبطرائق غير عادلة، فلو كانوا منصفين لأنصفوا فلسطين، ومسلمي الإيغور بالصين، وأقلية الروهينغا في بروما. فالصمت الممنهج أمام جرائم الإبادة الجماعية والتطهير العرقي للمسلمين في مختلف بقاع العالم التي نشاهدها اليوم بحسرة وبعجز تام أمام سكوت وسكون المنظمات الدولية يدل بصراحة أن العالم يعيش مرحلة الفراغ الأخلاقي، والأنانية المفرطة، والتعدي اللامحدود على قيمة وحياة الإنسان. **فما بعد الحداثة كل شيء أصبح له قيمة إلا الإنسان تراجعت قيمته**؛ وهذا لأن الإنسان نفسه أصبح لا يقدس المعنويات والقيم الروحية بل أصبح يؤمن بالمال والنجاح الفرداني ولو على حساب العائلة، أو المجتمع، أو حتى على حساب معتقداته.

فحقوق الإنسان، والقانون الدولي الإنساني، ومحكمة العدل الدولية مجرد ضَوْمَنة يلعب بها لاعبون مراهقون، أنانيون، ولكن يملكون السلطة والقوة السياسية التي تقرر ما هو عادل وما هو غير عادل؟ من يمكن محاسبته ومن لا يمكن متابعته؟ لهذا فكل الدول الضعيفة تدفع ثمن حماقة الدول القوية وعجرفتها.

ولكن أمام الجائحة سقطت أقنعة جديدة حول أزمة العدل، والتوزيع العادل للثروات، وتكافؤ الفرص، فالجائحة أظهرت عمق جراح طبقات الظل في كل المجتمعات، وكشفت مدى هشاشة البُنى الاجتماعية، والرعاية الصحية. فالكثير من الناس يعتقدون أن الجائحة كانت عادلة من حيث إنها تمارس الموت العادل، أو الانتشار العادل، وقد توصف كورونا بالوباء العادل لأنها مارست عدوانيتها على كل الشعوب دون استثناء، وكل الأفراد بغض النظر عمن يكونوا أو لأي طبقة ينتمون.

فكورونا كشفت أن هناك شق كبير من المجتمع منسي ولا يملك أدنى حق من حقوقه المدنية، يعيش العزلة والفقر والتهميش، وأمام مختلف مظاهر العنف الرمزي تزداد معاناته يوما بعد يوم، لنستفيق أمام الحجر الكلي أننا غير قادرين على توفير الرعاية الاجتماعية والصحية لكافة فئات المجتمع.

فمن مظاهر العدالة السائلة التي عشناها في الحجر وفرضتها علينا الجائحة أن هناك الكثير من فئات المجتمع لم تجد لقمة عيش، بمقابل عجز بعض الدول تغطية الخدمات الاجتماعية على كافة الأحياء والمناطق المعزولة، وهنا كان على العامل اليومي أن يدفع ثمن ذلك، فلا ضمان اجتماعي، ولا تغطية صحية، ولا حتى العمل لأجل توفير قوت يومه.

إننا اليوم في عصر العدالة السائلة، الحقوق السائلة، والإنسان السائل. إنسان ما بعد التنوير. **إنسان اللّامعنى. لأن اللّامعنى أصبح إيديولوجيا تدافع عليه الكيانات التي تتاجر باللّامعنى وجعلت للّامعنى سلعة مربحة أمام إنسان مفروغ من المعاني**. فنحن نشهد اليوم عصر الكوجيتو المجروح على حد تعبير بول ريكور، أو نشهد عصر الانتحار الجماعي للقيم، لتكون لدينا مقابر جماعية لدفن القيم الأخلاقية، ولكل ما يملك معنى وقيمة في حياة الإنسان معتقدين أن الإنسان يمكن أن يعيش دون قيم، ودون دين. ولكن في الحقيقة كما يحتاج الإنسان لوطن يحتضنه، يحتاج إلى دين يعتقده ويدافع عنه، فكما هو مستعد لأن يموت من أجل وطنه، فهو مستعد أن يموت لأجل معتقده.

إن مفهوم العدالة ليس ثابتا ولا جامدا. بل هو لين ومطاطي. يمكن أن يتشكل وفق الأوضاع الاجتماعية والسياسية والاجتماعية التي يعيشها الأفراد. ونظرة

الإنسان إليها تختلف من حضارة إلى أخرى، فقديما كانت العدالة تعني الفضيلة عند أفلاطون، وأن الحاكم عليه أن يحتكم للعقل والعدل أو كما أطلق عليه بالحاكم الفيلسوف. أما في عصرنا أصبح اللاّعدل عدالة فالمدافع عن حقوقه وأرضه ووطنه يعتبر إرهابيا، والمعتدي تحت ستار الدفاع عن مصالحه وأمنه تعتبر حربه عادلة للأسف.

فالخطابات الحقوقية الخالية من معنى المسؤولية، والمتابعة العقابية. جعلها تشكل لنا **اسفنجة أخلاقية** يمكن لأيّ كان أن يستغلها لمسح وتطهير عثراته الأخلاقية أمام المجتمع الدولي، فهنا تأخذ العدالة ذلك المفهوم الذي قدمه تراسيماخوس السوفسطائي الذي قال:" إن العدل هو صالح الأقوى، ومادام الحاكم دائما هو الأقوى فالعدالة تسير في مصلحته"(أفلاطون: الجمهورية، ص191) وهذا ينطبق على المجتمع الدولي لهذا نلاحظ أن المجتمع الدولي يسرع إلى تشييد قصور للهيئات التي تعلي العادلة، ويضع ترسانة من القوانين والإعلانات والمواثيق التي تحاول فرض العدالة، ولكن كل ذلك بعيد كل البعد عن تحقيق العدالة، ولو نجحت عدالتهم لكانت فلسطين مستقلة بقوة العدالة. ولكن هم ببساطة يفرضون العدالة بمنطق القوة والأقوى، وبقانون المصلحة، فالعدالة لعبة. بل بطاقة صفراء أو حمراء يعرفون متى يستعملونها ولمن يستعملونها، فاللعبة واضحة والجميع- للأسف- يعرف جيدا قواعدها. نحن اليوم وفي ظل الجائحة يجب علينا أن نُؤخْلِق القوانين وأن نجعل العدالة الاجتماعية أكثر أخلاقية .

4-العنصرية السائلة مأزق عدالة الإنسان ما بعد كورنا:

لم تصبح قضية كورونا هي القضية المركزية أمام مشكلة العنصرية بل أصبحت جزءا من المشكلة. بل المرض الحقيقي الذي أصبح يهدد الجسد الأمريكي. هو المرض المطلق مرض العنصرية ورفض التعايش والاعتراف بالآخر. إن العنصرية أصبحت الفيروس الأخطر بالنسبة للإنسان المتحضر، فبالرغم من التطور الكبير الذي حققه الإنسان الغربي في مختلف العلوم وعلى مختلف الأصعدة إلا أنه لم يتمكن إلى حد اليوم أن يتعايش مع التنوع الثقافي، والعرقي،

واللوني. بل لا يزال لديه حساسية مفرطة خصوصا تجاه لون البشرة لاسيما في الولايات المتحدة الأمريكية.

فقبل كورونا لم نعتقد يوما أننا سنشهد ثورة عالمية ضد العنصرية تؤدي إلى سقوط تماثيل عمرت لقرون أمام طرق كبيرة ومفترقات مختلفة، حيث كانت تزين الشوارع كرموز للعنصرية دون حياء لتسقط اليوم شاهدة على نمو الوعي العالمي حول قضية العنصرية.

إن العنصرية السائلة تلك التي يمكن أن نصف بها الأشخاص الذين تمارس عليهم أنواعا مختلفة من العنصرية ليس فقط القائمة على أساس لون البشرة، بل القائمة على أسس مختلفة من العنصرية. **إننا في عصر العنصريات الطيفية، والسائلة**. حيث تمارَس أنواع مختلفة من العنف الرمزي ضد كيانات متعددة وأطياف مختلفة داخل المجتمع الواحد الذي يظهر أنه متماسك ولكنه للأسف يعرف بما **يسمى بالعنصرية الطيفية أو الناعمة**. وهي عنصرية لا تظهر ولكنها أخطر بكثير من العنصرية المعروفة القائمة على أساس عرقي أو لون البشرة. إننا أمام العنصرية القائمة على أساس الأفكار الإيديولوجية أو الأسس الإثنية أو الثقافية. فكل طائفة أو جماعة تستبعد طائفة أو جماعة أخرى، وتمارس عليها أنواعا مختلفة من العنف الرمزي، والعنف الحقيقي. بل كل الأمم تشهد هذا النوع من العنصرية السائلة ومنها أمتنا الإسلامية التي تحاول اليوم أن تمزقها الطائفية بشتى أشكالها. بل أصبحنا في صراعات إيديولوجية وصلت إلى التكفير أو الاستبعاد، فكل واحد يمارس نوعا من العنصرية الايديولوجية، الفكرية، السائلة، تجاه الآخر دون احترام لروح الاختلاف، والتقارب العقائدي، إننا نشهد عصر الاستبعاد أو عصر الاستقواء على الأقليات والطوائف بأسماء مختلفة، وبحجج واهمة. فقد تُباد أقليات كاملة بحجة حماية الأمن أو الهوية. فعلا لقد فشلت الإنسانية في تجاوز قيمة الاختلاف وجعلت منه محنة. وفشلت في اختبار التسامح الديني والعرقي.

كما يمكن إطلاق العنصرية السائلة أيضا على أولائك الذين يساهمون في بناء أوطانهم بدمائهم وأشلائهم، بعرقهم وتضحياتهم، كما هو حال السود في الولايات المتحدة الأمريكية. حيث ساهموا بشكل أو بآخر في نهضة الولايات المتحدة، ولكن

للأسف يبقى جزء كبير من المجتمع ينظر إليهم كدخلاء، أو ينظر إليهم بنظرة استعلاء كأنهم في زمن الرق والعبودية. حيث يحسدون على وصولهم لمراكز علمية كبيرة أو سياسية حساسة. فمأساة العنصرية لا تنتهي ما دامت الحضارات تقام على دماء الشعوب وتبنى على جماجم سادة الأرض الأصليين.

خاتمة:

إن هضم الحقيقة مؤلم بقدر ما هو مهم وضروري، والإنسان لا يناضل لأجل قطعة خبز بل يناضل لأجل كرامته، لأجل إنصافه، وحريته لهذا لن يقبل من يمارس عليه أي نوع من العنصرية وفي أي مكان. ولهذا لا يزال يناضل ليحقق عدالته. عدالة تضمن للجميع الحق في الكرامة والعيش الكريم.

<u>-المراجع:</u>

-ابن رشد. (2011). الضروري في السياسة. بيروت، لبنان: مركز الدراسات الوحدة العربية.

-أبو بكر العيادي. (09 07, 2020). سبل جديدة لاتقاء كوارث مقبلة ، ادغار موران:حان الوقت لنعي النظر في العولمة. مجلة العرب .

-أرسطو. (1924). الاخلاق. (اسحاق بن حنين، المترجمون) الكويت: وكالة المطبوعات.

-الفارابي. (1990). المدينة الفاضلة،مختارات من كتاب الملة. الجزائر: المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية.

-ايمانويل كانط. (1980). ميتافيزيقا الاخلاق. (عبد الغفار مكاوي، المترجمون) القاهرة: الهيئة المصرية العامة.

-جون جاك روسو. (1991). أصل التفاوت بين الناس. (بولس غانم، المترجمون) الجزائر: المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية.

-سكيربك غنار، و غيلجي نيلز. (2012). تاريخ الفكر الغربي. بيروت ، لبنان: المنظمة العربية للترجمة.

-سلافوي جيجك. (2020). جائحة كوفيد 19 ترج العالم. قطر: مركز الجزيرة للدراسات.

-عبد الرحمن بدوي. (1979). ايمانويل كانط، فلسفة القانون و السياسة. الكويت: وكالة المطبوعات.

-عبد الرزاق بلعقروز. (2014). الفلسفة و استشراف المستقبل في منظور ادغار موران، من كتاب الفلسفة و سؤال المستقبل، تأليف جماعي. الجزائر: الجمعية الجزائرية للدراسات الفلسفية.

-عبد العزيز الركح. (2013). جون راورلز من كتاب الفلسفة الغربية المعاصرة، تأليف جماعي. الجزائر: منشورات اختلاف.

-عبد القادر بوعرفة. (2008). سؤال العدالة و حفريات المفهوم، من كتاب العدالة و الإنسان،تأليف جماعي. وهران،الجزائر: منشورات مخبر الابعاد القيمية.

-نابي بوعلي. (2008). اشكالية العدالة في فلسفة تشومسكي، من كتاب العدالة و الإنسان، تأليف جماعي. وهران، الجزائر.: منشورات مخبر الابعاد.

نعوم تشومسكي،. (2000). الربح فوق الشعب ، الليبرالية الجديدة و النظام العولمي. رام الله ، فلسطين: دار التنوير.

-هشام حسنابي. (10 05, 2020). كرونا المسمار الاخير في نعش الرأسمالية،الموقع الإلكتروني Fassetv.ma.

-أفلاطون، (1967)، محاورة الجمهورية، تر:فؤاد زكريا،القاهرة: دار الكتاب العربي.

-هشام قاضي،(2020)، كورونا نحو موت الايديولوجيا وميلاد الإنسان الجديد، دار خيال . الجزائر.

فلسفة علم الأوبئة: بعض مشكلات فيروس كورونا (كوفيد-19) أنموذجًا

الدكتور/ جميل أبو العباس زكير بكري
مدرس الفلسفة الحديثة والمعاصرة/ كلية الآداب/ جامعة المنيا/ مصر
rayanabbass@minia.edu.eg

ملخص الدراسة:

يعرض البحث فلسفة علم الأوبئة كفرعٍ جديدٍ من فروع فلسفة العلم، وكيفية تناولها لبعض مشكلات فيروس كورونا(كوفيد-19) ومعالجتها لها، بوصفها قضية أصبحت مُلِحة تطرح تساؤلات فلسفية عدة؛ منها ما يتعلق بعلم الأوبئة وحاجته للفلسفة- ولا سيما الجوانب الإبستمولوجية، والأنطولوجية، والنظريات العلمية عمومًا- ومنها ما يتعلق بحاجة فلسفة العلم ذاتها للتركيز على علم الأوبئة ومشكلاته الأخلاقية من خلال تجربة فيروس الكورونا العالَمية، ومشكلاته المتعلقة بحياة الإنسان وصحته على هذا الكوكب، والسعي الحثيث لمعالجتها على المستوى المحلي والعالمي.

الكلمات المفتاحية:

علم الأوبئة، فلسفة علم الأوبئة، فيروس كورونا-19، الموافقة، الحياة الصحية، أليكس برودبنت

مقدمة:

جديرٌ بالذكرِ أنّ اجتياحَ فيروس كورونا الجديد Coronavirus للعالَمِ- مع بدايات العَقد الثالث من القرن الحادي والعشرين- قد أحدث خسائر بالغة الضرر بالعنصر البشري على كافة المستويات المادية والمعنوية والأخلاقية؛ كما أحدث خسائرَ بالاقتصاد الدولي والعالمي، وهدد بخراب سياسة العالم وتدابيره- أو على الأقل- أدّى إلى تغيير مسار خططه واستراتيجياته في شتى مناحي الحياة على أحسن تقدير، تلك الخسائر التي ستتضح تكلفتُها بعد انتهاء هذا الوباء العالمي ودحره بإذن الله تعالى.

ورغم الذُّعر الذي أثاره هذا الفيروس- وما زال يثيره حتى اليوم- إلاَّ أنه لم يكن هو الطامة الوبائية الأولى التي هددت حياة الإنسان، إذ ثمة سلسلة من الأوبئة الفتَّاكة حصدت آلاف بل ملايين الأرواح البشرية منها: مرض الطاعون Plague disease، الذي كان وباءً عالميًّا خاصةً في القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين، وقد كانت بداياته" الطاعون الأنطوني" في عام 165 م، و"طاعون جستنيان" الذي انتشر في أنحاء آسيا وأفريقيا وأوروبا بين عامي (541 – 542 م)، و"الطاعون الأسود Atra Mors"(*) في أوروبا فيما بين عامي (1348 - 1349م)، الذي أسفر عن مقتل نحو 20 مليون شخص(فيروس كورونا: تعرف على أبرز الأوبئة التي ضربت العالم وقتلت الملايين، 2020).

هذا بالإضافة إلى وباء" الحمى الصفراء" الذي انتشر في ولاية فيلادلفيا الأمريكية عام 1793م، وتسبَّب في مقتل ما يقرب من خمسة وأربعين ألف شخص، وفي عام 1820 قتلت "الكوليرا" الكثيرين في جنوب شرق آسيا والهند، وقد وصل هذا الوباء إلى الصين(فيروس كورونا: تعرف على أبرز الأوبئة التي ضربت العالم وقتلت الملايين، 2020).

والحقيقة أن فيروس كورونا يُعَدُّ من أكثر الفيروسات إلحاقًا للأذى بالإنسان والحيوان حيث يُسبِّب الأمراض التي تُصيب جهاز الإنسان التنفسي تحديدًا، وقد تطوَّر من المتلازمة التنفسية الحادة الشديدة (SARS-CoV-2)، إلى ما يُعرف بمتلازمة الشرق الأوسط التنفسيّة ((MERS-CoV، وبدأ هذا المرض المستجد في مدينة يوهان الصينية في كانون الأول/ ديسمبر 2019، وأطلقوا عليه اسم كوفيد-19 (COVID-19) كما صنَّفته منظمة الصحة العالمية في 11 مارس 2020 كوباء عالميّ ("فيروس كورونا: تعرف على أبرز الأوبئة التي ضربت العالم وقتلت الملايين" 2020).

ترجع أهمية البحث إلى كونه يلقي الضوء على رُقعة من البحث العلمي والفلسفي المهِّم، الذي نبعَ في الأصل عن الحاجة المُلِّحة لدى الإنسان المعاصر حول معرفة طبيعة هذا الوباء الخطير، وكيفية الوقاية منه، الأمر الذي سيعكس لنا بدوره حاجة علم الأوبئة للفلسفة من ناحية، وحاجة فلسفة العلم ذاتها لتناول الإشكاليات

(*) "Atra Mors": مصطلح لاتيني الأصل يُعني "الموت الأسود".

الناجمة عن الأوبئة العالمية من ناحيةٍ أخرى، تلك التي باتت تجذب اهتمام الإنسان المعاصر، خصوصًا الإشكاليات المتعلقة بصِحّته- ومن ثم بقائه- على هذا الكوكب، والسعي الحثيث لمعالجتها، والتي سنتعرض لها من خلال التطبيق العملي على جائحة كورونا كوفيد-19.

من ناحيةٍ يرى الباحث- على حد علمه واطِّلاعه- أن هذا البحث هو أول دراسة فلسفية في عالِمنا العربي تتطرق إلى موضوع" فلسفة علم الأوبئة"؛ فلم يتناول أحدٌ بالبحث والدراسة هذا الموضوع من منظور فلسفي بحت- باستثناء دراسات علماء الأوبئة والصحة العامة، وشتَّان بين الطرح الفلسفي والطرح العلمي- وذلك لجدته وحداثته.

أما عن إشكالية البحث فتتمثل في التساؤل الرئيس المتعلق بالدور العملي للفلسفة الذي يجب أن تقوم به تجاه ما يحدث في العالم من تغيُّرات نتيجة انتشار الأوبئة؛ ويمكن صياغة هذا السؤال على النحو الآتي: **ما دور فلسفة العلم وأعلامها إزاء الأزمات العالمية المتعلقة بعلم الأوبئة، ولاسيما الوباء العالمي المرتبط بمصير الصحة العامة للعالم؟**

وللإجابة عن هذا السؤال جاءت خطة الدراسة في مسألتين مهمتين متعلقتين بفلسفة علم الأوبئة:

<u>المسألة الأولى:</u> وتشمل الجوانب الإبستمولوجية، والأنطولوجية، والنظريات العلمية عمومًا؛

وتفرعت عنها أسئلة عدة أهمها:

أولًا، ما المقصود بعلم الأوبئة؟ وما فلسفة علم الأوبئة؟ ومتى وكيف نشأت؟ ومَنْ هم أبرز أعلامها؟

ثانيًا، ما علاقة الفلسفة بعلم الأوبئة وقضاياه؟ وكيف انتقلت الفلسفة من المعرفة لذاتها إلى المعرفة من أجل المنفعة؟

ثالثًا، ما الفرق بين فلسفة الأوبئة وفلسفة علم الأوبئة؟

رابعًا، لماذا فلسفة علم الأوبئة؟

خامسًا، ما موضوع فلسفة علم الأوبئة؟

سادسًا، ما فلسفة الكورونا؟

سابعًا، ما المشكلات الفلسفية التي تثيرها فلسفة علم الأوبئة(خاصة الأوبئة العالمية المعدية كفيروس كورونا " كوفيد-19")؟

ثامنًا، هل أسهم فلاسفة علم الأوبئة في حل هذه المشكلات؟

<u>أما المسألة الأخرى،</u> فهي ذات صلة بالمشكلات الأخلاقية لفلسفة علم الأوبئة، وفيها نتعرض للآتي:

أولًا: مشكلة أخلاقيات العلم وفلسفته

ثانيًا: أخلاقيات علم الأوبئة

ثالثًا: مشكلات جائحة الكورونا الأخلاقية وتنقسم إلى:

1- المشكلات المرتبطة بالوضع المحلي وهي:

أ- مشكلات تتعلق بالمريض نفسه

ب- مشكلات تتعلق بالطاقم أو الفريق الطبي

ج- مشكلات أخلاقية متعلقة بغير المصابين بالفيروس

د- مشكلات أخلاقية متعلقة بالدولة أو الحكومة

2- المشكلات الأخلاقية المرتبطة بالوضع العالمي

وبشكل عام هناك تساؤل: هل ستظل مشكلات علم الأوبئة إلى ما بعد زوال الجائحة أو أنها ستندثر وتضمحل؟ وهل يستطيع فلاسفة علم الأوبئة طرح حلولٍ لهذه المشكلات وإرساء قواعد نظرة استشرافية لمستقبل فلسفتهم؟ أو أن هذا الهيجان والاهتمام الذي ظهر لحظة انتشار الجائحة سرعان ما يفور ويختفي، وتختفي هذه الروح الحماسية بعد زوال الجائحة؟ وهل ستتغير نظرة العلماء والمتخصصين لفلسفة علم الأوبئة وسيهتمون بها أو لا؟

لقد استخدم الباحث المنهج التاريخي والتحليلي؛ وذلك للبحث في نشأة" فلسفة علم الأوبئة" وبداياتها، وتحليل الأفكار المتعلقة بجائحة كورونا كوفيد-19 ومشكلاتها.

المسألة الأولى: وتشمل الجوانب الإبستمولوجية والأنطولوجية والنظريات العلمية عمومًا:

أولًا: ما المقصود بعلم الأوبئة؟

علم الأوبئة Epidemiology هو أحد أهم مجالات الأبحاث التطبيقية في كُنهه وأساسه؛ ويهدف إلى تحسين صحة الجميع، وهو ركنٌ أساسيٌّ في جميع أنشطة الصحة العامة، وهو يعني دراسة توزيع الأمراض أو الأحداث المتعلقة بالصحة في مجموعة بشرية محددة، ودراسة العوامل التي تحدد هذه الأمراض أو الأحداث، وتطبيق هذه الدراسة لمكافحة المشاكل الصحية(رودولفو 2015، ص109، بيغلهول، وبونيتا، 1997، ص 14).

أي أنه يتولى الإجابة عن أسئلة(مَن ومتى وأين وما)؛ أي من تسبب في انتشار الوباء؟ ومتى انتشر الوباء تحديدًا؟ وأين انتشر؟ وما حدود انتشار الوباء بين فئة مُعَيَّنة من الأشخاص؟

هذا وقد تطوَّر علم الأوبئة كاستجابة للأمراض التي ضربت المجتمع الإنساني ولم يكن نتاجًا للتطور في التقنيات العلمية فحسب، لكنه مثله مثل أيّ علم آخَر، يصوِّر بدرجات متباينة فكر المجتمع السائد فيه عبر العصور التاريخية، فصار كما صارت الحرية الشخصية– مع تطور العصور– شيئًا رئيسًا في المجتمع، غير أنها لا تُتاح للجميع إلا إذا كانت "حرية متساوية" تقريبًا على أقل تقدير، دون الفروق الشاسعة في السلطة والموارد القائمة بين الأفراد (رودولفو 2015، ص134).

وهذا يدفعنا للتساؤل: هل الناس كلّهم متساوون في الصحة العامة في ظل الأوبئة العالمية؟ أو بعبارة أخرى، هل المركز الاجتماعي والاقتصادي يحدد طريقة تعامل الدول والطاقم الطبي للصحة العامة مع الجميع؟ وهل الجميع يتعامل بالعدل والمساواة دون النظر لمركزهم الاجتماعي أو الاقتصادي؟ هذا وسوف نجيب عن هذا التساؤل فيما يأتي:

ثانيًا: ما فلسفة علم الأوبئة؟ ومتى وكيف نشأت؟ ومَنْ هم أبرز أعلامها؟

فلسفة الشيء: لمَّا كانت فلسفة أي شيء هي دراسة حول هذا الشيء وليست فيه، وكانت فلسفة العلم هي دراسة أسس العلم وأهدافه، وتحديد الشروط والضوابط الواجب توافرها في هذا العلم أو ذاك لكي يكون علمًا بالمعنى الصحيح للكلمة، أي أنها التفكير في الإبستمولوجيا(الخولي، 2014، ص14).

أما **فلسفة علم الأوبئة**: فهي ببساطة دراسة عقلية شاملة حول علم الأوبئة أو الأمراض المتعلقة بالصحة العامة، من حيث الأسس والمبادئ والأخلاقيات التي يقوم عليها هذا العلم، وكذا الأهداف التي يسعى لبلوغها.

فهي ليست حديثًا في العلم أو المرض نفسه، لأن هذا من اختصاص أهل العلم والخبرة(أطباء الصحة العامة) وليس من اختصاص أهل الفلسفة والمشتغلين بها، إذ تعتني بالعلل البعيدة لعلم الأوبئة، والرؤية غير المباشرة، وتتساءل: لماذا وُجد هذا العلم؟ وما طبيعته؟ وما علاقته بالعلوم الطبية الأخرى؟ وما أثره على الصحة العامة؟ وكيف يدرس الظاهرة أو الوباء؟ وهل لظهور الوباء سبب واحد أو أسباب متعددة؟ وماذا عن مشكلات هذا العلم الأخلاقية والسياسية والقانونية وغيرها؟

والسؤال الذي يطرح نفسه: لماذا لم نقل فلسفة الأوبئة بدلًا من فلسفة علم الأوبئة؟

يحدث أننا نقول اختصارًا فلسفة الفيزياء أو الكيمياء أو الرياضيات، لكن (فلسفة علم الأوبئة) حالة خاصة؛ لأن فلسفة الأوبئة تتمثل تاريخيًّا في الرؤى المختلفة لماهية المرض وطرق علاجه في الثقافات المختلفة، بما في ذلك الرؤى الشعبية، مثل الين واليانغ في التقليد الصيني، والفيدا الهندية، وماعت عند الفراعنة، وغيرها، وهناك فلسفة لعلم الأوبئة تشمل الجوانب الإبستمولوجية والأنطولوجية والأخلاقية للأوبئة ونظرياتها العلمية عمومًا.

على هذا تجيب فلسفة علم الأوبئة عن أسئلة(من أين وكيف ولماذا وما؟)؛ أي من أين أتى هذا الوباء؟ وكيف أتى وما الوسيلة التي ظهر من خلالها؟ وهل لظهوره سبب

واحد أو أسباب متعددة؟ ولماذا ظهر على هذه الصورة وفي هذا الوقت تحديدًا؟ وما علاقته بالأوبئة الأخرى؟ وكيف يمكن القضاء عليه؟

لذا كان لفلسفة علم الأوبئة أهميتها ومكانتها لما تؤديه من دور يهتم بالصحة العامة للمجتمع والعالم ككل، ودون الاهتمام بجانب معين من فروع الطب بل بفروعه المختلفة وعلاقتها ببعضها بعضًا.

أما عن **نشأة مشروع فلسفة علم الأوبئة**، فهي فلسفة حديثة النشأة تندرج ضمن فلسفة العلم التطبيقية؛ حيث تتقاطع فيها فلسفة العلم مع فلسفة الأخلاق والقانون والسياسة الدوليّة وفلسفة علم اجتماع المعرفة... إلخ.

ويرى هذا المشروع أنه يجب التركيز على علم الأوبئة في فلسفة العلوم، لأنه لا توجد" فلسفة علم الأوبئة" بشكل واضح، كما هو الحال في الفيزياء، والأحياء، والاقتصاد، والطب، وما إلى ذلك، وقد أظهر هذا المشروع ثراءً في تناول المشاكل الفكرية وتنوعها التي يجمعها علم الأوبئة، كما أثبتت الحاجة العملية للدراسة الأكاديمية لهذه المشكلات؛ لذا فالطريقة الأبسط والأكثر مباشرة لتلبية هذه الحاجة هي تعزيز فلسفة علم الأوبئة كمحور رئيس واضح في فلسفة العلم (Broadbent, 2011, p.15).

ويُعَد الفيلسوف أليكس برودبنت [*] Alex Broadbent من أبرز ممثلي هذه الفلسفة في عصرنا الحالي. كما يؤمن أليكس برودبنت، بقيمة فلسفة علم الأوبئة

---

[*] فيلسوف العلوم البريطاني وعضو هيئة التدريس بجامعة جوهانسبرج، الذي له اهتمامات خاصة بفلسفة علم الأوبئة (المجال الذي أدى دورًا رائدًا في تأسيسه)- وفلسفة الطب، وفلسفة القانون- المرتبطة بالموضوعات الفلسفية للسببية، والتفسير، والتنبؤ. كما سعى إلى إيجاد مشاكل فلسفية في سياقات عملية، وأسهم بشكل كبير لإيجاد حلول لها. كما حصل على تقدير (أعلى للمرحلة المهنية) من مؤسسة البحوث الوطنية في جنوب أفريقيا (2013-2018). وقد نشر عددًا من المقالات في المجلات العالمية المصنفة في ثلاثة تخصصات (الفلسفة وعلم الأوبئة والقانون). تم نشر كتابه الأول، فلسفة علم الأوبئة، بواسطة بالجريف ماكميلان في عام 2013. وكان الناتج الآخر عالي التأثير في عام 2013 هو الطفل الأول للدكتور برودبنت، جيمس، الذي نشرته زوجته نيكول.
Philosophy and medicine, Explanation and prediction in population health Cosponsored by the International Philosophy of Medicine

المحتملة، وقد شرع في إثبات ذلك؛ حيث إن له غزوات واضحة في هذا الميدان من خلال العمل الذي نشره كمحرر ضيف لقسم موضوعي من المقالات التي استعرضها النظراء في الطب الوقائي في الفلسفة وعلم الأوبئة، والتي أسهمت فيها شخصيات بارزة من علم الأوبئة والإحصاءات وكذلك الفلسفة، وكمؤلف رئيس لتقرير جديد من مؤسسة PHG بعنوان "علم الأوبئة والمخاطر والسببية - القضايا المفاهيمية والمنهجية في علوم الصحة العامة" (*philosophy and medicine*, 2020)

أما بالنسبة لعالِمنا العربي فكما أشرنا سابقًا لم يتطرق أحد بالبحث والدراسة في هذا الموضوع من منظور فلسفي بحت- باستثناء علماء الأوبئة والصحة العامة، وشتَّان بين الفيلسوف والعالم!- وذلك لجدته وحداثته.

وهنا سؤال يُلحُّ على الباحث عمَّا إن كانت ثمةَ علاقة واضحة بين الفلسفة وعلم الأوبئة المتعلقة بالصحة العامة وخاصة الكورونا؟

ثالثًا: العلاقة بين الفلسفة وعلم الأوبئة وقضاياه؟

يقول الفيلسوف والطبيب اليوناني" أبقراط Hippocrates" (460 ق.م –370 ق.م) وهو من أبرَع أطباء عصره، حيث لقب "أبو الطب":" على من يرغب في البحث الصحيح في عالم الطب أن يفعل ما يأتي: ينظر بعين الاعتبار في المقام الأول إلى فصول السنة، والآثار التي يحدثها كلٌّ منها؛ ثم بعدها إلى الرياح، الساخنة والباردة، لا سيما تلك الشائعة في كافة الأمصار والبلدان، ثم إلى تلك الخاصة بكل موضع من العالم على حدة؛ وعلى ذات الوتيرة، عندما يفد غريب على مدينة ما، فإن عليه أن يتفكَّر في وضعها، وموقعها بالنسبة للرياح وشروق الشمس؛ إذ إنَّ تأثير هذا لا يكون واحدًا إذا كانت تقع في الشمال أو في الجنوب، أو في اتجاه شروق الشمس أو غروبها. وعلى المرء أن يتفكَّر بمزيد من الانتباه في المياه التي يستخدمها سكان المدينة؛ وهل هي مياه مستنقعات ويسِرة، أم عسِرة وتجري من مواضع مرتفعة وصخرية، ثم هل هي ملحية وغير صالحة للطهي أم لا؛ وفي الأرض، إن كانت جرداء وتفتقر إلى المياه، أو

Roundtable, Columbia University Epidemiology Scientific Symposium. Accessed: 25/3/2020.

مكسوة بالأشجار ومروية جيدًا، وهل تقع في موضع منخفض ومحصور، أم مرتفع وبارد؛ والأسلوب الذي يعيش به السكان، والأنشطة التي يمارسونها، وهل هم مُغرمون بالشراب وشرِهون للطعام، وهل يركنون إلى الكسل، أم أنهم مغرمون بالعمل الشاق" (أبقراط، 1885، ص ص 17، 18).

ومن خلال دعوة "أبقراط" يتضح لنا أنها دعوة فلسفية للإحاطة بكلية الأشياء وعموميتها، تلك التي قد تكون سببًا مباشرًا أو غير مباشرٍ في جلب الأمراض والأوبئة؟ أو في كيفية درئها ودفعها؟

لذا ينبغي علينا عند البحث في مسألة جائحة الكورونا من وجهة فلسفية أن نتناولها من مختلف جوانبها المتعلقة بظهورها، والبيئة التي نشأت فيها، وأسباب انتشارها، والمناطق الأكثر وجودًا فيها، وآليات الحدِّ منها والقضاء عليها.

الفلسفة من المعرفة لذاتها إلى المعرفة من أجل المنفعة:

هل الفلسفة مجرد عبث، أو أن هناك ما هو أبعد من ذلك؟ وهل الفلاسفة جيدون فقط في اختلاق مشكلات لا يستطيعون حلها؟ وهل ثمة فائدة تعود على علماء الأوبئة من الفلاسفة؟ أو بعبارة أخرى، هل يجب أن يهتم علماء الأوبئة بالفلسفة؟(“The Voice of Epidemiology”, 2020, p.).

قديمًا كان بعض الفلاسفة- أمثال أرسطو -Aristotle يؤمنون بالفلسفة من أجل الفلسفة ذاتها؛ أي الفلسفة لذاتها وذلك في قوله:" أما عن المهمة الأساسية للفكر فهي التوصل للحقيقة (ب٦٣–٦٦)، ونحن نسعى في طلبها عن طريق التأمل الفلسفي، ونبلغ أسمى درجة في هذا التأمل عندما نطلبها لذاتها (ب٦٦–٦٩)" (مكاوي، 2019، ص20)؛ وكذلك في قوله:" تكون بعض الأفعال العقلية حرة حرية كاملة، وهي الأفعال التي تتحقق لذاتها، أما الأفعال العقلية التي تُنتِج المعارف لأجل أي شيء آخر فهي تُشبه الخدم، إن كل ما يتم فعله لذاته يفوق دائمًا في قيمته ما يكون «فعله» وسيلة لشيء آخر، وكذلك يكون الحر أعلى قدرًا من غير الحر" (مكاوي، 2019، ص35).

وعلى الرغم من ذلك إلا أن هناك من أنكر مهمة الفلسفة لذاتها، ومن هؤلاء "إبكتيتوس (135 - 50)"Epictetus الذي رأى أنَّ الفلسفة هي الاشتغال على تحرر الذات من الانفعال واكتساب المناعة من المؤثرات الخارجية؛ وكما يقولُ" ماركوس أوريليوس" :(180 - 121) Marcus Aurelius" إنَّ العقل الخالي من الانفعالات هو قلعة ليس ثمة ملاذ للناس أقوى منه"؛ ويسبقُ علاج الروح عند "شيشرون "Cicero 43 – 106)ق.م) عملية القضاء على أسقامنا الجسدية ولا ينفعك على هذا الصعيد غير الفلسفة. من هنا نفهم مغزى هذه العبارة"مدرسة الفيلسوف هي عيادة الطبيب". (كه يلان، 2020، الفلسفة في مواجهة فايروس كورونا).

وهذه الآراء توضح إلى أي مدى سعى الفلاسفة منذ القِدم إلى الاهتمام بالجانب الروحي والعقلي دون التفريط في الجانب الجسماني أو المادي، وخاصة ذاك المتعلق بالصحة العامة للجسم.

وعلى صعيدٍ آخر، فإذا كانت الفلسفة لا تُغيِّر الحياة، أو كما يقول الرواقيون Stoicism: لا تمنع وقوع الأحداث، ولا تأخذنا الأوهام بأنَّ الفلسفة تُعجِّل بقيام الجنَّة على الأرض، لكنها تقدمُ فهمًا تعود بعده أحداث الحياة مقبولة وممتعة، لذا تصبح قراءة الفلسفة في المِحن والأزمات ضرورة ملحة إذا كان الغرض من القراءة هو وضع الحدث في سياق دورات الزمن الكبرى، ... وفي ذلك تكون من فوائد الفلسفة التأقلم مع زمن المصافحة بالكوع، والأمر لا يخلو من المنفعة سواء على المستوى الفردي أم على المستوى العالمي فربما تتراجع مخاطر نشوب الحرب وتتضافر الجهود لمحاربة العدو الذي وضع الجميع أمام سؤال المصير، كما يجب التعامل مع أزمة الكورونا باعتبارها فرصة للتأمل وإعادة النظر بنمط عيشك؛ لأن الحياة التي لا تخضع للنقد هي حياة لا تستحق أن تعاش، كما يقول سقراط أكثر من ذلك فإنَّ الطبيعة تتنفس الصعداء عندما تخفُّ الحركةُ (كه يلان، 2020، الفلسفة في مواجهة فايروس كورونا).

رابعًا، لماذا فلسفة علم الأوبئة؟

لأن علم الأوبئة هو العلم الرئيس للصحة العامة، فقد اجتذبت العلوم الطبية الحيوية اهتمام علماء الأخلاق، والفلاسفة السياسيين، وعلماء الاجتماع،

ومع ذلك، فإن الطب السريري يجذب الانتباه أكثر من الصحة العامة، والقضايا الأخلاقية تجذب المزيد من الاهتمام من الأسئلة المنهجية والمفاهيمية، هذه الأسئلة هي اختصاص فلاسفة العلم وعلماء المعرفة والميتافيزيقيين، وحتى الآن لم يولِ فلاسفة المعرفة والميتافيزيقيون اهتمامًا منهجيًا لعلم الأوبئة، ومع ذلك؛ فإن الأسئلة الفلسفية التي تنشأ في نظريات وممارسات علم الأوبئة لا تقتصر على الأخلاق وحدها؛ وينطبق الشيء نفسه على ترجمة نتائج البحث إلى سياسة (The Voice of Epidemiology, 2011, p.7).

لذلك ظهرت فلسفة علم الأوبئة لتحديد الأسئلة المنهجية والمفاهيمية الناشئة في علم الأوبئة ومعالجتها؛ بهدف تركيز اهتمام الأكاديميين في التخصصات ذات الصلة: على وجه الخصوص، علم الأوبئة والفلسفة والإحصاءات (The Voice of Epidemiology, 2011, p.7).

في مقدمة تقرير PHG، صرَّح" برودبنت" بشأن الشكوك التي يعتقد أنها قد تواجه مساعيه في مجتمع علم الأوبئة بقوله:"يتم التعبير عن الشك غالبًا عندما يزعم الفلاسفة المساهمة في المشروع العلمي... فرغم كون علم الأوبئة نشاطًا مفيدًا، إلا أن ثمَّة أدلة عديدة في المجلَّات الوبائية والكتب النصيَّة والتي تنشأ عنها مشكلات فلسفية أثناء التعامل معها. لذا كان الدافع وراء هذا المشروع هو تحديد بعض هذه المشكلات، والمساهمة في حلِّها" (The Voice of Epidemiology, 2011, p.7).

خامسًا: موضوع فلسفة علم الأوبئة:

موضوع علم الأوبئة هو دراسة الفيروسات والأوبئة والجوائح من أجل اجتناب مخاطرها الفتَّاكة، والحفاظ على الصحة العامة، وفي ذلك يقول أحد علماء الأوبئة:" إن علم الأوبئة مطلوب اليوم في كل مكان في الطب والصحة العامة"، ومع أن هذه العبارة صاغها طرف صاحب مصلحة، فإنها صحيحة تمامًا. وأحد التبعات الرئيسة أنه لا يوجد شخص واحد يمكنه أن يبرع براعة فائقة في جميع أو معظم مجالات علم الأوبئة المعاصر، ويتخصص المتخصصون في هذا

العلم في مجالات بعينها منه، وهكذا من الشائع أن نسمع عن علم الأوبئة الوراثي، والبيئي، والاجتماعي، وعلم أوبئة القلب والأوعية الدموية، والسرطان والأطفال، وغيرها من المجالات؛ وأيا كان تخصص علماء الأوبئة، فإنهم جميعًا يشتركون في استخدام مجموعة من طرائق البحث، ووجهة نظر مجتمعية للصحة (رودولفو 2015، ص133).

الشيء نفسه يمكن أن يقال: إننا في أمسّ الحاجة إلى فلسفة علم الأوبئة في عصرنا الحالي؛ لما يظهر من مستجدات بحاجة إلى نظرة كلية وشمولية عميقة ونقدية من زوايا متعددة. وقد اتضح ذلك من خلال إسهام فلاسفة علم الأوبئة في حل مشكلات هذا العلم كما هو عند" برودبنت" الذي حدد موضوعات فلسفة علم الأوبئة في معالجة:

1- الوضوح المفاهيمي في استخدام الإحصاءات الصحية.

3- صعوبة الاستدلال السببي ومقاومته المستمرة بالطرق العلمية فقط.

4- التمييز بين الصلاحية الداخلية والخارجية وصعوبات تطبيق نتائج الدراسة على مجموعة أوسع.

5- التطوير المنهجي المستمر في علم الأوبئة كعلم حديث النشأة.

6- المناقشات المنهجية والمفاهيمية الحية داخل قواعد السلوك وفهمها.

7- النظر في الآراء الفلسفية المتعلقة بالسمات الفريدة لعلم الأوبئة (The Voice of Epidemiology, 2011, p.7).

كما ذكر" برودبنت" في مقدمة كتابه "فلسفة علم الأوبئة" أن الموضوع الأساسي لفلسفة علم الأوبئة له علاقة كبيرة بطبيعة التفسير ودوره فيما يتعلق بالتحليلات الوبائية والتنبؤ بما ستؤول إليه (Levin, 2013, p.1).

يمكننا توضيح ذلك من خلال انتقالنا من العام(فلسفة علم الأوبئة) إلى الخاص(فلسفة الكورونا) وما يتعلق بها من مشكلات ونتساءل:

سادسًا: ما فلسفة الكورونا(*)؟

فلسفة الكورونا هي جزء من فلسفة علم الأوبئة أكثر تخصيصًا لمشكلة الوباء وتحديد نطاقها، وتهدف إلى تقديم مقترح تأملي نظري، وكلي شمولي حول الفيروس على أمل أن يأخذ به أهل الطب والمجالات المختلفة كل في تخصصه، وما يتبعه من قضايا: على المستوى العلمي والفكري، والأخلاقي، والسياسي، والاجتماعي، والاقتصادي... وغيرها، فمثلًا، في الحديث عن الوقاية من هذا الوباء لا نتحدث عن كيفية الوقاية منه بالنسبة لحيٍّ بعينه أو بلدة بعينها أو حتى دولة بعينها، بل كيفية الوقاية منه على المستوى العالمي. وليس فقط الوقاية منه بل وكيفية الوقاية من الأمراض المعدية التي على شاكلته من خلال الالتزام بالعمل بالتدابير الاحترازية اللازمة.

سابعًا: مشكلات فلسفة علم الأوبئة وتطبيقها على جائحة الكورونا:

قبل أن نُعدد المشكلات ذات الأهمية في علم الأوبئة، دعني أُبين لك أنه طُلب من "برودبنت" توضيح ما يكوِّن مشكلة فلسفية، فقال لمرصد علم الأوبئة:" إن مثل هذه المشكلات هي تلك التي يختلف الناس حولها، حيث تكون الخلافات مستمرة لكنها معقولة، والتي لن تقدم لنا الأدلة التجريبية إجابة عنها؛ وذكر أن المشاكل الأخلاقية هي نوع من المشاكل الفلسفية التي يسهل التعرف عليها من الأنواع الأخرى، لأن لدينا أفكارًا موجودة مسبقًا حول الصواب والخطأ". (University of Johannesburg Philosopher, 2020)

ووفقًا لـ برودبنت، فقد بدت مفاهيم مثل: السببية، والمخاطر، وعدم اليقين، والاستدلال السببي غامضة للغاية لاستخدامها، لذا طور علماء الأوبئة بدائل

(*) أطلقت منظمة الصحة العالمية مؤخرًا وصف فيروس كورونا بالجائحة بدلًا من وباء؛ لأنه الأكثر فتكًا، والأكثر انتشارًا في العالم. للمقارنة بين تفشي المرض (فاشية) outbreak والوباء Epidemic والجائحة pandemic، والمرض المتوطن endemic أُنْظُرْ:

Fischer, Rebecca S.B. (2020): What's the difference between pandemic, epidemic and outbreak?, March 9, 2020. 2.21pm SAST, Accessed: 25/3/2020. https://theconversation.com/whats-the-difference-between-pandemic-epidemic-and-outbreak-133048.

محددة بشكل جيد. ومع ذلك، ليس من الواضح دائمًا كيفية ربط هذه المفاهيم المحددة جيدًا بالمفاهيم الغامضة التي نفكر فيها عند اتخاذ قرار بشأن مسارات العمل أو إصدار أحكام تقييمية، علاوة على ذلك، غالبًا ما يتم إظهار التناقضات في تفكيرنا" العصر الحجري" الفطري عندما يسعى علماء الأوبئة إلى تطبيق وتوسيع مفاهيم العصر الحجري. لا يمكن استخدام الأدلة لحل الصعوبات المفاهيمية. في هذه المجالات يمكن أن يكون النهج الفلسفي مفيدًا(University of Johannesburg (Philosopher, 2020.

رغم اختلاف مشكلات فلسفة علم الأوبئة وتعددها إلا أنه يمكننا الاقتصار على المشكلات التالية:

أ- مشكلة السببية:

ما المقصود بمشكلة السببية؟

السببية أو(العليّة) والتسبيب أحد الموضوعات الفلسفية وبالأخص فلسفة العلوم، وهي علاقة بين حدثين؛ أحدهما يُسَمَّى" السَّبب" والآخر يُسَمَّى" الأثر أو المُسبِّب"، بحيث يكون الحدث الثاني نتيجة للأول، أي أن أحدهما سبب الآخر. ويشير هذا المصطلح إلى مجموعة العلاقات السببية أو علاقات السبب والتأثير التي يمكن ملاحظتها خلال الخبرة اليومية والتي تستند إليها النظريات العلمية في تفسير الظواهر العلمية، وأرسطو Aristotle (384 ق.م - 322 ق.م) من أبرز من تكلم في شأنها بينما اشتهر ديفيد هيوم David Hume (1711- 1776) بهجومه على فكرة الرابط الضروري بين السبب والنتيجة(السببية، 2020، هوندرتش، 2003، ص ص 459، 460).

ويمكن تعريف" السبب" و"التأثير" من خلال محاولة فهم مصطلح" تأثير"، وهو كما يعرف قاموسيًا(منتج لتأثير أو نتيجة؛ أو شخص/حدث/شرط مسؤول عن إجراء أو نتيجة، إن تأثير سبب معين يمكن أن يكون أفضل مفهوماً بالنموذج المضاد) (رجاء، 2020، السببية في الدراسات الوبائية).

ومن المفترض أيضًا أن يكون السبب سابقًا زمنيًّا أو رتبة للأثر، فلا يجوز أن يكون فعل السبب لاحقًا للتأثير وإلا ذهب مفهوم السببية البديهي. فحدوث المسبب

يفترض حدوث لاحق للتأثير (في حال ثبات جميع الشروط الأخرى) أو على الأقل زيادة احتمالية حدوثه؛ وللسببية أمثلة موجودة بكثرة في حياتنا اليومية منها قولنا: ارتفاع درجة حرارة المياه يؤدي إلى غليانها. ويمكن تعريف السببية بأنها علاقة المؤثِر (المسبِّب) بالتأثير(النتيجة)؛ وفي علم الأوبئة" السبب" هو التعرض، و"التأثير" هو المرض أو الموت(قسم الوبائيات، 2018).

يمكننا تطبيق مشكلة السببية في علم الأوبئة على أسباب ظهور جائحة كورونا، وهل هو سبب واحد أو أسباب متعددة؟

على الرغم من اتفاق علماء الأوبئة حول إرجاع ظهور جائحة الكورونا إلى سبب واحد إلا أنهم اختلفوا حول هذا السبب:

فهناك من رأى أن "الكورونا" تطبيق عمليّ لنظرية الفوضى أو تأثير الفراشة Butterfly Effect؛ وهي عبارة عن نظرية فلسفية فيزيائية (فيزيوفلسفية) تحاول تفسير العديد من الأحداث الكونية بطريقة منطقية، وهي جزء من نظرية الفوضى التي تتحدث عن وجود روابط خفية بين الأحداث المختلفة وأنه لا وجود أبدًا للصدف، وتقضي بأن سقوط ورقة من شجرة في أقصى الجنوب من الممكن أن يتسبب في أعاصير في أقصى الشمال، وتنص على: " أن تحريك جناح الفراشة في الصين سيتسبب بحدوث إعصار مدمر في أمريكا"، وهذا ما حدث مع حيوان يحمل الفيروس في الصين انتشر بلا هوادة في كافة أنحاء العالم(نظرية تأثير الفراشة شرح بطريقة مبسطة، 2021).

على الرغم من صحة هذه النظرية من أحد جوانبها إلا أنها لا تصلح أن تكون صائبة على طول الخط؛ لأن نجاحها يتوقف على عوامل أخرى مساعدة لتحقيق النتيجة المتوقعة أو المرجوة.

وبقياس جائحة الكورونا على الطاعون رأى الطبيبان؛ ابن خاتمة (ت 770هـ)(*) وابن الخطيب (713-776هـ)(*) أن الطاعون الجارف الذي عمَّ الأقاليم

(*) ابن خاتمة (ت 770هـ): فقيه مالكي وشاعر ومؤرخ وطبيب أندلسي بارع، من مدينة ألمرية وكتب رسالة سماها «تحصيل غرض القاصد في تفصيل المرض الوافد».

كلها كان سببه فلكيًا؛ لاعتقادهما بأن حركة النجوم والكواكب تؤثر في الهواء وفي حياتنا وأجسامنا (عبد القاهر، 2017).

بينما رأى أبقراط وغيره أن فساد الهواء يؤدي إلى المرض بالطاعون وانتشاره بالبلد الفاسد هواؤها، لهذا نصح الأطباء الثلاثة؛ ابن خاتمة وابن الخطيب والشّقوري بتبخير عدد من المواد حسب طبيعة الهواء والمكان والاستكثار من وضع الورود والرياحين (عبد القاهر، 2017).

أما ابن حجر (753-852هـ) وهو صاحب كتاب« بذل الماعون في فضل الطاعون» فلم يقتنع أن فساد الهواء سبب للطاعون، واستشهد بكلام ابن القيم الذي أبطل ذلك من أوجه منها: أن الطاعون يقع أحيانًا في أعدل الفصول وأعدل البلاد هواء، وأن الهواء إذا فسد فهو يسبب تغيرًا في الأخلاط وذلك يقتل بلا مرض أو بمرض يسير، إلى جانب أن الطاعون يصيب كثيرًا من الإنسان والحيوان لكن لا يصيب الجميع، فيبقى آخرون في عافية ولو كان السبب فساد الهواء لعمَّهم جميعًا، ثم يخلص ابن حجر إلى أن الطاعون يأتي على كيفية لا يمكن قياسها ولا التنبؤ بها فهو يأتي عامًا ويرتفع أعوامًا (عبد القاهر، 2017).

وهناك من قال إن الطاعون سببه وخز من الجان، أو أنه يأتي بنفسه وينتقل بالعدوى. وبهذا تعددت الآراء واختلفت حتى بين علماء الأوبئة أنفسهم. إلا أن فيلسوف علم الأوبئة كان له رأي آخر، إذ لاحظ أن كلًا من هؤلاء العلماء يحاول أن يُقدم سببًا واحدًا يفسر من خلاله ظهور هذا الطاعون أو الوباء، ويتساءل: لماذا لا تكون هذه الأسباب جميعها مجتمعة أو بعضها سببًا في ظهوره؟ ولماذا ينبغي أن نقصر ظهوره على سبب واحد وليس سببين أو ثلاثة أو أربعة أو أكثر؟ بمعنى آخر ليس بالضرورة أن تكون الأسباب الفلكية، أو فساد الهواء، أو وخز الجن، أو المرض المعدي، أو تصنيعه في المعامل، أو أنه تطور سلالة من الأوبئة، سببًا رئيسًا لانتشار الوباء أو الجائحة، ولم تُحسم هذه المسألة بعد.

(*) ابن الخطيب (713-776هـ): مؤرخ وأديب وطبيب ووزير أندلسي لُقِّب بذي الوزارتين، ألف في الطاعون الجارف مقالة بعنوان: «مقنعة السائل عن المرض الهائل».

رغم هذا إلا أن من الفلاسفة من ارتأوا أن ثمة أنواع من السببية مستقلة عن قوانين السببية، وغالبًا ما يقال هذا في سياق أفعال البشر. (هوندرتش، 2003، ص461) كما مفهوم السبب نفسه ستستمر مناقشته كمسألة فلسفية في الأدبيات العلمية (Principles of Epidemiology: An Introduction to Applied Epidemiology and Biostatistics, p.35)

بهذا يبقى تعريف السببية أمرًا صعبًا ومعقدًا؛ نظرًا لاختلاف تفسير الموضوع فلسفيًا، وتعدد النقاشات والجدالات الفلسفية العميقة حول نظريات السببية كافة. (See: Broadbent, 2013, pp. 26: 79) لذلك نجد صعوبة في تحديد العلاقة السببية ما لم يتم قياس العلاقة بدقة دون وجود عوامل أخرى مؤثرة على النتيجة.

ب- مشكلة التنبؤ:

يصعب على عالم الأوبئة أن يتنبأ بحدوث وباء معين في فترة زمنيةٍ معينةٍ، لكن الأمر يختلف بالنسبة لفيلسوف علم الأوبئة الذي لا يهتم بالبحث فيما هو كائن بالفعل، بل ينطلق منه للبحث فيما ينبغي أن يكون، ومن ثمَّ التنبؤ بالسناريوهات المختلفة من خلال الحجج والبراهين التي يستند إليها.

وقد صدق ابن سينا (980 – 1037) في مقدمة كتابه "القانون" حين أشار إلى أن الطبيب في طبه إنما يحتاج إلى البرهان بوصفه فيلسوفًا لا طبيبًا (معتز،2020، الطب النبوي رؤى نقدية "الطب النبوي" مفهومه ونشأته).

من هنا تظهر فائدة الفلسفة بالنسبة لعلم الأوبئة، والتي تتمثل في تقليل الفلسفة للتناقضات، وزيادة الوعي بالأخطاء المنهجية، وجعل المفاهيم الوبائية أكثر فائدة، واستخدام الأدلة والحجج الوبائية الأكثر تقبلًا بالنسبة للجمهور. وبشكل عملي يمكن أن يكون التفكير الفلسفي مفيدًا لعلم الأوبئة، من خلال موضوع" التنبؤ prediction" حيث قال برودبنت: إن الفلاسفة لم يفكروا كثيرًا فيما يجعل التنبؤ خيِّرًا كما لم يفكروا فيما يجعل الاستنتاج السببي خيِّرًا. بهذا فإن كيفية تقييم الادعاء التنبؤي مشكلة فلسفية، ولكنها ستكون ذات قيمة عملية لعلماء الأوبئة (University of Johannesburg Philosopher).

بينما يرى روبرت وايت Robert Joseph White (1926-2010)- عضو معهد ماساشوستس للتقنية- أن التنبؤ لا شيء.. بل إنه السيطرة على الطقس، وقصد بذلك أن تقلبات المناخ البسيطة تقع ضمن السيطرة الإنسانية، وبالتالي يمكن التحكم بها لدفع التقلبات الكبرى في المناخ في الاتجاه المأمول (غليك، 2008، ص37، 38).

حقًّا، يمكننا التنبؤ باستخدام الملاحظات، لكن هذه الملاحظات لن تكون دائمًا كما نتوقعها تمامًا، بسبب الخطأ والتنوع المتأصل في الظواهر الطبيعية. فإذا كانت الملاحظات مختلفة بشكل كبير عن توقعاتنا، فسيتعين علينا التخلي عن التنبؤ أو تعديله. إذ كيف نختبر مدى تعارض تنبؤاتنا القائمة على الاحتمال من واقع ملاحظاتنا؟ الاختبار هو اختبار إحصائي أو احتمالي. إنه اختبار الفرضية الصفرية، والتي تعد حجر الزاوية في الاستدلال الإحصائي (Wassertheil-Smoller, 2004, P.6).

ومن الناحية الفلسفية، الإحصاء هو انعكاس للحياة من ناحيتين مهمتين: الأولى، كما هو الحال في الحياة، لا يمكننا أبدًا التأكد من أي شيء(ولكن في الإحصائيات يمكننا وضع رقم احتمالي يصف درجة عدم اليقين لدينا) والأخرى، أن كل شيء في الإحصاء هو مقايضة - كما في الحياة- بين اليقين والدقة، أو بين نوعين من الخطأ (Wassertheil-Smoller, 2004, P.86).

بهذا، يصعب على عالم الأوبئة أن يتنبأ أو يتوقع مآلات فيروس الكورونا، إلا أن فيلسوف علم الأوبئة يمكنه أن يُقدم توقعات مختلفة من خلال استخدامه للاحتمالات المنطقية المتعلقة بمستقبل هذا الفيروس، وبالتالي تكون قدرته التنبؤية أكثر بكثير من قدرة عالم الأوبئة؛ لأن بعض الفلاسفة درسوا علم الأوبئة ومشكلاته، بينما لم يهتم علماء الأوبئة بالدراسات الفلسفية لهذا العلم.

أما المسألة الأخرى: فهي ذات صلة بمشكلات فلسفة علم الأوبئة الأخلاقية:

أولًا: مشكلة أخلاقيات العلم وفلسفته:

كلما تطورت العلوم كلما كانت المشكلات الأخلاقية المصاحبة لها في تزايد مستمر، فمع كل حِقبة زمنية تبدو مشكلات أخلاقية معينة، ومع التقدم

التكنولوجي الهائل والانشغال بالجوانب التقنية الحديثة ظهرت مشكلات أخلاقية جديدة.

ظهرت هذه المشكلات الأخلاقية في شتى المجالات مثل: مجال الاقتصاد، والبيولوجيا، والهندسة، والفضاء، والإعلام،... الخ وتمثل المشكلات الأخلاقية لكل علم مجال بحث مستقل، والتي تشكل في مجملها ما يعرف بأخلاقيات العلم والتكنولوجيا أو الأخلاقيات التطبيقية أو العلمية والتي تسعى لإيجاد المبادئ الأخلاقية اللازمة لحل المشكلات الناتجة عن تطور هذه العلوم وتطبيقها (درويش، 2021، ص 83).

وما يعنينا في هذا الإطار الأخلاقيات الحيوية(البيولوجية) Bioethics التي هي إحدى مجالات الاستقصاءات الأخلاقية التي يجري فيها بحث القضايا الأخلاقية والمعضلات التي تنشأ من خلال البحوث الصحية وبحوث الرعاية الصحية على البشر(لجان أخلاقيات البحوث: المفاهيم الأساسية لبناء القدرات(2013)، ص 5).

وقد وضعت منظمة اليونسكو مبادئ وثيقة" الإعلان العالمي لأخلاقيات البيولوجيا وحقوق الإنسان Universal Declaration on Bioethics and Human Rights" عام 2005م وقد اشتملت هذه المبادئ على: احترام الكرامة الإنسانية، والمنفعة وعدم الإضرار Nonmaleficence، والاستقلالية الفردية Individual Autonomy، والمسؤولية الفردية، والموافقة المستنيرة، واحترام الضعف البشري والخصوصية السرية، والعدالة والمساواة justice، وعدم التمييز وعدم الوصم، والإحسان Beneficence...إلخ (درويش، 2021، ص 83).

لم تكن منظمة اليونسكو الوحيدة المتفردة بهذه الأخلاقيات الطبية، فقد سبقها الإسلام وعلومه المختلفة في وضع تلك الأخلاقيات بشكل أكثر عمومية وشمولية، تبدأ من قبل مولد الإنسان مرورًا بمراحل حياته المختلفة وانتهاءً بأخلاقيات التعامل معه بعد وفاته، والتاريخ الإسلامي زاخر بهذه الأخلاقيات.

إذن العلم وفلسفة العلم ومشكلاتها الأخلاقية صنوان لا ينفكان عن بعضهما بعضًا.

ثانيًا، أخلاقيات علم الأوبئة:

إذا كان لكل علم من العلوم الآنفة أخلاقياته، إلا أن لعلم الأوبئة وفلسفته أخلاقيات قد تتقاطع مع هذه العلوم في بعض جوانبها، وقد تتخذ طابعًا مميزًا خاصًا بها؛ نظرًا لأنها تقع في ظروف استثنائية طارئة تظهر أحيانًا وتختفي أحيانا. فقد نوقف قاعدة أو قيمة أخلاقية معينة في زمن الأوبئة من أجل قاعدة أو قيمة أخلاقية أسمى منها، فمثلًا، من حق كل شخص حرية التنقل في بلده كيفما يشاء، ولكن في ظل جائحة الكورونا يُفرض عليه الحجر الصحي وذلك من أجل المحافظة على حياته وحياة الآخرين بعدم مخالطتهم خشية العدوى بالوباء.

نفعل هذا الإجراء من منطلق مبدأ المسالمة الذي نصه:" لا تؤذ نفسك، ولا تؤذ الآخرين"، وعلى الرغم من مطالبة فلاسفة الأخلاق بتطبيق هذا المبدأ وغيره، إلا أنهم رأوا أن هذه المبادئ ما هي إلا إرشاد للسلوك أكثر من كونها معايير صلبة؛ لأنه مع تصادم المبادئ الأخلاقية ببعضها نختار الأولى منها خاصة في ظل الأزمات كالأوبئة العامة (رزنيك، 2005، ص ص 43،44).

ثالثًا: مشكلات جائحة الكورونا الأخلاقية:

تعددت المشكلات الأخلاقية الناجمة عن فيروس كورونا المستَجَدّ- ولا زالت تظهر مشكلات أخلاقية أخرى بمرور الوقت وتتكشَّف معه- كان منها مشكلات أخلاقية تتعلق بالوضع المحلي وأخرى ترتبط بالوضع الدولي والعالمي للوباء:

1- المشكلات المرتبطة بالوضع المحلي ويمكن تقسيمها إلى:

أ- مشكلات تتعلق بالمريض نفسه:

تظهر مشكلات جائحة كورونا على المريض نفسه من خلال شعوره بأنه شيئًا ممقوتًا ومرعبًا بالنسبة لبني البشر لما أصابه من مرض معدٍ قد يكون هو نفسه سببًا في هلاك أسرته أو من خالطهم بغير قصد، ويشعر بوخز الضمير تجاه هذا الأمر، هذا بالنسبة للمصاب الطبيعي الذي التزم الحذر بمجرد معرفته بالإصابة.

وإذا أصيب الشخص بالفيروس فكيف يتصرف، وهل يجب عليه إبلاغ السلطات؟ وما الواجب على كل شخص لمنع انتشار الفيروس؟ وهل من الواجب أخلاقيًّا على من شك أنه مصاب بالفيروس أن يعزل نفسه فورًا حتى يتأكد أو

يتابع حياته الطبيعية إلى أن يتأكد؟ وماذا لو علم بأن شخصًا آخر مصاب ولكنه لم يعزل نفسه، فهل يبلغ عنه أولاً أو ينصحه بإبلاغ الجهات الصحية أولاً؟ (الخطيب، 2020، كورونا وأخلاقيات الأوبئة).

تُثار مشكلة أخلاقية أشد وطأة على النفس من هذا المُصاب الذي عرف بعد إجراء المسحة أنه مصاب بالفيروس ومع ذلك لم يتبع الإرشادات ولم يأخذ بالتدابير الاحترازية وخالط غير المصابين دون مبالاة مفرطة. هنا نتساءل: هل ثمة التزام أخلاقي على من يفعل هذا بقصد أو لا؟ وكيف نعرف نيّته إذا كان يتعمَّد ذلك أو لا؟ وما الجزاء الذي ينبغي أن يقع عليه على الرغم من أنه في فترة الحجر الصحي ولمَّا يتعافى بعد؟ أو أن الجزاء يقع عليه بعد أن يتعافى حتى لا تؤثر العقوبة عليه في فترة مرضه؟

وهل ينبغي أن يقتصر الجزاء أو العقوبة على اللوم والاستنكار فقط أو لابد أن يتحول هذا اللوم إلى قانون يجب تطبيقه يكون في شكل غرامة مالية أو حبس أو تعويض أو غيره؟

ب- مشكلات تتعلق بالفريق والطاقم الطبي:

على صعيد آخر ظهرت مشكلات أخلاقية مرتبطة بعلاقة المرضى المصابين أنفسهم بالفريق الطبي وطاقمه المسؤول عن علاجهم ورعايتهم منها: هل على المرضى أن ينصاعوا لأوامر الأطباء في كل الأحوال ودون أدنى اعتراض؟ وماذا عن المرضى الذين لا يملكون القدرة على التعبير عن رأيهم؟

ولنأخذ مثالًا على ذلك مشكلة الموافقة المستنيرة للمرضى، وهل هي حق أصيل للمريض أخلاقيًا وقانونيًا يتم تفعيله بشكل إيجابي؟ وذلك حين يتم إعطاء المريض جرعة أدوية يتم تطبيقها لأول مرة عليه؟ وبالتالي عدم معرفة نتيجتها وآثارها على المريض بشكل مؤكد، هنا هل للمريض الحق الأخلاقي في معرفة مضار هذا العلاج أو العقار أو لا؟

إذن يقصد بالموافقة المستنيرة القبول المسبق والحر والواعي المبني على معلومات وافية للمريض الذي سيخضع للتدخل الطبي سواء الوقائي أم التشخيصي أم العلاجي. وفي خضم البحث عن علاج للكورونا لا ينبغي إجراء

تجارب على المريض لاكتشاف العلاج تحت وطأة الرغبة في الشفاء أو الضغوط المجتمعية دون موافقته الطوعية (درويش، 2021، ص 88).

ترتبط بالموافقة المستنيرة أيضًا كما هو واضح مشكلة إجراء التجارب البحثية على بعض الأشخاص للحصول على اللقاح والتي تثير تساؤلاتنا: هل من الممكن إجراء تجارب اللقاح أو المصل على بني البشر؟ ومن يتحمل نتيجة خطأ هذه التجارب والأبحاث؟ وهل نعمل بالتجريب على فئة من البشر دون غيرهم للتأكد من صلاحية المصل وفاعليته أو لا؟ هل علينا الاعتقاد بضرورة أن نضحي بالجزء من أجل المحافظة على الكل؟

تتعارض إجراءات التجارب البحثية على الأشخاص مع المبدأ الأخلاقي الذي نادى به إيمانويل كانط Immanuel Kant (1724 - 1804) الذي صيغ في عبارة أنيقة في عصر التنوير: لا ينبغي مطلقًا اعتبار أي إنسان مجرد وسيلة، مثلما هو الحال لو اعتبر علماء الأوبئة المجتمعات مجرد أدوات بحثية. إن العمل على ضمان ترجمة نتائج الأبحاث ترجمةً فعالة إلى منافع تعود على جميع البشر، وتقليص حجم الظلم الاجتماعي على مستوى الصحة؛ يتطلب اشتراكًا إيجابيًا من الممكن أن يتخذ صورًا متباينة، بدءًا من المعاونة وحتى المشاركة الكاملة في اتخاذ القرار، والنقد الاجتماعي ومبادرات الضغط. لا يوجد موضع للخلط بين هذا الاشتراك وواجب الحياد العلمي؛ فعند إعلان الشخص صراحةً عن قيمه الأخلاقية والسياسية، يصير الحياد العلمي والأحكام العلمية في انفصال تام عن الأحكام الصادرة على القيم والموجودة في أي ضغط أو اشتراك في صنع السياسات (رودولفو، 2015، ص134).

على هذا فإن طبيعة أيديولوجياتنا المختلفة هي التي تحدد موافقتنا على مثل هذه الإجراءات أو لا؛ فإن كانت تحكمنا الأخلاق الدينية الإسلامية فسوف نرفض أن نجعل من الإنسان حقلًا للتجارب التي قد تنجح أو تبوء بالفشل، بينما إذا كانت تسيّرنا أخلاق النفعية والبراجماتية سوف يكون معيارنا تحقيق المنفعة لأكبر عدد من الناس حتى لو كان ذلك سببًا في التضحية ببعضهم!

ومن بين حقوق المريض أو المصاب بالكورونا أيضًا حقه فيما يُعرف باسم "ميثاق المريض" الذي يعني أن له الحق في الحفاظ على خصوصيته وسرية

معلوماته وبياناته الطبية، فهل التصريح باسمه في أثناء تلك الجائحة العالمية انتهاكٌ لا أخلاقي لهذا الحق؟

على الرغم من أن حق احترام سرية بيانات المريض مكفول، إلا أنه في وقت الوباء يكون" تجنُّب إلحاق الضرر بالآخرين المعرضين لخطر الإصابة بأمراض معدية يفوق مسألة الخصوصية والسرية"، على حد تعبير ناجي صعيبي(*) كما يرى أنه في وقت الأوبئة يوجد مسوِّغ أخلاقي لتداول بيانات المرضى؛ نظرًا لأهمية جمع بيانات غير مجهولة الهوية عن الأفراد، بغرض تنفيذ تدابير الرقابة، وبغرض إتاحة البيانات لإجراء الدراسات بدقة. ولكن" لا بد أن يُعامَل بصرامة أي تجاوُز للخصوصية والسرية، وأن يتم في أضيق وأدنى حدٍّ ممكن، ومع الجهات التي يُعد توافر البيانات لها أمرًا مفيدًا، مثل الجهات البحثية، مع ضمان عدم وصم المريض".(عبد المحسن، 2020، أخلاقيات طبية منسية في أثناء الجائحة العالمية)

كما ظهرت إثر تلك الجائحة مشكلات أخلاقية أخرى تتعلق بتساؤلات من قبيل: في حالة عدم توفير المركز الصحي لعناية مركزة كافية لجميع الحالات فما آلية تطبيق القواعد الأخلاقية العامة على جميع المرضى أو المصابين دون تمييز على أساس: الجنس، أو السن، أو اللون، أو الدين، أو الفكر والثقافة، أو الطبقة الاجتماعية؟ أو أيهما أولى بالعلاج الذكر أو الأنثى، صغار السن أو كبار السن، أصحاب اللون الأبيض أو الأسود، أصحاب أكثرية الدين السائد في الدولة أو الأقلية، أصحاب الفكر الموالي للدولة أو المعارض لها، أصحاب طبقة الأغنياء أو الفقراء، الأصحاء أو ذوي الاحتياجات الخاصة؟ بعبارة أخرى، منْ نُنقِذ؟ وبمنْ نُضحي؟

هذه المشكلة أطلق عليها مبدأ عدم التمييز أو عدم الوصم، حيث وجد الأطباء أنفسهم في مأزق: هل عليهم أن يضحوا بكبار السن وذوي الاحتياجات الخاصة من أجل الشباب حول أولوية الرعاية الصحية ووضع المرضى على أجهزة التنفس أو أن تكون الأولوية للأسبق في الحضور إلى دار الرعاية الصحية أو المستشفى؟ وهل المعيار المادي له الأولية في من يحصل على العلاج ومن لا يحصل عليه؟ وما أولويات من تُزال عنه أجهزة التنفس الصناعي ومن يُعطاها؟

(*) أستاذ طب الطوارئ والطب الشرعي بجامعة القديس يوسف بلبنان.

فيما يتعلق بهذا الأمر، قالت صحيفة" ديلي ميل" البريطانية:" إنها فكرة مرعبة، أن تتخذ قرارًا بشأن من سيبقى على قيد الحياة، ومن يجب أن تتركه ليموت، ولكن هذا هو بالضبط الوضع الذي يواجهه العديد من الأطباء في إيطاليا يوميًا في الوقت الحالي" (علام، 2020، بسبب فيروس كورونا.. أيهما أولى بدخول الرعاية المركزة كبار السن أم الأصغر؟).

وفقًا للمبادئ التوجيهية التي نشرتها الكلية الإيطالية للتخدير، والإنعاش، والرعاية المركزة (SIAARTI)، قد يصبح من الضروري وضع حد عمري للحصول على العناية المركزة، إن الحقيقة القاسية لهذا الوباء هي أنه حتى في البلدان الغنية والمتقدمة ذات الرعاية الصحية والمرافق الممتازة، يجب اتخاذ مثل هذه القرارات المرعبة، نسخة واقعية من معضلة يتم تدريسها لطلاب الطب كجزء من دورة الأخلاقيات الخاصة بهم(علام، 2020).

يتضح أن أنصار الاتجاه الأول يؤمنون بنظرية اليوجينيا (Eugenics) التي تختص بتحسين الصفات الوراثية للعرق البشري، والمتحكمة في السلالة البشرية عبر مراقبة التفاوت العرقي للحد من تكاثر من لا يستحقون البقاء، مثل المعاقين والمتخلفين ذهنياً والسود. وقد كشفت هذه النظرية عام 1869م عن نزعة عالم البيولوجيا البريطاني" فرانسيس غالتون" العنصرية البغيضة حين اعتبر أن البشر ليسوا سواسية. وأن التطور الصحيح للجنس البشري قد انحرف عن مساره الطبيعي، لأسباب تتعلق بنزعة الخير والإنسانية التي أبداها الأثرياء تجاه الفقراء غير الصالحين وتشجيعهم على الإنجاب، وهو ما أفسد آلية الانتخاب الطبيعي، لذلك لا بد من التدخل وإحداث انتخاب صناعي لإعادة الجنس البشري إلى مساره الطبيعي. وترى نظرية اليوجينيا أن الأصلح هو المتميز في الذكاء والصحة والأخلاق (العاصي، 2019، لَيّ الأعناق في صراع الأعراق.. عنصرية الفلسفة).

أما أنصار الاتجاه الآخر فتحكمهم البراجماتية الأنانية أو النفعية (Utilitarianism) دون مراعاة لأي مبادئ أخلاقية وإنسانية لكبار السن وذوي الاحتياجات الخاصة الذين ضحت بهم من أجل الشباب الأصغر سنًا والأكثر قدرة على الإنتاج وخدمة للوطن. وتقوم هذه الفلسفة على تقدير نسبة الشفاء المرجوّ والنتيجة التي ستكون عليها الحالة الصحية للمريض.

بينما تقوم فلسفة الواجب (Deontology) على تشخيص الحالة ودرجة حاجتها للعلاج، وذلك من منطلق مبدأ الواجب ذاته الذي يُحتِّم أن تكون الأولوية للأكثر حاجة للعلاج.

أما في رأينا فإن هذا الأمر تحدده الأخلاق العامة التي يؤمن بها أنصار هذه الدولة أو تلك؛ فإن كانت النزعة البراجماتية والنفعية هي السائدة كان تقديم الشباب والأقل خطورة للعناية المركزة أولى، وإن كانت تأخذ بالنزعة الأخلاقية الدينية سوف تقدم الأكثر ضعفًا والأقل تحملًا للآلام من المسنين وذوي الاحتياجات الخاصة على غيرهم من الشباب والمصابين الأقل خطورة من غيرهم.

من هنا كانت" أخلاق الفضيلة" التي تركز على الفاعل نفسه وفضائله، وهي مرحلة سابقة على الأفعال ومتجسدة فيها في الآن نفسه (الخطيب، 2020) وهي المحرك الأساس للأخلاقيات الواجب على المرضى اتباعها.

بينما كان للشريعة الإسلامية رأي آخر أكثر إنسانية وأخلاقية من الاتجاهين السابقين؛ فثمة قواعد عامة ومعايير حكيمة ليس منها أن نُقدِّم الأكبر سنًا على الأصغر أبدًا، وليس منها أن نقدم المُنتِج ماديًا على المُستهلِك الذي يحتاج الرعاية والاهتمام من قِبل الدولة. فنظرة الشريعة الإسلامية للنفوس واحدة لا تتفاوت بمقاييس مادية، بدليل قول النبي صلى الله عليه وسلم، لما سُئل عليٌّ رضِيَ اللهُ عنه: هل عهدَ إليهِ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليْهِ وسلَّمَ شيئًا لَم يعهَدْه إلى النَّاسِ عامَّةً؟ فأخرج كِتابًا من جِرابِ سيْفِه، "فإذا فيه"، أي: في الكتابِ الَّذي أخرَجَه: "المؤمنون تَكَافَأُ دِماؤُهم"[*] أي: تَتساوَى دِماؤُهم في القِصاصِ والدِّيَّاتِ لبَعضِهم مِن بعضٍ، ولا فَرْقَ بين الشَّريفِ والوضيعِ في الدَّمِ؛ فلا يَفضُل منهم شَريفٌ على وضيع؛ وليسَ كما كان في الجاهليةِ حيثُ كانوا لا يَقتصُّون للرَّجُلِ الشَّريفِ إلَّا مِن عِدَّةٍ مِن قبيلةِ القاتِل؛ فأبطلَ الإسلامُ حُكمَ الجاهليَّةِ، وجعَل دِماءَ المسلِمين على التكافؤ وإنْ كان بَينَهم تفاضُلٌ وتفاوُتٌ (الموسوعة الحديثية شروح الأحاديث، الدرر السنية).

(*) أخرجه أبو داود (4530)، والنسائي (4734)، وأحمد (993) بنحوه.

بهذا تكون الأنفس واحدة في نظر الشريعة الإسلامية؛ إذ لا يجوز رفع أجهزة التنفس عن شخص من أجل شخص آخر إذا كان ذلك سيؤدي إلى موت الأول، ولا تُزهق نفس لأجل نفس أخرى؛ لأن النفوس جميعها متساوية. وقد وضع أهل العلم ثلاثة معايير رئيسة فيما يتعلق بأولوية من يتم علاجه أولًا وهي:

1- الأسبقية؛ بحيث من سبق إلى العلاج فهو أولى به.

2- الحاجة؛ فالأحوج إلى العلاج وأجهزته له الأولوية، فقد يكون هناك من لا خطورة على حياته إذا لم يعالج، أو يمكن أن يوضع له العلاج أحيانًا ويزال أحيانًا، بينما الآخر يتوقع موته إذا لم يعالج فورًا.

3- رجاء الشفاء أو الحياة؛ فيقدم الذي يرجى شفاؤه أو حياته.

بناء على مجموع هذه العوامل يُقدَّر العلاج. فمعاناة كبار السن هي طهور لهم من ذنوبهم، وفرصة للشباب أن يبروهم ويكسبوا بركة برهم في الدنيا والآخرة (قنيبي، 2020).

ج- مشكلات أخلاقية متعلقة بغير المصابين بالفيروس:

من المشكلات الأخلاقية لفيروس كورونا بالنسبة لغير المصابين تلك التي تتعلق بالتساؤل حول: هل من حق غير المصابين مقاطعة المصاب بالفيروس وأسرته خوفًا من نقل العدوى؟ وهل من حقهم عدم دفن من مات بفيروس كورونا في مدافن عائلتهم على الرغم من أنهم شركاء في بنائها وشرائها أو حتى لو كانوا ليس من أهليتهم؟

إنَّ أخذ الحيطة والحذر أمر طبيعي، وهو مبدأ أخلاقي في الأساس، ولا ينبغي أن نلقي بأيدينا إلى التهلكة ولكن على الأقل ألا نقتل النخوة والمروءة في نفوسنا! إذ المطلوب التعاطف المعنوي مع أسر المصابين إلى جانب التعاطف المادي؛ كأن نشتري لهم طعامًا جاهزًا ونضعه أمام باب شقتهم دون ملامسة ومع استدعاء كل أساليب الوقاية والاحتراز، أو حتى نتابعهم هاتفيًّا ونسأل عن حالهم وصحتهم ونهدئ من روعهم ونطمئنهم ونخرجهم من همهم وحزنهم وضيقهم إلى سعة رحمة الله ولطفه.(الريان، 2020، أخلاقيات التعامل مع مريض كورونا وعائلته)

د- مشكلات أخلاقية متعلقة بالدولة أو الحكومة:

هل يجب على الدولة أن تفصح عن حالة انتشار المرض بشفافية لتوعية الناس بالمخاطر المحيطة بهم، أو لها أن تخفف من ذلك بحجة عدم إثارة الذعر بين الناس؟ (معتز، 2020).

وهل حظر السفر وإغلاق المطارات والمساجد والأسواق مبَرَّر أخلاقيًّا؟ وهل إجراءات العزل الاجتماعي والحجر الصحي مسوَّغة أخلاقيًّا؟ وإذا كانت مبرَّرة فكيف نضمن وصول الاحتياجات الأساسية إلى الناس في هذه الحالة؟ وإذا كان التفكير في مصلحة النفس شعورًا فطريًّا فما التصرف الأمثل أخلاقيًّا تجاه الفقراء والمساكين الذين يعيشون يومًا بيوم في هذه المحنة؟ (معتز، 2020).

إلى جانب ارتباط التساؤلات الأخلاقية في زمن الأوبئة، والتي تتناول الدولة والفرد والجماعة، بأخلاق الفضيلة كما أوضحنا آنفًا، تكون" الأخلاق المعيارية" التي تقوِّم الأفعال أيًّا كان فاعلها، وحيث إنها تتناول الأفعال فهي غير محدودة، وتتصل بتعقيدات العلاقة بين الدين والقانون والأخلاق. ثم إنّ الأوبئة تفرض علينا تصرفات استثنائية تعارض ما استقر عليه الأمر من حقوق وأحكام في الأحوال الطبيعية؛ فالسياسات الصحية مثلاً تنحو نحو تقييد حريات وتحركات الناس، كالعزل الاجتماعي الطوعي، والعزل الصحي للمرضى، والحجر الصحي لمدينة أو منطقة، والذي قد يشمل المرضى والمشتبه بهم والأصحاء معًا، وكلها إجراءات تتعارض مع الحقوق الأساسية للإنسان وتحتاج إلى تسويغات أخلاقية؛ بحيث تكون مؤسَّسة على مبادئ وتعليلات مُحْكَمَة (معتز، 2020).

وهذا يجعلنا نتساءل: هل لسلطات الدولة الحق المطلق في الحجر الصحي على الأصحاء وتقييد حريتهم؟ وماذا لو تعارضت الحرية الفردية مع الحرية الجماعية أو مع حرية الإرادة العامة فيما يتعلق بالحقوق الصحية الذاتية أو المتعلقة بالغير (الغيرية)؟ وما المعيار الذي يفصل بين أولوية تفضيل أي من هذه الحريات؟

وهل يمكن للفلسفة أن تقدم لنا معيار المعيار فيما يتعلق بهذه الإشكاليات الأخلاقية؟ وما معيار المقارنة بين المعايير المتباينة في المجالات المختلفة: الصحية، السياسية، والأمنية، والاقتصادية، والاجتماعية والإنسانية...؟ وهل من الممكن

أن تتوحد هذه المعايير في معيار كلي شمولي واحد؟ أو كيف تُعطى الأولوية لمعيار صحي على معيار اقتصاد الدولة أو العكس في وقت معين؟ ومن الذي يحدد ذلك؟

لا شك أن الدولة مسؤولة أخلاقيًّا عن الصحة العامة للمواطنين، خصوصًا أن أي خطر مثل هذا الوباء سيعرّض إمكانات الدولة للأضرار؛ مما سيؤثر على مستقبلها ومسارها كما حصل في أوبئة عديدة حصدت تاريخيًّا جماعات من الناس، واستنفدت قوى الدولة مما سرَّع بانهيارها سياسيًّا واقتصاديًّا واجتماعيًّا (معتز، 2020).

يرجع معيار التفضيل لما تنص عليه الدساتير والقوانين أو لأولويات سلم القيم بالنسبة للدولة؛ فالمعيار الأساس للدول جميعها هو السعي للمحافظة على جميع المواطنين، ولكن في ظل الظروف الاستثنائية تتفاوت المعايير وتختلف، فبعض الدول تنظر للاقتصاد بغض النظر عن عدد الوفيات من المصابين، في حين تعطي دول أخرى الأولوية للإنسان في ذاته أو على حسب الشريعة التي تؤمن بها أو ما ينص عليه الدستور.

أما عن سؤال هل ينبغي أن نهتم أخلاقيًّا بالدولة التي انتشر فيها الفيروس أم بالدول المجاورة لها التي تتوقع إصابتها بالفيروس؟ فتكون الإجابة عنه من خلال العنصر التالي.

2- المشكلات الأخلاقية المرتبطة بالوضع العالمي:

إجابة عن السؤال السابق يخضع هذا الأمر لمنظمة الصحة العالمية ووفقًا لمواثيق ومعاهدات النظام العالمي الذي سيأخذ بمبدأ مساعدة الأكثر تضرُّرًا أولًا.

هل يعد عملًا أخلاقيًّا أن تقوم دولة ما بالاستيلاء على صفقة أدوية ومستلزمات طبية لمساعدة مصابي جائحة كورونا مرسلة من دولة لدولة أخرى كانت قد طلبت منها الإغاثة واستنجدت بها فقامت الدولة الأولى بهذه الفعلة؟ وماذا لو كانت الدولة المغتصبة للأدوية والمستلزمات أكثر حاجة لها من الدولة المبعوث لها بها؟ أو العكس؟

هذا ما حدث حينما كان فيروس كورونا يحصد مزيدًا من الأرواح والإصابات، في الوقت الذي كانت بعض الدول تواصل" السطو" على الأجهزة الطبية لدول

أخرى، كان آخر ذلك اتهام شركة سويدية، الجمعة 3 أبريل/نيسان 2020، للسلطات الفرنسية بمصادرة ملايين الأقنعة الواقية والقفازات الطبية، ووضعت يدها عليها والتي كانت استوردتها من الصين لصالح إيطاليا وإسبانيا. ووصف المدير التنفيذي للشركة، ريتشارد تومي، في البيان، تصرُّف السلطات الفرنسية بأنه غير متوقع و"مزعج لأبعد الحدود" (نشرة كورونا.. دول متقدمة تواصل "السطو" على المعدات الطبية، والضحايا بالمنطقة العربية يزيدون، 2020).

إن عمليات السطو هذه تتنافى مع القيم الأخلاقية السامية مهما كانت قوة الحجة التي استندت إليها، إذ كان من الأوجب أن تستأذن الدولة صاحبة الحق أو تطلب تدخلًا من منظمة الصحة العالمية.

كما يثيرنا أيضًا تساؤل: هل يعدّ عملًا أخلاقيًّا تهجير الأجانب من الدولة بحجة عدم القدرة على مساعدتهم أو علاجهم في إصابتهم بالفيروس أو قبل إصابتهم؟ وهل يُعد تفضيل مواطني الدولة المصابين بالفيروس على الأجانب عملًا أخلاقيًّا؟ وهل رفض الدولة إرسال طائراتها برعايا دولة أخرى لنقلهم إلى بلادهم بحجة توقف الطيران يكون أخلاقيًّا؟ وماذا عن دور منظمة الصحة العالمية في التعامل مع الدول؟ هل الأولى أن تهتم بالخمس دول الكبرى ثم بالدول الأعضاء أو أن تعامل جميع الدول على قدم المساواة؟

كل هذا يقع تحت قضية حقوق الإنسان التي تقع في قلب الحديث عن الأزمة الوجودية التي يواجهها العالم حاليًّا بفعل تفشي وباء فيروس كورونا. والمشكلة تكمن في توظيف هذا الوباء من قبل جهات معينة لتحقيق أهداف سياسية، سواء كانت نظمًا حاكمة أو قوى سياسية، وهذا الأمر لا يجوز من الناحية الأخلاقية، فاحترام حقوق الإنسان قضية أساسية، ولا يجب استغلالها لتحقيق أهداف خاصة، والحديث ينبغي أن يكون حول الأولوية القصوى لمواجهة هذا التحدي الخطير دون تأثيرات سلبية على حقوق الإنسان (عبد الهادي، 2021، ص 91، 92).

لذا ينبغي على دول العالم أن يكون للقانون الأخلاقي قبل القانوني سلطة عليها، لا أن يكون لتلك الدول السلطة على هذا القانون، وإن كان ثمة قواعد المجاملات الدولية إلا أنها لا تتخذ صفة الإلزامية والوجوبية خاصة في ظل الأزمات العالمية

التي تبحث كل دولة فيها على مصلحتها الخاصة دون النظر للمصلحة أو المنفعة العامة.

وفي الختام، إذا كانت المشكلات الفلسفية ليست لها حلول محددة، فلماذا يتوقع من الفلاسفة أن يكونوا أكثر أهمية من علماء الأوبئة؟ وفقًا لـ برودبنت؛ فإن الفلاسفة يتم تدريبهم على معالجة مثل هذه المشكلات، وبالتالي يمتلكون مهارات تمكنهم بشكل أفضل من تحديد نوعيتها للبدء بها، وتمييزها، وتوضيحها. ورغم هذه المهارات إلا أن الفلاسفة لا يمكنهم حل القضايا بشكل نهائي، ولكن يساعدهم منهجهم على" التقليل من أو رفض بعض الخيارات وتجنب التناقضات" (University of Johannesburg Philosopher).

نتائج البحث:

1) لا غنى لعلماء الأوبئة عن فلاسفة علم الأوبئة، لذا وجب على علماء الأوبئة أن ينصاعوا لتقبل أفكار فلاسفة علم الأوبئة ورؤاهم البنَّاءة ووضعها محل الاعتبار، وأن يستجيبوا لتوسعة النظرة حول أسباب تفاقم مشكلات علم الأوبئة بدلًا من الرؤية الفردية المنحصرة في سبب واحد دون غيره.

2) من أشهر فلاسفة علم الأوبئة المعاصرين" برودبنت" الذي توصل إلى أن علماء الأوبئة يسلكون نهجًا استبداديًّا فيما يتعلق بقضية السببية، بينما يسعى فلاسفة علم الأوبئة إلى الاستكشاف والبحث عن الخيارات والبدائل وحرية الاعتقاد بالإجابات اللانهائية.

3) واجهت علماء الأوبئة وما زالت مشكلات فلسفية عويصة منها مشكلة السببية والتنبؤ التي عجزوا عن إيجاد حلول مناسبة لها؛ بسبب عدم استعانتهم بالفلاسفة الذين بإمكانهم الاطلاع على هذا العلم والسعي لحل مشكلاته.

4) إن الاهتمام بالمجال الأخلاقي تجاه مشكلات الأوبئة يفيدنا في تحديد المبادئ والقيم الأخلاقية التي تحكم أفعالنا في زمن الأوبئة والأمراض المعدية، ويساعدنا على صياغة أولوياتنا واختياراتنا، ويعيننا على تحديد ما هو صالح أو غير صالح، بطريقة منظمة يتحقق فيها الاتساق والتماسك والعقلانية بالاستناد إلى المصادر التي يُسَلِّم بها مجتمعٌ ما(الدين والعقل والعرف...) وكل هذه البراهين الأخلاقية ضرورية فيما يتعلق بفلسفة علم الأوبئة.

5) أخلاقيات الأوبئة تقوم- شأنها شأن الأخلاقيات المعيارية عامةً- على الدليل الأخلاقي، وتقديم معايير لتحديد الأولويات والموازنة بين فعلين أو أكثر لتحديد ما هو أمثل أو أصلح، ولكن الأهمية تزداد حال الحديث عن أفعال وتقويمات في زمن استثنائي، والذي يمكن في هذا الاستثناء التمييز بين حالتيْ الضرورة والطوارئ.

6) في أخلاقيات الصحة العامة يكون المعيار الأخلاقي الأقرب للصواب هو تقديم الحق العام(حق الجماعة أو المجتمع) على الحق الخاص(حق الفرد) حال تعارضهما.

7) تركز أخلاقيات البيولوجيا بشكل عام على قيم أخلاقية سامية ينبغي الالتزام بها وكان من أهمها قدرة الفرد على اتخاذ القرارات بنفسه، والسعي لفعل الخير من أجل الآخرين وعدم إيذائهم، والعدل والإنصاف بين جميع المرضى والمصابين.

8) على الرغم مما قدمه فلاسفة علم الأوبئة من معايير أخلاقية ينبغي على العلماء الالتزام بها إلا أنها معايير غامضة Vague من ناحية، وغير شاملة Incomprehensive من ناحية أخرى؛ وذلك نظرًا لتنازع القيم الأخلاقية مع بعضها في الموقف الواحد، والذي يمكن أن يُحسم هذا النزاع إما المصلحة العامة، أو تقدير الطبيب وفقًا لمرجعيته الأخلاقية والبيئية.

9) وأخيرًا، توصي الدراسة بضرورة رصد ميزانية مخصصة للصحة العامة وتشجيع البحوث العلمية المعنية بالأوبئة العامة وكيفية مواجهتها.

المصادر والمراجع:

أولًا. المؤلفات المترجمة:

(1) أبقراط (1885): كتاب الأهوية والمياه والبلدان، نقله إلى العربية: شبلي شميل، القاهرة، مطبعة المقتطف.

(2) بيغلهول، ر. و بونيتا، ر.(1997): أساسيات علم الوبائيات، ترجمة، كييلستروم، بيروت- لبنان، المكتب الإقليمي لمنظمة الصحة العالمية.

(3) رزنيك، ديفيد ب. (2005): أخلاقيات العلم، ترجمة، عبد النور عبد المنعم، مراجعة، يمنى الخولي، الكويت، سلسلة عالم المعرفة، العدد 316.

(4) ساراتشي، رودولفو (2015): علم الأوبئة مقدمة قصيرة جدًا، ترجمة: أسامة فاروق حسن، مراجعة، مصطفى محمد فؤاد، الطبعة الأولى، القاهرة، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة.

(5) غليك، جايمس (2008): نظرية الفوضى علم اللامتوقع، ترجمة: أحمد مغربي، الطبعة الأولى، بيروت-لبنان، دار الساقي.

(6) لجان أخلاقيات البحوث: المفاهيم الأساسية لبناء القدرات (2013)، منظمة الصحة العالمية، المكتب الإقليمي لشرق المتوسط، شركة Punto Grafico ، القاهرة.

(7) مكاوي، عبد الغفار(2019): دعوة للفلسفة كتاب مفقود لأرسطو، الطبعة الأولى، القاهرة، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة.

(8) هوندرتش، تد (المحرر) (2003) دليل أكسفورد للفلسفة، ترجمة، نجيب الحصادي، الجزء الأول، ليبيا، المكتب الوطني للبحث والتطوير.

ثانيًا، المراجع العربية:

(9) الخولي، يمنى (2014): فلسفة العلم في القرن العشرين: الأصول، الحصاد، الآفاق المستقبلية، القاهرة، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة.

(10) درويش، بهاء (2020): أخلاقيات العلم والتكنولوجيا وتطبيقاتها في الواقع المعاصر، الإسكندرية، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الطبعة الأولى، 2021.

(11) عبد الهادي، درار (2020): جائحة كورونا covid 19 وتأثيرها على ممارسة الحقوق والحريات والبدائل المطروحة. حق التعليم – نموذجًا- في كتاب: جائحة كورونا كوفيد-19 بين حتمية الواقع والتطلعات، مجدوب نوال (المحرر)، المركز الديمقراطي العربي للدراسات الاستراتيجية والسياسية والاقتصادية، ألمانيا/برلين.

ثالثًا، المقالات العربية:

(12) الخطيب، معتز (2020): الطب النبوي رؤى نقدية "الطب النبوي" مفهومه ونشأته، موقع الجزيرة، بتاريخ: 16 أغسطس 2005، الدخول: 2021/1/8. https://webcache.googleusercontent.com/

(13) الخطيب، معتز (2020): كورونا وأخلاقيات الأوبئة، موقع الجزيرة، بتاريخ: 1 أبريل 2020، الدخول: 2021/1/8. https://webcache.googleusercontent.com/

(14) الريان، جميل(2020): أخلاقيات التعامل مع مريض كورونا وعائلته، المركز الديمقراطي للدراسات الاستراتيجية والاقتصادية والسياسية، بتاريخ: 2020/5/29، تم الدخول: 2021/1/9.

https://democraticac.de/?p=66816

(15) السببية، موقع رؤية بيديا، تم الدخول: 2020/11/15.

http://www.roayapedia.org/wiki/index.php

(16) العاصي، حسن(2019): لَيْ الأعناق في صراع الأعراق.. عنصرية الفلسفة، جريدة الحدث، فلسطين، بتاريخ: 2019/4/27، /www.alhadath.ps/article/98011

(17) الموسوعة الحديثية شروح الأحاديث، الدرر السنية، https://www.dorar.net/hadith/sharh/86902

(18) إياد قنيبي: كورونا وكبار السن والأولويات، طريق الإسلام، بتاريخ: 2020/4/2، تم الدحول: 2020/11/25. https://ar.islamway.net/video/85725

(19) رجاء، يحيى أحمد(2020): السببية في الدراسات الوبائية، قسم الوبائيات، كلية الصحة العامة والمعلوماتية الصحية بجامعة أم القرى، السعودية، 23 أكتوبر 2017م، تم الدخول: 2020/11/20. https://www.spa.gov.sa/1422419

(20) عبد القهار، محمد(2017): الطاعون الأسود: مرض معد أم طعن من الجان؟ بتاريخ: 2017/02/20، تم الدخول: 2021/1/6. https://www.ida2at.com/black-plague-a-contagious-disease-or-elves-stabbing/

(21) عبد المحسن، رحاب (2020): أخلاقيات طبية منسية في أثناء الجائحة العالمية، عن مجلة (SciDev.Net (MENA، بتاريخ: 2020/5/12. https://www.scidev.net/mena/scidev-net-at-large/medical-ethics-forgotten-during-covid-19/

(22) علام، أمل(2020): بسبب فيروس كورونا.. أيهما أولى بدخول الرعاية المركزة كبار السن أم الأصغر؟ اليوم السابع، الأحد، 15 مارس 2020، تم الدخول: 2020/11/15. https://www.youm7.com/story/2020

(23) فيروس كورونا: تعرف على أبرز الأوبئة التي ضربت العالم وقتلت الملايين، موق بي بي سي العربية، 29 فبراير/ شباط 2020. https://www.bbc.com/arabic/science-and-tech-51675634

(24) قسم الوبائيات، كلية الصحة العامة والمعلوماتية الصحية بجامعة أم القرى، السعودية، 8 أبريل 2018. https://www.spa.gov.sa/1422419

(25) محمد، كه يلان(2020): الفلسفة في مواجهة فايروس كورونا، صحيفة المدى، العراق، بتاريخ: 2020/3/14. https://www.almadapaper.net/view.php?cat=225299.

(26) نشرة كورونا.. دول متقدمة تواصل "السطو" على المعدات الطبية، والضحايا بالمنطقة العربية يزيدون، عربي بوست، بتاريخ: 2020/4/10. https://arabicpost.net

(27) نظرية تأثير الفراشة شرح بطريقة مبسطة، مجلة صوت، بتاريخ: 4 نوفمبر 2017، تم الخول: 2021/1/5. https://www.ultrasawt.com/

رابعًا، المراجع الأجنبية:

(28) Broadbent, Alex (2011): Epidemiology, risk and causation: Conceptual and methodological issues in public health science, Published by PHG Foundation, 2 Worts Causeway, Cambridge, www.phgfoundation.org.

(29) Broadbent, Alex (2013): Philosophy of Epidemiology, University of Johannesburg, South Africa, Palgrave Macmillan, US.

(30) Fischer, Rebecca S.B. (2020): What's the difference between pandemic, epidemic and outbreak?, March 9, 2020. 2.21pm SAST, Accessed: 25/3/2020.https://theconversation.com/whats-the-difference-between-pandemic-epidemic-and-outbreak-133048.

(31) Levin, Jeff (2013): Alex Broadbent: Philosophy of Epidemiology, Palgrave Macmillan, New York, Springer Science+Business Media Dordrecht 2013 Theor Med Bioeth.https://www.baylorisr.org/wp-ontent/uploads/2019/11/2014-TMB-Review-of-Broadbent.pdf.

(32) Philosophy and medicine, Explanation and prediction in population health Cosponsored by the International Philosophy of Medicine Roundtable, Columbia University Epidemiology Scientific Symposium. Accessed: 25/3/2020.

(33) Principles of Epidemiology: An Introduction to Applied Epidemiology and Biostatistics, Second Edition, Epidemiology Program Office Public Health Practice Program Office, Atlanta, Georgia, U.S.

(34) The Philosophy of Epidemiology, University of Johannesburg 12-13 December 2011, The Faculty of Humanities at the University of Johannesburg The Department of Philosophy at the University of Johannesburg.

(35) University of Johannesburg Philosopher Seeking To Develop Philosophy of Epidemiology As A New Sub-Discipline, The Voice of Epidemiology, 2011 The Epidemiology Monito, Accessed: 21/3/2020.https://www.epimonitor.net/Philosophy_of_Epidemiology.htm.

(36) Wassertheil-Smoller, Sylvia (2004): Biostatistics and Epidemiology A Primer for Health and Biomedical Professionals, Springer-Verlag, U.S.A.

فينومونولوجيا الجائحة ونوستالجيا التعايش الوبائي

د . مهيدي خالد
جامعة جيلالي اليابس سيدي بلعباس/مخبر الفكر الاسلامي في الجزائر
khaledmehidi4@gmail.com

ملخص الدراسة:
لا شكّ أن مقاربة جائحة الكورونا، من الناحية الفلسفية والابستمولوجية تقودنا إلى تسجيل نوعين من الخطاب، الأول يؤشر لمسألة الوقاية وما ينجر عنها من عمليات طبّية وميدانية وأخرى تؤشّر للمقاربة التوعوية والتحسيسية، وواقع الأمر يشير بأنّ قلق هذه الجائحة العالميَّة ناجم عن كونها غير مسبوقة في تاريخنا البشري، حيث تبدو كما لو أنّها لغز محير، فالأمر يتعلّق بكائن مجهري غير حيّ ولا مرئي، انعكس سلبا على حياة الإنسان المعاصر وأفرز أزمات سيكو-سوسيولوجية تتعلق بالهوية والمصير والكينونة، وحتى لا نعمّم الحكم بخصوص هذه المسألة، فإنّ البعض من استطاع فعلا أن يتخلص من نمطيَّة الحياة اليوميَّة الراهنة، والتمكّن من ممارسة أيّ نشاط مفضّل يعبر عن الوعي والروّية، مثل الكتابة، التأليف، قراءة كتب وممارسة الرياضة أو حتى تعلّم بعض المهارات الفنيّة، وهي كلّها سلوكات عكسية تنّم عن تحيين روح الإبداع الإنساني والتعايش مع الوباء.

الكلمات المفتاحية:
الابستمولوجية، الهوية ، المصير، الوعي، التعايش.

مقدمة:

إذا كانت جائحة كوفيد covid19 قد هزّت الكيان الإنساني في الأشهر القليلة الفائتة، وزعزعت أوصاله، وصدمت قيمه الأخلاقية، فإنّها من زاوية أخرى فتحت مسالك جديدة للوعي الكوني الأعمق في مستويات كثيرة، على غرار الفكر، الأخلاق، الاقتصاد والفلسفة، وعلى هذا الأساس كانت مساءلة هذه الباتولوجيا من الناحية الابستمولوجية متبوعة بالكثير من المسلمات الإبستمية الجديدة التي تخلخل البديهيات وتجترح الأساطير القديمة، فأيقظت الضمير الإنساني من سباته الضارب

في غياهب السكينة الحضارية، وقد جاءت هذه الضربة لتسقط الأنساق المعاصرة ما بعد الإنسانية التي ترى أن مستقبل العالم الراهن والقادم هو نوع من الخلود الإنساني الحافل بالمعجزات الحضارية والطفرات التكنولوجية التي أسفرت عن الثورة المعرفية الرقمية المعاصرة، من هنا جاءت مداخلتنا لتسلّط الأضواء على الجانب الآخر من هذه المعادلة كي نكشف عن البعد الهوياتي إزاء التسارع الرهيب في انتشار الجائحة، وقد لا يكون في الأمر مبالغة إذا قلنا بأنّها شكّلت صدمة أيقظت الإنسان من غفلته الحضارية، ولتهزم غروره وبالتالي يستشعر عجزه إزاء استشراف مستقبله الغامض، وإذا كانت جائحة كورونا قد شغلت أذهان رجال الدين وهزّت قداستهم جرّاء تبعاتها المجحفة، فإنّها لم توفر لدى رجال السياسة وقتا للتفكير السديد بحال من الأحوال، فهزتّ أسوار رئاستهم المنيعة على غرار أفراد شعوبهم المغلوبين على أمرهم، كما تغلغلت في كبرى الشركات الاقتصادية لتحيلها إلى الإفلاس، جرّاء صدمتها القاسية على رجال الأعمال وأرباب العمل، ولعل ما قد يأتي قد يكون أشد وقعا وأعظم هولا، لذلك لم ينفع المال الأغنياء ولا الساسة حنكتهم، ولا الجيوش قوتهم، ولا المؤسسات الدينية هالتها المقدسة، وما زال العلم غير قادر بل وعاجز حتى اليوم عن مجابهة هذا التحدي المفزع للمصير الإنساني لفيروس متناهي الصغر.

نعم هو فيروس ميكروسكوبي ولكنه أحدث بتأثيره الكبير أزمة عميقة جديدة تمس البعد الانطولوجي للإنسان، تجعلنا نعيد النظر بروية في ثقله وموقعه المزعوم في هذا الكون، وبوصفه مركزا في الكون وصانعا للحضارة، وهذا في حسباننا ليس إجحافا في حق العلم أو إنقاصا من شأنه، بل هذه الباتولوجيا تعد حافزا قويا لمحاولات العلماء المعاصرين في زيادة الابتكار والإبداع العلمي، وعلى هذا الأساس كشف خبراء البيولوجيا في الفترة الراهنة عن وجود جحافل من الفيروسات الكامنة في تلافيف الجبال الجليدية للقطب الشمالي المتجمد، كما يعتقدون أيضا أنّ طبقات السماء العليا تحمل في طياتها جائحات فيروسية أعظم وأشد فتكا من كوفيد 19 قد يحرّرها الاحتباس الحراري، نعم هناك الكثير الذي ينتظر الإنسانية جمعاء، وعلى هذا الأساس فإن كل هذه التحولات غير المسبوقة في تاريخ البشرية يحيلنا إلى السؤال التالي: إلى أي مدى أثرت جائحة كورونا في

الإنسان المعاصر؟ وأين يكمن تموضع الإنسان في هذا الزمن الرهيب مع تكاثف أزمات البيئة وتعاظم التطور البيولوجي؟

1-مركزية الإنسان ونوستالجيا السيطرة على الطبيعة: فلسفة الكورونا من الناحية الابستمولوجية لها أسباب يمكن النظر إليها من زاويتين: فقد يكون التوحّش في العادات الغذائية السيئة للإنسان المفارقة لطبيعته كأكل الحشرات النيئة وبعض الحيوانات المتوحشة، أو قد تكون مصادره نوعا من الحروب البيولوجية التي تخوضها الدول الكبرى في الصراع من أجل السيطرة على العالم، ومهما يكن الأمر فإن جائحة كورونا تثير راهنا قضايا فكرية مختلفة المجالات ترتبط بالأدب والفلسفة وعلم الاجتماع، وعلم الاقتصاد وهي في الوقت ذاته ستكون أكثر القضايا مساءلة للوعي الفلسفي الجديد الذي يتعلق بمركزية الإنسان وهويته ضمن مركزية الكون أي بوصفه غاية للوجود وصانعا للتاريخ، من هنا يمكن أن نستشف أربع فهوم كبرى لمفهوم مركزية الإنسان في الكون تقابل أربع أنساق إبيستيمولوجية غيّرت في مفاهيم الإنسان عن الكون والوجود، هذه المركزية بدأت تنهار مع فجر التاريخ وولادة العلم الحديث، فضربت بثلاث ضربات الأولى قدّمها انيكولاس كوبرنيكوس (1473-1543) Nicolas Copernicus عندما قال للإنسان بأن الأرض التي تظن أنّها مركز الكون ليست سوى نقطة دائرة تائهة في السماء، وأن مركز الكون هو الشمس، وقد أدى هذا الاكتشاف العظيم إلى الإطاحة بكل التصورات الكلاسيكية السائدة منذ بطليموس عن مركزية الأرض بوصفها محورا للنجوم والكون، وقد أدت هذه النظرية إلى انقلاب ثوري في مكانة الإنسان نفسه ودوره في هذا الكون العظيم، بحيث أطلق على هذا الاكتشاف وما أحدثه من اهتزازات عظيمة في الفكر والفلسفة والعلم بالثورة الكوبرنيكية التي أسّست لنظام جديد ورؤية جديدة في مختلف مظاهر الوجود الإنساني، حتى أصبح تعبير الثورة الكوبرنيكية مفهوما يطلق على كل أشكال التحولات الجذرية الانقلابية في الكون(فلوريدي ، الثورة الرابعة كيف يعيد الغلاف المعلوماتي تشكيل الواقع الإنساني، 2017)، أما الضربة الثانية تتمثل في المركزية الأخلاقية للإنسان، عبر ما يطلق عليه لوتشيانو فلوريدي الثورة الإبيستيمولوجية الثانية، وذلك عندما نشر تشارلز دارون (1809-1882) Charles Darwin كتابه

أصل الأنواع (the Origin of Species) ، الذي يتضمّن نظريته في تطور الأنواع عبر مقولة البقاء للأصلح في منظومة الصراع من أجل الحياة، وقد بيّن دارون أن الإنسان سليل الكينونة الحيوانية ولا فضل له عن الحيوان كفضل مائز إلّا في درجة التطور، وأدت النتائج العلمية الجديدة لنظريته إلى إزاحتنا مرة ثانية من مركز المملكة البيولوجية، وكما هو الحال مع الثورة الكوبرنيكية،" ما زال بعض الناس يقاومون فكرة التطور، من منطلقات عقائدية دينية. لكن معظمنا قد تخطاها، وواسينا أنفسنا بنوع مختلف من الأهمية ودور مركزي جديد في مكان مختلف، دور يتعلق بحياتنا العقلية" (فلوريدي ، الثورة الرابعة كيف يعيد الغلاف المعلوماتي تشكيل الواقع الإنساني، 2017)، بينما الضربة الثالثة فصاحبها سيغموند فرويد الذي اكتشف أن العقل ما هو إلاّ جزء من كينونة النفس البشرية، ليشكل جزءا من عشرة أعشار أخرى هي اللاّوعي، بل اللاّشعور أو الوعي هو الذي يتحكم في العقل والوعي، فصار العقل عبدا للاعقل، إذن جاءت الصدمة الثورية الثالثة بالمطرقة السيكولوجية لنظرية فرويد الذي حطم أوهام مركزية العقل والوعي الإنساني خلال عمله في التحليل النفسي، وللمرة الأولى تظهر في الإنسان العاقل الحكيم المتفرد المساحة اللاشعورية الواعية بوصفها جوهر الشخصية والبعد الأعمق للوعي الإنساني، وقد بين فرويد أيضا أن معظم السلوك الإنساني يحدث بعفوية معقدة يلعب فيها الوعي دورا محدودا، فلم يعد الإنسان هو الرجل الحكيم العاقل بالمطلق الذي يسيطر على سلوكه ويدبّر الحياة وينظر إلى الكون من خلال منظور عقلي يتّسم بالوعي الكامل، فالسلوك الإنساني يشكّل تدفقا لانهائيا يكون في أغلبه شديد الغموض، لأنه يصدر عن طبقات عميقة متوغلة في الجبل الجليدي للوعي العائم في جوف المحيط.

2- الإنسان في زمن الجائحة بين الخطر الأنطولوجي ووهم العلم:

مع حلول سنة 2020 ظهرت الضربة الرابعة المتمثلة في باتولوجيا الكورونا لتؤكد من جديد التمركز الجانبي للإنسان ضمن الكون، وإذا كانت نظرية دارون كشفت عمق الصلة بين الكينونة الإنسانية والكينونة الحيوانية، جاءت ثورة "الكورونا" لتحيلنا إلى نظرة مستفيضة وعميقة بين الإنسان وكائن مكروسكوبي يسمى الفيروس، أي هناك جذر مشترك بين الدقائق الحية والإنسان، فالبشر كما

يقول فتحي المسكيني مجرّد مساحة بكتيرية أو فيروسية عابرة للأجسام الحيوانية، وليس صورة إلهية مطبوعة على صلصال مقدّس (المسكيني، الفلسفة والكورونا من معارك الجماعة إلى حروب المناعة، 2020)، وكذلك فإن هوية أجسادنا لا توجد بين أيدينا، في مساحة أخلاقية مرئيّة يمكننا أن نسيطر عليها، بل أصبحت مسارات وراثية تتخطى الادعاء الأخلاقي للبشر من أجل أن تعيدهم إلى التركيبة الخلويّة التي يشتركون فيها مع النبات والحيوان، تلك التي أقامت الإنسانية التقليدية لفترات متطاولة انفصالها الأخلاقي أو الميتافيزيقي عنها (المسكيني، الفلسفة والكورونا من معارك الجماعة إلى حروب المناعة، 2020) ، ولعل هذا ما أشار إليه ليفي ستراوس حول تلاشي الفواصل الجوهرية بين الإنسان والحيوان، ولاحقا بين الإنسان والبكتيريا، وذلك عبر تعليف الماشية بلحوم ميتة قبل أن يستخدمها الإنسان، على النحو الذي ينتقل فيه الفيروس الغامض من الحيوان إلى الإنسان، هادما الحواجز الطبيعية والثقافية العميقة بين النوعين، وإذا كان داروين قد أكد على تفوق الإنسان في دورة الاصطفاء وغائيته في مملكة الحيوان، فإن المعادلة الأكثر أهمية والأشد وقعا تكمن في ثورة الفيروس، لأن الفيروس يأخذ في هذا السياق دور الفاعل والإنسان دور المنفعل، وبعبارة أخرى تنعكس المعادلة بين ذاتية الإنسان وموضوعية الحيوان لتتحول إلى موضوعية الإنسان وذاتية الفيروس، بمعنى أن الإنسان قد أصبح موضوعا للفيروس، فالفيروس يهاجم الإنسان ويحوّله إلى مادته المفترسة، وفي الوقت نفسه يلعب دورا ذكيا إذ يتلوّن ويجتهد ويغيّر من هيئته ويخرج على شاكلة أكثر ذكاء وقدرة على التخفي تتمثل في إعادة نسخ نفسه بأشكال خفية تتسم بالدقة، وإذا كان ذكاء الفيروس قد تغلب على الذكاء البيولوجي للإنسان، فإن المعضلة تتمثل في أن ذكاء هذا الفيروس تغلب حتى اللحظة على الذكاء العلمي للبشر الذين لم يستطيعوا حتى الآن الكشف عن المضادات الحيوية التي يمكنها أن توقف زحف هذا الوباء الجائح، وإذا ما استطاع الإنسان في القريب العاجل أن يجد البلسم الشافي للكورونا فإن الخطر يبقى ماثلا في الوجود، ويتمثل هذا الخطر بأن الكورونا ليس إلا واحدا من ملايين الفيروسات الذكية التي تنتظر فرصتها يوما في اجتياح أجساد، فهل سيكون في مقدور الإنسان أن ينتصر دائما؟ و ماذا لو خسر الإنسان

حربا واحدة مع فيروس مستجد لا يرحم؟ فالخسارة الواحدة قد تنتهي إلى إفناء الجنس البشري على الأرض، وهذا أمر محتمل لاسيما في أجواء الحروب الحيوية التي تديرها الشركات الكبرى والدول" وهناك دراسات تشير إلى أن سبب الانقراض هو البكتيريا التي حملها الرجل الأبيض إلى أرض القارة الأمريكية والتي كانت أسرع من حامليها في غزو وأمم لا تملك الحصانة الكافية ضدها ففنت وانتهت وذهبت في خبر كان " (الماجري، 2020)، وفي هذا يتصور الصحبي الماجري أنّ انتشار كورونا يعيد لأذهان الناس كل هذه البشارات حول نهاية العالم ويعيد للواجهة كل النبوءات التي تتحدث عن نهاية الحضارة المعاصرة عبر فيروس قاتل يخرج من مخابر الأسلحة البيولوجية لا يمكن السيطرة عليه، فنحن" إذن أمام وضع جديد يختلف عن الأوبئة القاتلة التي عرفها التاريخ البشري، من موجات الطاعون المريعة في العصور الوسطى إلى الإنفلونزا الإسبانية في نهاية الحرب العالمية الأولى، والتي ذهب ضحيتها خمسون مليون قتيل من أشهرهم عالم الاجتماع الألماني "ماكس فيبر" والشاعر الفرنسي أبولينير والكاتب التشيكي فرانز كافكا " (ولد أباه، 2020).

3-البشرية بين هاجس المصير وتهديد الوجود:

لقد أفرز كوفيد 19 أزمة وعي كبرى وشعور لدى الإنسان بالانتماء الواحد إلى المملكة الإنسانية المفتوحة على العالمين الحيواني والجرثومي، ورغم أن هذا الإنسان أدرك في أزمنة سابقة بأنّ وجوده مهدّد بمخاطر لا حصر لها، فإنّه لم ينتبه أن الكائنات المجهرية التي تكون أعظم هذه المخاطر، لقد غيّر الكورونا نظرتنا للعالم، حيث أثبت بأن العالم مليء بالأسرار، وبرهن بأن الجميع متساوون أمام قانونه ولا تمايز لأحد على أحد، لقد حوّل الكورونا الـ "أنا" إلى الـ "نحن" وأن مصير كل إنسان متداخل مع الإنسان الآخر في نسيج منسجم وكلّ معقّد متحدّ، وكما قال المفكّر المغربي محمد المصباحي، إذ لم نفقد فقط حريتنا في التنقَل والعيش المشترك فحسب، بل أصبحنا تحت طائلة الرقابة والحجز والمنع والتحريم (المصباحي، 2020)، وفي هذا السياق يقول إيميل أمين" أجمل ما في الدروس التي أفرزتها أزمة فيروس كورونا رغم الألم والخوف أنها أعادت تذكير البشر بأنهم جنس واحد، يعيشون على كوكب واحد، ولعله من عجائب الأقدار مرة أخرى أن

يضرب الفيروس العالم في الذكرى الخامسة لإصدار البابا فرنسيس رسالته الشهيرة "كن مسبحا"، التي تتناول إشكالية التغيّرات الإيكولوجية وما تتعرض له البشرية من مخاطر تغير المناخ وظهور الأمراض والأوبئة على الإنسانية برمتها(...) لقد جاء كورونا ليضع البشرية أمام حقيقة مقطوع بها وهي أن مصيرها بات واحدا، لا سيما في ظل القرية الكونية التي نعيش عليها (ايميل ، 2020) ، ووجد البشر أنفسهم بين خيارين كلاهما مرّ : إمّا البقاء في المنازل وتحمّل سأم وقنوط جدران البيت وبطء الزمن، أو المغامرة بالخروج حيث العدوى الوبائيَّة محتملة. لكن الناس اليوم ليست لهم قدرة تحمل حياة العزلة وتبعاتها التي تفرضها هذه الجائحة، بل كثيرا ما اشتكوا من السأم الناتج عن لزوم البيوت، وكثر التصريح بعدم القدرة على تحمّل الوحدة والعزلة الإجباريَّة. هذا ما كشف عنه الوضع الجديد الذي فرضته ظروف الحجر الصحي، ليس بجديد من الناحية النفسيّة والاجتماعيّة، وإنّما هو معروف للإنسان، فقساوة الوحدة وملل الجلوس الطويل في غرف المنزل أمر لا يستطيع البشر تحمّله لمدّة طويلة، حيث الضجر والقلق والاكتئاب سيّد الموقف، فهل أعطى الحجر الصحي للبشريّة المعاصرة درسًا بليغا في التواضع من خلال الشعور بالملل، بدوره يصوّر الفيلسوف المعاصر نيكولاس جريمالدي(Nicolas Grimaldi) هذا الوضع بكونه يمثّل جانبا عفا عليه الزمن، حيث نسينا أن الأوبئة يمكن أن تكون عنيفة ومعدية، فتجعل الحياة هشّة للغاية، لكن عندما اتّخذنا حالة المجتمع الراهن بداهة يقينيّة، بدا لنا نظامه شبه طبيعي للتبادل، حيث لم يعد الناس يتصوّرون حالة البقاء في البيت لمدّة طويلة كهذه، لكن الآن فجأة وفي لحظة قصيرة، حوّلت جائحة كوفيد- 19 هذا المجتمع إلى حالة إغلاق تام، فبدت الأمور الاعتياديّة صعبة المنال، لقد نسي الناس فعلا أنّ ما يجعل الترفيه ضروريا، كما كان يقول الفيلسوف بليز باسكال، هو أنّه ينسينا ويحوّلنا من الاضطرار إلى التفكير في حياتنا الخاصّة، كي لا نضطر إلى التفكير في موتنا ونهايتنا، إذ لمّا مُنع الناس من مغادرة بيوتهم فقد صارت العودة إلى الذات أمرا يصعب تحمّله بالنسبة لأولئك الذين لم يتعودوا على ممارسة التفكير والتأمل، وهكذا شعر الناس بضيق الإقامة والضجر الخانق في مساكنهم وبالملل من أنفسهم. الشيء الذي أجَّج نوعا من قلق الوجود الحادّ،

تجلّت قسوة هذه الجائحة في معاناة أولئك الذين نشؤوا وترعرعوا في كنف الحياة المعاصرة المليئة بالمظاهر البرّاقة وإمكانيّات الرفاهية وتحقيق المتعة، حيث يتمّ فقدان العلاقة الأصلية مع الذات من ثمّ غرابة حياة الوحدة والعزلة يكمن تفرّد الإنسان الأساسي في أنّه يعي محدوديَّة حياته لكن بمعرفته تلك، ظلّ يفكّر في أشياء أخرى تنسيه هذه الحقيقة. إنّه يفكّر في اللّحظي متناسيا مصيره المحتوم بوضع هذه الفكرة تحت السجادة يذكرنا الفيلسوف مونتين (Montaigne) أنّه يجب أن يكون لديك طعم الموت في الفم، فلتقدير طعم الأشياء والحياة بشكل أفضل لا ينبغي الانغماس في تفاصيلها أكثر من اللازم، بل باستيعاب مكامن ضعفنا وهشاشتنا من خلالها، نتيجة لذلك لا يكفي الاهتمام بالجوانب الاستهلاكية والترفيهية المبالغ فيه، وإنّما بتقدير الحياة قدرها الحقيقي المتمثّل فلسفيا في وضع أنفسنا في الحاضر الحيّ وتحمّل مسؤوليتنا فيه، والظاهر أنّ تقييم الناس لحياتهم فيها لبس وعدم فهم بعمقها التراجيدي، لذلك تراهم لا يقدّرون غير جوانب الراحة والفرح والمتعة فيها، كما لو أنّها وعد هناء وموضوع رغبات لا حدود لها، لذلك ترى البشر عند كلّ محنة وكارثة يتباكون ويحزنون ويشتكون طلبا لتيسير الأمور، وعودة هذه الحياة إلى سابق عهدها، أي إلى حياة النعم والمسرّات، بمجرّد ما يظهر المرض فجأة أو تعمّ جائحة، يتسلَّل إلى الجميع الشعور بعدم الاستقرار وهشاشة الحياة والملل حين ملازمة مكان الإقامة، ويظهر في ظلّ هذا الحجر الصحي الذي نخضع له أنّ لا أحد يستفيد من هذه الحياة التي انتهت للتو، لكن الاكتشاف العظيم الذي يظهره هذا الموقف، هو أننا بالفعل لا نعيش لأنفسنا فقط، بل من أجل الآخرين أيضا، وهنا نكتشف أن حياتنا في البيت لا تساوي شيئا تقريبا ما دمنا لا نتمكّن من تحقيق هذا الأمر، هكذا تسهِم العزلة القسريّة في زيادة الإحساس بالملل والضجر، لأنّ مصيبة كلّ الناس تأتي من شيء واحد، هو عدم معرفة كيفية البقاء في راحة داخل غرفة، كما أشار إلى ذلك باسكال، مقابل ضياع التسلية وحرّيَّة التصرّف المتاحَين خارج المنزل، يمكن للتمارين الفلسفيَّة الروحيَّة أن تعطي الناس بعض الوصفات الفكريَّة لتجاوز هذا الضجر والقلق الناجمين عن ملل البقاء بالمنازل لمدّة طويلة.

4- مقاربة التعايش مع الكورونا:

لو نظرنا إلى الكورونا بكل أريحية وإيجابية، لتحوّلت مقاربة هذا المرض من الناحية العلمية والسيكولوجية والسوسيولوجية من نقمة إلى نعمة، من خلال الالتزام بالقرار الصحي المتمثل في البروتوكول الوقائي، الذي فرضته السلطة السياسية وفق أطر قانونية جديدة ومراسيم تتوافق وتحوّلات المجتمع المعاصر كارتداء الكمامة مثلا، وتطبيق البروتوكول الصحي، إن الأزمات الوبائية بهذا المنطق بقدر ما تكبّل الإنسانية وتهددها في شخصها فإنّها تنسج سلسلة من القيم الأخلاقية كالتضامن والتسامح والرأفة والصبر والتكافل وما إلى ذلك، كما عملت على الاشتغال على الذات وهندستها من جديد وتجفيف منابت أنانيتها، من أجل مكاشفة الداخل الإنساني واكتشاف ما تختزنه من قيم واستقلالية وروابط تغير الأنماط الشخصية وملامحها، ومن جهة أخرى تهم الفرد المواطن وتستفز السياسي وأصحاب الأموال والأقلام والمنابر، لنزع الأقنعة الوظيفية والأدوار المجتمعية والالتقاء في دروب لائقة حول الحقيقة الإنسانية لا بمعناها الديني التوظيفي في درجته الدنيا، وإنما بروحانيتها وأخلاقيتها دون فئوية أو شعبوية، ونتوقف في التأمل حول دلالات تهاوي عدد مهم من البراديغمات شأن التيارات الهوياتية والحداثوية التي توارت خلف الفزع والكارثة والعدمية، وكمنت في جحورها ما يثلج الصدر لتواتر الأفكار الإيجابية حول الخير الكامل في مواجهة الشر المطلق، الكورونا ليس فيروسًا فحسب، وإنّما في حسباننا هو مفهوم يتشّكل ويشكّل، لا ينفصل الكائن اللامرئي عن تشبيك المخفي، مما يشكّل لحظات تفكير وتأمل نعيش من خلالها فينومينولوجيا لها معاني المعيش، الحياة، القيمة، والإنسانية تتجاوز معنى العقل إلى سؤال ما معنى الإنسانية؟ أمام آلاف الأموات التي حصدها الفيروس نطرح سؤالا هل نعيش فعلا الآن في عصر مستنير؟ حالة القلق هذه ليس سببها الملل فقط، وإنّما عدم تمكّن البشر من تحمّل الوحدة في غرفهم المنزليَّة، هذه الحالة تقتضي لمن يريد تجاوزها الخروج عن طور الحياة المعتادة، والدخول في نمط تواجد آخر، فلسفي وروحي، أي حالة العزلة كتجربة وجودية وكتمرين روحي، إنّ لحظة الأزمة هذه وبالنظر إلى ما يسمها من انسحاب وعزلة وتحصّن، تجعلنا نعيش حقيقة ما وصفه بليز باسكال بالوضعية الإنسانية

الهشّة، فالملل من الغرف المنعزلة يفرضه ضعف تحمّل البشر لأنفسهم وهم في وهن وهشاشة، نحن نعيش من لحظة إلى لحظة، ومن تحفيز إلى تحفيز، كطريقة لإضفاء المعنى على الحياة، لكنّنا ننسى أن جوهر هذه الحياة هو هذه الديناميةوالاستمرارية والجهد، وهي في ذلك لا تضمن السعادة لأحد، بل يظل القلق ملازما لها حتى وإن تجاهله الإنسان بفعل الانغماس في الملذّات والترفيه(Pierre, 2013)، من هنا يمكن أن تقدّم الفلسفة باعتبارها ممارسة عقلانية تأملية تمارين روحية تهدف إلى تعديل السلوك وتنوير الفكر نحو الأفضل، وبالتالي إيجاد نوع من التوازن في النفس والانسجام في العقل، إنّها نوع من العمل على الذات الإنسانيَّة لتأهيلها والاهتمام بها على حدّ قول مشيل فوكو (Foucault, 2001) في هذا الإطار، قدّم الفيلسوف بيير آدو (Pierre Hadot) العديد من الفلسفات التي تهدف إلى مساعدة الإنسان على العيش بشكل أفضل، خاصّة منها الحكمة العملية للمدارس الثلاثة الكبرى في العصور القديمة(الأبيقورية، الرواقية، الكلبية)، وهي نماذج للحكمة العملية التي تقدّم تقنيات وأساليب لعيش حياة هادئة منسجمة في توافق مع الذات والعالم، تقترح هذه الفلسفات تمارين فلسفية لدفع الأحزان وتجنّب الكدر والسأم من الوضع المتأزّم، وهي عبارة عن وصفات حِكَمِيَّة وشذرات وخلاصات تجارب فلسفيَّة، تستبطن آلام الجسد والنفس وكيفيَّة التعامل معها في الحالات التي يعيش فيها الإنسان نوعا من القهر كما يمكن أن نجده في"تأملاتي" لمارك أوريل، أو "الخواطر " لبليز باسكال، وتسمح هذه التمارين الروحيَّة بالأخذ بزمام الأمور في الرخاء والشدّة معا دون إفراط ولا تفريط، فيتغلّب بها على ملل وضجر النفس من قنوطها، كما يسعى عبرها لخلق أجواء السعادة والسكينة وراحة البال وتحقيق الوئام مع الذات والعالم، بما يسمح له بالعيش بسلام مع إدراك أنّ الحياة قصيرة وأنّ وقت الحياة غير مؤكد(Xavier, 2012) وخلافا لهذه الوضعيَّة البئيسة في مواجهة الأحداث الجسام، ويقدّم الموقف الفلسفي نمطا مغايرا من التصرّف حيال المواقف الصعبة التي تجتازها منها الإنسانية في أوقات الشدّة، فمثلا في حالة الشعور بالملل في ظرفية هذه الجائحة، يمكن أن تكون التمارين الفلسفية الروحية نموذجا لا لتزجية الوقت في المنازل فقط، وإنّما لكي لا نخاف من التمزُّق الذي يفرضه الحجر والعزلة،إذن ليس هناك داع للخوف من

الشعور بالملل لأنّ الملل كما يقول بول فاليري(Paul Valéry) ، "هو حياة عارية"، فالكينونة عندما تنظر إلى نفسها تكون دائما مملة إلى حدّ ما، غير أنّه عندما نمرّ بزمن الملل، سرعان ما يبدو أنّ هناك الكثير من الأشياء التي يحملها يجب ألا نخاف من الشعور بالملل، يعني أنّ في هذا الملل توجد أشياء خصبة تختمر، وهي التي ستظهر في وقت لاحق، عندما نحاول أن نجد فكرة جديدة في خضم هذا الملل، إلاّ أنّه ينبغي أن لا تأخذ عبارة تمارين روحيّة على أنّها طقوس دينيَّة، وإنّما فقط استنهاضا لهمّة العقل كي يتولى مأمورية قيادة النفس والجسد نحو الأفعال والتصرّفات المعتدلة والفاضلة، بدلا من الاستسلام للهواجس والمخاوف والغرائز، يمكن التغلّب على ملل الحجر الصحي وقلق الخوف من عدوى هذه الجائحة، فقط، بجعل التمارين الفلسفيَّة طريقة للعيش في منازلنا، وذلك بممارسة التأمّل والقراءة والاستبطان...إلخ، كتجارب روحيَّة تجعل التفكير في الحياة اليوميَّة تمرينا فلسفيا روحيا.

خاتمة:

في النهاية نقول إن مملكة الإنسان مملكة بين الممالك الحيوانية والجرثومية والنباتية تتداخل معها وتتفاعل تفاعلا وجوديا يحفظ الحياة وينهض بها، ومن غير هذا التفاعل الخلاق قد تتم الإطاحة بالحياة نفسها في مملكتنا الإنسانية المتفردة في الكون، وقد نقول إن فرصة الإنسان ومركزيّته وتميّزه لا تقوم على ازدراء ممالك الحياة التي تحيط بنا، بل يجب أن تقوم على الاحترام والتفاعل الحذر والحسابات العقلية لتحديات المصير الإنساني نفسه، فثورة الفيروسات والكوارث الطبيعية ما هي في نهاية الأمر إلا نتاجا لعدوانية الإنسان ضد الطبيعية والممالك الحية فيها وقد حان للإنسان أن يعود إلى رشده وأن يأخذ بالعقلانية الأخلاقية في إدارة المصير تحت عنوان احترام الحياة، لا تزال ملامح عالم ما بعد كورونا قيد التشكل بسبب انشغال الدول بمواجهة الأزمات، وتحجيم تداعياتها، واستيعاب الخسائر البشرية والمادية المرتبطة بها، وتظل المرونة والقدرة على الارتداد للحالة الطبيعية بعد انتهاء الأزمة من أهم محدّدات خرائط الفاعلين وهيكل النظام الدولي وشكلا لعالم في مرحلة ما بعد كورونا.

المراجع:

أمين ايميل . (السبت مارس, 2020).*كورونا فرصة للجسور بين البشر*. تاريخ الاسترداد ،السبت مارس, 2020، من ارم نيوز: http://bitly.ws/aukQ

1. Foucault, M. (2001). *L'herméneutique du sujet*. Paris: Seui Gallimard.
2. Pierre, D. (2013). *Thierry Formet, Martin Steffens, Une journée de philosophie*. Paris: ellipses.
3. Xavier, P. (2012). *Exercices Spirituels. Leçons de la philosophie antique*. Paris: les belles lettre.
4. السيد ولد أباه. (2020). كورونا بعين فلسفية.*الاتحاد*.
5. الماجري ,ا ,2020). فيفري الجمعة.*كورونا والأبوكاليبس ..هل حانت نهاية العالم*فيفري الجمعة.2020, sur http://bitly.ws/aukM
6. المسكيني, ف ,2020). فبراير .(*الفلسفة والكورونا من معارك الجماعة إلى حروب المناعة*.تونس :مؤمنون بلا حدود.
7. فلوريدي ,ل ,2017). سبتمبر .(الثورة الرابعة :كيف يعيد الغلاف المعلوماتي تشكيل الواقع الإنساني، ترجمة :لؤي عبد المجيد السيد، *العدد 452*.
8. لوتشيانو فلوريدي . (سبتمبر, 2017). *الثورة الرابعة كيف يعيد الغلاف المعلوماتي تشكيل الواقع الإنساني*. الكويت: عالم المعرفة.
9. محمد المصباحي. (الخميس 8 أبريل, 2020). (صلاح بوسريف، المحاور)

انحسار العولمة وبوادر نظام دولي جديد في ظل جائحة كورونا من منظور فلسفي واقتصادي

د. ليندة أيت بشير
المركز الجامعي أفلو / مخبر الدراسات القانونية والاقتصادية بالمركز الجامعي أفلو/ l.ait_bachir@cu-aflou.edu.dz
د.يمينة عبيد
جامعة عمار ثليجي الأغواط/مخبر الفلسفة والتنمية/a.abid@lagh-univ.dz

ملخص الدراسة:

تهدف هذه الدراسة إلى إعطاء نظرة استشرافية حول انحسار العولمة، وإبراز هشاشتها في ظل تفشي جائحة كورونا، ومن تداعيات ذلك ظهور بوادر نظام دولي جديد قائم على الذكاء الاصطناعي، والذي ينقل مركز القوة من نظام أحادي القطب إلى نظام متعدد الأقطاب، وذلك من منظور فلسفي واقتصادي، وقد اعتمدنا في دراستنا على المنهج التحليلي الوصفي، وخلصنا إلى نتائج أهمها فشل النظام الدولي في احتواء الأزمة(الجائحة) وظهور فاعلين دوليين جدد أكثر زخما وقوة، إلى جانب ضرورة عودة القيم الإنسانية كمطلب فلسفي بعد طغيان مفاهيم ما بعد الحداثة التي أفرغت النظام الدولي من جانبه الإنساني والأخلاقي.

الكلمات المفتاحية:

كوفيد-19، العولمة، النظام الدولي الجديد، القيم الإنسانية

مقدمة:

عرف مفهوم العولمة تطورا من التكامل العالمي للبشرية- أي مزيج بين عوامل اقتصادية، تكنولوجية اجتماعية، الثقافية والسياسية، (zangin, naji , & wzhar, 2020, p. 999)- إلى عولمة حديثة تضم في فحواها الجانب الاقتصادي، حيث تجمع في مكوناتها الثروات الطبيعية، القوة العاملة، تقنيات التصنيع والأسواق المستهلكة عبر شبكات الإمداد وسلاسل التوريد، هذا التكامل والترابط الزماني

والمكاني جعل العالم قرية تلاشت فيها الحدود وازدادت فيها الحرية الاقتصادية - من خلال رفع الحواجز الجمركية، حرية تدفق رؤوس الأموال والسلع تكامل ودمج الأسواق- احتكرت فيه الفئات القليلة المال والإعلام، كما حفزت قوى السوق على التخصص الاقتصادي وتشكيل خطوط إمداد جديدة في اتجاه واحد من الصين إلى بقية العالم ليتفرغ باقي العالم للاستهلاك. في مقابل ذلك سيطرت الشركات المتعددة الجنسيات على الدول من خلال انتهاز واستنزاف المصادر الأولية، كما تأثرت القيم الأخلاقية فغابت الروح الإنسانية تماما، وانتشرت الأنانية المفرطة، وهرمت المجتمعات، وهيمنت روح الاستهلاك الجشع على كل شيء، وأهدرت الضوابط الأخلاقية.

وعلى عكس ما تدعو إليه العولمة كفكرة الترابط والاندماج من أجل نبذ الكراهية والحد من الحروب والتآزر والتكافل، فقد أفرزت العولمة جملة من السلبيات على رأسها الفقر، المخاطر، الخوف، التطرف، الأوبئة والأمراض... إلخ، وما ظهور فيروس كوفيد-19 وانتشاره إلا نتيجة حتمية لعولمة شبكات النقل (البحرية، الجوية والبرية) وكذا شبكات توزيع السلع والخدمات، فلولاها لما وصل حجم الانتشار إلى هذا الحد حيث ارتفعت حصيلة الإصابات العالمية من 282 حالة في يوم 21 جانفي 2020 إلى 690.262 حالة في يوم 14 نوفمبر 2020. وعليه أعلنت منظمة الصحة العالمية بتاريخ 11 مارس 2020 أن COVID-19 أصبح وباءً عالميا(منظمة الصحة العالمية ، 2020) وبلغ عدد حالات الإصابة إلى غاية 30 نوفمبر 62.531.000 في حين تم تسجيل 1.456.794 وفاة. (Wikipedia, 2020)

وقد سبب انتشار COVID-19 بعد إقرار سياسة العزلة الممتدة تأثيرات آنية على النظام الدولي، فبدل التعاون المعولم للفاعلين، اتجهت الدول إلى القومية النزعة الحمائية وتخفيض سياسة الاعتماد المتبادل بين الدول مقابل التركيز على بناء القدرات الذاتية لتلبية الاحتياجات الأساسية، في حين توجهت الشركات المتعددة الجنسيات، رجال الأعمال والشخصيات الحاكمة إلى المساهمة لمواجهة الوباء في البلد الأم، أما المنظمات الدولية والتكتلات الإقليمية تميزت بعدم فعالية دورها الوظيفي في تسيير الأزمة الصحية.

لقد أظهرت الأزمة الصحية وانتشارها تغيرات على موازين القوى الدولية، خاصة بعد تعليق حرية التنقل باعتباره أهم مبدأ من مبادئ العولمة، فهل انحسار العولمة جراء تفشي وباء كورونا سيغير في هيكل النظام الدولي؟ أو هناك بوادر نظام دوليّ جديد؟ وما مصير القيم الأخلاقية في ظلّ جائحة كورونا؟

المحور الأول: النظام الاقتصادي الدولي بعد كورونا من منظور فلسفي

أحدث تفشي فيروس كورونا المستجد(كوفيد-19) سجالات واسعة ضمت عريضة مثيرة من الآراء والتوقعات والتكهنات وصلت إلى الحديث عن" عالم ما قبل كورونا" و"عالم ما بعد كورونا". بوصفها حلقة جديدة أضيفت إلى مسلسل حلقات الـ "ما البعد" الذي انتشر خلال النصف الثاني من القرن العشرين: "ما بعد الحداثة"، " ما بعد الاشتراكية"، "ما بعد الرأسمالية"، " ما بعد العولمة"، إلى آخر السلسلة الطويلة. وراوح الحديث عن "ما بعد كورونا" بين التوقعات الهادئة الرصينة، والقراءات الاستشرافية. وهذا ليس غريبًا نتيجة عدم اليقين وضبابية الوضع الراهن تجاه تطور جائحة الوباء ومآلاته، الفرضيات التي تُمكّن من رسم السيناريوهات الممكنة والمحتملة والمرغوبة. لكن الأكيد أن هذه الجائحة ستترك آثارها وبصماتها على مختلف مستويات الحياة، الاقتصادية، الاجتماعية السياسية، الثقافية والعلمية.

وعليه سنحاول في هذا المحور التطرق إلى عودة الطرح الفوكوي ومؤشرات انحسار العولمة وبوادر نظام دولي جديد من منظور فلسفي.

1. عودة الطرح الفوكوي من خلال السياسة الحيوية «La biopolitique »

إن إدارة الأزمة الصحية المترتبة عن تفشي جائحة كورونا ومحاولة السيطرة عليه من خلال استراتيجيات وميكانيزمات السلطة، أعاد تنشيط النموذج القديم والمتعلق بالحصر العام للسكان، والذي يكشف عن الحدود السياسية القائمة على العلم. وبما أن الأزمة هي لحظة حرجة- من التشعب المحتمل- فمن الممكن اغتنام هذه الفرصة لتحويل العلاقة بين العلم والقوة. وتغيير قواعد اللعبة لا تترك أي مبادرة للمجتمع المدني. وهنا تبرز من جديد أطروحة فوكو حول السياسة الحيوية والتي تبين آليات إخضاع السكان بالعودة إلى بعض الإجراءات التي تم تطبيقها سابقا للتعامل مع الأوبئة مثل الطاعون من خلال الجحر والعزل. إذا

يوضح ميشيل فوكو(Michel Foucault) في محاضراته يجب الدفاع عن المجتمع والتي ألقاها في" كولاج دوفرانس" سنة 1976 أن " السلطة الانضباطية التي تمارس على الجسد بواسطة تقنيات المراقبة والتنظيم البانوبتيكي، أي ما سيصبح في نهاية المرحلة الحديثة بالسلطة الحيوية، تلك السلطة التي تطبق على السكان وليس على الأفراد على الحياة وحياة السكان "(فوكو، 2003). وهذه الفكرة التي قدمها ميشيل فوكو أثبتت في زمن كورونا أن الحياة أصبحت قضية سياسية، من خلال تحليل مفصل للعلاقة بين المعرفة والسلطة. وهذا ما أكد عليه الفيلسوف الإيطالي جورجيو أغامبين(Giorgio Agamben) إذ يرى أن أطروحة فوكو حول السلطة الحيوية ما زالت قائمة إلى يومنا هذا رغم وفاته- فوكو- منذ ما يقارب أربعة عقود، إذ تعود فكرته وبقوة ليس مع الوباء فقط بل منذ تفجيرات 11 سبتمبر2001. وقد وضح هذا من خلال كتابه الحياة العارية والإنسان المستباح(حالة الاستثناء).

وفي نفس السياق أكد المفكر التونسي فتحي التريكي أن الطرح الفوكوي يعود من جديد وبشكل ملح مع أزمة كورونا؛ إذ يبيّن أنّ فوكو كان يحلّل تصوّر السلطة انطلاقًا من حاضر عصره عندما كان العالم يسيطر عليه النظام الليبيرالي الرأسمالي، أمّا اليوم وبعد التسعينيات من القرن الماضي أصبح العالم يرزح تحت وابل من الأزمات والمصائب وهو ما سمّاها بـ" الليبيراليّة المكثّفة والمتوحّشة "هو أنّ غالب الآليات المذكورة لم تعد بيد الدولة، وحتّى المستشفيات التي بقيت تابعة لها هي الآن عاجزة على أداء وظيفتها كما يجب، وأصبحت الصحّة تُشترى بالمال وقد فضحت أزمة الكورونا أسس هذا النّظام الرأسمالي المكثّف الذي نستطيع تلخيصه في هذه الجملة المعبّرة - المال قبل الرجال- ومن وجهة نظره، ازدادت هذه السلطة الحيويّة وحشيّة عندما قامت حسب قاعدتي العنصريّة والاستعماريّة بعمليّة فرز وفصل تقوم على تعبيرين لفوكو هما:" اتركوهم يعيشون واتركوهم يموتون". (التريكي، 2020) وأكبر تعدٍّ صارخ على حقوق الإنسان ما حدث في إيطاليا، فرنسا وأمريكا حيث تُرك الفقراء المسنون، السود والعرب يموتون على الأرصفة بلا عناية يواجهون الوباء لوحدهم.

وأكّد المفكر فتحي التريكي، أنه يمكن أن تضاف إلى السلطة ممارسة جديدة هي ممارسة الاحتقار والاستصغار والفرز والانتقاء، أمّا بالنسبة إلى الرّأسمالية المكثّفة فقد ثبتت جرّاء كورونا أنّها قسّمت الإنسانيّة إلى إنسانيّتين: إنسانيّة للحياة وإنسانيّة للموت، وهذا كله تأكيد استشرافية الفكر الفوكوي.

2. انحسار العولمة

أدى الانتشار المخيف والمتزايد لفيروس كورونا إلى تحولات عميقة في الأوضاع الدولية العالمية، كان لها تداعيات وانعكاسات كبيرة على العولمة أثر على مختلف الميكانيزمات والاستراتيجيات المتعلقة بها، لما حمله معه هذا الوباء من تغييرات على المستوى الاقتصادي والسياسي وحتى الإيديولوجي، هذا الوباء كشف هشاشة وضعف العولمة من خلال تراجع الدول العظمى والمنظمات الدولية، حيث أسقط عنها القناع وفضح افتقارها مقومات الفاعل المستقل في النظام العالمي، وذلك ببساطة لأن انشغال الدول سواء الكبرى أو غيرها بمواجهة الأزمة بشكل فردي الأمر الذي فضح عدم فعالية المنظمات والتكتلات الدولية والإقليمية أيضا، بما في ذلك المنظمات المتخصصة التي يفترض أنها تلعب دورا وظيفيا في النظام العالمي؛ وأكبر مثال يجسد ذلك هو منظمة الصحة العالمية التي لم تلعب دورا محوريا لتسيير هذه الأزمة الصحية، حيث لم تثبت جدارة التكفل بمهمة إدارة الوباء على المستوى العالمي.

وقد نتج عن تفشي كوفيد-19 تغيرات في اقتصاديات الدول، هذه الأخيرة أصبحت هي المسيطر والمسير المركزي للمعاملات الاقتصادية، برز معه جمود وشلل شبه كامل في القطاع الخاص أدى إلى إفلاس العديد من المشاريع والمؤسسات الخاصة. ولذلك نحاول تسليط الضوء على تراجع العولمة في ظل انتشار كوفيد-19 من منظور فلسفي من خلال قراءات بعض الفلاسفة للوضع الراهن.

1.1. إماطة اللثام عن العولمة نحو نظام دولي جديد

على مر السنين، ضاعفت العولمة من انتقال الأمراض على الصعيد العالمي وكان لها آثار اقتصادية كبيرة. لذلك، ظهر الاندماج الوثيق للاقتصاد في العصر

الحديث كآلية أساسية لانتقال المرض (Andrew J. Tatem، Simon I. Hay، و David J. Rogers، 2006، الصفحات 6242-6247)

في خضم الأوضاع الراهنة التي تشهد تفشي وباء كورونا يعتقد إدغار موران (Edgar Morin) فيلسوف وعالم اجتماع فرنسي معاصر. ولد في باريس في 8 جوان 1921 أن هذه الأزمة أثبتت حدود العولمة ويحملها مسؤولية خلق الفوارق بين الشعوب. حيث أظهر فيروس كورونا في رأيه بشكل لا يقبل الجدل أنه إذا كانت العولمة قد حققت المكاسب الاقتصادية والتقنية منذ عام 1990 وأوجدت ترابطًا متعدّدًا بين الأمم والشعوب، فإنها لم تخلق التضامن والتقارب بين الأمم، إذ يؤكد "بمجرد وصول الفيروس، انغلقت الدول على نفسها". وهكذا، يدعو إدغار موران إلى" الجمع بين العولمة وانحسارها" ويضيف بصدد إخبارنا أن البشرية ستبحث لكورونا عن مسالك جديدة بعيدًا عن النيوليبرالية.(europe1, 2020)

وفي السياق نفسه، يتبنى الفيلسوف الفرنسي جاك أتالي(Jacques Attali منظر فرنسي وكاتب اقتصادي واجتماعي فرنسي، ولد في 1 نوفمبر 1943) الفكرة نفسها إذ يرى أنه في حال فشلت الدول في إيجاد حلول لأزمة كورونا، سيؤدي بنا ذلك إلى نظم سلطة جديدة ستقود العالم في السنوات القادمة. وهذا يعني اندثار العولمة وهو حتمية فرضها الوباء ضاربا بذلك مثال الطاعون الذي مس أوروبا سنة 1348 والذي نتج عنه سقوط سلطة الكنيسة ونشأة الدولة الحديثة، احتلت فيه الشرطة المكانة المركزية في حماية حياة الناس، وغلبة الروح العلمية على السلطة الدينية والخرافات.(espacemanager, 2020)

ويضيف أتالي أن النظام الجديد ما بعد كورونا يقوم على آليتين هما السوق والديمقراطية، وستنشأ أنظمة المراقبة الاستبدادية بمساعدة الذكاء الاصطناعي- والتي ظهرت بداياتها في الصين- وفي الوقت نفسه الأنظمة الاستبدادية لتوزيع الموارد والتي يمكن رؤية مخططاتها الأولى في الأزمة الحالية، مع تقنين أو حصص أو استباقات من قبل الدول لما يسمى بالموارد" الاستراتيجية".

يرى أتالي أنه منذ بداية أزمة فيروس كورونا، تبنى السياسيون خيارات لا يمكن تصورها للحكومات الليبرالية تتبع السكان من خلال التطبيقات المتطفلة والتأميمات المتوخاة بدون ثورة، ومطالبة قطاعات كاملة من الصناعة باسم

اقتصاد الحرب ضد الوباء... إلخ. بالنسبة إلى أتالي، عندما ينحسر الوباء، سنرى بلا شك ولادة فترة من النقد والتنافس للقادة والتي ستؤدي- كرد فعل - إلى أشكال من" الانحدار الاستبدادي" للحفاظ على أنظمة السلطة في مكانها. لكن قريباً ستأتي مرحلة جديدة من شرعية السلطة.(espacemanager, 2020)

وبالعودة الى المفكرين العرب، يبرز موقف المفكر التونسي فتحي التريكي من تداعيات جائحة كورونا على العالم، إذ يؤكد أن الإنسانية تعيش في هذه اللحظة حالة من الفزع جرّاء وباء كوفيد-19 مبينًا أنه لم يحسم بعد بخصوص التغيرات الجوهرية التي يمكن أن تطرأ على نمط حياتنا. ويرى أنّ هذا الوباء الذي خلخل النظام العالمي المعولم سيعيد ترتيب البيت من جديد ولو جزئيًّا، مضيفًا أنه يقدّر أن رأيه الشخصي في المسألة يخصّ التّغيّر الممكن في السلطة لا سيّما في العالم الرّأسمالي. (التريكي، 2020)

1.2. تصدع النظام الصحي

إن انتشار جائحة كورونا كان لها تداعيات مباشرة على المنظومة الصحية العالمية وفي جميع الدول التي مسها الوباء وكشفت هشاشة إدارة الأزمات وانهيار النظام الصحي، وهذا ما يؤكده نعوم تشومسكي الفيلسوف واللغوي الأمريكي (Noam Chomsky) في مقابلة له حول فيروس كورونا المستجد" كوفيد-19" وكيفية التعامل معه خاصة في الولايات المتحدة الأمريكية أوضح أن مفهوم الاقتصاد والكفاءة ضروريان لمواجهة المستقبل، حيث استطرد" كان ينبغي أن يكون لديك أسرة طبية كافية لاحتياجاتك المستقبلية". وأردف" بما أننا لم نعدّ العدة للمستقبل، فقد تسبب ذلك في تدمير نظام المستشفيات". وواصل تشومسكي" ولذلك فإن فيروس كورونا الذي يجب السيطرة عليه في مجتمع فعال أصبح يخرج عن سيطرتنا لأننا لسنا مستعدين لمجابهته". (Rollingstone, 2020)

كما أعطى تقييما قاتما لرد الفعل الحكومي الأمريكي على أزمة الفيروس حيث " لم تسع الحكومة الأمريكية إلى الحصول على أشياء بسيطة مثل مجموعات اختبار الفيروس". وأضاف أن:" الأمر الذي يبرع فيه قادتنا خلال الأربعين عاما الماضية هو صب الأموال في جيوب الأثرياء والمسؤولين التنفيذيين للشركات مع

ترك كل شيء آخر يتحطم".(Rollingstone, 2020) وهذا يعتبر إشارة إلى الآثار السلبية للعولمة.

1.3. انهيار القيم الإنسانية والأخلاقية

أثبت فيروس كورونا وتداعياته على الإنسانية بما لا يدع مجالا للشك أن العولمة وآلياتها كانت سببا مباشرا لانهيار القيم الأخلاقية والإنسانية من خلال انتشار اللامساواة، والاستهتار بحياة البشر، الأنانية والممارسات الانتهازية للدول العظمى على حساب بقية الدول، وحتى في الدول نفسها هناك تمييز فاضح وعنصري بين المرضى، وقد وضح الفيلسوف الألماني يورغن هابرماس(Jürgen Habermas) هذا الخرق الأخلاقي في حديثه عن الدستور الأوربي- الذي يضمن عدم المساس بالكرامة الإنسانية والمؤمن بوحدتها- وأعرب عن قلقه على خلفية تخلي الاتحاد الأوروبي عن مساعدة إيطاليا وإسبانيا رغم رفعه شعار الوحدة والتضامن، وحث الاتحاد الأوروبي على مساعدة الدول الأعضاء الأكثر تأثرا كما أبدى امتعاضه من الخطر الذي يشكله تشبع وحدات العناية المركزة في المستشفيات، لأنه قد يضطر الطبيب إلى اتخاذ قرار مأساوي غير أخلاقي من خلال انتهاك مبدأ المساواة الصارمة في المعاملة، والمفاضلة بين حياة إنسان وآخر. وكيف يعطي الطبيب نفسه الحق في اتخاذ قرار الحياة والموت؟ (Habermas، 2020). وبهذا يتحوّل موضوع الوباء إلى موضوع أخلاقي، ومناسبة للعبرة والموعظة مقارنة بما مضى من الأحداث وبما قد يأتي مستقبلا.

3. ما بعد كورونا وبوادر عودة الخطاب الشيوعي

أفرزت جائحة كورونا تغيرات على مستوى الخريطة السياسية للعالم وعودة الشيوعية إلى الواجهة، فالتسيير المركزي للاقتصاد والجمود والانحسار في القطاع الخاص مؤشرات كلها تنذر بعودة الإيديولوجية الاشتراكية أو على الأقل طغيان مفاهيمها" وهنا ليس مستبعدا أن ترجع فكرة الاشتراكية والنيواشتراكية، أو الاشتراكية ما بعد كورونا، وما لها من أبعاد اجتماعية خصوصا مع رجوع روسيا كقوة عالمية وسهرها هي والصين على مساعدة الدول بمقابل غياب تام للمساعدات الأمريكية التي قلت وتراجعت في عهد ترامب نتيجة شعاره أمريكا للأمريكين". (قاضي، 2020، صفحة 24)

وهناك مؤشر آخر لتراجع الليبرالية أمام الاشتراكية هو عدم تسييرها العقلاني والفعال للوباء" إن السبب الرئيسي لتلاشي الإيديولوجية هو نشر الأوهام من طرف مسؤولي تلك النظم، فبعد الانتشار الواسع للفيروس وحفاظا على نمط حياة المنظومة الليبرالية لتلك المجتمعات سعت إلى تسويق الأوهام لشعوبها بأن الفيروس لا يزال ضعيفا يمكن احتواؤه ومواجهته". (قاضي، 2020، صفحة 33)وقد دفعت شعوب الدول الليبرالية ثمنا باهظا نتيجة استهتار حكوماتها بخطورة الوباء على عكس الدول الشعبية(روسيا، الصين، فيتنام) التي أثبتت جدارتها في مواجهة الأزمة وفعالية تسييرها.

كما شخص الفيلسوف الألماني الشهير يورغن هابرماس نتائج وآثار الأزمة الصحية العالمية الحالية وربط ضعف مواجهة الوباء بهشاشة النظام النيوليبرالي، وقال" علينا أن نكافح من أجل إلغاء النيوليبرالية".(Habermas, 2020)

كما توقع الفيلسوف السلوفيني سلافوي جيجيك"SlavojŽižek " أن حالة الطوارئ الناتجة عن كوفيد-19 تجلب معها حالة استبدادية جديدة، حتى وإن عزّزت الروابط المجتمعية، كما عبر عن اعتقاده بأن هذه الأزمة ستعطي معنى جديدا للمجتمع، وسينبت منها فكر شيوعي جديد بعيد كل البعد عن تلك الشيوعية التاريخية، وأضاف:" إننا نرى حكومات محافظة تضع تدابير كان من الممكن أن نطلق عليها" اشتراكية" في وقت ما، ومثال ذلك حكومة الرئيس الأميركي دونالد ترامب، التي تفرض على القطاع الخاص الصناعي نوعية المنتجات التي ينبغي عليهم تصنيعها، بينما تؤمم حكومة رئيس وزراء بريطانيا بوريس جونسون السكك الحديدية مؤقتا" مضيفا:" أرى شيوعية جديدة تنبت من الفيروس". (Žižek, 2020)

I. المحور الثاني: انحسار العولمة وبوادر تغير النظام الدولي من منظور اقتصادي

فرض انتشار فيروس كورونا نفسه بقوة على جوانب الحياة وقطاعاتها عامة ليكون نقطة تحول في الفكر والتوجه الاقتصادي من حالات العولمة والتوحد والتكامل العالمي، إلى حالات الانفراد والانطواء ضمن كيانات محلية في إطار

الدولة أو المقاطعة الواحدة ومدنها. وعليه سنحاول في هذا المحور التطرق إلى أهم المؤشرات التي تهدد بانحسار العولمة وبوادر نظام دولي جديد قائم على تعدد القطبية.

1-أزمة كورونا تهدد بانحسار العولمة

تعتبر جائحة كورونا أصعب من الأزمات التي خلفتها الأوبئة من طاعون، سارس إنفلونزا الطيور، وغيرها من الأمراض والأوبئة التي حدثت، لأنه آنذاك لم يتعولم الفيروس وينتشر بأكثر من 190 دولة، كما أن مخلفات جائحة كورونا أكثر تعقيدا وضررا من الأزمات السابقة، حيث بلغت الخسائر البشرية أكثر من مليون وثمان مئة ألف، أما الاقتصادية كتقدير أولي حدود تريليون دولار، وقد ترتفع التقديرات إلى خمسة تريليونات دولار.) الميالي(2020 ,، كما انخفض النمو الاقتصادي العالمي المتوقع -5،2 % (البنك الدولي، 2020)، نتيجة تقلص نطاق الأسواق السيارات السياحة والخدمات، وتذبذب الأسعار خاصة النفط، الذهب والأسهم. وفقدان الثقة في الأسواق المتأثرة بالوباء، مما يقلل من جانب الطلب في السوق وتقلص جانب العرض نتيجة التغيب عن العمل وتخفيض اليد العاملة. (Bloom, Wit, & Jose, 2005).

من ناحية أخرى قد صاحب تفشى فيروس كورونا في الاقتصاد العالمي العديد من المؤشرات التي تهدد العولمة بانحسارها وهي:

1.1. وضع قيود على تنقل الأشخاص

غالبا ما تم اقتراح قيود على تنقل الأشخاص لبعض الدول لمنع الإرهاب والجريمة، لكن الأصوات التي تدعو إلى احترام الحرية وحقوق الإنسان حالت دون تحقيق ذلك. إلا أن انتشار فيروس كورونا كان متغيرا مختلفا حيث ساعد مفهوم المصلحة العامة والقومية إلى جانب الشعور بالخوف الذي قامت وسائل الإعلام ببثه، في اتخاذ إجراء إغلاق الحدود، وازدادت قوة الدولة في السيطرة على الحدود بشكل كبير من خلال تطبيق سياسة الانعزالية حيث يعيش جميع أفراد أمريكا الجنوبية قيود السفر بنسبة (99.7%)، وفي أمريكا الشمالية بنسبة 92.5%، أما في إفريقيا فتمثل نسبة قيود السفر 62% فقط. (Nistha Shrestha And others, 2020)، ومع انتهاء جائحة كورونا، بدأت الحكومة في مراقبة وفحص تدفق

الأشخاص القادمين من خارج الحدود بشكل صارم وسيستمر هذا التوجه حتى مع اقتراب الجائحة من نهايتها.

1.2. تعطل حركة النقل والمواصلات الدولية

لقد تم الاعتراف بأن التجارة والسفر من المحددات الهامة لانتشار المرض، وعليه يعتبر قطاع النقل من القطاعات الأولى التي تضررت إزاء سياسة العزل والاحتواء التي طبقتها الدول جراء انتشار Covid-19، حيث نجد أن النقل الجوي كشركات الخطوط الجوية التركية ودلتا ولوفتهانزا -تعتبر من بين عشر شركات طيران التي تغطي أكثر من 50 دولة تغطية كبيرة من حيث الركاب المنقولون- نقلت أكثر من 5 ملايين مسافرا شهريًا في الفترة ما بين 2018-2019. والتي استجابت للحضر السفر الدولي من البلدان المتضررة. وكنتيجة لذلك انخفضت أسعار أسهمها في المتوسط بنسبة 30%. (Nistha Shrestha And others, 2020)

أما بالنسبة للخطوط الرحلات البحرية الرئيسية فتعد شركة Carnival Corporation واحدة من أكبر شركات الرحلات البحرية مع أكثر من 100 سفينة تحمل حوالي مليون مسافر شهريًا عبر خطوط الرحلات البحرية المتعددة. وقد قامت بتعليق الرحلات البحرية من 13 مارس إلى 9 أفريل 2020. نتج عنه انخفاضٌ بنسبة 60 % في أسعار أسهمها. (Nistha Shrestha And others, 2020)

أما بالنسبة للتجارة عبر الموانئ. شهدت لوس أنجلوس انخفاضًا في إجمالي حجم انخفاضًا في التجارة بأكثر من 22% (Littlejohn, 2020) بينما في ميناء شنغهاي انخفضت السفن الأسبوعية بنسبة 20 % منذ جانفي من عام 2020 (Paris, 2020) مما أدى إلى زيادة الانتشار في سنغافورة المجاورة وجنوب كوريا.

1.3. انخفاض القوة العاملة

تأثرت القوى العاملة عالميًا، بشكل كبير مع ازدياد عدد الحالات المصابة بالفيروس حيث إن حوالي 60%(ILO, 23 September 2020, p. 7) من العمالة العالمية تدخل ضمن الاقتصاد غير الرسمي، وهو يتميز بانعدام الضمان الاجتماعي والرعاية الصحية أو تأمين الدخل أو إمكانية العمل عن بُعد؛ وبالتالي فهي تشكل الفئات الأكثر ضعفًا في سوق العمل وهي تمثل ما يقرب 1.6 مليار عامل. (The Washington Post, 2020)

وتواجه عالميّا أكثر من 436 مليون مؤسسة خطر التعطل عن العمل، إذ تعمل هذه المؤسسات في القطاعات الاقتصادية الأكثر تضررا، من بينها حوالي 232 مليون مؤسسة في أعمال تجارة الجملة والتجزئة، و111 مليون في أعمال التصنيع، و51 مليون في خدمات الإسكان والغذاء، و42 مليون في العقارات والأنشطة التجارية الأخرى. (CNN بالعربية، 2020)

وحسب تقرير منظمة العمل الدولية يبلغ إجمالي الخسائر المقدرة لساعات العمل في الربع الثاني من عام 2020 (مقارنة بالربع الرابع من عام 2019) الآن 17.3 %، أو ما يعادل 495 مليون وظيفة بدوام كامل، وتعتبر خسائر دخل العمل في البلدان ذات الدخل المتوسط هي الأعلى، حيث بلغت في البلدان ذات الدخل الأدنى نسبة لتصل إلى 15،1% وفي البلدان ذات الدخل الأعلى نسبة 11،4 %(ILO, 23 September 2020, p. 1). وبلغت خسائر دخل العمالة العالمية 3،5 تريليون تشير تقديرات خسائر دخل العمل(قبل أخذ تدابير دعم الدخل في الاعتبار) إلى انخفاض عالمي بنسبة 10،7% خلال الفصول الثلاثة الأولى من عام 2020 (مقارنة بالفترة المماثلة في عام 2019) ، أو خسارة 5،5% من الناتج المحلي الإجمالي العالمي للأرباع الثلاثة الأولى من عام 2019. (ILO, 2020)

1.4. انهيار سلاسل الإمداد أو التوجه نحو تنويع سلاسل الإمداد

قبل العولمة كان لدى المصنّعين مخزونات متعددة من الإمدادات لوقاية أنفسهم من الأزمات، لكن في عصر العولمة فإن التخزين أصبح" شرّا في جوهره"، حسب المقولة لتيم كوك -المدير التنفيذي لشركة أبل- حيث انتقلت الشركات من دفع أموال تخزين القطع التي يحتاجون إليها في إنتاج منتج من المنتجات إلى غلق المخازن والاعتماد على سلاسل الإمداد في الوقت المناسب، لكن مع تفشي وباء كوفيد-19 أصبح الاعتماد على سلاسل الإمداد شبه مستحيل، كما أن النقص في احتياطيّ هذه البدائل المصنَّعة تسبّب في انهيار سلاسل الإمداد، كما حدث لبعض القطاعات الطبية، صناعة السيارات والإلكترونيات، حيث إن غلق مصانع الإطارات الإيطالية وإغلاق المصانع الصينية لقطع الغيار أدى إلى انتقال المشكلة للدول المصنعة للسيارات، ومنه انخفاض وتيرة الإنتاج كنتيجة لذلك، كما انخفضت صناعة الحواسيب بنسبة 50% في شهر فيفري، وكشف مركز التجارة

الدولية أن قيمة الخسائر في صادرات التصنيع لمراكز سلسلة التوريد العالمية الثلاثة- الصين والاتحاد الأوروبي والولايات المتحدة - ستبلغ 126 مليار دولار في 2020، وتمثل هذه الاقتصادات الثلاثة مجتمعة 63 في المائة من واردات سلسلة التوريد العالمية و64% من صادرات سلسلة التوريد، ويخسر المصدرون الأفارقة أكثر من 2،4 مليار دولار من صادرات سلسلة التوريد الصناعية (العكيلي، 2020).كما أن الوباء أثر بشدة في العمليات التجارية لما يقرب من 55 % من الشركات الصغيرة والمتوسطة في العالم (العكيلي، 2020).

1.5. انخفاض التصنيع

في الربع الأول من عام 2020، انخفض الإنتاج الصناعي العالمي بنحو 6%مقارنةً مع نفس الربع من العام السابق، تبع ذلك انخفاض أعمق في الربع الثاني من عام 2020 بـ11،3% كان هذا أكبر انخفاض في الإنتاج الصناعي العالمي منذ الانخفاض الذي حدث في الأزمة المالية العالمية (2008/2009انخفض الإنتاج في الربع الأول من عام 2009 بنسبة 14%) .

كان تأثير Covid-19 على القطاعات الصناعية المختلفة غير متوازن، حيث أن الصناعات المتعلقة بإنتاج السلع واللوازم الأساسية، مثل المواد الغذائية أو الأدوية أقل تأثرًا من الصناعات الأخرى. حيث سجلت صناعة الأدوية الأساسية في الربع الثاني من عام 2020 نموًا معتدلًا في جميع مجموعات البلدان عكس القطاعات الصناعية الأخرى التي شهدت انخفاضًا ملحوظًا في الإنتاج، وعلى الأخص السيارات المركبات والآلات والمعدات والملابس. ولكن بحلول الربع الثاني من عام 2020 ظهر نمو إيجابي في الإنتاج الصيني عبر عدة قطاعات صناعية.

1.6. وضع قيود على حركة رؤوس الأموال وانخفاض الاستثمار الأجنبي المباشر

كان لوباء Covid-19 تأثير فوري وسلبي على الاستثمار الأجنبي المباشر نتيجة التأخر في تنفيذ المشاريع الاستثمارية الجارية ورفوف المشاريع الجديدة(تعليق مؤقت لعمليات الاندماج والاستحواذ بنسبة 15%، إيقاف عمليات الشراء خاصة على الشركات التقنية المتقدمة في المجال الطبي وغيره وإيقاف مشاريع الحقول الخضراء) كذلك انخفاض أرباح الوساطة الأجنبية التي عادة ما يتم إعادة استثمار حصة كبيرة منها في البلدان المضيفة. ونتيجة لذلك، من المتوقع أن تنخفض

تدفقات الاستثمار الأجنبي المباشر العالمية إلى 1.6 تريليون دولار أي بنسبة تصل إلى-40% في عام 2020 مقارنة بقيمتها في عام 2019.(UNCTAD, 2020).

أكدت بيانات النصف الأول من عام 2020 على انخفاض تدفقات الاستثمار الأجنبي المباشر بنسبة 49 % مقارنة بعام 2019. الاقتصادات المتقدمة شهدت أكبر انخفاض قدره 75 %، أما تدفقات الاستثمار الأجنبي المباشر إلى الاقتصادات النامية انخفض بدوره بنسبة 16 % فقط وهي أقل من المتوقع، وكانت التدفقات أقل بنسبة 28 % في أفريقيا، 25% في أمريكا اللاتينية ومنطقة البحر الكاريبي، 12% فقط في آسيا، بشكل رئيسي بسبب مرونة الاستثمار في الصين. كما انخفضت بشكل حاد(بنسبة 81 %) بين الاقتصادات التي تمر بمرحلة انتقالية بسبب الانخفاض الحاد في المدفوعات إلى الاتحاد الروسي، وهو أكبرها مدخرات(United Nations, 2020).

أما بالنسبة للتحويلات فيتوقع البنك الدولي أن التحويلات إلى البلدان المنخفضة والمتوسطة الدخل ستنخفض بمقدار ما يقرب من 20% أي 445 مليار دولار في عام 2020.

1.7. انكماش التجارة

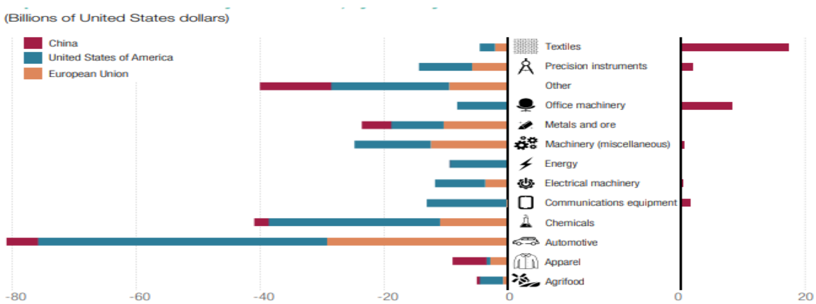
بدأ انخفاض نمو التجارة في السلع والخدمات مع بداية الربع الأول لعام 2020 مع ظهور الآثار المبكرة للوباء. وانخفضت بشكل حاد في الربع لنفس السنة. وتقدر قيمة تجارة البضائع على أساس سنوي بنسبة 18% في الربع الثاني، وتجارة الخدمات بنسبة 21 % في نفس الفترة. ويتوقع أن يتحسن في الربع الثالث مع نمو سنوي متوقع -5% للسلع و -9 % للخدمات، مما يشير إلى احتمال تعافي جزء كبير من خسائر الربع الثاني. في حين انخفضت قيمة إجمالي التجارة في الخدمات بنسبة 7,6% في الربع الأول. وتضرر النقل والخدمات بشكل خاص، حيث انخفض بأكثر من 24 %.(United Nations, 2020, pp. 15-16)

بخصوص تجارة المنتجات الطبية المتعلقة بـCovid-19 (مثلا لمنسوجات معدات الحماية الشخصية وأجهزة التهوية، موازين الحرارة والمطهرات وما شابه ذلك) شهدت نموًا مرتفعًا للغاية في الربع الثاني من عام 2020؛ ففي شهر ماي ارتفعت بنسبة 186% مقارنة بنفس الفترة من عام 2019. أما المنتجات غير الطبية الأخرى

المتعلقة بـ Covid-19، (كالمعدات المكتبية، أجهزة توجيه Wi-Fi،أجهزة الكمبيوتر المحمولة، التخزين المحمول وما إلى ذلك أيضًا) تمتعت بنمو قوي في الربع الثاني.(United Nations, 2020, p. 16)

بالنظر إلى اقتصادات الصين والولايات المتحدة والاتحاد الأوروبي كما هو موضح في الشكل أدناه، انخفضت الصادرات بشكل كبير في صناعات السيارات، الكيماويات الحديد والذهب مقابل ارتفاع نمو صناعة المنسوجات، المعدات المكتبية، معدات الاتصال وأجهزة الدقيقة في الصين.

الشكل رقم 1: يوضح انخفاض الصادرات في ثلاثة اقتصادات رئيسية، حسب الصناعة



Source: UNCTAD secretariat calculations, based on the national statistics of China (GACC, 2020), United States (United States Census Bureau, 2020) and European Union (Eurostat, 2020).
Note: Covers first semester of 2020.

2. التوجه من نظام عالمي قطبي إلى نظام ثلاثي الأقطاب

سعت الولايات المتحدة الأمريكية، منذ نهاية الحرب العالمية الثانية للدفاع عن مصالحها العالمية من خلال إنشاء مؤسسات اقتصادية دولية ورعايتها، ومنظمات أمنية إقليمية، ومعايير سياسية ليبرالية؛ ويشار إلى آليات تشكيل النظام هذه إجمالا بعبارة النظام الدولي. وفي السنوات الأخيرة، بدأت القوى الصاعدة في تحديد عوامل هذا النظام، وهذا ما أدى إلى ظهور حالة الفوضى والاضطراب بين الفاعلين الدوليين حيث يرى هوس" أن النظام يتمتع بعدد كبير من مراكز القوى ويعمل باستقلالية كبيرة مع توجيه اهتمام أقل لمصالح الولايات المتحدة الأمريكية وأولوياتها". (Haass, 2014, p. 70)

ويعرف النظام بأنه مجموعة القواعد والمعايير والأعراف التي تحكم العلاقات بين الجهات الفاعلة الأساسية في البيئة الدولية(Priebe ، Mazarr، Radin، و

Cevallos، 2016، صفحة 7)، وقد تميزت الرؤية النيوليبرالية للعلاقات الدولية لهذا النظام باستخدام القوة أو استخدام آليات تعاونية كمحددات لحالة النظام.

حيث تميز النظام في القرن العشرين بهيمنة الولايات المتحدة الأمريكية من خلال محدد القوة العسكرية والاقتصادية مع إنشاء تحالفات سمحت لها بإرساء الهيمنة على جميع الدوافع الرئيسية الثلاثة للقوة الجيو اقتصادية: الصناعات الاستراتيجية، وممرات النقل، والأدوات المالية، خاصة بعد الاستقرار الناجم عن انتهاء الحرب الباردة مع الدول الشيوعية، كما تقلصت التوترات بين الولايات المتحدة وحلفائها مثل ألمانيا واليابان نتيجة السياسة التعاونية. كما تم دمج الاتحاد السوفيتي السابق والصين الصاعدة في شراكة غير متكافئة مع الغرب.(Diesen, The International Economic System After COVID-19, 2020)

لكن مع بداية الألفية الثالثة بدأت مرحلة انتقالية ستؤدي تفاعلاتها في النهاية إلى تشكيل نظام دولي جديد، وذلك يرجع إلى محددات النظام الدولي فمن وجهة القوة العسكرية تنخفض الفوارق بين الولايات المتحدة الأمريكية بمعدل 0،94 تليها روسيا بمعدل 0،80 ثم الصين بمعدل 0،79 ثم الهند بمعدل 0،72 واليابان بمعدل 0،69.(wikipedia, 2015) حيث بقي نفس هذا الترتيب عام 2020، حسب تصنيف موقع" غلوبال فايرباور global firepower "، المتخصص في الشؤون العسكرية. وعليه تحولت مؤشرات القوة من الغرب إلى الشرق" آسيا".

أما من وجهة القوة الاقتصادية، كانت الولايات المتحدة الأمريكية سابقا تمثل 40 % من التصنيع في العالم خاصة بعد الحرب العالمية الثانية، وبعد أن أعيد بناء أوروبا وتشكيل الاتحاد الأوروبي ومنطقة اليورو، ثم اليابان، تليها دول شرق آسيا(بما في ذلك تايوان وكوريا الجنوبية)، البرازيل، وروسيا مع انخفاض تكلفة العمالة في آسيا تراكميًا، حصلت هذه الدول على حصص متزايدة في التصنيع. ومنذ أواخر السبعينات من القرن الماضي إلى العقد الأول من القرن الحادي والعشرين تسارعت وتيرة الإنتاج الصناعي للصين خلال التسعينيات لتصبح من البلدان المتقدمة. حيث ارتفعت صادرات الصين خلال الفترة الممتدة من عام 2000 إلى عام 2018، بخمسة أضعاف أي 1.2 تريليون دولار أمريكي مع ارتفاع حصتها العالمية من 3،9% إلى 28،4 % مقابل 18% للولايات المتحدة الأمريكية،

و2،7% لليابان لسنة 2018. ,GRAHAM, VLACHOPOULOS, & SZABO, 2020) (p. 5 وأصبح الاقتصاد الصيني يشكل 17% من الناتج المحلي الإجمالي في العالم، كما يشكل حجم التبادل التجاري مع الصين 35% من حجم التجارة الدولية كما أن صناعة الأدوية العالمية تعتمد على الصين في 80% من إنتاجها (الميالي، 2020).

وتحاول الصين رفع مركزها في القوة التكنولوجية والاقتصادية من خلال الشراكة والتعاون مع روسيا في المجالات التكنولوجية مثل الذكاء الاصطناعي، وتطوير ممرات النقل مع أمريكا اللاتينية" الحزام والطريق" والممر البحري عبر القطب الشمالي، كما تسعى إلى السيطرة على الأدوات المالية وتطوير بنوك استثمارية جديدة، وأنظمة دفع وعملات تجارية واكتناز الذهب.

3. مقياس قوة الإنتاج العلمي والتكنولوجي والرعاية الصحية كمحدد للنظام الدولي الجديد بعد انتشار وباء كوفيد-19

لقد اعتبر انتشار لـ COVID-19 نقطة تسريع في مراكز قوة النظام الدولي حيث خرجت الصين من الوباء أقوى بتقديم مساعدات طبية وإدارية، تشمل الخبرات والمعدات لأكثر من 90 دولة. عكس الولايات المتحدة الأمريكية التي خسرت حرب العلاقات العامة حيث أظهرت ضعفها في قيادة الأزمة من خلال انسحاب المؤسسات الدولية وتبنيها سياسة الأمننة عن طريق المنافسة على ممرات النقل والأدوات المالية، إعادة تأميم الاقتصاد، الصناعات والفضاء الرقمي، واستهداف الصين من خلال نظرية المؤامرة لجلب أكبر تحالف جغرافي ضدها، واستهداف الشركات الصينية التي تتحدى القيادة التكنولوجية لصناعاتها الاستراتيجية.

وقد أظهر تقرير أكتوبر لصندوق النقد الدولي حسب مؤشر تعادل القوة الشرائية أن اقتصاد الصين أكبر بنحو السدس من اقتصاد الولايات المتحدة (24.2 تريليون دولار للأول مقابل 20.8 تريليون دولار للثاني)، (Graham ، 2020)، كما أن اقتصاد الصين هو الاقتصاد الوحيد الذي يسجل نموًّا سنويا إيجابيًّا بمعدل 1% (البنك الدولي ، 2020). رغم أنها سجلت انخفاضًا بنسبة 6.8%. نتيجة إجراءات الإغلاق وتقييد العرض والطلب. (Bradsher, 2020)

أما فيما يخص العملات فقد تخلت الصين وروسيا عن اعتماد الدولار محليا كما اتخذت الدول الثماني الأعضاء في منظمة شنغهاي للتعاون، بما في ذلك

الصين وروسيا والهند (SCO)، قرارا التخلي عن الدولار الأمريكي في عمليات التبادل التجاري فيما بينها، وكما رجحت الدول الأوروبية الاستغناء عنه في المستقبل القريب، هذا ما يشير إلى خروج النفوذ الأمريكي من عالم التجارة والذهب، والنفط.

بالنسبة للتحالفات الاستراتيجية، فقد شهدت هانوي عاصمة فيتنام في نوفمبر من سنة 2020 توقيع" اتفاقية الشراكة الشاملة"، كأكبر اتفاقية للتجارة الحرة على مستوى العالم من خلال 15 بلدا من دول آسيا والمحيط الهادئ، منها عشر دول في جنوب شرقي آسيا، بالإضافة إلى الصين واليابان وكوريا الجنوبية ونيوزيلندا وأستراليا. وتسهم تلك الدول بنحو 30 في المئة من إجمالي الناتج المحلي العالمي. فإن من المتوقع أن تكون الصين من المستفيدين الرئيسين من اتفاقية الشراكة الاقتصادية الإقليمية الشاملة، بمكاسب محتملة تصل إلى 85 مليار دولار لناتجها المحلي الإجمالي.

ومما لا شك فيه أن هذا الاتفاق بين هذه الدول وما يترتب عليه من خفض الرسوم الجمركية، وفتح تجارة الخدمات، سوف يغير من خريطة العالم الاقتصادية، حيث يعزز من المكانة الاقتصادية للصين كثاني أكبر اقتصاد في العالم خاصة وأن هذا العام سوف تتفوق الصين على الولايات المتحدة في الإنفاق على البحث والتطوير، مما سيدفع الولايات المتحدة نحو" تعزيز البحث والتطوير" والقدرة التنافسية في المستقبل.

خاتمة

تتغير خرائط العالم السياسية والاقتصادية والاجتماعية تبعا لأحداث غير عادية ترسم ما بعدها، كالثورات الاقتصادية في أوربا وانهيار جدار برلين واتفاقيات السلام وثورات الربيع العربي وصولا لجائحة كورونا، وقد فرضت سياسات الدول العظمى نفسها على العالم تحت مفهوم العولمة، وربطت اقتصاديات الدول بشبكة علاقات تسمح لها بالتبادل التجاري للسلع والخدمات، وحرية انتقال رؤوس الأموال وتقديم المزايا الاقتصادية، وسهولة انتقال الأفراد والكيانات الاقتصادية وفروعها من دولة لأخرى، وتكوين سلاسل إمداد وشركات متعددة الجنسيات، كل هذا كان قبل ظهور ما يسمى بفيروس كورونا. لكن ظهور

كورونا حسر العولمة وأظهر هشاشة النظام الدولي القائم، وعليه يمكن أن تكون هذه نقطة النهاية، وهي ذاتها نقطة البداية لولادة كيانات اقتصادية جديدة، وظهور قوى عظمى جديدة أوإعادة ترتيب تلك القوى عالميا.

نتائج الدراسة:

1. أسهمت العولمة قبل كورونا في تشكل اقتصاديات الدول والمجتمعات والنظم السياسية وكذا العلاقات الدولية، وزاد انتشارها نتيجة الابتكارات والتكنولوجيا الفكرية.
2. أثرت العولمة بشكل سلبي جراء انتشار كوفيد-19 بسرعة تفكيك التكامل الاقتصادي الدولي وتجزئة النظام تُعطى فيه الأولوية للسيادة التكنولوجية التنافس العسكري على ممرات النقل، وتحقيق الاكتفاء الذاتي من خلال سياسة تعزيز الإنتاج المحلي للمواد الأساسية وإعادة سلاسل التوريد الدولية إلى الوطن.
3. انحسار العولمة وتراجع آلياتها في ظل جائحة كورونا وهذا ينذر مستقبلا بظهور عولمة بمفاهيم حديثة وفاعلين جدد.
4. عدم وضوح صورة النظام الدولي الجديد الذي أفرزته الأوضاع الراهنة بالموازاة مع محاربة الوباء في نطاق عالمي والذي ربما سيمثل ما يعرف بالنيواشتراكية لتراجع النظام النيوليبرالي والاتجاه نحو سياسة الاحتواء في جميع المجالات دون استثناء بما فيها المجال الاقتصادي.
5. تعتبر كل من الولايات المتحدة الأمريكية والصين، القوة العظمى الوحيدة بين مجموعة من القوى الكبرى، والصين بثقلها الديموغرافي والاقتصادي والعسكري المتنامي باطراد تسعى بأن تكون قوة عظمى وتلعب دورا بارزًا ومؤثرًا في حركة التفاعلات الدولية.
6. تغير مقياس القوة المحدد للنظام الدولي لا يكفي أن تمتلك الدول قوة عسكريةً هائلة أو فوائض مالية وتجارية ضخمة حتى تصبح قوةً عالمية أو قطبا في النظام الدولي بل يجب الرهان على قوة الإنتاج العلمي، التكنولوجي، النظام الطبي قوي والإدارة جيدة لتسيير الأزمات.
7. ضرورة عودة القيم الإنسانية وإعادة الاعتبار للمجتمع والإنسان على حد سواء خاصة بعد ما أتته الآراء الناقدة لما بعد الحداثة التي كانت تنادي بحقوق الإنسان

وفضح الممارسات السلطوية القائمة على الهيمنة والإخضاع، وعلى رأسهم فوكو ومدرسة فرانكفورت ممثلة في هاربرت ماركوزو ويورغن هابرماس.

المقترحات

1. إعادة هندسة النظام الدولي بفاعلين جدد.
2. إعلاء مكانة العلماء والمتخصصين في رسم سياسة الدول، وإعادة الاعتبار للقيم الإنسانية.
3. مراجعة جدوى التكامل الإقليمي، وإعادة تعريف وظائف التحالفات الدولية.
4. التوجه نحو مركزية الرعاية.
5. تأسيس مراكز صناعية متعددة حول العالم لتنويع مخاطر مصنع العالم التي ارتبطت بالصين بسبب الانكشاف العالمي بعد وقف الصادرات الصينية بسبب انتشار الفيروس.

المراجع

1. Nistha Shrestha And others. (2020, 10 13). The impact of COVID-19 on globalization. One Health.

2. Adam Smith .(1776) .An Inquiry into the Nature and Causes of theWealth of Nations,Book 1, Chapter 3,That the Division of Labour is limited by the Extent of the Market . https://geolib.com/smith.adam/won1-03.html.

3. Andrew J. Tatem, Simon I. Hay, & David J. Rogers. (2006, 04 18). Global traffic and disease vector dispersal. Proc. Natl. Acad. Sci, 103(16).

4. Andrew J. Tatem, Simon I. Hay, & David J. Rogers. (2006, april 18). Global traffic and disease vector dispersal. Proc. Natl. Acad. Sci, 103(16).

5. Bloom, E., Wit, V. d., & Jose, M. J.-S. (2005). Potential Economic Impact of an Avian Flu Pandemic on Asia. Retrieved from Asian Development Bank: https://www.think-asia.org/bitstream/handle/11540/2165/pb042.pdf?sequence=1

6. Bradsher, K. (2020, April 16). China's Economy Shrinks, Ending a Nearly Half-Century of Growth. Consulté le november 28, 2020, sur The New York Times: https://www.nytimes.com/2020/04/16/business/china-coronavirus-economy.html

7. CNN بالعربية. (04 05, 2020). منظمة العمل الدولية: فيروس كورونا يهدد دخل نصف القوى العاملة حول العالم. تاريخ الاسترداد 29 11, 2020، من العربية:

https://arabic.cnn.com/business/article/2020/05/04/coronavirus-effect-labor-ilo

8. *Diesen, G. (2020, 07 15). The International Economic System After COVID-19. Retrieved 11 30, 2020, from https://valdaiclub.com/a/highlights/the-international-economic-system-after-covid-19/*
9. *Diesen, G. (2020, 07 15). The International Economic System After COVID-19. Retrieved 11 30, 2020, from valdai: https://valdaiclub.com/a/highlights/the-international-economic-system-after-covid-19/*
10. *espacemanager. (2020, 04 04). Prédictions de Jacques Attali face au Coronavirus. Consulté le 11 29, espacemanager, sur espacemanager: https://www.espacemanager.com/predictions-de-jacques-attali-face-au-coronavirus.html*
11. *europe1. (2020, 03 27). oronavirus : pour Edgar Morin, la crise doit permettre "de sortir du néo-libéralisme à tous les niveaux". Consulté le 11 30, 2020, sur europe1: https://www.europe1.fr/societe/coronavirus-pour-edgar-morin-la-crise-devrait-permettre-de-sortir-du-neo-liberalisme-a-tous-les-niveaux-3958175*
12. *GRAHAM, L., VLACHOPOULOS, D., & SZABO, A. (2020). GLOBAL Manufacturing Risk Index 2020. Retrieved 11 29, 2020, from Cushman & Wakefield: https://www.logisticnews.eu/data/USR_047_LN/2020_Manufacturing_Risk_Index_EMEA.pdf*
13. *Haass, R. N. (2014, November–December). The Unraveling: How to Respond to a Disordered World. Foreign Affairs, Vol. 93(No. 6).*
14. *ILO. (2020, September 23). COVID-19 and labour statistics. Retrieved 11 28, 2020, from International Labour Organization: https://ilostat.ilo.org/topics/covid-19/*
15. *ILO. (23 September 2020). COVID-19 and the world of work. Sixth edition ,Updated estimates and analysis. https://www.ilo.org/wcmsp5/groups/public/---dgreports/---dcomm/documents/briefingnote/wcms_755910.pdf.https://www.ilo.org/wcmsp5/groups/public/---dgreports/---dcomm/documents/briefingnote/wcms_755910.pdf.*
16. *Jürgen Habermas .(2020 ,04 16) .Dans cette crise, il nous faut agir dans le savoir explicite de notre non-savoir ,11 30 تاريخ الاسترداد .» ،2020Le Monde: من https://www.lemonde.fr/idees/article/2020/04/10/jurgen-habermas-*

dans-cette-crise-il-nousfaut-agir-dans-le-savoir-explicite-de-notre-non-savoir_6036178_3232.html

17. Littlejohn, D. (2020, 02 21). Coronavirus Impacts Ports of L.A., Long Beach with dip in Chinese imports. Retrieved 11 28, 2020, from Available at. https://www.presstelegram.com/coronavirus-causing-dip-in-chinese-imports-at-ports-of-l-a-long-beach.: https://www.presstelegram.com/coronavirus-causing-dip-in-chinese-

18. Miranda Priebe ، J Michael Mazarr ، Andrew Radin، و Stuth A Cevallos. (2016). فهم النظام الدولي الحالي. RAND.

19. Paris, C. (2020, 02 05). Coronavirus Hits Shipping as China Port Traffic Slides. Retrieved 11 28, 2020, from Wall Street J: https://www.wsj.com/articles/coronavirus-hits-shipping-as-china-port-traffic-slides-11580928711

20. Rollingstone. (2020, 03 19). Useful Idiots: Noam Chomsky on the Primary, Media Criticism, and COVID-19. Retrieved 11 30, 2020, from rollingstone.: https://www.rollingstone.com/politics/politics-news/noam-chomsky-covid-19-useful-idiots-podcast-970047/

21. T. Allison Graham .(2020 ,10 15) . China Is Now the World's Largest Economy. We Shouldn't Be Shocked . تاريخ الاسترداد 30 11, 2020، من The National Interest: https://nationalinterest.org/feature/china-now-world%E2%80%99s-largest-economy-we-shouldn%E2%80%99t-be-shocked-170719

22. The Washington Post. (2020, 06 06). A 'misclassification error' made the May unemployment rate look better than it is. Here''s what happened. Retrieved 11 28, 2020, from The Washington Post: [https://www.washingtonpost.com/business/2020/06/05/may-2020-jobs-report-misclassification-error

23. UNCTAD. (2020). Trade in Services Bulletin Q3. UNCTAD. https://unctad.org/en/Pages/Publications/. New York: UNCTAD Publications.

24. United Nations. (2020). The impact of COVID-19 Pandemic on Trade and Development. New York: United Nations Publications.

25. wikipedia. (2015, 09). Military. Retrieved 11 30, 2020, from wikipedia: https://en.wikipedia.org/wiki/Military#Capability_development

26. Wikipedia. (2020, November 27). Template:COVID-19 pandemic data. Retrieved November 27, 2020, from Wikipedia: https://en.wikipedia.org/wiki/Template:COVID-19_pandemic_data

27. zangin, M., naji , M., & wzhar, F. (2020). THE RISE OF THE GLOBALIZATION AND ITS EFFECT ON THE AUTONOMY OF. Journal of Critical Reviews, 7(6).

28. *Žižek, S. (2020, 04 06). Filosofia, Slavoj Žižek: "Vedo un nuovo comunismo germogliare dal virus". Retrieved 11 30, 2020, from la Repubblica: https://rep.repubblica.it/pwa/robinson/2020/04/06/news/slavoj_z_iz_ek_chiusi_in_casa_riscopriamo_non_c_e_momento_piu_politico_di_questo-253290185/*

29. أحمد عدنان الميالي. (04, 2020). *فايروس كورونا اختبار للاقتصاد والعولمة*. تاريخ الاسترداد 27 11, 2020، من researchgate: https://www.researchgate.net/publication/341001139_fayrws_kwrwna_akhtbar_llaqtsad_walwlmt_d_ahmd_dnan_almyaly

30. البنك الدولي . (2020). *الآفاق الاقتصادية العالمية*. تاريخ الاسترداد 27 نوفمبر, 2020، من البنك الدولي: https://www.albankaldawli.org/ar/publication/global-economic-prospects

31. دلال العكيلي. (9 سبتمبر, 2020). *كيف اثرت جائحة كورونا على سلاسل التوريد العالمية؟* تاريخ الاسترداد 27 نوفمبر, 27، من شبكة النبأ: https://annabaa.org/arabic/economicreports/24439

32. فتحي التريكي. (12 04, 2020). كيف يفهم كبار أساتذة الفلسفة في تونس أزمة كورونا؟ (رمزي العياري، المحاور) حوارت.

33. منظمة الصحة العالمية . (29 جوان, 2020). *التسلسل الزمني لاستجابة منظمة الصحة العالمية لجائحة كوفيد-19*. تاريخ الاسترداد 27 نوفمبر, 2020، من منظمة الصحة العالمية: https://www.who.int/ar/news/item/08-11-1441-covidtimeline

34. ميشل فوكو. (2003). *محاضرات مبشيل فوكو -يجب الدفاع عن المجتمع 1976-*. (بغورة زواوي، المترجمون) بيروت: دار الطليعة للطباعة و النشر.

35. هشام قاضي. (2020). *كورونا نحو موت الايديولوجيا وميلاد الإنسان الجديد*. دار خيال للنشر والتوزيع.

كورونا ومستقبل الإنسانية أسئلة مقلقة في زمن الوباء عند تشومسكي وإدغار موران

د. هشام مصباح
جامعة عبد الحميد مهري قسنطينة2 hicham.philo21@gmail.com
2. طالبة الدكتوراه: دغو سليمة
جامعة الحاج لخضر باتنة1 Sselmasous05@gmail.com

ملخص الدراسة:

ارتبط اسم كورونا بمدينة ووهان الصينية التي كانت المرتع الأول للفيروس العالمي الذي أصاب البشرية في نهاية عام 2019 متخذا من ذلك لقبا جديدا له وهو كوفيد19، بدأ رحلته الطويلة من الصين التي وجدتْ نفسها في فترة زمنية قصيرة تعيش مرحلة العزلة والانغلاق على كافة مجالات الحياة الإنسانية، عندها كان العالم يلعبُ دور المتفرج المستمتع بما يحدث في بلد التنين النائم خصوصا أولئك الذين يرون في الصين العدو اللدود، فصارعت الوباء وقاومته بما امتلكته من تقنيات وآليات حديثة في مجال الطب والوقاية والرعاية الصحية، فنجحت في الامتحان وتغلبت على كورونا ليغيّرَ مسارهُ نحو البقاع الأخرى من الكوكب الأزرق ومعهُ تبدأ حكايةٌ جديدة بطلها الوحيد فيروس مجهري لا يمكن مشاهدته بالعين المجردة، فقد وجد العالم نفسه أمام إعصارٍ مدمر لا يعرف معاني الرحمة والشفقة، ومعه بدأتْ الأرقام تتغير وتتبدل في عدد الموتى يوميّا، وكأن الحياة كلها أصبحتْ بلونِ الموت الأسود في زمن كورونا، فوقف العالم بما امتلكه من قوةٍ رهيبةٍ في مجال البحث العلمي والتكنولوجي عن التصدي له، وبالتالي جعل العالم أمام حقيقة مصيرهم المشترك الذي يقتضي تكريس قيم التضامن والتعاون بينهم للتصدي للخطر المحدق بهم من كل الجوانب، وهي الفكرة الأساسية التي أراد **نعوم تشومسكي** والفرنسي **ادغار موران** معالجتها من خلال موقفهم الواضح تجاه الوضع الإنساني ومستقبل العالم في ظل جائحة كورونا.

الكلمات المفتاحية: كورونا، المستقبل، تشومسكي، موران، القيم، الإنسانية، العالم الراهن

مقدمة:

لماذا كل هذا الرعب العالمي غير المسبوق في تاريخ الإنسان الطويل وكأنه لم يعرف الأوبئة والأمراض والفيروسات قط طيلة مساره وحياته على الكوكب الأزرق؟ ما هي الأسرار العجيبة الرهيبة التي يخفيها فيروس كورونا عن الأنظار؟ ولماذا كل هذا الخوف من فيروس لا يختلف كثيرا عن معظم الفيروسات التي أصابت البشرية منذ الأزمان الغابرة؟ هي أسئلة مقلقة أيقظت الجميع من سباته العميق ليعزف أنغام الأسى والحزن على فقدان الأحبة والأصدقاء معلنا في الوقت ذاته فشله وعجزه الكبير في التصدي للخطر المحدق القادم من المدينة الصينية ووهان، تلك المدينة التي حملتْ معها الشؤم العالمي، باعتبارها المنطقة الأولى للفيروس الذي شقَّ طريقه في كل بقاع المعمورة معلناً حالة طوارئ لم يعشها الإنسان من قبل، فماذا يخفي كوفيد19 يا ترى؟

إن الحديث عن حالة العالم الراهن في ظل الجائحة هو في الحقيقة حديثٌ يشبهُ إلى درجة كبيرة قراءة رواية في الأوبئة أو الطاعون؛ لأن الأجيال التي ستأتي من بعد الوباء قد لا تصدق حقيقة الوباء العالمي الذي أرعب الجميع وألزم الإنسان حدوده التي طالما تجاوزها في كل مجالات الحياة، في السيطرة على الطبيعة وتطويعها لخدمته، في الانتهاكات الصريحة والمضمرة في حق النظام الأيكولوجي الذي يستغيث ليلاً ونهاراً وقد ألمتْ به المصائب من كل حدب وصوب، إفرازات نووية وملوثات صناعية غزتْ البر والبحر والجو ولم تترك شيئا في طريقها، أمام تخاذل الدول العظمى في العالم الأكثر تلويثاً للطبيعة وتدميرها الكارثي الذي قد يعصف بالبشرية ووجودها في أيّ لحظة من لحظات وجودها المهدد اليوم، إن حقيقة الوباء الجديد تجعلنا أمام العديد من القراءات والتأويلات التي تبحث عن معنى واضح لمستقبل الحياة البشرية في ظل تجاوزات العلم والتقنية في القرن العشرين وبدايات القرن الحادي والعشرين، فقد وضع فيروس كورونا الإنسان أمام خطر عظيم يتربص بحياته من كل جوانبها، خطرٌ لا نعرف مصدره ولا كيفية انتقاله، فلربما كان يعيش في داخلنا ونحن لا نعلم عنه شيئا، ومن ثمة استطاع أن يضع البشرية أمام امتحان صعب قد يطول الجواب عنه، وقد لا يملك حلا أصلا خصوصاً بعد العجز الكبير الذي عرفه حقل الطب والبيولوجيا في فك

شيفرة الفيروس وإيجاد الدواء أو اللقاح المناسب له الذي ينتظره كل سكان الكوكب الأزرق.

فقد سادت حالة من الرعب والخوف الشديد الذي أصبح العنوان الحقيقي لزمن الوباء وكأن الإنسانية لم تعرف طيلة تاريخها الطويل أيّ نوعٍ من الأوبئة الأخرى التي فتكت بملايين الأرواح في مدةٍ زمنية قصيرة من قبيل الطاعون، الموت الأسود، الجذام، الجدري، فيروس سارس، وغيرها من الأوبئة الأخرى التي عرفها الإنسان طيلة تاريخه، إلا أنَّ جائحة كورونا كانت مختلفة عنها شكلاً ومضموناً، إنها بمثابة الإعصار المدمر الذي يلتهم كل ما يجده في طريقه دون أي استثناءٍ، فالكل سواسية في زمن الوباء الجديد، الذي جلب إليه كل الشرائح والحقول المعرفية ولم يعدْ محصوراً على ميدان الطب والبيولوجيا، فقد تعددت أبعاده إلى كل مناحي الحياة الإنسانية، الاجتماعية، النفسية، الاقتصادية والسياسية، لما أحدثهُ من هزات قد يطول الشفاء منها، حتى الدول الأكثر تقدماً في العالم بما تمتلكه من معداتٍ وتقنياتٍ جد متطورة قدْ أعلنت فشلها الذريع في احتواء الوضع والسيطرة على تفشي الوباء وانتشاره بين الناس، الأمر الذيْ وضع النظام الليبرالي والرأسمالي في موضع التساؤل من جديد حول مدى قدرته على مواجهة الأزمات والكوارث التي تعصف بالبشرية، ومن ثمة فشل العولمة في تحقيق وعودها التي طالما قطعتها على نفسها بما امتلكته من تقنيات جديدة في تحقيق التقارب بين الشعوب تحت شعار العالم قرية صغيرة في حين جعل منه الوباء جزرا متباعدة ومتنافرة لا تعرف سوى قانون المصلحة الشخصية والأنانية. كيف لا وقد شهد العالم شكلاً آخر من الحروب والصراع، هو حروب الكمامات ومواد التعقيم والمواد الطبية التي أصبح يتم قرصنتها وأخذها بالقوة، فهل هذا يعني عجز الدول المتقدمة عن توفير هذه المواد البسيطة، وهي التي خصصتْ ميزانيات ضخمة للتسلح وامتلاك أقوى المعدات الحربية العالمية؟ ألا يعني هذا درسا جديدا للعالم لكي يعيدَ ترتيب الأولويات داخل المجتمع والدولة وإعطاء الطب المكانة التي يستحقها؟

إنّ هذه الأوضاع المأسوية التي يعيشها العالم اليوم في ظل جائحة سيخلدها التاريخ بأحرف من ذهب باعتبارها من أقوى العواصف وأشدها خطورة على الإنسانية جمعاء، إنها بمثابة إعصارٍ مدمر لا يعرف إلا لغةً واحدةً هي لغة الموت الذي أصبح العامل المشترك بين سكان كوكب الأرض، فقد تغيرّتْ الكثير من المفاهيم التي نعرفها قبل الجائحة، حيثُ لمْ تعدْ كما كانت بلْ سادها تحولٌ وتبدل رهيب لا مثيل له على الإطلاق في زمن ما بعد الحداثة، وأفول مملكة القيم داخل الفضاء الغربي الذي وقع في أزمات عديدة من أبرزها أزمة كورونا، من هذا المنطلق سيحاول **نعوم تشومسكي** الفيلسوف وعالم اللسانيات المشهور بآرائه النقدية وقراءاته الدقيقة المضبوطة في تشخيص واقع الإنسان المعاصر ونقده للسياسات الأمريكية المتطرفة تقديم قراءاته لمفهوم **الجائحة** ومدى الانعكاسات الرهيبة التي يعيشها العالم في فترة الوباء وما بعدها على الصعيد الاقتصادي والسياسي العالمي، ومن ثمة كيف سيكون مستقبل الإنسانية في ظل التحديات الجديدة التي يعيشها الإنسان اليوم؟ وهي الفكرة ذاتها التي سينطلق منها السوسيولوجي والفيلسوف الفرنسي الكبير **ادغار موران** باعتباره من بين الفلاسفة الأكثر شهرة في العالم بما قدمه من منجزات فكرية تصبُّ كلها في تقديم رؤية جديدة للواقع الإنساني الراهن الذي يعيش وضعا متأزماً من جميع جوانبه، ومن ثمة يركّزُ "**موران**" في قراءاته للجائحة على تشخيص وضع الإنسان اليوم، وكيفية الخروج من هذه الأزمة التي قدْ تضعُ البشرية في مفترق طرق يصعب الخروج منه، فما هي رؤية **موران** للوضع الإنساني العالمي في ظل الجائحة التي ألمّت به؟ ومن ثمة البحث في مختلف المقاربات الفكرية التي دارت حول جائحة كورونا بين مختلف الحقول المعرفية التي كانت حاضرة لتقدم تحليلها وتشخيصها للواقع الراهن، والرهانات الحاسمة التي تعيشها الإنسانية في زمن فيروس كورونا المستجد.

1- جائحة كورونا وتاريخ الأوبئة، لماذا كورونا أقوى من الجميع؟ كما أشرنا سابقاً في المقدمة لقد عرفت البشرية العديد من الأوبئة والفيروسات والجراثيم طيلة مسارها التاريخي، ومن ثمة التأكيد على قِدَم الصراع بين الإنسان وعالم الأوبئة والفيروسات، فمنذ القدم والإنسان يجابه مختلف الأمراض الخطيرة

والمعدية التي تصعب السيطرة عليها أو التحكم فيها إلا بعد أن تترك آثاراً وخيمة في عدد الموتى والمصابين بهذه الأوبئة، وعليه فالحديث عن فيروس كورونا ليس بالأمر الجديد في ميدان علم الأوبئة فقد سبقه فيروس سارس وميرس والأنواع الأخرى التي أصابت العالم دون أن تترك انعكاسات وخيمة بمثل ما يحدث مع كوفيد19 الرهيب والعجيب في الوقت ذاته، انطلاقا من أنه لم يصب مجال الصحة والمرض فقط بل شمل جميع مناحي الحياة الإنسانية في جانبها الاقتصادي الذي تلقى ضربة كبيرة لا يمكن نسيانها بسهولة في زمن التقدم العلمي والتقني الرهيب الذي بلغهُ العلم الغربي على وجه الخصوص، الجانب الاجتماعي والتحولات الجذرية في نمط الحياة الإنسانية وأبعادها الاجتماعية التي أصبحت كلها تمشي وفق قانون العزل والحجر الصحي، ومن ثمة البقاء في المنزل هو الحل الأمثل في ظل انتشار مرض لا حدود له على الإطلاق، أيضا الجانب السيكولوجي نتيجة الخوف والرعب الذي فرضه في جميع أنحاء العالم، خوف من نوع جديد لم يألفه الإنسان المعاصر منذ زمن بعيد، الجانب التعليمي وغلق المدراس والجامعات والاكتفاء بالدروس التي تقدم عن بعد، الجانب السياسي والأسئلة المحورية التي أصبحتْ اللغة المشتركة لدى السياسيين في جميع أنحاء العالم خصوصا بعد الأحداث الأخيرة التي عرفها الاتحاد الأوروبي، والصراع الأمريكي الصيني المتجدد في زمن الوباء وغيرها من المجالات الأخرى التي لعبَ فيروس كورونا الدور الأساسي داخلها.

فالفيروسات من العناصر المرافقة للوجود الإنساني ولا يمكن تصور حياة دون وجود هذا العالم الميكروبي اللامتناهي في الصغر، وبالتالي فهي تسهم بشكل أو بآخر في التأثير على حياة الإنسان باعتبارها ملازمة له، فقدْ أثبتت الدراسات الجينية الحديثة أن الفيروسات تتسلل إلى داخل الجسم البشري منذ زمن سحيق، ومن ثمة فهي تشكلُ جزءًا من خريطته الجينية حيث تشكل ما بين 8 إلى 10 في المائة من مجموع موروثاتنا الجينية، كما أن عدد البكتيريا والفيروسات يفوق بكثير عدد الخلايا البشرية داخل الجسم الإنساني وهو ما عَبَّر عنه عالم الأحياء **جون هيرك** بقوله:" إننا نمثل أقلية في داخل أجسامنا" (حفيظ هروس، 2020)، وفي هذا تأكيدٌ على وجود الفيروسات والميكروبات داخل الجسم الإنساني بشكل كبير جدّا؛ حيث إنها تشكل جزءا مهمّا في سيرورة الحياة الإنسانية

واستمراريتها، وبالتالي لا يمكن فصل الجانب الإيجابي للفيروسات عن الآخر السلبي الذي يؤدي بالحياة إلى نهايتها، كذلك لم تخلُ المجتمعات البشرية عبر تاريخها من وجود الأوبئة بمختلف أشكالها وأصنافها، والعودة إلى تاريخ الأوبئة أفضل دليل على ذلك؛ حيثُ نجد الموت الأسود أو الطاعون، الكوليرا الجذام، الانفلونزا بشتى أنواعها، فيروس سارس، فيروس ميرس، الإبولا وغيرها من أنواع الفيروسات التي تركتْ بصمتها في تاريخ المرض وصراع الإنسان معه، وهو الأمر الذي أسّسَ لظهور فرع علمي طبي يختص بدراسة الأوبئة والبحث فيها، ومحاولة إيجاد العلاج واللقاح لكل الفيروسات والأوبئة التي تصيب الإنسانية فعلم الوبائيات هو علم عملي، وقد تطور في فهم محتواه للأمراض التي تؤثر على البشر خلال مدة زمنية معينة، ففي بداية تَكَوّنِ المجتمعات تكون المشاكل الصحية الأساسية في الإنسان ناجمة عن الأمراض المعدية(ياسر العمر، 2010) وهكذا ساهم هذا العلم في معرفة الأمراض المعدية والتصدي لها من خلال تطوير لقاحات خاصة بها، وعليه فالحديث عن علم الأوبئة حديثٌ واسع يحتاج إلى دراسات مطولة لما فيه من مضامين تتعلق بالصحة والمرض.

أما بالرجوع إلى فيروس كورونا المستجد فإن بدايته التاريخية تعود إلى نهاية سنة 2019 في شهر ديسمبر أين تداولت بعض وسائل الأخبار الصينية نبأ إصابة بعض الأشخاص بفيروس جديد أطلق عليه كورونا فيروس أو كوفيد 19، وبعدها بمدة قصيرة شاع خبر تفشي الفيروس في المدينة الصينية ووهان بطريقة رهيبة جعلت الصين تدق ناقوس الخطر معلنةً حالة طوارئ قصوى في كامل مدنها، ومدينة ووهان كحالة خاصة حيث فُرِضَ عليها حجر صحي إلزامي جندت له كل الظروف المادية والمعنوية، في هذه الأثناء ما زال العالم يلعب دور المتفرج على مسرحية الفيروس الجديد القادم من الصين، وما هي إلا مدة قصيرة حتى بدأ يشق طريقه إلى مختلف أنحاء العالم بشكل سريع ورهيب لم يُعْرَفْ له مثيل من قبل، ليتم الإعلان في شهر مارس 2020 أن كورونا وباء عالمي يقتضي أخذ جميع تدابير الوقاية منه من طرف المنظمة العالمية للصحة، ومن ثمة بدأت حكاية الوباء الجديد الذي أعطى البشرية دروس سيخلدها التاريخ ويرويها للأجيال القادمة التي لن تصدقَ ذلك بسهولة لأنها لم تعايش الوضع الكارثي الذي يعيشه العالم اليوم

في ظل تفشي الفيروس العالمي، هذا الفيروس الذي يختلف عن باقي الفيروسات الأخرى التي عرفها العالم من قبل، لأنه بكل بساطة أوقف الحياة الإنسانية في كل بقاع المعمورة، مدنٌ فارغة لا حركة فيها، تباعدٌ اجتماعي غيّر العلاقات الاجتماعية بين الأفراد وجعل لعبة الاختفاء تحت الأقنعة الواقية الواقع الجديد المفروض على الإنسان في كل مكان من الكوكب الأزرق.

2- **كورونا وهشاشة النظام العالمي عند نعوم تشومسكي:** لقد كشفتْ جائحة كورونا عن العديد من الأسئلة المحورية المتعلقة بجوانب شتى لعل من أبرزها طبيعة النظام العالمي الحالي الذي وجدَ نفسه في دوامة من الإشكالات المحورية الحاسمة المرتبطة أساسا بمصير الإنسان ومستقبله في ظل عالم وجهتهُ غيْر معروفة بعد انقضاء عدة الوباء من العالم، من هنا يبرز عالم اللسانيات اللغوي الأمريكي المشهور **نعوم تشومسكي** الذي يناهزُ التسعينات من عمره ليشخِّصَ لنا حالة الأوضاع العالمية في زمن كورونا والرؤى المستقبلية التي يمكنُ أنْ تحملها الجائحة معها اقتصاديّا وسياسيّا وغيّرها من المجالات الأخرى التي ستنعكس عليها فترة الوباء، مندِّدا في الوقت ذاته بالسياسية الأمريكية ونظامها العالمي الذي لم يستطعْ تقديم الحلول الكفيلة بتجنب كارثة كورونا ومعه الدول الأكثر تقدما في العالم، **نعوم تشومسكي** اشتهر بتحليلاته السياسية الناقدة للنظام العالمي الأمريكي خصوصا في فترة الرئيس الأمريكي **ترامب** الذي وصفهُ بأنه غير مسؤول ولا يمكنه اتخاد القرارات الصائبة بل وصفه بالطائش والمتهور خصوصاً بعد الطريقة التي تعامل بها مع فيروس كورونا، فقد وضعنا فيروس كورونا أمام أزمة عالمية حقيقية قد يطول أمدها لسنين أخرى حتى بعد انقضاء مرحلة الفيروس، وستنعكس من دون شك على الدول الضعيفة والفقيرة التي تعاني أوضاعا سياسية قاهرة كما ينبهُ **تشومسكي** إلى اللامبالاة الكبيرة التي واجهت بها كبرى الدول في العالم أزمة الوباء على الرغم من المعرفة المسبقة التي كانت تتمتع بها هذه الدول حول الخطر المحدق بالبشرية منذ **فيروس سارس عام 2003** حيث يقول:" **كان العلماء يحذرون من قدوم الجائحة منذ سنوات وبشكل أكثر إلحاحا منذ وباء سارس في 2003، والذي تم تطوير لقاحات له لكنها لم تتقدم أبعد من المستوى ما قبل السريري... لكن الفهم العلمي ليس كافيا يجب أن يكون دائماً**

هناك أحد ما يلتقط الكرة ويجري بها، لكن هذا الخيار حظرته أمراض النظام الاجتماعي، الاقتصادي المعاصر، فقد كانت إشارات السوق واضحة، فليس هناك أيُّ ربح في منع وقوع كارثة في المستقبل (سي جي بوليكرونيو، أفريل 2020)" فمن مظاهر هذه الأزمة التي يؤكد عليها **تشومسكي** هي غياب أجهزة التنفس الاصطناعي في ظل المنطق الليبرالي الرأسمالي القائم على ضرورة تحقيق المزيد من الأرباح حتى في لحظات الكوارث الإنسانية ودمار الإنسان، هذا ما يثبته الصراع بين كبرى الشركات العالمية المتخصصة في إنتاج اللقاحات ومواد التعقيم وأجهزة التنفس الاصطناعي وغيرها من المواد الأخرى، يقول" وفقًا للعقيدة النيوليبرالية فإن مهمة مديري الشركات هي تعظيم الأرباح ومن شأن أي انحراف عن هذا الالتزام الأخلاقي أن يحطم أسس الحضارة والحياة المتحضرة، سيكون هناك تعافٍ من أزمة كوفيد 19 بتكلفةٍ كبيرة وربما مروعة خاصة بالنسبة للفقراء والأكثر هشاشة، ولكن لن يكون هناك تعافٍ من ذوبان الصفائح الجليدية القطبية ومن العواقب المدمرة الأخرى، هنا أيضا تنجم الكارثة عن فشل السوق، والتي ستكون في هذه الحالة بأبعادٍ تهز الأرض حقاً" (سي جي بوليكرونيو، أفريل 2020، صفحة المرجع السابق)، فقد تعاملت أمريكا مع الوباء بسخافةٍ واستهزاء واعتبرته مجرد حالات عادية من الزكام أو السعال، فكانت النتيجة وخيمة على جميع الأصعدة حيث سجلتْ الولايات المتحدة الأمريكية أرقامًا قياسية في عدد الحالات المصابة أكبر بكثير من النتائج التي سجلتها الصين وهي البلد الذي انتشر فيه الفيروس أول مرة، وبالتالي جعلنا فيروس كورونا أمام حتمية إعادة البحث في الكثير من الأسئلة ذات العلاقة المباشرة بمشكلة الرعاية الصحية والحفاظ على الإنسان وسلامته من جميع الأخطار والكوارث التي تتربصُ به من كل جانب خصوصًا في المرحلة الراهنة التي عرفت العديد من التهديدات على الصعيد العالمي من أهمها الأخطار الايكولوجية التي أصبحت بمثابة الخطر الحقيقي المحدق بالبشرية نتيجة كثرة الملوثات بجميع أصنافها من جهة، وزيادة نسبة النفايات الصناعية لدى الدول الأكثر تقدّما في العالم، الأمر الذي قد ينعكس سلبيّا على مستوى الحياة الإنسانية على الكوكب الأزرق، ومن ثمة أصبح البحث في هذه المسائل من الأولويات التي يجب التأسيس لها جيّدا، وهي الفكرة التي نجدها عند الألماني **هانس يوناس** من

خلال أبحاثه في الأخلاقيات الجديدة المرتبطة بمسائل البيئة والأخلاق الأيكولوجية، والتجاوزات البيوتكنولوجية على الكائن الحي عمومًا والإنسان على وجه الخصوص مقترحًا الحل في ضرورة تحملِ كل شخصٍ أو مؤسسة أو دولة لمسؤوليتها تجاه ما تقوم به من أفعال وسلوكيات مضرة بالبيئة والإنسان، هذا ما نجده في مؤلفه المشهور" **مبدأ المسؤولية"** باعتباره ردّ فعل تجاه كل التجاوزات المحدقة بالإنسان في عالمنا الراهن، يقول **تشومسكي** في الفكرة نفسها:" إذا كنا نأمل في تجنب الكوارث المستقبلية فإننا يجب أن ننظر إلى ما وراءها. لقد جاء **ترامب** إلى المنصب في مجتمع مريض مصاب ب40 عاماً من مرض النيوليبرالية هذا هو العالم الذي ورثه **ترامب**، وهو الهدف لكبش نطاحه، بالنسبة لأولئك المهتمين بإعادة بناء مجتمع قابل للحياة من الحطام الذي تتركه الأزمة الراهنة، سيكون من الجيد أن يستجيبوا لدعوة فيجاي براساد، لن نعود إلى الوضع الطبيعي، لأن الوضع الطبيعي كان هو المشكلة " (سي جي بوليكرونيو، أفريل 2020) بمعنى الأثار الناجمة عن فيروس كورونا ما هي إلا تعريةٌ للحقائق التي كانت مختفيةً وراء النظام الليبرالي القائم على معادلة الربح وفقط دون الالتفات إلى تلك القضايا المهمة المتعلقة بالإنسان ومصيره.

فقد كشفتْ كورونا عن الكثير من الأسرار التي كان يقوم عليها النظام العالمي والعلاقات القائمة بين الدول التي تحولت فجأة ودون سابق إنذار إلى مجرد أنانية ومصلحة شخصية ذاتية لا أساس للأخلاق فيها على الإطلاق، ومن ثمة ضرورة إعادة طرح سؤال الإنسان من جديد في ظل التحولات الكبرى التي يشهدها العالم في زمن الوباء العالمي. يقول **باسل عثمان:"** هذه العقلانية العالمية التي تتطلب حراكاً ثوريّا عالميّا لإصلاح الأنظمة السياسية والاجتماعية والاقتصادية القائمة بما يضمن مصالح البشرية جمعاء والحفاظ على ثروات الطبيعة ومخزوناتها من الاستغلال الجائر لمواردها" (عثمان, باسم، 2020)، وهي الفكرة التي عبّرَ عنها الكاتب الأمريكي" **دين رايكونتز**" عندما تصور في روايته" **عين الظلام**" انفلات فيروس فتاك في مقاطعة ووهان الصينية من عقاله مستهدفًا بني البشر وحدهم دون غيرهم (عثمان, باسم، 2020، صفحة المرجع السابق)، ومن ثمة كانت ضربة كورونا قاسية جدّا على الدول المتقدمة التي كانت تتغنى بشعارات العولمة ومفهوم

القرية الكونية والصغيرة في ظل ما بلغهُ التقدم العلمي التقني الذي يعرفه العالم اليوم في القرن الحالي، الأمر الذي جعلَ الفيروس يحملُ العديدَ من الأبعاد الخطيرة ذات الطابع السياسي بالأساس، الأمر الذي عزّزَ فكرة الحرب البيولوجية كنمط جديد من الحروب العالمية التي يعيشها العالم اليوم، وهو يعيش حالة صراع رهيبة مع عدوٍ لا نعرف مكانه ولا حجمه، لا نراهُ فهو لا متناهٍ في الصغر. إنهُ عالمٌ لا يشبه بقية العوالم الأخرى على الإطلاق،" ومن ثمة يكون فيروس كورونا بمثابة الوجه الحقيقي للعولمة عبر إعلامها المضلل، حيثُ امتدَ جسر عولمة الخوف والتهويل ليساوي بين الدول الغنية والفقيرة" (**عثمان, باسم**، 2020، صفحة المرجع السابق) وهذا ما نجدهُ في السياسة الإسرائيلية المتبعة في فلسطين واستغلال الظرف الوبائي العالمي في تنفيذ بنود **صفقة القرن** في ظل غفلة دول العالم بالصراع مع **فيروس كورونا**، ومن ثمة استغلال الظرف في تنفيذ مشاريعها الخبيثة على الأرض الفلسطينية المقدسة، وعليه كان الفيروس بمثابة الفرصة التي لا تقبلُ التضييع لتنفيذ الكثير من المشاريع السياسية مادام الحدث العالمي اليوم هو انتشار الفيروس وكيفية التصدي له، فقد أضحى الكل مهددا. الأمر الذي يقتضي ضرورة العمل الجمعوي للخروج من الوضع المأساوي بالامتياز الذي أصبح القناعُ فيه الوجه الحقيقي في كل نقطة من كوكبنا، حيث يجددُ **تشومسكي** دعوته إلى ضرورة التعامل مع الفيروس بنفس الخطاب الشعبوي في زمن الحرب حيث يقول:" **نحن بحاجة إلى مثل هذه العقلية للتغلب على الأزمة على المدى القصير، والذي تتمكن فيه الدول الغنية من مساعدة الدول الفقيرة، فإذا أردنا التعامل مع هذه الأزمة علينا الانتقال إلى شيءٍ يشبهُ التعبئة في زمن الحرب ويضيف: إن أزمة فيروس كورونا قد تدفع الناس إلى صنع العالم الذي يريدون العيش فيه، خاصة إذا قررتْ الدول الغنية مساعدة المحتاجين عوضاً عن خنقهم**" (يونس, هميسة، 2020)، فالوضع العالمي يحتمُ ضرورة البحث عن الحلول الفعّالة لتجنب وقوع كارثة حقيقية قد يطول أمدها، كما نبه **تشومسكي** إلى فشل السياسات والحكومات العالمية في التعامل مع الجائحة التي كانت تملك القدرة على تجنبها ومن ثمة التحكم فيها، ولكنها لم تعط لها أي قيمة فكانت النتيجة هكذا. يقول:" إن الأزمة الحالية أثبتتْ فشل سياسات السوق حينَ سلمنا

مصيرنا للاستبداد الخاص لشركات الأدوية التي لا تخضع لمساءلة الجمهور بل لمصلحة نفعية للنيوليبرالية المتوحشة التي تتحكم باقتصاد السوق وفلسفة العرض والطلب على المستوى العالمي حيث الطاعون الجديد المتمثل في **النيوليبرالية** يقودنا إلى الهلاك" (يونس, هميسة، 2020، صفحة 16).

كما نادى أيضاً بضرورة تجاوز النظام القائم والدعوة إلى تأسيس نظام جديد إنساني يضمن مستقبل الإنسان ويمنعهُ من الزوال والاندثار في ظل الكوارث التي تحيط به من كل الجوانب، فالعالم في وضعٍ معيب كشف عن مدى ضعفه وعدم قدرته على مواجهة الأخطار المحيطة به خصوصاً في مجال الصحة والرعاية الطبية في أنحاء العالم كلها، حيث ركّزَ كامل قوته في السباق نحو التقنيات الجديدة في الأسلحة والعتاد الحربي مهملاً هذه القطاعات الحساسة والمصيرية التي تهتم بسؤال الإنسان وقيمه، ومن ثمة الأبعاد الأخلاقية والإنسانية في التعامل مع الشعوب، لذلك يدعو **تشومسكي** إلى ضرورة استبدال النظام العالمي السائد بنظام عالمي إنساني من أجل أن يكون هناك مستقبل للبشرية قابل للبقاء وقادر على رفع التحدي والمنافسة في ظل التحولات الكبرى التي يعرفها اليوم في زمن الوباء يقول:" العالم معيبٌ وليس قوياً بما فيه الكفاية للتخلص من الخصائص العميقة المختلة في النظام الاقتصادي والاجتماعي العالمي كله، واستبداله بنظام عالمي إنساني كي يكون هناك مستقبل للبشرية قابل للبقاء عندما نتغلب على هذه الأزمات بطريقة أو بأخرى فإن الخيّارات المتاحة ستتراوح بين تركيبة دول وحشية شديدة الاستبداد أو إعادة بناء جذرية للمجتمع تقوم على أسسٍ أكثر إنسانية تهتم بالاحتياجات البشرية لا بالربح الخاص" (يونس, هميسة، 2020، صفحة 17) بمعنى البحث عن عالم أفضل مبني على احترام حقوق الإنسان وكرامتهم. عالم قادر على مواجهة كل المشكلات التي يعاني منها، والتي تتربص به من كل الجهات سواء المشاكل النووية التي تهدد وجود الإنسان، أو الكوراث البيئية التي قد تعصف بكوكبنا في أي لحظة إن لم نرجع إلى طبيعتنا العاقلة ونعيد التفكير في سؤال مصيرنا من جديد، من هنا يجدد صاحب **جائزة سيدني للسلام** تمسكه بالحل الكامن في الحركة الاجتماعية للتغلب على فشل

النيوليبرالية، فتعزيزُ أواصر التضامن والتشارك هو المطلب المُلِحّ اليوم لمواجهة وباء كورونا.

3- كورونا ومستقبل الإنسانية ادغار موران وتشخيص أزمة الإنسان الراهنة:

إن الحديث عن الوضع الراهن للإنسان والعالم يُعدُّ من القضايا الراهنة التي شغلتْ بال المفكرين والفلاسفة والباحثين في تاريخ الإنسان والتحولات التي يمرُّ بها طيلة مساره التطوري، حيث أعادتْ صورة الجائحة سؤال المستقبل والاستشراف من بابه الواسع باعتبار أن العالم اليوم يعيش مخاض عسيرًا في كل مجالات الحياة الإنسانية التي أصبحت مرادفة للخوف والرعب والهلع المنتشر في كل بقاع الكوكب الأزرق، ناهيك عن التغيّرات التي مستْ المجتمع وبنيته في زمن الوباء، والذي أصبح يعيش حالات من العزلة والانعزال والابتعاد عن الغيْر حتى ولو كانوا من المقربين منه، ومن ثمة فقد فرض الوباء نمطاً جديدا من الحياة لم يسبق أن عاشه الإنسان رغم الأوبئة العديدة والمتنوعة التي عرفها مند القديم، بمعنى التضخم الرهيب الذي ميّزَ وباء كورونا والذي لم يسبقْ له أن حدث في تاريخ البشرية.

من هذا المنطلق يحاول **ادغار موران** الفيلسوف والسوسيولوجي الفرنسي الكبير رائد الفكر الإنساني والمدافع عن الإنسان وقيمتهِ بعيداً عن كل تمظهرات التميّيْزِ المصطنع بين الشعوب والأمم وتشخيص الوضع الراهن للعالم في ظل تفشي فيروس كورونا المرعب، والانعكاسات الكبرى التي يمكن أن تغيِّرَ شكلَ النظام العالمي السائد، إضافة إلى المسائل الأخرى المرتبطة بالجائحة من قبيلِ مصير الشعوب الضعيفة والفقيرة التي تعاني الجوع والمجاعة والأمراض المختلفة. فكيفَ يمكنها التصدي لوباء عجزت أمامهُ القوى العالمية الكبرى؟ ومن ثمة ضرورة البحث في مستقبل الإنسان والإنسانية بعيداً عن كل تقوقع داخل أبنية لا أساس لها من الصحة، وقد أثبت الواقع ذلك منذ تفشي الفيروس في العالم، لذلك يؤكد **موران** كغيره من الفلاسفة والمفكرين في العالم على ضرورة امتلاك وعي حقيقي في التعامل مع الأوضاع الكارثية والأزمات التي تمر بها البشرية أيْ البحثُ في طبيعة النظام العالمي السائد الذي لم يستطعْ المقاومة أمام فيروس مجهري لا يمكن

مشاهدته بالعين المجردة، ومع ذلك تمكنَ من اختراق كل الأنظمة العالمية التي كانتْ بالأمس القريبِ فقط تتغنى وتفتخر بمختلف المنجزات التي حققتها في القرن العشرين والقرن الحالي الذي يعرف باسم قرن الثورات العلمية الكبرى التي لم يشهد العالم مثلها قوة وحداثة، ولكنها مع ذلك وقفتْ عاجزة في التصدي لفيروس لا يختلف كثيراً عن بقية الفيروسات الأخرى التي تعيش معنا والتي تشكل جزءا مهماً في تاريخ حياتنا انطلاقا من اعتبار فيروس **كورونا** من نفس عائلة فيروس سارس الذي ظهر في عام 2003، فلماذا تفشل الدول الأكثر تقدماً في العلم والتقنية في إيجاد اللقاح الملائم لفيروس مدينة **ووهان** الصينية؟

إن الجواب على هذا السؤال مفتوح على مجموعة من الاحتمالات، ولا يمكن حصرها في اتجاه واحدٍ أو فكرة واحدة نتيجة الأبعاد التي يلامسها في تصديه للأسئلة الناتجة عن أزمة كورونا، والتي ما هي إلا أزمة الإنسانية جمعاء، تلك الأزمة التي أشار إليها **"ادموند هوسرل"** في مؤلفه المشهور" **أزمة العلوم الأوروبية والفلسفة الترستندالية"** مُنوهاً فيه بالأخطار التي تتربص بمسار العلم الغربي في القرن العشرين الناتجة بالأساس عن عدم اهتمامه بتلك الأسئلة الحاسمة المتعلقة بمصير الإنسان من قبيل سؤال الإنسان، الهوية، الحرية والمصير المشترك، ومن ثمة إهماله لكل ما يتعلق بالجانب الإنساني والروحي، لذلك أنتجتْ جائحة كورونا معاناة حقيقية للإنسان المعاصر الذي وجد نفسه في شروط حياة جديدة لم يألفها من قبل خصوصا في فترة الحجر الصحي وما خلفته من معاناة حقيقية تجاه كينونتنا." ففي ظل الحجر يعيش الإنسان وضعية الريبة واللايقين لأنه يجد نفسه في مواجهة المجهول والخوف من الموت، كما يجد نفسه في حقل الممكنات الذي يتقلص يوماً بعد يوم، كما يعيشون وضعية اللامعنى لأن ما يضفي المعنى على الوجود هما: المشاريع والأشياء التي يهتم بها ويعلق آماله عليها، والثاني هو وجوده مع الآخرين" (هداري, عبد العالي المتقي وعبد الله، 2020) فقد أصبح العالم كله يعيش في ظل انعدام المعنى بلغة الفرنسي **ادغار موران**، ليسود عالم جديد هو عالم اللامعنى واللايقين خصوصاً بعد فترة الصمت التي عرفها العالم وتقوقع كل دولة داخل ذاتها دون أن يهمها ما يحدث في بقية الدول الأخرى، وما حدث في **إيطاليا** أفضل دليل على ذلك، لقد ساهم **موران** بشكلٍ كبير في بلورة

مشروع استشرافي قائم على نقد مشروع الحداثة الغربية وما بعدها، وعلى البحث في نقائض العلم والتقنية في القرن العشرين والقرن الحالي خصوصاً بعد التحولات الكبرى التي ميّزتْ المرحلة الراهنة التي كان من نتائجها فيروس كورونا المستجد وما حمله معه من قضايا مصيرية متعلقة بالإنسان ومصيره، وكأننا أمام رسالة اللامنتظر التي تكلم عنها **أوريبيد** في قوله:" إن ما يميّز الآلهة هو كونهم يخلقون لنا المفاجآت، فالمنتظر لا يتحققُ تماماً ودور الإله هو أن يفتح الطريق أمام اللامنتظر" (بوالراس, محمد، 2020) هذه الكلمات التي تحمل في طياتها الكثير من المفاهيم والدلالات المرافقة للقرن الحادي والعشرين الذي وجد نفسه أمام دوامة من الرهانات الكبرى على رأسها الأخطار الايكولوجية والحروب البيولوجية وما قدْ ينجر عنها في أي لحظة من وجودنا، ومن ثمة يلحُّ **موران** على الصفة الجديدة للعالم اليوم في استشرافه للمستقبل وغياب القدرة على التنبؤ بما قد يحدث في أيِّ لحظة، مثلما هو الحال مع فيروس كورونا الذي قلبَ جميع الموازين رأساً على عقبْ،" يستمر هذا الفيلسوف بتأكيده انهيار أسطورة التقدم، من خلال تأكيده على أن التقدم شيء ممكن لكنه غير يقيني ... معبراً عن ذلك في مجموعة كلمات أساسية هي: **لقد أصبح للمستقبل اسماً آخر ألا وهو اللايقين**" (بوالراس, محمد، 2020، صفحة المرجع السابق) ومن ثمة مدى تعقد الواقع، فما نظن أنه الواقع حقيقة يتحول إلى مجرد فكرتنا عنه، أي بمعنى غياب معرفة ثابتة مؤكدة، فنظرة صاحب مؤلف "**ثقافة أوروبا وبربريتها**" تتمحورُ بالأساس في البحث عن سبلٍ جديدةٍ لاتقاء الكوارث المقبلة وفي الوقت ذاته ضرورة إعادة النظر في العولمة وتمظهراتها المختلفة حيث يقول في كتابه الجديد حول جائحة كورونا الذي وسمهُ ب **" لنغير السبيل"، دروس فيروس كورونا"** "ما زالت البشرية كلها مذهولة لا تفهم كيف استطاع فيروسٌ ضئيل لا يرى بالعين المجردة أن يزعزع العالم، هل تكفي هذه الهزة كيْ تعي البشرية أن مصيرنا واحد وأن الوقت قد حان كي تراجع الدول المصنعة هذا السباق المحموم نحو التطور التقني والاقتصادي" (أبو بكر العيادي، 2020) هي تساؤلات نابعة عن فهم حقيقي لمعنى الأزمة التي تعاني منها البشرية اليوم، والتي تحتاج إلى تغيّيرٍ جذري في كيفية التعامل مع الحياة الإنسانية ومصير الوجود الإنساني باعتبار أن فيروس كورونا قد كشف عن مدى هشاشة

الأنظمة الاقتصادية والسياسية العالمية التي حصرتْ جميع جوانب الحياة في بعد اقتصادي فقط دون الاهتمام ببقية الجوانب الأخرى، ومن ثمة لابد من حتمية الاستفادة من دروس الوباء واستخلاص الدروس والعبر في مواجهة التحديات المستقبلية في العالم، وهي الفكرة ذاتها التي نجدها عند مواطنهِ الفرنسي الآخر "**ميشال أونفراي**" في تأكيده على حقيقة الواقع العالمي الراهن الذي نعيشهُ اليوم في ظل وباء كورونا مشيراً في الوقت ذاته إلى الوجه الحقيقي المخادع لأوروبا التي كانت في أذهان الشعوب قوى عظمى، ولكن بعد ظهور الوباء فإن مصيرها بات من المحتمل أن يلتحق بصفوف الإمبراطوريات العالمية الكبرى التي كان مآلها السقوط بسبب عجزها عن صنع الأقنعة للفرق الطبية التي تستقبل، مرضى كوفيد 19 ومن ثمة نقدهِ الشديد للحكام الأوروبيين معتبراً أن أوروبا اليوم قد أضحتْ عالما ثالثاً جديداً (شريف الزيتوني، 2020)، ويضيف في السياق ذاته قائلاً:" إن الغرب يعيش امتحان النهاية وأن أوروبا متوجهة نحو الانهيار وربما التفكك أو التراجع الاقتصادي، فانتشار كورونا كشفَ أنّ تفوق أوروبا العالمي والاقتصادي وحتى الفكري لم يشفع لها أن تكون في موقع القوة في المواجهة" (شريف الزيتوني، 2020، صفحة 22).

خاتمة:

لقد كان حدث كورونا مباغتا وغير متوقع بلغة الفرنسي **جاك دريدا**، ذلك أن العالم لم يكنْ في حسبانه على الإطلاق توقع فيروس كورونا في هذه المرحلة بالذات التي يعيش فيها العالم أقصى درجات التقدم والتطور الذي لا نظير له على الإطلاق، ولكن يدخل في مجال التهديدات الكبرى التي تحيط بالعالم، والتي نجدها عند العديد من الفلاسفة وعلماء والاجتماع مثل **أولريش بيك**، **إدغار موران**، **يورغن هابرماس**، **جاك أتالي**، **نعوم تشومسكي** وغيرهم، حيث يؤكد **ادغار موران** من خلال كتابه" **إلى أين يسير العالم**؟" أن الخطر القادم لن يكون في مجال الأسلحة النووية والقنابل الذرية، بل سيكون من دون أي شك خطرًا صحياً. يقول:" إنّ الخطر الذي يتهددُ البشرية لن يكون نووياً بل سيكون تهديدا للصحة، خطرٌ كوني لفيروس ما، له قدرة عالية على الانتقال والعدوى" (عقيل سعيد محفوظ، 2020) وفي هذا أكبر دليل على وجود الخطر منذ فترة طويلة،

ومن ثمة فجائحة كورونا ما هي إلا نتيجة حتمية للتدهور الرهيب الذي يعرفه العالم في جميع مجالاته وعلى وجه الخصوص وضعه البيئي الخطير، وبالتالي ضرورة إعادة قراءة مسار العلم والتقنية والتجاوزات الكبرى التي حدثتْ بفعل الجائحة العالمية، من هذا المنطلق يجدد **موران** وغيره من الفلاسفة تمسكهُ بقيم الإنسان النبيلة باعتبارها وحدها الكفيلة بإنقاذ البشرية من حالة اللامعنى والخوف والأزمات التي تعيشها اليوم في ظل عالم هشٍّ لم يعد يعرف طريقه الحقيقي في زمن الوباء، فالحب والتضامن وتثمين قيمة التعاون بين البشر وحدها من تملك المقدرة على تجاوز اللحظات الحرجة والصعبة التي يعيشها الإنسان يقول:" بالنسبة للكثيرين منّا الذين نحن نقضي معظم الوقت خارج بيوتنا، هذا العزل الصحي المباغت يمكن أن يشكل إزعاجاً لا يحتمل، ولكنه في نفس الوقت يمكن أن يكون مناسبة للتدبر ولمراجعة الأمور التافهة والتي لا فائدة منها لحياتنا (علي حسين، 2020)" فعلى الجميع التعلم من دروس كورونا وأخذ العبر قبل فوات الأوان.

قائمة المصادر والمراجع:

1 - أبو بكر العيادي. (2020). سبل جديدة لاتقاء كارثة مقبلة ادغار موران حان الوقت لنعيد النظر في العولمة. *ثقافة العرب*، 14.

2 - بوالراس, محمد. (2020). ادغار موران كورونا وسؤال المستقبل. *الاتحاد الاشتراكي*،.

3 - حفيظ هروس. (2020). *الزمان الوبائي* . المغرب: مركز تكامل للدراسات، ص،19 .

4 - سي جي بوليكرونيو. (11 افريل, أفريل 2020). نعوم تشومسكي عن نقص أجهزة التنفس الاصطناعي وقسوة الرأسمالية النيوليبرالية.

5 - شريف الزيتوني. (2020). نهاية الحضارة الغربية وصعود فكرة الفشل. *المرصد*،ص 22.

6 - عثمان, باسم. (2020). *كورونا السياسي وما قبله وما بعده*. أوراق نماء مركز نماء للبحوث والدراسات.

7 - عقيل سعيد محفوظ. (2020). حادث كورونا وما بعده العالم على نشأة أخرى. *مجلة الاستغراب*، ص 135.

8 - علي حسين. (2020). ادغار موران .. وجوه كورونا الثمانية. *المدى ملاحق*، ص2.

9 - عبد العالي المتقي وعبد الله هداري,. (2020). *الجوائح في الأزمنة المعاصرة*. اكادير المغرب: دار العرفات للنشر والتوزيع ص 25.

10 ياسر العمر. (2010). *مفاهيم أساسية في علم الوبائيات*. كلية الطب البشري: جامعة حماه ص 4.

11 يونس, هميسة. (2020). تشومسكي فيروس كورونا كشف عيوب النظام العالمي. *المرصد* ، 15.

ايمانويل هيرش وضرورة المساءلة الأخلاقية لجائحة كورونا

ط.د. بيطاط حسيبة
جامعة قسنطينة02/ مخبرالدراسات التاريخية والفلسفية
hassiba.bitat@univ-constantine2.dz

ملخص الدراسة:

فلسفة" ايمانويل هيرش "عملية ترتكز على الممارسة الأخلاقية الميدانية في مجال الممارسة الاستشفائية والرعاية الصحية عموما، وكغيره من الفلاسفة والمفكرين حاول "ايمانويل هيرش" التنظير للأزمةالصحية "وباء كورونا "والذي فرض وجوده نهاية العام 2019، ولا يزال يشكل تحديا للمجتمعات البشرية أفرادا ودولا وجمعيات ومؤسسات، وبات التخلص منه هاجسا خصوصا وأن سبل الخلاص منه لم تتضح معالمها بعد، بحيث أثر هذا الوباء على المنظومة الصحية للدول ودفعها إلى تسطير آليات جديدة وتكييفها مع هذه الأزمة، كما أحدث بالتوازي جدلا كبيرا ورهانات أخلاقية لا يمكن تجاهلها متعلقة بسياسات الرعاية المتبعة فيمثل هذه الظروف، في ظل تواصل انتشار الفيروس وارتفاع عددالمصابين مما أدى إلى عجز الطاقة الاستيعابية للمستشفيات في استقبال والتكفل بالمرضى بطريقة تحفظ الكرامة والقيم الإنسانية التي تدافع عنها الديمقراطية من جهة، وحفاظا على ضرورات الحياة الاقتصادية من جهة أخرى. فحاول "ايمانويل هيرش" إعطاء رؤية إنسانية وقيمية لهذه الأزمة الصحية معتبرا إياها بمثابة أزمة أخلاقية وسياسية، وطموحا منه لإحياء القيم الأخلاقية في قلب جائحة كورونا، كذلك وفاء منه للقيم التي يدافع عنها فضاء التفكير الأخلاقي لمنطقة ايل دوفرانس الذي أسسه عام 1995م.

فما هو الرهان الاثيقي الذي تطرحها المنظومة الصحية حسب ايمانويل هيرش؟ وكيف يمكن بعث قيم الرعاية وسط هذه الأزمة الصحية؟ لماذا الأخلاق؟ ماذا نقصد بالفضاء الأخلاقي؟ ولمقاربة هذه الإشكالية نتعرض لنصوص" ايمانويل هيرش" التي بيّن فيها الالتزام بالأخلاقيات في مواجهة فيروس كورونا.

الكلمات المفتاحية

الالتزام الأخلاقي، المنظومة الصحية، أخلاق الرعاية.

مقدمة:

المثير للانتباه أن فيروس كورونا منذ ظهوره سنة 2019، لا يزال يشكّل تحديًا للمجتمعات البشرية أفرادا ودولا وجمعيات ومؤسسات، وبات التخلّص منه هاجسًا، خصوصًا وأن سبل الخلاص منه لم تتّضح معالمها بعد، بحيث صنع هذا العدو غير المرئي مشهدا عالميا تميّز بهيمنة الهاجس الصحّي وتهافت الدول لتسطير خطط واستراتيجيات صحيّة لاحتوائه، وحشد مختلف الإمكانيات التنظيمية والبشرية المدعومة بوسائل وأجهزة تقنية تعتبر من خيرة ما أنجزه العقل الإنساني الذي وضع نفسه في مواجهة مباشرة مع فيروس covid19، مسبّبا أزمة ذات أبعاد اقتصادية، سياسية واجتماعية، والأهم من هذا كلّه" أزمة أخلاقية" يصعب احتوائها أكثر من الفيروس نفسه.

لقد زعزعت هذه الأزمة الممارسة الاجتماعية الرّاسخة في حياتنا مثل: ظروف الولادة، طقوس الجنازة، العمل والسفر وممارسة الرعاية الصحيّة...الخ. بحيث فقدت هذه الأعمال طابعها الواضح لأنها قد تنطوي على حياة الآخرين، ممّا يتطلب مداولات أخلاقية، سواء على المستوى السياسي، المحلي أو الشخصي (....)، وبهذا دخلت الأخلاق في حياتنا...! وهنا يبرز الاهتمام الذي أظهره فيلسوف الأخلاق الطبّيّة، أو لنقل" الفيلسوف الإكلينيكي" الفرنسي "ايمانويل هيرش "[25/05/1953] " Emmanuel Hirsch" تجاه هذه الأزمة الصحيّة وموقفه من مختلف الممارسات حيالها .

وللتّوضيح فقط، اسم "فيلسوف إكلينيكي "لم يطلق جزافًا على هذا المفكر الفذ، لأن أهم ما تتميّز به فلسفته هو طابعها العملي، فهي مبنية على الممارسة الأخلاقية الميدانية المتعلقة بالمهام الاستشفائية والرعاية الصحيّة عموما. وكغيره من الفلاسفة والمفكرين، حاول "ايمانويل هيرش" التنظير للأزمة الصحيّة الحالية "وباء كورونا" بطريقة تحفظ الكرامة والقيم الإنسانية التي تدافع عنها الدّيمقراطية، وكذا إعطاء رؤية إنسانية وقيمية لها، معتبرا إيّاها أزمة أخلاقية وسياسيّة يجب الخروج منها بكل حكمة وذكاء. كما أن اهتمامه هذا يُعتبر طموحا منه لإحياء أخلاق الرعاية في قلب جائحة كورونا، وفاءً أيضا للقيم التي يدافع عنها فضاء التفكير الأخلاقي

Assistance Publique-Hôpitaux de Paris "L’Espace éthique /الذي أسسه عام1995.

بناء على ما سبق يمكننا صياغة الإشكالية كالتالي: كيف قارب " ايمانويل هيرش" لهذه الأزمة الصحيّة من النّاحية الأخلاقية؟ وهل استطاع أن يعيد الاعتبار لأخلاق الرعاية في ظل جائحة وباء كورونا؟ لماذا نلتفت للأخلاق في مثل هذه الظروف؟ ماذا نقصد بفضاء أو مساحة التفكير الأخلاقي؟

1/لماذا الأخلاق؟

العديد من المؤشرات تؤدي إلى الاعتقاد بأن الأخلاق هي اليوم مجموعة من الممارسات المتنوعة التي لا تربط سوى كلمة " الأخلاقيات" ببعضها البعض.

المؤشر الأول: هو عدم التجانس الجذري لهذه الممارسات، سواء من وجهة نظر أغراضها- تحويل الممارسات، صياغة ميثاق أخلاقي، دعم القرار، وما إلى ذلك- أو نطاقها الجغرافي، الطريقة الصريحة أو الضمنية التي ينشرونها، المعرفة التي يعبئونها، مجالات تطبيقهم، الخ. وهذا صحيح تماما في مجال الرعاية، أما المؤشر الثاني: هو الغموض الذي يبقى حول ماهية الأخلاق (Jolivet, 2015)، حيث لا يوجد معيار مشترك اليوم يجعل من الممكن تحديد المشكلات التي تقع بشكل صحيح ضمن نطاق الأخلاق أو تعيين أشخاص أكفاء للإجابة عليها.

التصنيف الأخلاقي – اعتبار المشكلة أخلاقية – يخضع للمنطق الاجتماعي المعقد، فهناك عدد معين من الممارسات التي تشير إلى نفسها على أنها أخلاقية قريبة من علم الأخلاق وإدارة المخاطر، على العكس من ذلك، لا تعتبر الممارسات الأخرى نفسها أخلاقية على الرغم من أن لها خصائص المداولات الجماعية، نقد الإجراءات أو المنظمات، الخ..، ويفسر هذا الارتباك جزئيا بسبب فلسفي هو أن الأخلاق في حد ذاتها فكرة غامضة والعديد من الخلافات بين الأنظمة –الفلسفية السياسية، الميتاأخلاقية وحتى الميتافيزيقية- لا تزال قائمة فيما يتعلق بها، على سبيل المثال، لا يزال الجدل محتدما بين الأحاديين الذين تهدف الأخلاق حسبهم إلى تحديد الصالح العام، والتعدديين الذين يتمثل دورهم في إيجاد نقطة توافق بين تنوع غير قابل للاختزال في رؤى الخير(Dubuc, 2019, p. 23)، وهذا الغموض المفاهيمي

والتصنيفي للمشكلات الأخلاقية، هو ما جعل الكثير يعتبر أن معضلات المنظومات الصحية أساسها سياسي وتنظيمي بحت، بعيدة بذلك كل البعد عن المجال الأخلاقي.

لذلك قد يتساءل الكثيرون عما يمكن أن تفعله الأخلاق في هذه الظروف الصعبة جدا، فمنذ بداية الأزمة تم اتّخاذ عدّة مواقف حيالها، حيث اعتقد البعض أن الوقت لم يحن بعد لتكريس الذّات للتفكير الأخلاقي، ولكن بدلاً من ذلك يجب التسرّع في العمل السياسي. كما دعا آخرون إلى تبنّي نظرة حكيمة ونزيهة مفترضة لهذه الأزمة، وإضفاء الطّابع النسبي على خطورة عواقبها لتجنّب الخوف والفوضى في الحياة العامة، لأنه على نطاق التّاريخ والآثار التي تسبّبها الأمراض الأخرى، سيكون هذا الفيروس التّاجي في النهاية ضئيلا جدًا ولا ينبغي أن نصنع منه الكثير.

وعلى عكس هذين الموقفين اعتبر "ايمانويل هيرش" أنه بمجرد ظهور أزمة صحية تبدو حتمية، كان من الواجب المساعدة في تهيئة الظروف للتفكير الأخلاقي على نطاق واسع، وكان هذا مبررا لسببين على الأقل :

الأول والأكثر وضوحًا، هو أنه تمّت دعوتنا لتكريس أنفسنا لذلك من خلال متخصّصي الرعاية والدعم المتأثرين بشكل مباشر في ممارساتهم، وأحيانا يكونون موضع تساؤل في قراراتهم بسبب معضلات وصعوبات حقيقية، وتضاعف "الطلب على الأخلاق" الذي كان قويا بالفعل قبل الأزمة الصحية، بمقدار عشرة أضعاف كما يتّضح من الاستخدام المتكرّر كثيرا لكلمة "الأخلاق" في وسائل الإعلام أو خطابات المتخصّصين أو حتى السياسيين.

أماالسبب الثاني، هو ظهور العديد من الخلافات الأخلاقية في الفضاء العام حول إجراءات الوقاية العلاج والاحتواء، على سبيل المثال لا الحصر: مزايا وعواقب الحجر الصحّي، حظر زيارة دور المسنين، ممارسات الفرز في العناية المركزة بسبب نقص الأجهزة، التّجارب السّريرية المتعلّقة بلقاح الفيروس المزعوم...الخ(Bergeron, 2020, pp. 2-3).

كل هذه الأسباب تعتبر في جوهرها أسئلة تؤدي إلى حجج وقيم أخلاقية متناقضة، وهنا تبرز ضرورة تسليط الضوء على النقاش الأخلاقي من خلال طرح وجهات النّظر والآراء والخبرات غير المعروفة، وقد تم إنشاء الفضاء الأخلاقي

L’Espace éthique /AP-HP لأداء هذا الدور في وقت مبكر عام 1995. لكن ماذا نعني بالفضاء الأخلاقي وما دوره؟

2/الفضاء الأخلاقي: مفهوم معين لنهج أخلاقي:

تم إنشاء Espace éthique de l'Assistance publique - Hôpitaux de Paris عام1995 بناءً على اقتراح من المدير الإداري Alain Cordier، من طرف Emmanuel Hirsch . وهو أول مساحة أخلاقية تم تصميمها وتطويرها داخل مؤسّسة، تم تبنيها في عام 2004 كنموذج لنظام التفكير الأخلاقي في إطار القانون المتعلق بأخلاقيات علم الأحياء، في عام2013، تم تخصيص مساحة للتفكير الأخلاقي في منطقة Île de France عام2010، كما تم تكليف espace éthique/ AP-HP بتطوير الفضاء الوطني للتفكير الأخلاقي حول مرض الزهايمر (EREMA) كجزء من خطة 2008-2012 Alzheimer . من عام 2010 إلى عام2012، كان مركز الأخلاقيات espace éthique/AP-HP جزءًا من المراكز المتعاونة مع منظمة الصحة العالمية لأخلاقيات البيولوجيا. (L'espace éthique,org.2013)

يمكن فهم مسار الرحلة التي اتبعتها المساحة الأخلاقية منذ إنشائها، على أنها مغامرة بشرية غير عادية. بحيث على مر السنين، استثمر المتخصصون في الرعاية الصحية وأعضاء الجمعيات مواهبهم ومهاراتهم وخبراتهم في مشروع غير مسبوق حتى الآن: فهو مدين لهم بكل شيء.

لقد دعمت المساعدة العامة لمستشفيات باريس تطوير فضائها الأخلاقي والذي يعتبر بمثابة بوتقه تنصهر فيها قيم خدمة المستشفيات العامة وتجديدها ومشاركتها، ولكن أيضًا كمكان للتشاور، تبادل المعرفة ونقلها في إطار التدريب الجامعي والمؤتمرات وورش العمل والمجموعات البحثية، ففي مناسبتين، أشار البرلمان إلى إنجازات الفضاء الأخلاقي من أجل تكريس حدس القانون والمقترحات الناتجة عن التفكير الذي تم تطويره في هيكلنا والذي تم الاعتراف به كمختبر للابتكار في مجال المستشفيات والرعاية . (Hirsch, éthique et recherche, 2011, p. 37)

إن تدريس أخلاقيات المستشفى متعدد التخصصات ويشمل عدة محاور تربوية (الفلسفة الأخلاقية، الفلسفةالسياسية، تاريخ الفلسفة، نظرية المعرفة العلوم

الاجتماعية، الخبرة المهنية، إلخ (الهدف هو تزويد الطلاب والمهنيين بالمهارات والأدوات الضرورية للدعم وتعزيز التغييرات التي تحدث في مجال المستشفى. (l 'AP-HP, 2018)

عرفت هذه المؤسسة نفسها على أنها مساحة للمشاركة والنقاش بين المعنيين بالرعاية والدعم والصحة العامة, سواء المواطنون أو المهنيون وكان الهدف منذ البداية هو إضفاء الطابع" الديمقراطي على الأخلاق" من خلال إعطاء صوت خارج المجال الطبي، لتنوع الأشخاص ذوي المعتقدات، الالتزامات، المهارات والخبرات المختلفة، أفرادا ومؤسسات وحتى جمعيات ...الخ. وما أحوجنا إلى مثل هذه الأماكن خصوصا في ظل هذه الأزمة الصحية والتي تسمى أحيانا بـ" الأماكن الثالثة "، حيث يمكن للأشخاص الالتقاء، حتى يواجهوا بعضهم البعض بطريقة حضارية سلمية بعيدا عن بربرية الحوار، وأن يكونوا معنيين بالمسائل نفسها.

فهذا الفضاء الأخلاقيL'Espace éthique/AP- HP بمثابة مفهوم معين للنّهج الأخلاقي المتعلق بالممارسات القائمة على مبادئ الاحترام والكرامة التي تشكل أساس علاقة الرعاية والإنسانية المهنية، كما أنه يستجيب لمفهوم الحياة الدّيمقراطية، وهذا ما عبّر عنه" ايمانويل هيرش"بقوله: إن مفهوم الفضاء الأخلاقي هو الرغبة في المشاركة في بناء ديمقراطية(...). إنه رهان سياسي لأنه يؤثر على الجودة والاعتراف بنشاطها في خدمة الشعب والمدينة"(Hirsch, espace éthique AP-HP:une certaine conceptionde l'approche éthique, 2011). وهذا ما يجعل أخلاقيات المستشفى والرعاية بطبيعتها أمور إكلينيكية مستوحاة من مبادئ الديمقراطية تستهدف الصالح العام.

وستكون مقاربة "ايمانويل هيرش" للأزمة الصحية لا تخرج عن الإطار العام لهذه القيم التي يعتز بها الفضاء الأخلاقي، معتبرا إياها المرجعية الأساسية لكل تفكير وممارسة في مجال أخلاق المستشفى والرعاية، وأكد هذا في أكثر من مناسبة، حيث يذكر في كتابه (Hirsch, fine de vie ,éthique et société, 2012, p. 449). أنه" لسنوات عديدة، ضمن الفضاء الأخلاقي، قمنا بتطوير تفكير مع هؤلاء المحترفين وبيّن أنه ذو جودة وساهم حقيقة بشكل كبير في إدراكنا لقيم الرعاية ".

3/ ضرورة المساءلة الأخلاقية للمنظومة الصحية:

بمجرد ظهور التهديد الذي يمثله فيروس إنفلونزا الطيور h1n1، طرح الفضاء الأخلاقي أسئلة حول استجابة السلطات الفرنسية لهذا الوباء أهمها: إذا قمنا بالتطعيم فبمن ينبغي أن نبدأ؟ من الذي يجب أن يحصل على الأدوية المضادّة للفيروسات؟ من هم المرضى الذين يجب أن تكون أسرّة العناية المركزة مخصصة لهم؟ يشير هذا الاستجواب إلى مواقف محددة، كما يوضّح أن الاستعداد لمواجهة الجائحة لا يقتصر فقط على وضع استراتيجيات تنظيمية، بل يجب أن ندمج المشاركة الفعّالة للمجتمع وتعبئته بالقيم الأخلاقية. (Hirsch, le cout éthique de la pandémie?, 2020)

وعلى نفس الخطى، يطور" ايمانويل هيرش" تفكيرا كاملا حول" أخلاق الفعل" متعلقة بوباء كورونا وتداعياته على المجتمع، فمن خلال مناقشتها للخطّة التي وضعتها الحكومة الفرنسية لمواجهة الانفلونزا آنذاك، رأى أن مصطلحات ومفاهيم مثل الكرامة والأخلاق وحقوق الإنسان والديونطولوجيا لم يتم ذكرها بشكل صريح في المنظومة الحكومية للوقاية من وباء الانفلونزا ومكافحته. (Hirsch, engager l'éthique face à la pandémie grippale, 2006, p. 05)

فالعقل العلمي يجد حدوده خاصة في مواجهة ما لم يسبق له مثيل ولا مفر منه، ولذلك يجب أن تتبع المرحلة الأولية حسبه والضرورية من التخطيط الإداري" تعبئة حقيقية "، وعلينا الانخراط في الأخلاق والتوحد حول القيم المحدّدة والمشتركة.

كما ظهرت التحديات الأخلاقية حسب"ايمانويل هيرش"، من معضلة الخيارات في مايتعلق بتوفير الرعاية في حالة الوباء، فمن الناحية الكمية يبدو أن التوازن الإجمالي للموارد المتاحة على نطاق عالمي غير كافية(...)، ترتكز جهودنا في الواقع بشكل دائم على المساواة والإنصاف في الحصول على الرعاية للجميع(Hirsch, une exigence d'interrogation et de clarification, 2007, p. 10).

لقد دعت منظمة الصّحة العالمية OMS، جميع البلدان إلى الاستعداد وتنظيم نفسها لمواجهة خطورة حدوث أزمة صحّية كبيرة والاستجابة لها، بحيث قامت فرنسا منذ ذلك بإثارة التفكير والعمل بشكل فعال وتغيير كبير في استراتيجية الاستجابة لخطر الوباء، وبدا من الضروري دمج التأثيرات في المجالين الاقتصادي والاجتماعي وتضمين واضح للمسائل الأخلاقية النّاتجة بقوّة عن طبيعة هذا النوع

من الأزمات، وتسليط الضوء على الأزمة الصحيّة المستجدّة المتمثلة في كوفيد 19 الذي ظهر أول مرة في الصين نهاية العام الماضي.

نجد" ايمانويل هيرش" يشيد بالاستجابة المكيّفة لسياسة المراقبة والاتصال المعمول بها في فرنسا والتي يعترف الجميع بجودتها، لكن هذا لا ينفي ضرورة التفكير في مبدأ يفسر تحديد أولوية الخيارات(Hirsch, coronavirus:réponse adaptée mais réflexion nécessaire, 2020)، خصوصا وأنه في حالات حدوث الوباء، يمكن النظر في خيارات مجتمعية مختلفة مما يولد حتمية الرد على الأسئلة الأخلاقية، مع ضرورة شرح الخيارات التي تتخذها السّلطات والتي تكتمل مسؤوليتها بضمان شفافية الوسائل ومصداقيتها وتماسكها من أجل طمأنة السكان، وإحداث الوعي الذي يسهم في التضامن والسلوك المدني على نهج أخلاقي.

لذلك يدعو" ايمانويل هيرش" لإشراك المواطنين في التّفكير الذي يتم إجراؤه بشأن الوباء، والتحديات المجتمعية التي يمثلها وعواقب وتداعيات تنفيذ خطة الحكومة على الأشخاص(Magendie, 2007, p. 42). نظرا لتسبب الوباء في حدوث اضطرابات كبيرة في الحياة اليومية لكل فرد، بالتدابير المقيدة للحرية والوقائية(تقييد التجمعات، إغلاق المدارس، تعديل النقل العام تعليق الرحلات الجوية الدولية، ارتداء الأقنعة...الخ، والتاريخ المؤلم للأوبئة يقدّم لنا درسا قويا لأهمية التعبئة المجتمعية بمخاطر الوباء وطرق مكافحته والوقاية منه، بحيث قضت على قرى ومدن بأكملها.

إن الحديث عن التعبئة المجتمعية، يُحيلنا بالضرورة إلى المكونات الاجتماعية والثقافية، وهو ما دفع" ايمانويل هيرش" إلى تأكيده عليها والتي حسبه يصعب السيطرة عليها بسبب عدم دمجها بشكل كاف في أنظمة الصحة العامة، مما يعرّض بعض الناس لخطر العدوى، ومثال ذلك الولايات المتحدة الأمريكية، فمن بين الوفيات الناتجة عن كوفيد19، لوحظت نسبة وفيات مفرطة داخل المجموعات الاجتماعية التي في وضع غير مستقر وتم انتهاك حقوقها، وهذا الظّلم هو أحد مكونات التحديات والمخاطر السياسية التي فاقمتها الأزمة الصحيّة (Hirsch, la vie compte, 2020, p. 03).

بعد تأكيده على النّهج الأخلاقي في مواجهة الأزمات، يجدّد ايمانويل هيرش إلحاحه الشديد على أهمية الدراسات في ميدان العلوم الاجتماعية والإنسانية في إثراء التفكير، خصوصا في ظل الزخم الكبير للخيارات التي تفرضها الأزمة، معترفا بنقص البعد المجتمعي للإجراءات المنصوص عليها في"خطة القتال" المسطرة (Hirsch, Coronavirus : réponse adaptée mais réflexion nécessaire, 2020)،فالأمن الصحّي ليس مسألة تخص خبراء الصحة وحدهم وهذه هي فكرة النقاش التعدّدي الذي يهدف إليها الفضاء الأخلاقي منذ تأسيسه.

أما على صعيد الأبحاث البيوطبية، فقد أخذ هذا المجال حيزًا كبيرًا من المناقشات التي أجراها فيلسوفنا حول وباء كورونا، وذلك نظرا للأهمية السياسية لهذه البحوث من جهة، وما سببه الوباء من خلافات علمية وتضارب الخبرات وعدم الثقة في مجتمع الباحثين والأطباء الذين تحتاجهم المجتمعات بشدة في هذه الظروف التي أقل ما يقال عنها إنها كارثية، ويهدف فيلسوفنا إلى إعادة هيبة المجتمع العلمي وإبراز دوره الأساسي والمحوري في حالات الأزمات الصحية، كما يعتبره الضّامن للممارسات والسلوك التي تحترم القيم الأخلاقية.

إن البحث في مجال اللّقاح بما في ذلك الوصول إلى السّلالات الفيروسية، كذلك، لا يفلت من التفكير الأخلاقي (Houssin, 2007, p. 44). يجب أن تستند استراتيجيات البحث التي وضعها العلماء البروتوكولات التي تراعي القيم وتتبع المنهجيات التي تشير إلى المعايير الدولية، لكن في حالة الأزمات الصحيّة وحالات الطوارئ، قد تبرر بعض المبادئ الاستثناءات، إن التوتر بين الرعاية الصحيّة والأخلاقيات الطبية والبحوث يجعل من الضروري مناقشة عمليات التحكيم الدقيقة، وإلا وُضعت ممارسة الطبيب وضع المساءلة الأخلاقية(Hirsch, pourquoi en recherche biomédicale les règles s'imposent atout?, 2020, p. 88). إذن يجب أن يكون هناك فهم للقضايا التقنية والأخلاقية لسير عمل المجتمعات في حالة الوباء من الآن فصاعدا.

يؤكد القانون الفرنسي على مبدأ يحدد أي نهج تجريبي في الممارسات الطبية الحيوية " إن مصالح الأشخاص الذين يشاركون في البحث الذي يشمل الإنسان دائما تكون لها الأسبقية على المصالح الوحيدة للعلم والمجتمع، لا يمكن أن يبدأ

البحث الذي يشمل البشر إلاّ إذا تم استيفاء جميع الشروط، يجب الحفاظ على احترامهم باستمرار (Legifrance.Gouv, 2012).

ولقد تم اتخاذ هذا الموقف من قبل اللجنة الوطنية الاستشارية للأخلاقيات في 13مارس2020 "تذكر CCNE أيضا أنه حتى في حالة الطوارئ، يجب أن تحترم ممارسات البحث على البشر، الإطار الأخلاقي والديونطولوجي، خاصة فيما يتعلق بالمرضى المشمولين ببروتوكولات البحوث السريرية" (CCNE, 2020).

كما ينص إعلان هلسنكي الذي روجت له الرابطة الطبية العالمية، في مادته السابعة على أن" البحث الطبي يخضع للمعايير الأخلاقية التي تعزّز وتضمن احترام جميع البشر وتحمي صحتهم وحقوقهم(WMA, 2000). يعكس هذا البيان شرط المسؤولية والاحترام والنزاهة والولاء وعدم الإساءة والحماية. وكما نعلم أن مبادئ العمل هذه وضعها المجتمع الدولي في مواجهة بربرية التجارب التي أجريت في معسكرات الاعتقال النازية سبب التجارب الوحشية التي أجراها الأطباء النازيون على المعتقلين .

يتساءل "ايمانويل هيرش"، في مواجهة الوباء: هل ينبغي أن تتكيف هذه الأحكام مع حالة الطوارئ، وإذا كان الأمر كذلك، وفقا لأي معايير؟ يجيب: يعتمد الباحثون على القواعد غير الملموسة للممارسات الجيدة التي يجب أن تحميهم من أي خطر من المبالغة أو الانحراف. فهذه هي الطريقة التي يحافظ بها على استقلالية الموقف.

يعترف "ايمانويل هيرش" أن تقريرBelmont، قدم جدلا معمقا يعيد بعض الاعتبارات الأساسية لعملية صنع القرار واحترام الإجراءات الأخلاقية، نقر على وجه الخصوص أن" ثلاثة مبادئ أساسية تنطبق بشكل خاص على أخلاقيات البحث والتي تنطوي على مشاركة الأفراد: مبادئ احترام الشخص، والإحسان والعدالة Hirsch, pourquoi en recherche biomédicales les règles) (s'imposent a tous?, 2020, p. 89

وهكذا يعتبر" ايمانويل هيرش" أن أخلاقيات البحث في حالة الوباء، هي أخلاقيات المسؤولية والصرامة، ولكن أيضا الحكمة، كما أن إطار عملها مستوى من قيم الإنسانية والكرامة، الاحترام والنزاهة والولاء.

4/ إعادة بعث قيم الرعاية:

إن الإنسان، هذا المنتصر الفخور بنفسه، يتم وضع حياته كلها تحت ختم المحنة من خلال سلسلة متتالية من الأحداث التي تتحدى قوته الجسدية والنفسية بلا هوادة .

فعندما يؤكد نيتشه أن" ما لا يقتلني يجعلني قويا" فإنه يدرك ضمنيا أن أي قوّة بغض النظر عن مدى براعتها تجد عاجلا أم آجلا سيّدها، لأن الموت ينتصر دائما في النهاية. ومع ذلك، يبدو أنه يتغاضى عن أن الهشاشة ليست نقصا في القوة أو العظمة، بل هي الانغماس الصّعب والنبيل في قلب الحالة الإنسانية. كما أن هذا الإنسان متناقض، هشّ وقوي في نفس الوقت، إنه كائن محتاج في نفس الوقت معطاء، من أعماق محنته وهشاشته، غالبا ما يتم طلب المساعدة وهي دعوة تشكل حجر الزاوية لتشكيل رباط أو علاقة من طبيعة أخرى، إنها علاقة الرعاية"care "،أو الدعم والمرافقة، حيث تكشف هذه العلاقة عن الينابيع الأخلاقية للذّات الإنسانية.

في نهاية القرن الماضي فقط، تركت كلمة" الرعاية" سجل المفردات الشائعة لتصبح مفهوما. تم اقتراحه لأول مرة كمفهوم للفلسفة السياسية من قبل النسويات لإعادة تقييم للقيم التي لا يزال يعتقد في الأساس أنها أنثوية كالاهتمام والعناية بالآخر في المجتمع(Hennezel, 1998, p. 05) .وبسرعة تم نقل إيديولوجية لطف الأمومة إلى مجال الرعاية، بالإضافة إلى الأعمال التي تهدف إلى العلاج، الإغاثة...الخ .

يمكننا استحضار كتاب" كارول جيليجان"(Gilligan, 2008, p. 34) والذي يتناول التفكير في أخلاق أقلية مرتبطة بالاهتمام بالأفراد الضعفاء للغاية مع تصور للصراعات في العلاقات الإنسانية، أن أخلاقيات الرّعاية هذه تحملها عموما النساء، على عكس أخلاق الأغلبية، المتمثلة في الإلهام الكانطي المحدثة في الليبيرالية السياسية" لجون راولز" وعلم نفس الأخلاق التطوري" للورنس كولبرج"، المرتبطة عموما بتجربة الرجال الشخصية والفرد المستقل الذي يعمل كأساس لأخلاقيات العدالة.

إن استحضار مفهوم الرعاية في هذا الكتاب، ينحصر في إعطاء الأرضية لأخلاق المرأة، أو بناء مفهوم أكثر أنثوية للأخلاق، ولكن أيضا للسياسة في معارضة جزئية لفكرة العدالة" لجون راولز"، ونموذج تطور الأخلاق" للورنس كولبرج". فنحن نسمع

إلى أصوات الرجال والنظريات التي تمليها تجربتهم منذ قرون، لكن الأصوات الأنثوية محكوم عليها بالصمت.

ما يهمنا هنا ليس الامتداد السياسي للنوع النّسوي الذي تسببت فيه النظرية، بل بالأحرى اهتمام هذه النظرية بإلقاء الضوء على أخلاقيات الرعاية التي هي محور اهتمامنا. ويمكننا تحديد بعض النقاط الأساسية لنظرية الرعاية théorie de care.

تقترح عملية الرعاية النظر إلى الأخلاق كأخلاقيات الحياة اليومية، من خلال إعطاء إجابات عملية للاحتياجات المحدّدة التي تكون دائما فردية، بالنسبة لمنظري الرعاية فإن الأمر يتعلق بالضرورة باستعادة صوت الإحساس والفرد والحميمية. إنها مسألة الانتباه للآخر، لكن الاستغناء عن الأسئلة الأخلاقية من سياق يشمل المستشفى والصحة والمجتمع، فكل من هذه الأقطاب لها تأثير ملزم على الممارسات، فيجب مراعاة المنطق التجاري والفني والتمريضي وتأثيرها على الرعاية.

إن كلمة مقدم الرعاية"soignant " تشير إلى ما هو أبعد من معنى المحترف تشير إلى أن هناك هدف وقصد نبيل وراء هذه الممارسة، وهو رعاية الأشخاص والقدرة على التحرك والتواصل مع الآخرين، وهذا ما يدعو إليه" ايمانويل هيرش "بقوله: إن هذا الانفتاح على الآخرين لا يمكن تعلمه، يتم اكتشافه وفهمه على أنه الممارسة المتفوّقة لوظيفة التمريض، وهو الالتزام بعدم التخلي(Hirsch,l'éthique au cœur des soins, 2006, p. 39) وبالتالي العمل الذي يتعين إنجازه ليس مقابلة الواجبات بالحقوق لتحديد من يفوز، لكن بالأحرى تأكيد الواجب والعمل على جعله مقبولا إنسانيا، فالتفكير الأخلاقي لا يطابق بين الحقوق والواجبات، إنه تفكير منظم يسمح لكل فرد بأداء واجبه بضمير وصفاء.

يعتقد "ايمانويل هيرش" بأنه لا يمكن فهم التزام مقدم الرعاية إلا في علاقة داعمة(المرافقة) تعترف بقيمة غير مشروطة في احترام وكرامة الوجود، فالالتزام ليس مسألة تقديم العلاج وتوفير الظروف المثالية لاستقبال المرضى، بل بالعكس من ذلك، الالتزام هو أن تكون على دراية بالمشكلات الدّقيقة والمؤلمة التي غالبا ما تحبط استراتيجيات العلاج. وهذا ما أكده" ايمانويل ليفيناس" بأن مقدم الرعاية هو من

يُدرك ويفهم ويقبل شكوى الآخر، وبالتالي يمنح اعترافا وانفتاحا معينا(Hirsch, prendre en soin:la souffrance de l'autre, 2017).

بعد العرض الوجيز لتاريخية المصطلح ومهمة مقدم الرعاية، يمكننا أن نتساءل عن وضعية هذه الممارسة في ظل جائحة كورونا، خصوصا وأن روح الرعاية هو إنشاء علاقة إنسانية بين المريض ومقدم الرعاية، وتأكيد على قيم الحياة والدعم الأخلاقي، ونحن نعلم أن كل هذه القيم والممارسات تأثرت بشكل كبير وتراجعت بسبب جائحة كورونا فحاول" ايمانويل هيرش" إعادة بعثها والتأكيد على أهميتها.

كما نعلم جميعا، أن سرعة وطريقة انتشاره تولد إحساسا متناقضا بعدم الثقة تجاه الآخر النّاقل المحتمل للفيروس، وهذا ما أكده "ايمانويل هيرش" باعتباره أن المخاطر لا تقتصر على التهدّيدات الفيروسية وحدها، إن ظواهر الخوف، العنف والتمييز يعززها الشعور بانعدام الأمن وعدم الاستعداد(:Hirsch, coronavirus comment notre société se prépare a risque sanitaire?,2020).

وهذا ما نلمسه على مستوى الحياة الاجتماعية، بحيث تسبب الوباء في حدوث اضطرابات كبيرة في الحياة اليومية للأفراد من انقطاع للزيارات العائلية وإحياء المناسبات ومشاركتها مع الأصدقاء .

ونظرا لما سبّبته هذه الجائحة في مجال الممارسة الاستشفائية، من استقبال ورعاية المصابين وتأثير ذلك على فرق المهنيين وكذلك النقص الكبير للوسائل أصبحت الرعاية الآن في قلب أقوى النقاشات التي تحرك المجتمعات، إن الأشخاص القائمين على التكفل بالمرضى ويتولون فعل الرعاية، يكتشفون أنفسهم أكثر من أي وقت مضى مسؤوليتهم عن الآثار المباشرة والشخصية، ووظيفتهم تتجسد في واجب الدّفاع عن القيم المتصورة والمكتسبة قدر الإمكان من المواقف الإنسانية التي يرافقونها يوميا (Hirsch, pour une éthique du soin, 1999, p. 07). فالأزمة الصحية الحالية زادت من تعميق هشاشة وضعف الإنسان، وألقت على عاتق مقدمي الرعاية مسؤوليات أخلاقية لا يستهان بقيمتها، لأنها مكرسة للإنسان، لدعوته، لحاجته، وإنها تمس قناعات عميقة وحميمية، إنها تهم حياته حتى النهاية.

لقد أعاد" ايمانويل هيرش" التأكيد مجدّدا نظرا للظروف الحالية التي تمر بها الإنسانية على أن للدعم الأخلاقي أهمية كبيرة في مجال الرعاية والاستشفاء حيث

كتب: إن الدعم الأخلاقي هو تأكيد على ديمومة الإنسان في جميع الظروف حتى الأكثر تدهوراً(...)، إن اهتمامنا بالآخر الهش والعاجز في مواجهة موته يستحق الأفضل، إن الحق في العيش بكرامة يتطلب مسؤولياتنا الإنسانية والاجتماعية (Hirsch, fin de vie ,éthique et société, 2012, pp. 13-14) فهناك خيارات أخلاقية هائلة في انتظار الفرق الطبية والرعاية في هذه الأزمة، منها خطر تعرض الأشخاص الأكثر ضعفا لخطر الرفض، فيؤكد "ايمانويل هيرش" على أن أساس النهج الأخلاقي هو طرح سؤال الآخر باستمرار في علاقة الرعاية(Hirsch, la révolution hospitalière:une démocratie de soin, 2002, p. 9)،بحيث أجبر وباء كورونا المجتمعات على اتخاد خيارات تعتبر غير إنسانية أحيانا، لكنها مبررة من ناحية الدعم لخبرة العلماء والمسؤولين السياسيين، وهذا ما حدث في إيطاليا حيث تم الاختيار بين الذين يتم إنعاشهم وأولئك الذين يتخلى عنهم الأطباء اعتمادا على معايير العمر نظرًا لنقص الأجهزة.

لكن "ايمانويل هيرش" يستبعد حدوث هذا الأمر في فرنسا، وذلك لأن فرق الانعاش متمرّنون في تحليل قرارات الأهلية أو الاستبعاد وتبرير استراتيجيات علاجية، تقييد وتوقيف العلاج عندما يكون بلا جدوى (...)، ذلك أن المعايير العلمية والأخلاقية صريحة ومصادق عليها من قبل المجتمعات ومشتركة في إطار الممارسات السريريّة الجيدة(Hirsch, covid19:des choix redoutables attendent les équipes médicales, 2020).

ففي هذه الأوقات العصيبة التي تمر بها المجتمعات وتُهدد قيمها، تبقى ممارسات الرّعاية في تنوع مكوناتها الصحيّة والطبيّة والاجتماعية، هي التعبير الثمين الملموس عن الضمير اليقظ والنشط. ولقد تعلمنا بشكل أفضل في هذه الأوقات ما كانت عليه علاقتنا بالآخرين سواء كانت قريبة أو بعيدة. لقد جعلت أوجه الرعاية والمعاملة بالمثل والتضامن من الممكن وضع مكافحة الفيروس في فضاء من الأخوة والطمأنينة والحماية، وهذا ما تشهد به المطالبة بالاعتراف بالآخر وبنزاهته وحقوقه ورفض إيديولوجيات التعصب.

خاتمة:

لقد أحدث الفضاء الأخلاقي منذ تأسيسه، من خلال قيمه ومبادئه المرتكزة على حرية وتعدّدية المداولات الأخلاقية، نقلة نوعية في مسار قيم المستشفى والرعاية الصحيّة، فقد أكسب الأخلاق طابعها الديمقراطي من خلال إعطاء صوت للأشخاص خارج المجال الطبي، بعد أن كانت تخص خبراء الصحة والأطباء وفرق الرعاية.

قدمت هذه المساحة تحديثًا حول الأسئلة الأخلاقية والسياسية والمعرفية حول مواضيع مختلفة(التصوير الطبي، تكييف المجتمع والمدينة مع نقاط الضّعف، والتشخيص المبكر للمرض، وما إلى ذلك)، على أساس تبادل متعدد التخصصات، مما شكل نهجا أخلاقيا على مقاس المجتمعات التعدّدية.

وهذه هي الرّوح التي واجه بها فيلسوفنا الإكلينيكي" ايمانويل هيرش" مختلف التحديات التي تطرأ في مجال الممارسة الاستشفائية والرعاية، حيث تم التحوّل من الأخلاق إلى الأخلاقيات، من الفهم إلى التجربة والتحليل، وأصبحت أكثر مرونة وهذا تماشيًا مع روح العصر حيث إنّ الفلسفة هي مرآة تحاكي راهنية الأحداث.

لقد واجهة "ايمانويل هيرش" حالة الطوارئ التي يشهدها العالم بسبب" فيروس كورونا "بنفس الروح العالية التي كرّسها داخل فضاء المستشفيات والرعاية الصحيّة لسنوات عديدة، حيث رصد لنا أهم التّحديات الأخلاقية التي أثارتها استراتيجية مكافحة الوباء التي وضعتها فرنسا، وشدّد على أهمية التّعبئة المجتمعيّة للقيم الأخلاقية مع دمج العوامل الاجتماعية والثقافية فيها.

كما ناقش معضلة الخيارات في التكفل بالمرضى المصابين بسبب نقص الأجهزة، دون أن ينسى مشكلة البحوث البيوطبيّة والتجارب السريرية المتعلقة باللقاح والأهمية السياسية والاجتماعية للباحثين والأطباء في حالة الوباء.

وركز جهوده أيضا، على حفظ قيم الرعاية في ظل التداعيات الخطيرة لفيروس كورونا على نشاط مقدمي الرعاية، خصوصا بعد أن أصبح الآخر مصدرًا للعدوى، مشدّدًا على ضرورة الالتزام بقيم التضامن وعدم التخلي.

Bibliographie

- -Bergeron, E. (2020). Une contribution au débatdémocratique.Au cœur de la pandémie du coronavirus:vivre, décider, anticiper,2-3.
- CCNE. (2020).Covid-19-contribution du CCNE:enjeuxéthiques face à une pandémie.[DocumentPDF]Récupérésur https://www.ccneéthique.fr/sites/default/files/reponse_ccne_-_covid-19_def.pdf
- Dubuc, P. (2019). Les pratiques de l'éthique : un flou nécessaire? Revue française d'éthique appliquée, (07), 23.
- Éthique.org, L. (2013).L'Espaceéthique, histoire, gouvernance et missions.[DocumentPDF]Récupérésurhttps://www.espace-ethique.org/presentation
- Gilligan, C. (2008). Une voix déférente:pour une éthique du care. Paris: Flammarion.
- Hennezel, M. d. (1998). La distance intime. European journal of palliative care, 5.
- Hirsch, E. (1999). Pour une éthique du soin. La lettre espace éthique/a p- h p,(7) 7.
- Hirsch, E. (2002). La révolution hospitalière:une démocratie de soin.Paris: Bayard.
- Hirsch, E. (2006).Engager l'éthique face à la pandémie grippale.Pandémiques : pandémie, éthique, société,(01),5.
- Hirsch, E. (2006). L'éthique au cœur des soins. Paris: Vuibert
- Hirsch, E. (2007). Une exigence d'interrogation et de clarification.Pandémiques:pandémies,éthique,société(2), p. 10.
- Hirsch, E. (2011). Éthique et recherche. Paris:Quæ.
- Hirsch, E. (2011). L'espace éthique AP-HP:une certaine conceptionde l'approche éthique.[DocumentPDF]récupéré sur https://www.emmanuelhirsch.fr/?p=62Consulte le(12,11,2020),
- Hirsch, E. (2012). Fin de vie,éthique et société. Paris: ères.
- Hirsch, E. (2017). Prendre en soin:la souffrance de l'autre.[Document PDF] Récupérésurhttps://www.espaceethique.org/ressources/editorial/prendre-en-soin-la-souffrance-de-lautre
- Hirsch, E. (2020). Coronavirus:réponse adaptée mais réflexion nécessaire.[DocumentPDF]Récupérésurhttps://www.espaceethique.org/ressources/editorial/coronavirus-réponse-adaptée-mais-réflexion-nécessairec
- Hirsch, E. (2020). Coronavirus:comment notre société se prépare à risque sanitaire?[DocumentPDF]Récupéré surhttps://www.espaceethique.org/ressources/editorial/coronavirus-comment-notre-societe-se-prepare-un-risque-sanitaire

- *Hirsch, E. (2020). Covid19:des choix redoutables attendent les équipes médicales.[Document PDF]Récupéré sur https://www.espaceéthique.org/ressources/éditorial/covid-19-des-choix-ethiques redoutables-attendent-les équipes- médicales*

- *Hirsch, E. (2020). La vie compte. Aucœur delapandémie de coronavirus:vivre,décider,anticiper, 3.*

- *Hirsch, E. (2020). Le cout éthique de lapandémie?Récupéré sur https://www.franceculture.fr/emissions/la-grande-tableidees/emmanuel-hirsch-le-cout-ethique-de-la-pandémie Consulté le (11, 15, 2020).*

- *Hirsch, E. (2020). Pourquoi en recherche biomédicales les règles s'imposent à tous?Au Cœur de la pandémie du coronavirus:vivre,décider,anticiper,89.*

- *Hirsch, E. (2020). Pourquoi en recherche biomédicale les règles s'imposent àtout? Au cœur de la pandémie du coronavirus: vivre, décider, anticiper, 88.*

- *Hirsch, E. (2020). Quel coût démocratique de lapandémie?Récupéré surhttps://www.franceculture.fr/emissions/la-grande-table-idees/emmanuel-hirsch-quel-cout-démocratique-de-la-pandémieConsulté le (11,15, 2020),*

- *Houssin, D. (2007). Nécessaire questionnement éthique. Pandémiques:pandémies,éthique,société(2), 44.*

- *Jolivet, A. (2015). Etude des démarches en éthique du soin et de l'accompagnement dans les établissements de santé en ile de France.[DocumentPDF]récupéré sur https://www.espaceéthique.org/ressources/etuderapport/rapport-de-lobservatoire-etude-des-demarches-en-ethique-du-soin-et-de*

- *L'AP-HP.(2018). Démarche-éthique.Récupéré surhttps://www.aphp.fr/demarche-ethique-lap-hpConsulté le(09,05, 2020),*

- *Legifrance.Gouv. (2012). l oi n¬°2012-300¬ relative aux recherches impliquant la personnehumaine.Récupéré sur https://www.legifrance.gouv.fr/loda/id/JORFTEXT000025441587/2020-11-25/*

- *Magendie, J. (2007). Pandémiegrippale,éthique et démocratie.Pandémiques:pandémies,éthique,société,(02), 42.*

- *WMA. (2000).Principes éthiques applicables aux recherches médicales sur des sujets humains.[DocumentPDF]Récupéré sur https://www.wma.net/fr/policies-post/declaration-dhelsinki-de-lamm-principes-ethiques-applicables-a-la-recherche-medicale-impliquant-des-etres-humains/*

صدمة المركزية الغربية في ظل جائحة الكورونا

د.عبد السلام بوزبرة

جامعة محمد بوضياف المسيلة– مخبر سوسيولوجية جودة الخدمة العمومية.

abdeslem.bouzabra@univ-msila.dz

ط.د عباس مخلوف

جامعة محمد بوضياف المسيلة – مخبر سوسيولوجية جودة الخدمة العمومية.

makhlouf.abbes@univ-msila.dz

ملخص الدراسة:

يعد خطاب المركزية الغربية كأيديولوجية تقوم على التمركز حول الذات من خلال أن كل ما يمثل العالم اللاغربي مجرد هامش في شكل من سيادة الرؤية الواحدة على العالم في كل الميادين، ومع حلول الجائحة شهد المخيال الغربي صدمة فعلية أنبئت على بروز مرحلة جديدة تدعى" عصر ما بعد كورونا" ليكون تأسيسا لتوجهات تلغي فكرة التميز والتفرد الغربي لا محالة على الآخر، هذا ما دعانا نتطرق لإشكالية: الخطاب الغربي المتمركز في ظل الجائحة والصدمة التي تعرض لها نتيجة هذا العارض الطارئ، فالشلل الذي أصاب الغرب في ظل هذه الأزمة الصحية العالمية أسس لبروز تمركزات لكل دولة حول ذاتها حسب مصالحها الخاصة، وعلى سبيل المثال عمليات قرصنة الكمامات ومنع التصدير والسفر بين الدول الغربية ضمن التكتلات الغرب الواحدة كشفت عن حقيقة ماثلة أن نزعة البقاء الإنساني ألغت كل البرديغمات التي حكمت العالم وفق نظرية المركز والهامش، لنصل إلى أن الجائحة وطنت لفكرة هامة تتجلى في أفول المركزية الغربية في ذاتها قبل أن تنعكس على الآخر الهامشي لتبرز عدة مفاهيم أخرى على سبيل المثال في شكل مركزيات بديلة. ليبقى سقف الاستشرافات مسيطرا على التصورات الجديدة التي تتنبأ بمن سيحكم العالم أثناء وبعد جائحة الكوفيد 19.

الكلمات المفتاحية:

المركزية الغربية، جائحة الكورونا، الآخر، المركز والهامش، الصدمة، النظام العالمي الجديد، المركزيات البديلة.

مقدمة:

إن منطق الإنسان حكمته عدة تنازعات كبرى منها من قادت العالم أو كانت سببا في فناء مجد حضارته، ونقصد ها هنا التنازعات التي توجهها الأيدلوجيات الكبرى وتغذيها رؤى تستند إلى عدة تصورات ثقافية أو دينية أو عرقية. ومن هذه المواضيع الطرح الذي فرضته المركزية الغربية كأحد أهم المكونات التي حكمت الفعل الإنساني تصورا وقيما في علاقته مع غيره ليحل الفيروس التاجي فيقلب كل الموازين التي حكمت العلاقة النمطية بين الذات الغربية والآخر، وبهذا فإن مناقشة إشكالية التمركز في الخطاب الغربي والصدمة التي تعرض لها في ظل جائحة كورونا يحمل في وقتنا الراهن أهمية بالغة، خصوصا أن هذه الصدمة ستكون تأسيسية لعصر جديد سيسود الغرب والعالم ، والذي كان دائما الأقدر على بناء مراياه ثم تكسيرها واحدة تلو أخرى عندما يعجز الزجاج اللامع في كل مرة على عكس الوجه المطلوب (الغامدي، 2010، صفحة 187) ، فهذا التغيير المرتقب كان محفزا لتناول عقدة التمركز لدى الغرب وإلغاء الآخر على ضوء مرحلة جديدة معنونة بـ" الغرب في عصر ما بعد الكورونا"، وعليه فلقد بدأ الغرب يفقد آخر عناصر تفوّقه، لما ضرب الطاعون المركزية الغربية وزعزع أركانها وأصبح العالم تحت ضربات هذا الوباء على قناعة بأنّ البشرية تتجه نحو نظام عالمي جديد بأقطاب متعددة، لكن الأهمّ هو أنّ المركزية الغربية بدأت تسلم مفاتيح قيادة النظام العالم الجديد لقوى جديدة وسيكون لآسيا والشّرق دور في تشكيل عالم الغد، الأمر الذي يدفعنا لطرح الإشكالية التالية: كيف يمكننا أن نفسر تداعيات صدمة جائحة كورونا على خطاب التمركز الغربي؟

1/ لمحة عن المركزية الغربية:

الباحث في التاريخ الحضاري لأوروبا يتعذّر عليه تحديد الوقت الذي وُلد فيه مفهومان متلازمان هما:" أوروبا" و"الغرب". فهما من تمخّضات تلك الحقبة

الطويلة والمتقلِّبة، التي يُصطلح عليها بـ"العصر الوسيط" الحقبة التي طوّرت جملة من العناصر الاجتماعية والدينيّة والسياسية والثقافية، فاندمجت لتشكّل "هويّة" أوروبا، وبانتهاء تلك الحقبة، ظهر إلى العيان مفهوم "الغرب". وسرعان ما رُكّب من المفهومين المذكورين مفهوم جديد هو" أوروبا الغربية"، الذي راهن على المقاصد الثقافية والسياسية والدينيّة، ومن ثَمّ ثبّت مجموعة من الصفات والخصائص العرقية والحضارية والدينيّة على أنّها ركائز ثابتة تشكّل أسس هوية الغرب، ومنه ولادة مفهوم حديث ذي طبيعة إشكالية هو" المركزية الغربية"

ففي قلب التعريف الذاتي للغرب يتموضع مفهوم عالمية الغرب الحضارية. بحيث يمسي المفهوم عقيدة مترسِّخة: الغرب مركز جاذبية العالم، بدؤه وختامُه، وهو التعبير الأرقى عن الكمال التاريخي للبشرية، فجغرافية الغرب الأم التي تمثلت بأوروبا والتي منحت لنفسها رسالة أفضلية في علاقتها مع الشعوب الأخرى إلى درجة أن مراياها الثقافية انصبغت مع الوقت برؤية عالمية لا ترى إلى الغير إلا بوصفه تابعا، ومن ثم التسويغ لمبدأ الوصاية على بقية العالم.

ولئن اختلفت الدلالات الاصطلاحية لمفهوم مركزية الغرب إلا أنها تجتمع كلها في الغاية والمصب، أي تعميق صورة التمركز الغربي القائم على أساس التفاوت بين الغرب الأسمى عقليا وثقافيا ودينيا وعرقيا، وبين العالم الآخر الأدنى والأحط في كل ذلك. لقد عرف" عبد الله إبراهيم " نزعة التمركز في كتابه" المركزية الغربية إشكالية التكون والتمركز حول الذات" بقوله:((هي تكثف مجموعة من الرؤى في مجال شعوري محدد، يؤدي إلى تشكيل كتلة متجانسة من التصورات المتصلبة، التي تنتج الذات المفكرة ومعطياتها الثقافية، على أنها الأفضل، استنادا إلى معنى محدد للهوية،... بحيث تكون الذات هي المرجعية الفاعلة في أي فعل، سواء باستكشاف أبعاد أنفسنا أو بمعرفة الآخر، ولا يقتصر الأمر في التمركز على إنتاج ذات مطلقة النقاء، وخالية من الشوائب التاريخية، إنما- وهذا هو الوجه الآخر لكل متمركز- لا بد أنه يتادى عن ذلك تركيب صورة مشوهة للآخر.)) (ابراهيم، 1997، صفحة 10)، كما يطرحها المفكر محمد عمارة بقوله:" وقد لعبت هذه النزعة المركزية نزعة بعدم الاعتراف بشرعية ومشروعية الوجود الحر والمتميز على الآخر فلعبت الدور

المحوري في التعبئة الفكرية والمادية في وجود هذا الآخر " (عمارة، 2004، صفحة 61).

والواقع أن فكرة" السمو الأوروبي"، وفكرة" امتدادية أوروبا "وفكرة" أوروبا مركز العالم "ستفرض نفسها في القرن الثامن عشر؛ بحيث تصبح أوروبا" الوسيط للتقدم الكوني "و" السيد المعطاء " الذي ينبغي على العالم أن يكون" معتمدا عليها سياسيا وتكنولوجيّا. ومع نهاية القرن الثامن عشر، أضحى مذهب التقدم في موقع قوي، فبدأت المقاييس الزمنية تطغى، على الاعتبارات المكانية، عند تصنيف موقع الأقوام . وعلى هذا الأساس وضعت أوروبا في ذروة" التقدم ."وزحفت في الوقت نفسه موجة عنصرية عالية على أوروبا الشمالية ونصبت أوروبا نفسها في موقع المركز / المرجع، فغزت هذه الفكرة ميادين الفلسفة والعلوم الإنسانية، ولم يسلم منها حسب" برنال":((هردر، هيجل، ماركس، دي سادي_ مؤسس الاستشراق الفرنسي_ توماس أرنولد، مونتسكيو، روسو، لوك وهيوم.)) (مارتن، صفحة 364)

2/ سمات المركزية الغربية :

لتقديم فهم أعمق للنزعة السادية لدى الغرب واعتباره الصانع المزعوم لتاريخ الإنسانية، كان واجبا التطرق لخصائص خطاب التمركز الغربي الذي ألغى الآخر من معايرة التفوق وحصرها قصرا على ذاته، ويمكن تلخيصها على النحو التالي:

أ/ التمحور حول الذات:

من المسلم به أن التمحور حول الذات له جذوره عبر تاريخ الفكر الأوربي، فميل الغرب إلى الفردية والتميز على الآخر ليس وليد الساعة بل هو عبارة عن تتابع تاريخي ترجم في أيدلوجية هيمنت على العالم، ومن هذه الفكرة تولدت المركزية كأداة لفهم الكون انطلاقا من أن الغرب هو محور العالم كله والآخرون معه مجرد أطراف لهذا المركز ومن هنا برزت نزعة الاستعلاء الأوروبي التي لخص فيها الغربيون التاريخ في أروبا ككل، فعلى سبيل المثال تم تقسيم العالم إلى ثلاثة عصور: العصور القديمة والوسطى والحديثة والتي كان محور حركاتها الإنسان الأوروبي فيقولون بذلك إن الحضارة الغربية وليدة ثلاثة مجالات هي :

*/ المجال الأخلاقي وهو وليد المسيحية.

*/ المجال السياسي والحقوقي: وهو خاضع لتأثيرات القانون الروماني.

*/ المجال الفكري والفني: وهو نتيجة التقليد للحضارة الإغريقية (غارودي، 1982، صفحة 17)

ب/ الكراهية والعدوانية:

إن ميل الإنسان الغربي الدائم لإثبات تفوقه يأخذ في بعض المناحي صورا تتسم بالكراهية والعدوانية لكل من هو من غير ذاته، فهذه الروح العدوانية هي المنطلق الوحيد لتحقيق التمركز في الكون من وجهة نظرهم بغض النظر على المسلك التواصلي لهذه الخاصية في ثقافة المجتمع الغربي" حيث إن العدوانية الغربية اتجاه الشرق عامة تنبع من جوهر المجتمع الصناعي المتقدم وسبق أن اقترح اريك فروم في كتابه" تشريح العدوانية البشرية " تحليلا لروح العدوان الغربي فيما يسمى باسم "مجتمع الوفرة ". هؤلاء الغربيون الذين يدعون أنهم نعمة من السماء لنقل البشرية من الظلام إلى النور مجرد وهم تبطله جرائمهم من القرن السابع عشر إلى العشرين ضد الدول الإسلامية المستعمرة وتعكس مدى الدموية التي فرضوها ليؤكدوا تفوقهم المزعوم على الآخرين .

ج/ العنصرية:

في سياق فرض منطق الاستعلاء الغربي على الآخر، فلقد وجدت العنصرية والحقد مكانا لها في بناء خطاباتهم المركزية ضد الآخر الهامشي، ولقد لعبت بواكير العصر الحديث دورا في تغلغل إيديولوجية المركز والأطراف في العالم في شكل نظريات تفوق العرق الأبيض على غيره من الناس في ظل نزعة الأنسنة التي جعلت الإنسان محل الله في الطبيعة لقول "المسيري " وقد دعم الإنسان الغربي دعوة المركزية لنفسه بمرجعية من النظريات الخاصة بالعالم والهوية والحضارة تدور في إطار المرجعية المادية لتؤكد تفوقه"(المسيري، دراسة معرفية في الحضارة الغربية، 2006، الصفحات 222-223)

د/ العداء للدين:

إن مسيرة صناعة البناء المركزي للغرب انطلقت من تمجيد العقل والإنسان ضمن سياق الطبيعة ورفض كل ما هو ديني وهذه صورة ميزت المخيال الأوروبي في العصر الحديث، لتظهر العلمانية كمظهر فلسفي وسياسي يحصر الممارسة الدينية في مكان

العبادة ويحجبها عن باقي مجالات الحياة مع رفع العلم لساحة القداسة " فقد كانت فكرا مسايرا لممارسات اجتماعية وعقلية وقانونية وثقافية لا أثر يذكر فيه للمرجعية الدينية " (المسيري و العظمة، العلمانية تحت المجهر، د.سنة، صفحة 16) وهذا ما رصد في الداخل الغربي ولكن على الصعيد الخارجي سجل تناقض في تقييم حضارات الآخر ببعد ديني من خلال التهميش والتعصب المفضي لإلغائها .

هـ/ اللاأخلاقية:

إن هذه الخاصية هي نتيجة حال لما سبق، فنحن نرى أروبا والغرب عموما يحملون مشعل المبادئ وحقوق الإنسان العليا، لكن الناظر للتاريخ نظرة إنصاف وتمحيص يجد أن هذا مجرد دعاية إعلامية لإنتاج صورة التفوق المزعوم لدى الآخر، في حين حقيقة هذه الشعارات نظرة حقد ودونية اتجاه المجتمعات الأخرى " إذن لا يمكن أن نرى الأخلاق الرفيعة تغفل عما صنعته أوربا بشكل لاأخلاقي بالتجني على مائة مليون ضحية من السود ما بين عامي 1600-1900 ما بين مستعبد أو مغرب " (شفيق، 1983، صفحة 43)، فعن أي أخلاق تتحدث الأيدلوجية الغربية كونها صانعة الحضارة والازدهار في تاريخ البشرية، فهي لم تؤمن إلا بأخلاق القوة لفرض هيمنتها على الآخر والسيطرة على موارد العالم والتفريق بين الأجناس بشكل عنصري .

3/ صدمة خطاب التمركز الغربي في ظل جائحة الكورونا:

في لحظة انتشاء الحداثة الفائقة بانتصاراتها، وفي فترة زهو العقل المتحرر من أي سلطة، في لحظة غير متوقعة وجدت البشرية نفسها تحت وطأة جائحة غريبة عصفت بالعالم أجمع وبالغرب على وجه الخصوص، حيث تمكّنت هذه النازلة الوبائية من ضرب ما يسمّى الحضارة الناشئة والحديثة، واستهدافها بدقةٍ وقوة استثنائية وذكاء هائل. أعاد إلى السطح التساؤل وبعمق حول نظريات طالما شكلت صلب عقيدة التمركز في الحضارة الغربية منها:" نهاية التاريخ والإنسان الأخير" لفرانسيس فوكوياما و" صراع الحضارات" لصموئيل هنتنغتون، بالإضافة إلى تلك التنظيرات العنصرية والعرقية التي دأب الغرب المتصلب فكريا على التغني بها واعتبارها مرجعا لتفوقه العلمي والتكنولوجي والثقافي... تلك التي تجعل السلالات البشرية تخضع لتراتبية عرقية يكون فيها الجنس الآري ذي البشرة البيضاء أعلاها ودونه أدناها. لقد فرض "وباء كورونا " وجوده على السّاحة البشريّة انطلاقًا من نهاية

العام 2019 ، وهو لا يزال يشكّل تحدّيا للمجتمعات البشريّة أفرادا ودولا وجمعيات ومؤسسات. وبات التخلّص منه هاجسا يقضّ مضاجع الجميع، وبالأخصّ أنّ سبل الخلاص والنجاة منه لمّا تتّضح معالمها بعد، بل جعلت هذه الجائحة العالم حبيس لجة غامضة وغير محسومة المعالم، فخلطت الأوراق وألغت المتعارف عليه حتى أصبح الإنسان عموما والغربي خصوصا في موضع الدهشة والذهول وتحت طائل الصدمة، لكن بنظرة فاحصة نتأكد أن تجليات هذه الحالة اللامتوقعة تجاوزت الإنسان الغربي لتنعكس طردا على النظام الدولي الذي تعد المركزية الغربية أحد الأسس الفاعلة والمؤثرة فيه .

فهذه المتغيرات أكدت أن أزمة كورونا أزمة عالمية ولكنها لم تكتس عالميتها من كونها أصابت العالم المتخلف والمتقدم، أو الشمال والجنوب، أو الشرق والغرب على حد سواء، ولكن عالميتها تنبع من أنها أصابت أوروبا وأمريكا بمعنى أنها أصابت المركزية الغربية وكسرت كبرياءها، تماما مثلما حدث في الحربين العالميتين اللتين اكتسبتا عالميتهما من نفس المبدأ وزاوية النظر، فلا يهم أن قارات بأكملها لم تشارك في الحربين العالميتين لأن ذلك لم ولن يخلع عنها ثوب العالمية، فالعالم عندهم هو أوروبا لأنها المركز والباقي لا قيمة له إلا من حيث هو هامش خادم للمركز. وغير بعيد عن ثنائية المركز والهامش التي تتحكم في تصنيف الأزمات فإن أزمة كورونا تمكنت من تعرية الرأسمالية الغربية وبيان هشاشة تحالفاتها الاقتصادية، هذه الهشاشة التي بدأت تظهر بوادرها قبل هذه الأزمة وتأكدت أكثر مع عجز الاتحاد الأوروبي أمام الكارثة الإنسانية في إيطاليا وإسبانيا، كما أن الأحادية القطبية التي تغنّت بها الولايات المتحدة الأمريكية صارت الآن ضربا من الخيال في ظل بروز ملامح جديدة لثنائية قطبية طرفها الثاني الصين وحلفاؤها الاقتصاديون. (لشخب، 2020) ، لقد كسرت كورونا بهذا" كبرياء" المركزية الغربية، وستكون لهذا الانكسار آثار واضحة على الغرب خلال المرحلة القادمة، فانهيار خطاب التمركز الغربي على ضوء هذا الطارئ كان تتويجا لسقوط مركزيات سابقة توالت على العالم والإنسان بداية من مركزية الأرض مع كوبرنيك ومركزية الإنسان مع شارل داروين ومركزية الشعور مع فرويد، ولكن العلامة الفارقة هاهنا هي أن كورونا شكّل جرحا نرجسيا استهدف مركزية الغرب في الصميم وحولها من المركز

الفاعل إلى المركز المصدوم. ويمكننا تلخيص معالم الصدمة التي هزت جوهر الخطاب الغربي المتمحور حول ذاته في النقاط التالية:

-**العودة القوية للمعتقد الدّيني**: يؤكد الكثيرون على أن جائحة كورونا مست آثارها المعتقد الأيديولوجي وما لحقه من تحولات، فبعدما كان المعتقد الديني بفعل التوجه العلماني ليس في صميم الخطاب الغربي، باتت العودة قوية جدا إلى المعتقد الدّيني. فالشعور الديني يقوم على الإيمان بوجود قوّة إلهيّة خارقة، يلجأ إليها حين يكتشف الإنسان حقيقته ككائن ضعيف وأنّه واقع في أزمة، والعلاجات خارجة عن قدرته بصفته كائنا مخلوقا مهما أحسّ بالتميّز والمركزيّة في الكون. ومع "كورونا " ينبعث هذا الشعور حتى عند المنكرين للدّين، ويتجدّد عند المتدينين. ففي الأزمات عادة يشعر الناس بالحاجة إلى القوّة الإلهيّة المحيطة بكلّ شيء، ولا يزيد التقدّمُ العلمي الإنساني هذه الحقيقةَ إلا تأكيدًا، ذلك أنّ طريقة انتشار" كورونا" بين الناس كحواضن ونواقل، يجعلها أشدّ وقعًا على شعور البشر من الكوارث الطبيعيّة وفي هذا السياق، يشير بعض المحلّلين إلى أنّ الفيروس كشف عن معضلة قديمة جديدة، هي ذات صلة بجدليّة العلاقة بين العلم والدّين. وقد كتب أسعد قطان عن النزاع بين العلم والدّين أمام ظاهرة الوباء فقال: ((يحيلنا الخطاب الدّيني، في زمن الكورونا، إلى التوتّر القديم بين العِلم والدّين، وكأنّ الناطقين الرسميين باسم الأديان لا يتقنون لعبة الترويج لله ، من الأولياء والقدّيسين، إلاّ إذا مرّت هذه اللعبة بتكتيك نفي العلم أو التقليل من شأنه. فتارةً يصبح القدّيس فلان هو الشافي الحقيقي من كورونا وسائر الأمراض المستعصية، وطورًا يصبح المرض الآخذ في التفشي أحجية بيولوجيّة يضرب الله بها عصفورين بحجر واحد، فيتحدّى العلماء ويعجّزهم من جهة، ويرسل إلى الناس أمراضًا يؤدّبهم بها كي يرجعوا إليه من جهة أخرى.)) (رشيدي، 2020)

لقد كشف الخطاب الدّيني، في زمن "كورونا "، عن درجة من الفعاليّة في التعاطي مع الأزمة عبر دعم الإجراءات الحكوميّة في مواجهة تفشي الفيروس، ومطالبة أفراد المجتمع بالالتزام بسياسات التباعد الاجتماعي ومتطلبات النظافة الشخصية كعوامل رئيسية في مواجهة الفيروس. وبالتوازي مع هذا الجانب العملي، اضطلع

الخطاب الدّيني بدوره في التكريس لسياسة الأمل في المجتمعات، لتعويض مساحات العجز البشري، وما صاحبها من مفردات اليأس (بسيوني، 2020)

ويتابع أصحاب هذه الرؤية، بأنّ الخطاب الدّيني يعمل على تهذيب النزعات الفرديّة التي قد تُصاحب حال التوتّر والقلق الناتجة عن تفشي الوباء. ولهذا، كان المفكّر الفرنسي الشهير "ألكسيس دو توكفيل " يعتقد أنّ الأنظمة الديمقراطية بحاجة إلى الطاقة الروحانيّة، كي تقاوم الميل الطبيعي للإنسان نحو المبالغة في الأنانيّة الفرديّة والنزعة الماديّة والعقلانيّة الضيّقة. فعادةً ما تُستدعى النصوص الدّينية التي تشجّع الأفراد على التضامن والإيثار وتقديم المساعدة للآخرين. وهنا، تشير المصادر التاريخية إلى رفض رجل الدّين "مارتن لوثر " مغادرة مدينة "فيتنبرج "، بعد تفشي الطاعون فيها، في العام 1527، ليقدّم خطابًا تضامنيًّا يقوم على ضرورة مساعدة المرضى ورعايتهم والاهتمام بهم.

- **إفلاس الإيديولوجيّة الليبيرالية**: لقد عجز النموذج الديمقراطي الاجتماعي في المجتمع الغربي عن التصدي للجائحة وما خلقته من أزمات، ويتبيّن ذلك من خلال طريقة التعامل مع الوباء ليعود السؤال من جديد إلى الواجهة: هل ما تزال الإيديولوجيّة الليبراليّة ناجحة في تقديم العلاجات، وهل يجب أن نبقى على اعتقاد أنّها الأصلح للبشرية؟ الجواب أن كورونا الأيديولوجيا تجد حقيقة نجاح الصين على ما يبدو في مواجهة جائحة كورونا واحتوائها، وكذلك بعض الدول الأخرى التي لا تعتمد الإيدولوجيا الرأسماليّة، والتي عجزت عن ذلك في صيغتها الأكثر تطرّفًا ممثّلة بالولايات المتحدة الأميركيّة والأنظمة الديمقراطيّة الاجتماعيّة المبنيّة على الحرية الفردية، والتي يتمرّد فيها الفرد- بسبب تكوينه الثقافي- على التحكّم السلطوي، ما أدّى إلى نوع من التهاون في التعامل مع الجائحة، فكانت الكارثة. لقد شوّه هذا الفيروس التاجي مفاهيم مثل: الحرية، الديموقراطية، العدالة، وحقوق الإنسان والتكنولوجيا المتوازنة، والتي بَنت الأيديولجيا الغربية خطاباتها وادعاءاتها عليها، وكشف عن المفاهيم المغلوطة وغير الواقعية لهذه المدارس ورؤيتها الخادعة للإنسان، وعرّاها بشكل مخز جدا. لقد كشف الوباء مقدار انهيار قيمة الإنسان، بالأخصّ عند أصحاب السلطة والكثير من المؤسّسات النفعيّة.

وذلك بعدم مراعاة الدول الغربيّة للقيم والمثل واحترام الإنسان، هو ما صرّح به رئيس وزراء بريطانيا أنّ على العائلات الاستعداد لفراق أحبّتها. وفي أميركا، كانت الصورة أكثر بشاعة، فأميركا التي كانت توصف برائدة الإنسانيّة، انهارت مُثلها وقيمها سريعًا، فالقرصنة البحرية والسطو والاعتداء والجرائم صارت مشهدًا مألوفًا في الشارع الأميركي، ونظامها الصحي صار منهارًا تمامًا، فلا معدّات وقائيّة أو طبيّة، ولا مستشفيات تكفي، وتُرِكَ الفقراء ليلاقوا مصيرهم المحتوم.

- **اختلال المنظومة الاقتصادية الرأسمالية:** لقد كشف انتشار فيروس كورونا عن تغير كبير في موازين القوى الدولية، وبرهن أن العالم أصبح بلا أقطاب بعد أن هز المرض دولا كبرى وفاقم خسائرها، وأثبت أن الرأسمالية العالمية قوة هشة أمامه، لقد ضرب الفيروس الرأسمالية المتوحشة وأصابها في مقتل، وأدخلها في ردة غير مسبوقة بوضع الاقتصاد العالمي على حافّة الانهيار في حال طالت مدّة الصراع معه، فالأسواق تغلق، عدا الضروري منها، ويتقلّص الطلب الداخلي والخارجي، فتتراجع التجارة الدوليّة ومثلها التجارة الداخليّة، فتتوقّف قطاعات اقتصاديّة كاملة، بينما تتراجع قطاعات أخرى، وتغلق أسواق المال على تراجع، وتهبط أسعار أسهم الشركات، وتتوقّف الاستثمارات، ويصبح النموّ الاقتصادي سالبًا. وكلّ هذا سيرفع معدّلات البطالة، وستتراجع قدرات الدول المتقدّمة على دعم اقتصاداتها وشركاتها إذا طالت مدّة الصّراع ضدّ الفيروس، وستعلن شركاتٌ إفلاسها في حال طالت مدّة تطبيق هذه الإجراءات، وستكون هذه مناسبة طريقا لابتلاع الكبيرة منها كذلك (سيعفان، 2020)

وإذا كانت بعض الدول ستواجه الإفلاس، بالأخصّ تلك التي تعتمد على النفط، إلا أنّ سوق الدواء سينتعش وستتسابق الدول للإعلان على إجراء تجارب على الأدوية، وهذا يعني أنّ بإمكانها جني المليارات من الدولارات . فضلاً عن تأثير فيروس "كورونا " على حركة البضائع والسلع والسياحة العالميّة. وقد يسبّب هذا الاضطراب الاقتصادي مخاوفَ من حدوث ركود عالمي جديد في قادم الأيام، كما ورد في بعض التقارير، في ظلّ الخسائر التي وصلت إلى2.7 تريليون دولار. ويصف بعض أصحاب

الاختصاص هذا الواقع، بأنّه قد يمثّل نهاية لعقود من سياسات السوق الحرّة الاقتصاديّة والعولمة غير المقيّدة.

لقد أدخل هذا الفيروس الجميع في دوائر الخوف والهلع، بل وأفقد بعضهم القدرة على السيطرة. ففي اللّحظة التي ظهرت فيها أميركا في موقف الدولة الانتهازيّة والأنانيّة، وكيف ظهرت أوروبا كقوّة دوليّة متراخية وغير متماسكة وعاجزة في مواجهة الجائحة منذ البدايات، في اللحظة نفسها التي ظهرت فيها الصين كقوة من الناحية الدوليّة وارتقت في مواقفها وقدراتها. وكلّ هذه مؤشرات تدلّ على بدء تغيير في الموقف الدولي، بل وإعادة تشكيله، بل ومؤشرا هاما على تغيير كبير في طبيعة حجم العلاقات الدوليّة وشكلها ما بعد" كورونا " لقد تحوّل الصراع بين أميركا والصين، بعد ظهور فيروس" كورونا " إلى حرب إعلاميّة ربحت فيها الصين مواقع متقدمة وخسرت فيها أمريكا مواقع متقدمة. لقد باتت الصين تعدّ ولو مؤقتا الجواد الرابح في الحرب الكونية ضد كورونا، بما أثبتته من دور مرموق في مكافحة الوباء، وإدارة محكمة في تدبير المعالجة، سواء على مستوى بؤرة الوباء مدينة "ووهان" أو على مستوى بلاد الصين ككل، حيث عادت الحياة إلى طبيعتها الأولى. لقد جاءت زيارة الرئيس الصيني لمدينة "ووهان" مباشرة بعد انحسار الوباء، حدثا محمّلا برسائل بليغة للعالم، وبدلالات عميقة على مناعة الصين، وقوة منظومتها الصحية وجاهزيتها للزعامة. ولم تكتف بذلك، بل زادت من تلميع صورتها القيادية من خلال تقديم المساعدات للدول المتضررة من انتشار وباء كورونا بما في ذلك الولايات المتحدة ذاتها، فكسبت أيضا معركة التضامن العالمي، وساهمت بذلك بنصيب في التخفيف من تخوفات العالم، وإظهار نفسها في صورة البطل المنقذ، مما يحيلنا إلى القول بجدارتها في التربّع على عرش الزعامة العالمية.

- **إبادة العجزة والمعوقين وكبار السن:** لقد أظهر هذا الوباء وجود مرض متجذّر في النسيج العقلي وخلل عميق في النظام الرأسمالي، بحيث فتح مسمى "مناعة القطيع" الذي وضَعه الغربيون كجدول خاص لأعمالهم وفي تعاملهم مع

أصحاب الأمراض المزمنة والمصابين بكورونا، ولكي لا ينتشر الفيروس إلى معظم الناس في المجتمع، يتم إرسال المسنين الذين لا يستطيعون دفع تكاليف العلاج، والذين يعتبرون عبئا على المجتمع، إلى القبور، حتى يبقى الأصغر سنا والأكثر قدرة على قيد الحياة، ويحصل لديه المناعة، لكي يكون هؤلاء قادرين على تحريك العجلة الاقتصادية الرأسمالية. .فمناعة القطيع التي يمكننا مقاربتها من زاويتين. فتارة تقرّر الدولة رسميا أنّها ستترك كبار السن يموتون في بيوتهم، لأنّهم عبء على الاقتصاد وشريحة لم تعد منتجة اقتصاديا، وتشكّل استنزافا للخزينة، وهنا نحن أمام تهميش كامل لما تمثّله هذه الشريحة من ثروة إنسانيّة، واستهانة متوحّشة بحقّ الكبار بالعناية الصحيّة بالتساوي مع أولادهم وأحفادهم على الأقل، ولأسباب بحت ماديّة اقتصاديّة. وتارة أخرى تبذل الدولة كلّ ما في وسعها بالتساوي بين الأجيال، ولكن عندما تجد نفسها عاجزة فإنّها تتعامل مع الحالات بحسب فرصتها بالنجاة بناء على التشخيص الطبّي. ففي هذه الحالة يكون القتل العمد سياسة الدولة الرسميّة، فمرّة تقتل بالحروب المصطنعة لخلق سوق للأسلحة، ومرة تقتل بتقليل قدرة المجتمع على مواجهة الجائحة والتذرّع بسياسة مناعة القطيع. لقد كشف الوباء عن الوجه الأسود للداروينية الاجتماعية الحديثة التي تُذكّرنا بإيديولوجية هتلر العنصرية، وقتله للعجزة والمتخلفين عقليّا، وإبادته للطبقات الاجتماعية غير المنتجة في المجتمع بوحشية. هذه المشاهد تذكّرنا بالسياسات التي يُسمّيها فوكو" إدارة الموت" في شكل من المشاهد التي تستعرض أمام أعيننا كل يوم، ويبدو أن التاريخ يعيد نفسه بأقبح وجه.

- **انكشاف عورات العولمة المتوحشة:** قبل وباء كورونا، كانت الأصوات تنادي بضرورة تغيير نظام العولمة باعتباره نظاما يفتقر لعلاقات اقتصادية عادلة، وأنه لا يعبّر عن مصالح السواد الأعظم من سكان الأرض، بقدر ما يعبّر عن مصالح الشركات العملاقة متعددة الجنسيات التي كرّست الفقر في دول الجنوب، وألحقت الضرر بالبيئة والمناخ، مما يفسر تصاعد الحركات الاحتجاجية المناهضة التي تصدّت للعولمة وفلسفتها البراغماتية.

بالاضافة إلى ذلك لقد كشفت الجائحة عورات العولمة، التي بدت في شكل ترابط وتبادل خالٍ من التضامن، إذ اتّجهت حركتها إلى التقنيّة والاقتصاد في حين فشلت في أن تعزّز التفاهم بين الشعوب، إذ أظهر الوباء حجم الأنانيّة والانغلاق الذي تبديه كلّ أمّة على حدة، مع جعل المنطق الإنساني داعيًا إلى التفكير في مسار جديد للبشرية غير العقديّة النيوليبرالية، وذلك بمسار يعيد الاعتبار لقطاعات الدولة، وخدماتها الصحيّة والاجتماعيّة، ويقطع مع سياسات التقشّف التي تضرّرت منها المؤسّسات الصحيّة والتعليميّة والاجتماعيّة.

وفي ظل تواصل هذه الحيثيات تغيرت موازين ترتيب القوة في العالم التي كان مقاسها عدد الجيوش وأسلحتها النووية. لكن في المرحلة الراهنة العدو غير مرئي وتحول معه معنى السلاح الاستراتيجي إلى الكمامة وآلات الفحص الطبي والتنفس الاصطناعي وأصبح الجنود هم الأطباء والممرضون. فالقوة الأولى عالميا الو.م.ا كأكبر دولة صناعية عجزت عن توفير كمامات عازلة للعاملين في الحقل الطبي، ألا يستدعي ذلك التشكيك في قدرة الرأسمالي وكفاءته؟ (حامد، 2020، الصفحات 66-67) ، وعطفا على هذا السؤال نستفيض أكثر في توصيف الصدمة الكورنية من خلال إقدام بعض الدول الغربية الكبرى على قرصنة الكمامات والأجهزة الطبية بحجج واهية في شكل من انهيار منطق الغرب المتفوق وإلغاء شبه مباشر لمنطق المركز والهامش في ظل دعوات متكررة من الغربيين في حد ذاتهم لتوحيد جهود العالم لمكافحة هذه الجائحة اللامفكر فيها سابقا، لنستنتج من هذه الظروف الشرخ الكبير الذي تعاني منه أيديولوجية التمركز الغربي.

بالإضافة إلى ذلك يقدم فيروس كورونا رسالة وجودية ومعرفية للمستقبل لكل من الغرب والعالم المعاصر أن منطق مواجهة العدو اختلف من التمركز وإثبات التفوق بين المجتمعات الإنسانية إلى السّعي إلى أن يكون منع الخسائر في الأرواح يتم تقاسمه عالميا، وهكذا يعلن الناس في كل مكان أنهم على استعداد متزايد لوضع مصالحهم المباشرة وقيمهم المتضاربة جانبا بغية تحقيق هدف مشترك أكبر بكثير يتمثل في الحد من انتشار الوباء (عثمان، 2020، صفحة 15)

هذا ما يبرهن على راهنية الصدمة الأيديولوجية للغرب في ذاته والتي ستؤدي إلى حدوث تحول حضاري عن كل قيمه ومركزيته المعهودة وهذا ما استشرفه كل من ريتشارد كوك وكريس سميث في كتابهما" انتحار الغرب" بقولهما" إننا نعيش في تلك المرحلة الغادرة التي تكون فيها المعتقدات والأعمال السائدة للحضارة الواقعة تحت الهجوم، وهي بالذات ربما تعطي إشارة إلى تحرك من حضارة إلى أخرى، ففي حين تختفي الحضارات فإنها إما أن تتطور إلى حضارة أخرى، وإما أن تنهار تحت وطأة صعوبة ملاءمة الطرق القديمة للتعامل بنجاح مع الظروف الجديدة " (كوك و سميث، 2009، صفحة 291)

ولعل من بين القراءات التي نظرت كذلك لانحسار المركزية الغربية في ظل الجائحة مقال المفكر الأمريكي نعوم تشومسكي بعنوان" ما بعد الكورونا أخطر من الوضع الراهن"؛ حيث شخص الوضع بأنه اقتراب من الرعب الأعظم في شكل سباق نحو الكارثة معتبرا ما يحدث أحد أشد صدمات العصر التي قلبت الموازين رأسا على عقب، فكيف لدولة مثل كوبا تساعد أوربا في حين أن ألمانيا تتمنع عن مساعدة اليونان. واصفا ذلك بالمثير للدهشة والسخرية وأن الغرب في مرحلة الدمار بسبب النيوليبرالية معتقدا" أنه إن لم يشرع الناس على الفور في تنظيم أنفسهم ويتضامنوا في ما بينهم لتحقيق عالم أفضل بكثير من العالم الذي يعيشون فيه، فهم سيواجهون مصاعب هائلة لطالما أعاقت طريق الحق والعدالة " فمن الواضح أنه ينظر لانهيار خطاب التمركز الغربي لصالح التضامن والتعاون الإنساني من أجل التغلب على الفيروس التاجي مرحبا بذلك بالنموذج الكوبي الإنساني المساعد للعالم ككل وناقما على النموذج الألماني المنقلب على التمركز في حد ذاته في هذه الأزمة . (عيسى، 2020)

في حين ناقش البروفيسور الروسي كاتاسونوف صاحب المقال المشهور" فيروس كورونا كبديل للحرب العالمية" واقع هذه الصدمة الغربية بقوله:" لقد عرَّت الحرب الفيروسية منذ بدايتها، مخططات النخبة العالمية، وسلطت الضوء على عملائها، وكشفت كثيرا من أسرار نشاطها التخريبي. وسترغم هذه الجائحة ملايين البشر في العالم على التفكير بما لم يفكروا به سابقا، عندما كانوا يظنون أن

مشروع النظام العالمي الجديد مجرد خيال من خيالات أنصار نظرية المؤامرة". (كاتاسونوف، 2020) وعلى هذا نلاحظ كيفية دخول الغرب كونه محور العالم فكرا وتوجهات في دوامة عامة تعكس عمق الصدمة المتولدة عن فيروس كورونا الذي قلب كل الموزاين، فأصبح خطاب المركز والهامش في العالم وثقافة تغريب العالم كنموذج لثقافة الاستتباع مع الآخر من الماضي واندثار فكرة الاستعلاء الغربية لصالح الجائحة التي تسيدت العالم وتركته ككل حبيسا لمركزية أزمتها اللامتوقعة.

الخاتمة :

لقد قلبت جائحة كورنا العالم وأسست لتصورات ناشئة على كل الأصعدة، وما إيدلوجية المركزية الغربية التي حكمت العالم للعصور بمسميات متعددة إلا أحد البنى الأساسية التي بدأت في الانهيار تحت منطق الصدمة، لتؤسس لعصر ما بعد الجائحة، فهذا الوباء الذي بدل ملامح الأرض في حاضرها يتجه ليبدل موازين المستقبل، حتى وإن العالم ما زال في قلب معركته مع الوباء تتطلع الأنظار لعهد ما بعد الكورونا، فها هو عراب السياسة الخارجية الأمريكية هنري كيسنجر يقول: "إن الجائحة ستغير النظام العالمي سياسيا واقتصاديا لأجيال عديدة خلفها"، مؤكدا في السياق ذاته أن زعماء العالم يتعاملون مع تبعات الكورونا على أساس وطني، بينما الفيروس التاجي لا تحده حدود، داعيا إلى بناء رؤية عالمية موحدة لمواجهة الوباء لأن غياب هذا التوجه سيجعل العالم والإنسانية تواجه أسوء ما يمكن أن يكون في تاريخها.

كما ضرب طارئ الكورونا جوهر الثقافة الغربية التي تؤمن بتدافع مواقف الغربي المتمركز حول ذاته في رؤيته للآخر وكأنه محور شر ينبغي استئصاله، منطلقا من عقيدة عمقها أن الغربي هو راسم مسار التاريخ، ولهذا فإن الحل "الأخلاقي" الوحيد لهذا التناقض هو إذابة العالم في الغرب أو " تغريب العالم" لكي تتحقق هذه الغاية الحضارية المنشودة ولكن الفيروس المستجد سيؤسس لثقافات أخرى ستحكم العالم.

وعطفا على ما سبق فإن العالم سيجنح مضطرا إلى فكرة أطلقنا عليها استشرافا "المركزيات البديلة" التي ستلغي فكرة المركز والهامش بصورتها الحالية لفائدة المصالح المتبادلة وتوحيد الجهود الإنسانية، وذلك بأن تصير كل دولة ممركزة حول ذاتها، فالغرب حاليا يتشظى لمركزيات متعددة ضمن الكيان الواحد بعد استبيان وهم الاتحاد الأوروبي ووهم الغرب المتكتل ضد الأزمات في ظل تبعات الصحية العالمية حاليا، فهذا ما يؤسس حتما إلى انتقال من المركزية الغربية إلى مرحلة ما بعد خطاب التمركز الغربي الذي سيتجلى فيها حسب رأينا منطق المركزيات البديلة التي ستعزز ضمن بناءات الدولة الوطنية الجديدة كما استشرفه كيسنجر سابقا في ظل التحول إلى الأحادية القطبية التي تمثل أحد أبرز شواهد المركزية الغربية المهيمنة إلى تعدد القطبيات عبر العالم.

المصادر والمراجع :

1. التجاني عبد القادر حامد. (2020). *ازمة كورونا وانعكاساتها على علم الاجتماع* والعلوم السياسية والعلاقات الدولية. (التيجاني عبد القادر حامد، المحرر) مركز ابن خلدون للعلوم الإنسانية والاجتماعية / جامعة قطر.

2. برنال مارتن. *اثينا السوداء* - الجذور *الافرواسيوية للحضارة الكلاسيكية*. (مجموعة من المترجمون، المترجمون) القاهرة: المجلس الاعلى للثقافة.

3. روجيه غارودي. (1982). *حوار الحضارات*. بيروت.

4. ريتشارد كوك، و كريس سميث. (2009). *انتحار الغرب* (المجلد ط1). (محمد محمود التوبة، المترجمون) السعودية: هيئة ابوظبي للثقافة والتراث - كلمة- بشراكة مع العبيكان.

5. زين الدين لشخب. (26 03, 2020). *المركزية الغربية في زمن الكوورنا*. تاريخ الاسترداد 20 10, 2020، من الجزيرة:

https://www.aljazeera.net/blogs/2020/3/26/%D8%A7%D9%84%D9%85%D8%B1%D9%83%D8%B2%D9%8A%D8%A9-%D8%A7%D9%84%D8%BA%D8%B1%D8%A8%D9%8A%D8%A9-%D9%81%D9%8A-%D8%B2%D9%85%D9%86-%D8%A7%D9%84%D9%83%D9%88%D8%B1%D9%88%D9%86%D8%A7

6. سامية عيسى. (13 04, 2020). *نعوم تشومسكي - ما بعدالكورونا اخطر من الوضع الراهن* -. تاريخ الاسترداد 02 11, 2020، من الاندبدنت العربية :
https://www.independentarabia.com/node/111151/%D8%AB%D9%82%D8%A7%D9%81%D8%A9/%D9%86%D8%B9%D9%88%D9%85-%D8%AA%D8%B4%D9%88%D9%85%D8%B3%D9%83%D9%8A-%D9%85%D8%A7-%D8%A8%D8%B9%D8%AF-%D9%83%D9%88%D8%B1%D9%88%D9%86%D8%A7-%D8%A3%D8%AE%D8%B7%D8%B1-%D9%85%D9%86-%D8

7. سمير سيعفان. (03 03, 2020). *العالم الى تغيير بعد الكورونا*. تاريخ الاسترداد 27 12, 2020، من العربي الجديد:
https://www.alaraby.co.uk/%D8%A7%D9%84%D8%B9%D8%A7%D9%84%D9%85-%D8%A5%D9%84%D9%89-%D8%AA%D8%BA%D9%8A%D9%91%D8%B1-%D8%A8%D8%B9%D8%AF-%D9%83%D9%88%D8%B1%D9%88%D9%86%D8%A7

8. صلاح عثمان. (20 04, 2020). رسالة كورونا - عزف على الوتر المشدود بين العلم والسياسة -. *جامعة المنوفية -مصر*، ص15. الاسكندرية، مصر.

9. عبد اللطيف بن عبد الله الغامدي. (2010). *المركزية الغربية وتناقضتها مع حقوق الإنسان*. الرياض، السعودية : كلية الدراسات العليا - قسم العدالة الجنائية.

10. عبد الله ابراهيم. (1997). *المركزية الغربية اشكالية التكون والتمركز حول الذات* (المجلد الاولى). بيروت: المركز الثقافي العربي.

11. عبد الوهاب المسيري. (2006). *دراسة معرفية في الحضارة الغربية* (المجلد ط1). القاهرة: مكتبة الشروق الدولية.

12. عبد الوهاب المسيري، و عزيز العظمة. (د.سنة). *العلمانية تحت المجهر* (المجلد ط1). بيروت: دار الفكر المعاصر.

13. علاء رشيدي. (30 03, 2020). *البشرية في مواجهة كوفيد 19 - العولمة ام القومية* -. تاريخ الاسترداد 06 01, 2021، من موقع اللغة والثقافة العربية (حقوق النشر لموقع الالكتروني رصيف 22): -https://langue

arabe.fr/%D8%A7%D9%84%D8%A8%D8%B4%D8%B1%D9%8A%D8%A9-%D9%81%D9%8A-%D9%85%D9%88%D8%A7%D8%AC%D9%87%D8%A9-%D9%83%D9%88%D9%81%D9%8A%D8%AF-19-%D8%A7%D9%84%D8%B9%D9%88%D9%84%D9%85%D8%A9-%D8%A3%D9%85-%D8%A7%D9%84%D9%82%D9%88%D9%85%D9%8A%D8%A9

14. فالتين كاتاسونوف. (08 04، 2020). فيروس كورونا كبديل للحرب العالمية رؤية كاتاسونوف. *رحلة في الذاكرة*. (خالد الرشد، المحاور) يوتيوب. موسكو.

15. محمد بسيوني. (12 04، 2020). *اتجاهات دعم الخطاب الديني الرسمي لمكافحة الكورونا*. تاريخ الاسترداد 05 01، 2021، من مركز المستقبل للابحاث والدراسات المتقدمة: https://futureuae.com/ar/Mainpage/Item/5499/%D8%B3%D9%8A%D8%A7%D8%B3%D8%A9-%D8%A7%D9%84%D8%A3%D9%85%D9%84-%D8%A7%D8%AA%D8%AC%D8%A7%D9%87%D8%A7%D8%AA-%D8%AF%D8%B9%D9%85-%D8%A7%D9%84%D8%AE%D8%B7%D8%A7%D8%A8-%D8%A7%D9%84%D8%AF%D9%8A%D9%86%D9%8A-%D8%A7%D9%84%

16. محمد عمارة. (2004). *الغرب والاسلام اين الخطا ؟ واين الصواب ؟* (المجلد الاولى). القاهرة: مكتبة الشروق الدولية.

17. منير شفيق. (1983). *الاسلام في معركة الحضارة* (المجلد ط3). بيروت: دار الكلمة للنشر.

سؤال الأخلاق في ظل جائحة كورونا: قراءة في الأزمة الإيتيقية الراهنة

أ.د صباح قلامين
جـامعة الجـيلالي بـونعـامة بخـميـس مـليـانـة مؤسسة/ مخبر التربية والابستيمولوجيا بالمدرسة العليا للأساتذة- بوزريعة/
sabahguelamine@hotmail.com
فتيحة جلاب
جـامعة الجـيلالي بـونعـامة بخـميـس مـليـانـة مؤسسة/ مخبر التربية والابستيمولوجيا بالمدرسة العليا للأساتذة- بوزريعة/
djellab@univ-dbkm.dz
أسماء عامر
جـامعة الجـيلالي بـونعـامة بخـميـس مـليـانـة مؤسسة/ مخبر التربية والابستيمولوجيا بالمدرسة العليا للأساتذة- بوزريعة/
Asma.Ameur@univ-dbkm.dz

ملخص الدراسة:

نحاول من خلال هذا البحث إعادة طرح سؤال الأخلاق بغية كشف الوجه الآخر لمخلفات جائحة كورونا التي تعدت الجانب الصحي والاقتصادي والبيئي وصولا إلى الجانب القيمي، أين سنقدم مساءلة للمنظومة الإيتيقية في ظل جائحة كورونا، حيث لمسنا في الزمن الوبائي الحالي بروز أزمة إيتيقية مست منظومة القيم والأخلاق تهاوى معها شعار الحريات المطلقة، وزالت على إثرها قيم التعاون والتعايش التي تغنى بها الأفراد دولا وشعوبا لقرون، فانتشرت الكراهية وانهارت قيمة الإنسان تماما وتفاقمت الهوة بين الأنا والآخر، حيث أصبح هذا الأخير يشكل جحيما للأنا، فصاحب تلك الكراهية غياب تام لمفهوم المسؤولية الأخلاقية وبروز طابع نفسي جديد سُمي الخوف السائل.

الكلمات المفتاحية:

سؤال الأخلاق، جائحة كورونا، الأزمة الإيتيقية.

مقدمة:

إن المتتبع لمسارات الوضع الحالي الذي فرضته جائحة كورونا على الإنسان المعاصر لن يخفى عليه الانعطاف الحاسم الذي أصاب حياة الإنسان ككل، خصوصا بعد خروج الوضع الصحي عن السيطرة ما جعل الأفراد يعيشون في جميع أنحاء العالم فترات صعبة من جراء استمرار انتشار فايروس كورونا وتزايد أعداد الإصابات والوفيات، واضطر العديد من الأشخاص إلى العيش في عزلة ذاتية، وكان لهذه العزلة تأثير كبير على المعاملات بين الأفراد، أدت إلى حدوث تغيرات كبيرة مست كل جوانب الحياة عند الإنسان المعاصر وخاصة الجانب الثقافي والبعد الإيتيقي.

وفي عز هذه المتغيرات التي فرضتها جائحة كورونا على المستوى الإيتيقي، كان من الضروري إعادة طرح الأسئلة الأخلاقية بحدة، وهذه المرة داخل المستشفيات وفي العلاقات بين الدول في ظل جائحة كورونا بغية توضيح العلاقة بين الضرورات الصحية والمبادئ الأخلاقية مثل مبدأ الحق في الحياة والسلام العالمي بين الدول.

وعليه، أدّت موجة كورونا إلى إحداث تغيير عميق في المفاهيم خصوصا الأخلاقية منها، كل هذا يدعونا إلى إعادة تأمل الأسئلة المتعلقة بالأخلاقيات في زمن الأوبئة، وبهذا نجد أنفسنا اليوم ملزمين بإجراء قراءة إبستيمية بنظرة معاصرة ملحّة للبحث العميق في انعكاسات جائحة كورنا على المنظومة الإيتيقية، لتوضيح الجدل الذي أثير حول الكرامة والأخلاق والقيم الإنسانية في ظل الوضع الوبائي، وعلى إثر ما تقدم يستوقفنا طرح الإشكال التالي: **كيف انعكست جائحة كورونا على المنظومة الإيتيقية للإنسان المعاصر؟ وهل سنكون أمام عالم قيمي جديد، تسود فيه قيم أخرى من وحي مخلفات جائحة كورونا؟**

1 -فلسفة المنظومة الإيتيقية قبل جائحة كورونا

إن تعزيز الإيتيقا في المجتمع هو تعزيز للديموقراطية ومرافقة لها، واستغناء عن الرقابة والعقاب بما يخدم المواطن الإيتيقي والفرد الأخلاقي، وقد سعت مختلف

النظريات الفلسفية كلاسيكية كانت أو معاصرة لتوطين هذا الأثر الأخلاقي في المعاملات الحياتية للإنسان، حيث رسم فلاسفة اليونان سابقا الطريق نحو العيش معا في إطار إيتيقي قوامه السلام والتفاهم من خلال تكريس الفضيلة والخير والسعادة، بدءا من سقراط (470ق.م- 399ق.م) الحكيم الذي تندرج كل حكمه واجتهاداته الفلسفية الإيتيقية في سبيل ارتقاء الإنسان بفضائله وقيمه، وهو النحو الذي استثمر فيه أفلاطون (427ق.م- 347ق.م) الذي أقام موازنة بين طبقات المجتمع وأعضاء الجسد وأسقطها على السلم الأخلاقي.

وقد حاول سقراط قديما تحديد قواعد منظومة إيتيقية متكاملة حينما قال إن الخير هو السعادة، لأنه يُعتبر من الأشياء التي تحقق النفع للإنسان، حيث اعتبر سقراط أن كل عمل أخلاقي الهدف منه هو تحقيق السعادة، وبالتالي الغاية والباعث في الإيتيقا السقراطية متلازمان، أو هما شيء واحد، ونفس الطرح أبانت عنه نظرة أفلاطون الأخلاقية حينما نتطرق إلى ماهية الخير الأسمى عند أفلاطون نجدها منسجمة إلى أبعد الحدود مع نظريته المتعلقة بالمثل، وبالتالي" فالوجود الحقيقي عند أفلاطون هو وجود الصور، فكل ما يتصل بهذا الوجود إذن هو وحدة الوجود الحقيقي، أما ما يتعلق بالوجود المحسوس فلن يكون خيرا بالمعنى الصحيح" (بدوي، 1984، صفحة 180) فحسب أفلاطون كلما ابتعدت النفس البشرية عن الجسم المحسوس واتصلت بالصور كان الإنسان محققا لدرجة أكبر من الخير والفضيلة.

إضافة إلى ذلك فقاعدة المنظومة الإيتيقية الأفلاطونية ترتكز على قيمة "الفضيلة" التي قسَّم بحسبها أقسام النفس إلى ثلاث أقسام مرتبة ترتيبا عادلا، عكس ما قال به سقراط الذي اعتبرها واحدة، لكن هذا الأمر لا يُعَدّ خروجا مطلقا عن النص السقراطي من طرف تلميذه أفلاطون، مادام قد وضّح هذه النقطة بقوله:" مهما اختلفت الفضائل فهي ليست إلا أسماء لفضيلة واحدة. وعلى هذا فإنه حتى ولو قال بتعدد الفضائل، فإن لديه في آخر الأمر فكرة وحدة الفضائل قائمة باستمرار" (مرحبا، 1983، صفحة 181) فتكون الفضيلة من هذا المنطلق الأفلاطوني هي العمل الحق، على أن يكون العمل صادرا عن معرفة

صحيحة بقيمة الحق، وهذه هي الفضيلة بالمعنى الإيتيقي التي تقوم على الروية والتفكير وعلى فهم المبدأ الذي ينبثق عنه السلوك.

ويضيف عبد الرحمن مرحبا قائلا "هناك تصوران للأخلاق قديم وحديث، فإما التصور القديم ونعني به الأخلاق عند اليونان فهو مطبوع بطابع السعادة أي أن أخلاق اليونان إنما هي أخلاق سعادة" (مرحبا، 1983، صفحة 204) ومعنى هذا أن الأخلاق اليونانية تختلف عن الأخلاق الحديثة، ولاسيما ابتداء من إيمانويل كانط (1724- 1804)، لأن هذه الأخيرة هي أخلاق واجب، أما الأخلاق اليونانية فهي أخلاق سعادة، ويواصل مرحبا موضحا الفرق بين التصور الإيتيقي القديم والتصور الحديث قائلا:" فعلى حين أن قاعدة السلوك عند كانط تقول:" افعل هذا لأنه واجبك". فإن الأخلاق اليونانية تقول:" افعل هذا لأنه يؤدي إلى سعادتك" (مرحبا، 1983، صفحة 204)

ومن منطلق هذه النقلة النوعية في التصور الإيتيقي بين الفلسفات الكلاسيكية والحديثة تحملنا الضرورة أيضا من الوقوف على التصور التقدمي الإيتيقي الذي صاغه الفيلسوف الألماني إمانويل كانط في تناوله لمسألة الوعي الإنساني الفردي في توغله التصاعدي نحو المثال الأخلاقي الأرفع، وقد كان صاحب الثلاثية النقدية الشهيرة يتصور الحياة الإنسانية مسرحا للإنجازات الارتقائية التي تجسد المعنى الأسمى للقيم في الطبيعة البشرية، فللإنسان إمكانية أن يحقق ما انفطر عليه كيانه من إمكانيات التهذيب الخلقي والفكري والروحي، فينتقل من حال العراء التهذيبي الأولى إلى حال الاكتمال الكياني الأشمل، وذلك على قدر ما يهتدي بإرشادات العقل، من أجل بلوغ الهدف الإنساني الأسمى. (علون، 2020، صفحة 15)

ويقف كانط في إطار تأسيسه لمنظومة إيتيقية من منطلق الواجب الأخلاقي من أجل الواجب، ليعتبر أنّ الفعل ليكون حسنًا من الناحية الأخلاقيّة لا بدّ أن يتّصف بأمرين أساسيّين هما أولا: الإرادة الحية: فهذه الأخيرة تعتبر المفتاح الأساسي في رؤية كانط الأخلاقية، حيث يقول إنّه "لا يوجد شيء يمكن عَدُّه خيرًا على وجه الإطلاق إلا شيء واحد هو الإرادة الخيرة" وتتصف بأنها إرادة حية لأنّ إرادة الإنسان متأثّرة إمّا بالحسّ أو بالعقل اللذين يؤثّران بشكل مباشر بإرادة الإنسان واختياره. والثانية

الإرادة الحرّة عند كانط هي التي تكون خاضعة لسلطة العقل العملي المسؤول بحسب رؤية كانط عن تحديد ما ينبغي وما لا ينبغي. والإرادة الخيرة ذات قيمة ذاتية، بمعنى أنه لا تكون حية بما تحدثه من أثر، أو بما تحرزه من نجاح، بل إنّها تكون كذلك عن طريق فعل الإرادة وحده فهي حية في ذاته. ولكن هذه الإرادة الحية لوحدها لا يمكنها أن تؤدّي الغرض الأخلاقي المطلوب منها، بل لا بدّ أن يعيّنها قوّة طبيعيّة مفطورة في الإنسان موجودة في داخله، هي التي تبعث في إرادة الخير، ويُسمّيها بالواجب (ناصر، 2020، الصفحات 239-240)

والواجب كطبيعة مفطورة في الإنسان حسب كانط يُعتَبر ذلك الشعور الوجداني الباطني الموجود في داخل كل إنسان، والذي يجعله يشعر بالتأنيب واللّوم عند قيامه بالأعمال السيّئة. والفعل الأخلاقي عند كانط هو الذي يكون موافقًا للواجب ويسمّيه "بقانون الأخلاق" ويحدّد له ثلاثة مبادئ أساسيّة:

الأوّل :أن يُؤَدّى الفعل عن شعور بالواجب فقط لا عن ميلٍ أو أيّ شعورٍ آخر، فالتاجر الذي يعامل زبائنه بأمانة لكي يزداد ربحه لا لأنّ الواجب الأخلاقي يتطلّب منه ذلك، لا يُعدّ عمله أخلاقيًّا.

الثاني: أن يَصدُر الفعل بنيّة أداء الواجب، لأنّ القيمة الأخلاقية عند كانط مرتبطة بمنبع الفعل وأساسه أي النية لا بالغاية المتوخّاة منه، فالتلازم ينبغي أن يكون قائمًا بين القيمة الأخلاقية والنية، فلا يكفي أن يكون العمل منسجما مع القانون فقط، فالتاجر الذي لا يغش لأجل المحافظة على مصالحه، والشخص الذي يعطف على الآخرين لكي يقال عنه إنّه محبّ للخير، هما ليسا في الحقيقة من أصحاب الفضيلة الأخلاقية، لكون نيتهما غير مطابقة لمبدأ الواجب ولا نابعة منه.

الثالث :أن يُؤَدّى الفعل بخلفيّة احترام القانون، وهي بمثابة النتيجة المترتّبة على المبدأين الأوّلين. فالأفعال تكون أخلاقيّة عنده عندما تتم لأجل احترام القانون الأخلاقي، وليس لأيّ هدف أو غاية أخرى. (ناصر، 2020، الصفحات 240-241-243)

وما هذه القوانين الأخلاقية إلا دستورا من أجل الإنسانية ككل، ولهذا لن يحظى السلوك بالسمة الأخلاقية بتعبير كانطي إلا حين يثبت جدارته بالمحبة والوداد لا بالحقد والتنافر، مادامت الأخلاق لا تنجز هويتها إلا حين تنصف الناس في

رباط الانتماء الإنساني. ولعلّ هذا ما يجعل المحبة من بين المقتضيات المحددة للفعل الفاضل إلى جانب العدل، بخاصة حينما يتعلق الأمر بمجال الأفعال والمعاملات، غير أنّ المحبة بما هي انتصار للحياة على إرادة الجور والقساوة، هي تجسيد لفعل الالتزام، فعلى قدر ما يصون الإنسان هذا المقتضى، تأتي أحكامه ملائمة للفعل الفاضل، ومن ثم فإنّ الإنسان الذي يقترن وجوده بالكمال، لا بد أن يجعل هذا الكمال يليق بمقام انتمائه إلى الإنسانية. (الدريدي، 2017، صفحة 23)

أما إذا عدنا إلى المقاربة العربية في مجال فلسفة المنظومة الإيتيقة نجدها متشبعة بروح الدين الإسلامي الذي يخدم تحقيق الإنسان لإنسانيته على وجه كامل، حيث تُعنى الإيتيقا العربية الإسلامية بكل ما هو ذو شأن إنساني، يرسم صورة الإنسان بوصفه كائنا أخلاقيا في علاقته بذاته التي ترنو إلى حيازة الكمال، وبالآخرين بوصفه شرطا للاعتدال في جميع أموره معهم، في عفته ضد فجوره، وقناعته ضد شرهه، وحلمه ضد جوره، ووفائه ضد غدره. فلا غرابة إذا أن ننشد الفضيلة بقدر ما ننبذ الرذيلة، لأن الإنسان كما يقول الحسن ابن الهيثم (965م-1040م) صاحب كتاب مقالة في الأخلاق: "من بين سائر الحيوان ذو فكر وتمييز. فهو أبدا يختار من الأمور أفضلها، ومن المراتب أشرفها، ومن المقتنيات أَنْفَسَها إذا لم يعادل عن التمييز في اختياره، ولم يغلبه هواه في اتباع أغراضه وأولى ما اختاره الإنسان لنفسه، ولم يقف دون بلوغ غايته ولم يرض بالتقصير عن نهاية تمامه وكماله. (ابن الهيثم، 1981، صفحة 108)

لو أمعنا النظر في متون ابن الهيثم من هذا الجانب لوجدناه يقرّر أن الشرائط التي وجب أن يتوسلها الإنسان لابد أن تتجاوز التنظير لتصير أفعالا لها تأثيرات في أمثاله وأغياره من الخلق في تطلعاتهم ومصائرهم، لأنه ينبغي لمحب الكمال أيضا أن يُعَوّدِ نفسه محبة الناس أجمع والتودد إليهم والتحنن عليهم والرحمة لهم، فإن الناس قَبيل واحد متناسبون تجمعهم الإنسانية، ويعني هذا بعبارة أخرى أن الفضائل ليست تمثلات يعتنقها الإنسان فحسب، بقدر ما هي تدابير عملية متصلة بالحياة وبالآخرين، بل قل إن النفس لا يمكن أن تحوز تمامها وكمالها وتستولي على الممكن الذي فيها إلا بقدرتها على تجسيد تلك القيم الإنسانية في صميم الحياة حتى لا تقع فريسة وهم إمكان الاستغناء عن الأفعال بالألفاظ.

ويفترض هذا ضمنيا الاعتراف بقيمة الاجتماع الإنساني وضرورته، وبحاجة الناس إلى بعضهم بعضا، ومن أجل ذلك فإن الفضائل ليست صورا ثابتة وصيغا نهائية، بل بواعث إلهام، ودواعي توجيه والتزام لا قيمة لها إلا إذا أضحت أفعالا ومعاني حية متأصلة في صميم الواقع الإنساني متحققة فيه. (الدريدي، 2017، صفحة 22)

وفي هذا الموضع يؤكّد ابن الهيثم وحدة الجنس البشري وضرورة تلاحمه وتآزره وتعاونه، فلكي يبرز خطورة عوامل الفرقة والتباعد والتنافر فلا عجب إذًا في أن تكون الغلبة دائمًا للالتقاء بالوداد والمحبة، ويكون الوهن من نصيب دواعي التنافر، غير أنّ هذه الإنسانية التي تضطرّنا إلى الاعتصام بالوداد والمحبة لا ينبغي أن تلغي الاختلاف، بل هي التعبير الأرحب عن تقابل الأضداد وائتلافها في أفق ما يوحدهم، لأن البشر فيما يرى ابن الهيثم حتى وإن تباينوا واختلفوا فإنهم بالحقيقة شيء واحد، فواجب أن يكونوا كلهم متحابين متوادين، ومن جراء هذه الوحدة، فإن التعامل بين الناس من خلال مختلف العلاقات التي تنشأ بينهم بسبب هذا الاجتماع أمر لا يمكن التغافل عنه، وأشد ما يحتاج إليه الناس لتمتين أواصر اللقاء وتوثيق عرى الاجتماع هو المحبة، لأن الناس كما يقول ابن الهيثم:" إنما يكونون فضلاء أو نقصاء: فالفضلاء يجب عليه محبتهم لموضع فضلهم، والنقصاء تجب عليه رحمتهم لموضع نقصهم، فبحق يجب لمحب الكمال أن يكون محبا لجميع الناس، متحننا عليهم رؤوفا بهم". (الدريدي، 2017، الصفحات 22-23)

ويؤكد كذلك الحسن بن الهيثم أن مهمة الإنسان الإيتيقية هي أن يضطلع بمهمته بما هو إنسان، أي أن يعود إلى نفسه ويستفرغ الوسع في طلب تمامه لأنه الكائن الوحيد الذي ينطوي كيانه على هم استكمال نفسه، ولأنه لا إحسان أفضل من إحسان من جاد بالأفضل، ولا شيء أفضل للإنسان مما يصير به ذاته على أفضل أحوالها، فالواجب إذا ليستقيم له ذلك أن يجتهد كل الاجتهاد في تكميل نفسه حتى يكون جديرا بإنسانيته. ولهذا نجد ابن الهيثم يقول حين يختتم مقالته في الأخلاق:" وقد قدمنا ما يجب تقديمه من سياسة الأخلاق وتهذيب النفوس، فما أولى من نظر في هذا القول وتصفحه، وفهم مضمونه وتدبره، أن يأخذ نفسه باستعمال ما يبين تضاعيفه، ويجتهد كل الاجتهاد في تكميل نفسه،

ويستفرغ غاية الوسع في طلب تمامه، فما أقبح النقص بالقادر على التمام، والعجز بالممكن من الكمال" (ابن الهيثم، 1981، صفحة 145)

وإذا صحّ أنّ الأمر كذلك، يمكن أن نستنتج أنّ دراسة ابن الهيثم مشكلة الأخلاق قد اقتادته في نهاية الأمر إلى القول بضرب من الإيتيقا الإنسانية التي تمثّل مستوى خاصًّا من الخبرة يصبح معها الكمال ضربًا من القدرة على التساكن والتعايش الحكيم في إطار اجتماع إنساني فاضل يقوم على أساس العدل والمحبة، ويكشف هذا التعايش بطريقة ما عن جوهر الفعل الأخلاقي في فكر ابن الهيثم الذي يشير إلى إنتاج عقلاني أو مطابق للعقل، كما يشير إلى غائية هذا الفعل التي تنشد ضربًا من "التآنس" بعبارة عبد الرحمن ابن خلدون (1332م- 1406م).

ما يمكن استخلاصه من هذه القراءة في فلسفة المنظومة الإيتيقية قبل وباء كورونا هو أن كل المدارس الأخلاقية وضعت راهنية الاحتواء الأخلاقي لحياة الإنسان نصب عينيها، كونها صبت إلى نشدان الكمال ومعالجة الفساد في علاقات الأفراد بعضهم ببعض، فعملت على تكريس مبدأ السعي وراء الوصول إلى الفضيلة والدعوة إلى تحقيق الخير الأسمى وأخلاق السعادة منذ ميلاد الفلسفة الأخلاقية اليونانية، وصولا إلى الفلسفة الحديثة التي أخذت على عاتقها التفرد في الجانب الأخلاقي بعد ذلك الانحطاط الذي شهدته المنظومة القيمية في العصور الوسطى التي عرفتها أوروبا، فكان شعار الواجب من أجل الواجب سمة الإصلاح في مبحث القيم، أما ترسانة الإيتيقا العربية الإسلامية كفلسفة حياة أخذت على عاتقها تلطيف جو التعايش السلمي بين الأنا والآخر في ظل سنة الاختلاف وهذا ما لمسناه في الفلسفة الإيتيقية لابن الهيثم.

والملاحظ أيضا أن هذه النظريات الإتيقية كانت حاضرة في حياة الإنسان في شكل قيم حداثية يسير على خطاها حتى ولت مثل الدستور الأخلاقي الذي يلجأ إليه الأنا في تعاملاته المجتمعة، لكن مع ظهور فايروس كورونا المستجد نتساءل: **هل سيؤدي انتشار الوباء إلى التغيير الجذري في مبادئ تلك المنظومات الإيتيقية التي قدمناها آنفا أو سيعمل على إبطالها تماما أو تعطيلها لفترة زمنية معينة؟**

2. معالم الأزمة الوبائية الكورونية الإتيقية

متى ظهر فايروس كورونا؟ إنه السؤال الذي لا يزال يردده الخبراء ومعهم وسائل الإعلام الدولية لاسيما مع ظهور تصريحات تتحدث عن فرضية وجود إصابات قبل شهر ديسمبر، تاريخ إعلان الصين عن ظهوره، وتصب هذه الفرضيات لصالح جهات من بينها الولايات المتحدة الأمريكية التي اتهمت الصين بأنها أخفت حقائق مرتبطة بهذا الوباء، (غبشي، 2020، صفحة amp.france24.com https //ar/20200507 ://)) وكلف هذا التستر العالم ثمنا غاليا، حيث ازداد تفاقم الوضع بسبب العدوى التي تناقلها الأفراد من خلال الرحلات الجوية من بلد إلى آخر، هذا ما جعل الأزمة عالمية تخطت حدود مدينة ووهان الصينية، ومن هذا المنطلق بدأ تسارع انتشار الفايروس خلال النصف الثاني من شهر يناير/ جانفي، وليتأكد بعد ذلك حقيقة أن الوباء معدٍ وينتشر بسرعة كبيرة.

ففايروس كورونا حسب المعلومات المتداولة هو عبارة عن سلالة جديدة من الفيروسات التي يمكن أن تصيب البشر وتسبب لهم أمراضا في الجهاز التنفسي، سواء التي تكون خفيفة مثل نزلات البرد أو شديدة مثل الالتهاب الرئوي، وينتقل الفايروس من شخص مصاب إلى آخر عن طريق التواصل المباشر أي عن طريق لمس سطح مصاب ثم الفم أو الأنف أو العينين، لذا توصي كل الجهات المهتمة بالصحة والوقاية ومعالجة الأمراض المعدية باتباع شروط النظافة الشخصية وحتى نظافة المحيط وجعلها من الممارسات اليومية، كما تؤكد على ضرورة ارتداء الكمامة وتجنب المصافحة وممارسة التباعد المكاني.

وما يجب التنويه إليه أن كل هذه الإجراءات تعتبر وقائية وليست علاجية لمخلّفات هذا الوباء، فالعلاج لحد الآن لم يظهر إلى الواجهة رغم مبادرات بعض الدول وتأكيدها الوصول إلى لقاح للفايروس لكن لا شيء مؤكد لحد الساعة، وهذا ما جعل الوضع يأخذ جدية أكبر ما استلزم فرض قيود مختلفة على إنسان هذا العصر، من بينها ضرورة الالتزام بالحجر الصحي، فالبقاء في المنزل أصبح ضرورة قصوى بغية تجنب التجمعات، سواء كانت تجمعات مهنية أو دراسية مع تعليق الرحلات، فدخل العالم بذلك في دائرة مفاهيم جديدة فرضت وضعا

خاصا، أدخلنا في أزمة على مستوى القيم جعلت الإنسان يعيد تشكيل منظومة إيتيقية تتلاءم والوضع الوبائي الحالي.

والملاحظ أن هذا الكائن المجهري كسر شوكة الكثير من فلسفات المنظومة الإيتيقية التي عملت على تقريرها جل المدارس الأخلاقية، وأظهر مرونة نصيب منها كما أعاد في نفس الوقت الاعتبار للبعض الآخر نخص بالذكر فلسفة القوة، حيث لمسنا كيف نفخ كورونا الكائن غير الحي غريزة حب البقاء والتمسك بالحياة في ملايين البشر على حساب بعضهم بعضا، وعبث الوسواس القهري وهوس الوقوع في شراك هذا الوحش الخفي بعقول جميع الأجناس البشرية، باختلاف ألوانها ومستوياتها المعيشية فسقط بذلك مسعى ضرورة التعايش الإنساني، ويقرّ الفيلسوف الفرنسي إدغار موران (1921م) في هذه النقطة بأنّ مسار الحداثة انتهى بالمجتمعات إلى تدهور بنيات التضامن التقليديّة، وأنّ استعادة أنواع التضامن هذه، بين الجيران وبين المواطنين، وبين الآباء والأبناء الذين توقّفوا عن الدراسة في المؤسّسات التعليميّة، صارت من أكبر التحدّيات الطموحة للمجتمع، وحتى على المستوى الدولي يضيف موران: إنّ الجائحة كشفت عورة العولمة، التي بدت في شكل ترابط وتبادل خالٍ من التضامن، إذ اتّجهت حركتها إلى التقنيّة والاقتصاد في حين فشلت في أن تعزّز التفاهم بين الشعوب، إذ أظهر الوباء حجم الأنانيّة والانغلاق الذي تبديه كلّ أمّة على حدة (سعد، 2020، صفحة 177)

ومع غياب كل معنى للتضامن كما أقر موران أعلاه، أُعيدَ إلى الواجهة مصطلح التمييز العنصري الذي ضرب المنظومة الإيتيقية في الصميم وعَمَّق الأزمة الحالية، خاصة عندما نلمح المعاملة البشعة والتمييز المجحف بين الناس، وكشفت هذه الحالة عن خلل كبير في منظومة القيم التي تدير حياة الناس في الدول في حالة الكوارث، حتى في الدول المتقدمة والغنية التي تفتخر بتطبيق ومراعاة حقوق الإنسان، ولو تفحصنا سبب هذا الخلل وهذه الكارثة القيمية والأخلاقية فسيكون الجواب بكل تأكيد غياب معيار عادل ومنصف لجميع الناس لا يحابي فئة على حساب فئة أخرى، سواء كان المعيار السن أو الصحة أو المال أو النسب أو البشرة أو العرق أو غيرها من المعايير.

كما أن هذه الأزمة الصحية أبانت كذلك أزمة أخلاقية من خلال الكشف عن عنصرية مقيتة لا تزال تعشعش في أذهان الكثيرين، وكشفت الستار عن النزعة الاستعمارية التي لا زالت تشكل عند البعض الزاوية التي ينظر منها إلى الآخرين بتكبر واستعلاء. وأن نظرية" العرق الأسمى" و" الداروينية الاجتماعية" لا تزال عقيدة البعض ممن يعتبرون من "النخبة" داخل المجتمعات الغربية. فقد شاهدنا - بامتعاض كبير- الخرجة الإعلامية المهينة لاثنين من كبار الباحثين الفرنسيين في مجال الطب، أحدهما يشغل منصب مدير الأبحاث في المعهد الوطني الفرنسي للصحة والبحوث الطبية، المعروف اختصاراً باسم INSERM، والذي يُصنف على أنه ثاني أفضل معهد في مجال البحوث الطبية على مستوى العالم، وكيف أعلنا على الهواء مباشرة في برنامج تلفزيوني على قناة فرنسية اقتراحا بأن تكون إفريقيا مختبرا لتجريب لقاح فايروس كورونا المستجد، مبررين سقطتهما الأخلاقية هذه بافتقار القارة السمراء إلى الموارد الضرورية واللازمة لمكافحة الفايروس. (الزورى، 2020، صفحة https://www.aljazeera.net/blogs)

إضافة لما سبق يؤكد يورغن هابرماس (1929م) أن حدث كورونا وحالة الهلع الناتجة عنه يمكن أن تغري بانتهاك مبدأ المساواة الصارمة في المعاملة، من دون النظر إلى الوضع الاجتماعي والأصل والسن وما إلى ذلك، وبالتالي الإغراء بمساعدة الشباب على حساب المسنين، وحتى ولو وافق المسنّون في موقف أخلاقي من نكران الذات، فمن ذا الذي يمكن أن يفاضل بين حياة إنسان وآخر؟ وكيف يعطي الطبيب نفسه الحق في اتخاذ قرار الحياة والموت؟ (محفوض، 2020، صفحة 137)

وعليه فمع بروز معالم الأزمة الكورونية سيكون الإنسان وجها لوجه مع متغيرات جديدة على كل المستويات ونخص بالذكر بروز قيم جديدة هي من مقتضيات المرحلة، حيث طغت قيم تنم عن أنانية وعنصرية مقيتة، يبحث الإنسان من خلالها عن مصلحة شخصية وفق رؤية قاصرة وضيقة على حساب مصلحة المجموعة أو العائلة أو المجتمع أو حتى الإنسانية، كناية عما عرفه العالم وما زال من تهديد للأخلاق وتحطيم للمعايير والقيم الإنسانية، وسقوط مريع لأفراد ودول وجماعات ومنظمات رسبت في اختبار "فايروس كورونا" الأخلاقي الذي كشف

وما زال يكشف حقائق قيمة الإنسان في نظر تلك المجتمعات والثقافات والدول التي سقط الستار عنها.

كما كشف أيضا فايروس "كورونا" وبقوة، أن نظريّة المؤامرة قد عادت لتبلغ الذروة وكشف كلّ معاني التآمر ومعاييره وتدريجاته، بالإضافة إلى انعكاسه على الإدارة المتآمرة عينها بصورة سلبيّة وقاتلة للغاية. نتيجة لذلك، سقط السعي الأميركي إلى الأحاديّة المطلقة في حكم العالم، وفَرْض أنظمتهم وعقوباتهم على الناس والدول والمنظمات والأشخاص، ويخطّطون لتغيير أنظمة انتهى تاريخ صلاحيّة وظيفتها ودورها بالنسبة إليهم، ثم يقتلون شخصيات سياسيّة واقتصاديّة مع نهاية تواريخ الصلاحيّات حتى لا ينكشفوا، ويتحكمون بأنظمة يجعلونها مطاوعة لهم، ثم يصدرون الجراثيم والفيروسات مستهدفين دولاً محددة وشعوبها، إلى أن سقطوا في الجب على قاعدة أن طابخ السم آكله. (الحاج حسن، 2020، صفحة 60) بالإضافة إلى أن المؤامرة وضعت في أجندتها تقديم المصلحة الاقتصادية على حماية الإنسان أولوية وذلك خوفا من كلفة وآثار وضغوط توقف عجلة الحياة والتباعد كشرط للحد من انتشار الفايروس على ميزانياتهم، بالإضافة إلى تبادل التهم بسبب حرب الحصول على المستلزمات والاحتياجات الطبية دون النظر إلى الحاجة الماسة للشعوب والمجتمعات الأكثر تضررا، وتخاذل أعضاء المنظومة الواحدة عن مساعدة بعضهم البعض لتطغى الفردية في التعامل، مع إثارة بعض الأفراد للإشاعات والكذب ونشر الأخبار الكاذبة.

3. في ضرورة إقامة مقاربة بين سؤال الأخلاق وجائحة كورونا

فرض وباء كورونا وجوده بشكل حتمي في حياة الإنسان المعاصر خصوصا وأن سبل الخلاص منه لم تتّضح معالمها بعد، فغدا التعايش مع هذا الوباء واقعا مفروضا علينا، ولذا من الضرورة الملحة إقامة مقاربة بين المدارس الأخلاقية وجائحة كورونا، ونقصد هنا إقامة مقاربة للمنظومات الإيتيقية المرنة التي قدمت استثناءات في مجال الأخلاق صالحة لكل زمان ومكان، بغية الاستفادة من أهم مبادئها التي رسختها قواعد يعاد تنشيطها في زمن الأوبئة، خصوصا ما تعلق بمبادئ حماية النفس دون الإخلال بالميزان الإيتيقي الذي تتكئ عليه الجماعات الإنسانية في عيشها المشترك، في هذا الموضع يستوقفنا الطرح التالي: **هل ستتم**

حماية النفس في ظل جائحة كورونا دون الإخلال بمبدأ الفضيلة السقراطية ومُثُل الخير الأسمى الأفلاطوني والواجب من أجل الواجب الكانطي؟

للإجابة على هذا السؤال لابد من العودة إلى تفكيك هذه المبادئ الفلسفية التي تدعم حماية النفس من المخاطر كونها تتميز حقيقة بالمرونة التي تجعلها آهلة لحياة الإنسان خصوصا في زمن الأوبئة دون الإخلال بجوهر المنظومة الإيتيقية، فالمبدآن المشهوران في تاريخ الفلسفة الأخلاقية اللذان يظلان الأكثر نجاعة للتصدي ومواجهة الوباء في ظل الخطر الذي يتهدد البشرية جمعاء هما المبدأ الأول لسقراط:" **أيها الإنسان اعرف نفسك بنفسك"**. والمبدأ الثاني لكانط: **"تصرف على نحو تعامل فيه الإنسانية في شخصك كما في الأشخاص الآخرين، دوما وفي نفس الآن كغاية دائما وأبدا وليس مجرد وسيلة**". (الشداوي، 2020، الصفحات 106-107)

ويبدو المبدأ السقراطي:" أيها الإنسان اعرف نفسك بنفسك" قريبا من المبدأ الكوروني" احم نفسك من العدوى بنفسك". وبمقارنة هذا المبدأ مع اللازمة الكونية لمكافحة الوباء" الزم مكانك"، وعندما تسأل غوغل باللغة الإنجليزية السؤال what is coronavirus? يجيبك في أول سطر: الوقاية "prevention" والوقاية ترتكز على مبدأ:" احمِ نفسك والآخرين من حولك بمعرفة الحقائق واتخاذ الاحتياطات المناسبة يفيد: التباعد الاجتماعي بعدما تبين أنه جد فعال في عدم انتقال العدوى من شخص لآخر. (الشداوي، 2020، صفحة 107)

فالناظر إلى جائحة كورونا من زاوية الفكر السقراطي، يستنتج راهنية هذا الفكر وحيويته في مواكبة الوجود البشري على مر التاريخ. كما لا تحيد القاعدة الأخلاقية لكانط عن نظيرتها السقراطية، لكونها قريبة من القاعدة الصينية، والتي مفادها: "تعامل مع أي شخص على أنه مصاب، وتصرف أنت مع كل الأشخاص على أنك مصاب". (الشداوي، 2020، صفحة 107)

لكن الملاحظ أن رغم ما تقدمه المنظومة الإيتيقية من مبادئ سواء قبل جائحة كورونا أو في ظلها إلا أن الإنسان المعاصر أخذ على نفسه عدم الالتزام بهذه المبادئ كونها لا تخدم المصلحة الشخصية لهذا الفرد، وحتى الدول التي تروج لهذه المبادئ اتخذت منها مجرد شعارات لا تلامس الواقع، وحتى لا نعمم هناك

بعض الأفراد الذين أخذوا الأمر بجدية ووضعوا هذه المبادئ الإيتيقة ممارسة يومية يحمي على إثرها نفسه والآخر، لكن لم يدم الأمر طويلا، لأنه حتى وإن أراد الحيطة من الفيروس بالاعتماد على ذاته لتجنب المرض فلن يُترك له المجال ليقرر بذاته، فهناك من يحدد له شروط الوقاية.

ومن هذا المنطلق أصبح الإنسان مقيّدا بمنظومة إيتيقية تفرضها جهة مختصة في الصحة الجسدية وليس الروحية والنفسية، ويتعلق الأمر بمنظمة الصحة العالمية، حيث فرضت عزلا منزليا إجباريا كبيرا قارب خمسة ملايير من البشر بحظر التجوال في ساعات محددة، وقد ترتب عن هذا القرار سن الدول مجموعة من القوانين الزجرية، لها من السلطة ما يسوغ لها إجراء المحاكمات وإصدار الإدانة وتنفيذ الأحكام، بدعوى محاصرة الوباء، وإن ما يحدث من خلل في إيتيقا الإنسان المعاصر في ظل جائحة كورونا يشبه ما شخصه مشيل فوكو في كتابه **المراقبة والعقاب**، عن طريق الدولة في معالجة وباء الطاعون بوصفه نموذجا سائدا لمنطق الحجر الصحي: إخلاء الشوارع والساحات من البشر، حيث لا يحق التجوال إلا للشرطة أو الجيش، وقرار مثل هذا يبدو الفرد من خلاله قاصرا، أمام من يظهرون بمظهر القادر على حمايتهم من الموت، وأن المصابين العزل بالمستشفيات لم يسمح لأقاربهم وأصدقائهم برؤيتهم، كما أن الموتى منهم، حرموا من فرصة الوداع الأخير.(الشداوي، 2020، الصفحات 107-108)

ويبدو أن فلسفة المنظومة الإيتيقة بتبنيها لسؤال الأخلاق على مر العصور وتكريسها لمبادئ مرنة كالفضيلة والخير الأسمى والواجب والتعايش السلمي في ظل الاختلاف، تتوافق نظريا مع مبادئ المنظومة الإتيقية الكورورنية" احمِ نفسك من العدوى بنفسك" و" الزم مكانك" و" تعامل مع أي شخص على أنه مصاب بالابتعاد عنه"، لكن عمليّا لم تكن هذه المبادئ أو تلك موجودة في سلوكيات الفرد الكوروني، حيث ظهرت تقارير تؤكد أن الكثير من الحاملين لفايروس كورونا في مراحله الأولى يصولون ويجولون ويمارسون حياتهم بشكل عادي دون مراعاة لمبدأ "تعامل أنت مع كل الأشخاص على أنك مصاب"، ولم يعط الفرد أي أهمية للقاعدة الإيتيقية التي تؤكد على ضرورة أن نتصرف على نحو نعامل فيه الإنسانية في شخصنا كما في الأشخاص الآخرين، دوما وفي نفس الآن كغاية دائما

وأبدا وليس مجرد وسيلة" باعتبارها معاملة تدخل في إطار الواجب من أجل الواجب، ولذلك فعوض أن نلمس مقاربة المبادئ الفلسفية للمنظومة الإيتيقة كأساس في الممارسات العملية للحد من جائحة كورونا، شهدنا الأمور تتم بشكل عشوائي، وهذا ما انعكس بشكل سلبيّ وعَمَّق الأزمة الصحية ونقلها إلى طور آخر تهاوت معه المنظومة الإيتيقة.

4. انعكاسات جائحة كورونا على المنظومة الإيتيقية

يمكن رصد ملامح الأزمة الاتيقية الوبائية في مجموعة من الانعكاسات السلبية في الشكل التالي:

تقييد الحريّات: أبرز ما نتج عن المعاملات في الفترة الوبائية الحالية رواج معنى جديد للحرية للشخصية، إذ أصبح تقييد الإنسان ومراقبته أساسًا في ممارسة السلطة طبعا، فتقييد حرية الإنسان وحركته تجري تحت ذريعة ملاحقة الوباء ومنع تفشيه، إلا أنّه من المتوقّع أن يفرز الوباء أسلوبا جديدا للحكم، يعتمد على تكبيل الشخص وتقييد تحركاته، ومن تداعيات تقييد الحرية عمل الأجهزة الحاكمة على التأسيس لما يساعدها في التعرف على مواطنيها عبر تزويدهم بأجهزة تكنولوجيّة قادرة على قياس الحركة البيولوجيّة للشخص، هذه الطريقة لا تزوّد السلطة بمعلومات عن الأمراض التي تصيب الشخص وحسب، بل أكثر من ذلك، هي تحدد وبدقة الأماكن التي تَنَقَّل فيها والأشخاص الذين التقى بهم، وما إلى هنالك، وهذا ما يدور حاليًّا في الأروقة الصينيّة. (الحاج حسن، 2020، صفحة 59)

زوال قيم التعاون والتعايش: ظهر الإنسان على حقيقته خلال جائحة كورونا؛ إذ انسلخ عن قيمة التعايش والتعاون والرأفة بالآخرين، حتى ظهر مقدار جبروته ضد أخيه الإنسان، ولم يتوان عن القتل والتدمير والتشريد، بل ونهب الثروات والإمكانيات الطبيّة والاستئثار بها، ومنعها عن المحتاج، كذلك أظهر زيف مقولة العدل التي تتغنى بها بعض الأنظمة وبعض الإيديولوجيات الحاكمة. (الحاج حسن، 2020، صفحة 59)

ففي مواجهة جائحة كورونا اضمحلت قيمة التعايش بين مختلف الأعراق تحت طائل النسبية الأخلاقيّة، وتوغلت الكراهية بين مختلف الأجناس، وتبلور هذا

عندما أعلن الرئيس الأميركي بواسطة شرطته الحرب على الأميركيين الأفارقة، وخلفيّة هذا الإعلان واضحة لا تحتاج إلى كثير تحليل. إنّها تعني بكلّ وقاحة أنّ من الأفضل للأمريكي الأسود أن يموت على أن ينافس العرق الأبيض على موارد الدولة العاجزة عن تأمين مستلزمات العناية الطبية للجميع، وإن دلت هذه المعاملات على شيء فإنها تدل على زوال آخر روابط التعاون والتعايش في إطار الاختلاف. (سعد، 2020، صفحة 170)

سقوط مبدأ المسؤولية الأخلاقية: إن النظر في المنعكس السلبي الذي فرضته جائحة كورونا على المنظومة الإيتيقية جعلنا نشهد تهاوي قيم كانت جوهر التعاملات بين الأفراد، ونذكر في هذا المقام سقوط مبدأ المسؤولية الأخلاقية، وهذا ليس بالشيء الجديد، فالكل يتذكر فيما مضى حادثة الممرضين البلغار الذين حقنوا أطفالا ليبيين دما ملوثا عام 1999، التي آلت إلى صندوق التعويضات المشترك بين الدول المعنية، ودفع منح" مالية سخية" لعائلات الضحايا بعد تسوية أحكام الإعدام المقضية في حق الممرضين، كان ذلك بقرار سياسي تجاوز" التضامن الإنساني" المؤسس للقانون الدولي الذي يعتبر انتهاك "حق الحياة والتملك" في حال افتعالها جرائم ضد الإنسانية. (قدور رافع، 2020، صفحة https://www.aljazeera.net/blogs)

وما تلك الحادثة إلا صورة مصغرة عما يحدث اليوم في ظل جائحة كورونا، أين اختفت تماما مفاهيم من قبيل المسؤولية الأخلاقية، وذلك بسبب استغلال "نظام شمولي" خال من المبادئ الأخلاقية لمجموعة من الأفراد المغلوب على أمرهم، وقد سقط قناع المبادئ في فترة هذا الوباء، لتكشف عيوب النظام العالمي الذي طالما افتخر بقوانينه المؤسساتية الرافضة لكل خلل في المنظومة الإيتيقية، وبدل أن يتكاثف رعاة هذا النظام لمحو آثار الوباء والحروب المهلكة للنسل البشري، سار كلهم في طريق توجيه أصابع الاتهام المتبادلة بين وصفاء الرأسمالية المتوحشة ومؤسساتها الأمبريالية، للظفر بتعويضات بعدما تكبد اقتصادها خسائر فادحة، ومثلما امتحنت الجائحة ارتباط الفرد بالمجتمع ومسؤوليته الأخلاقية اتجاهه، كان على العالم أن يثبت التزامه بإنسانيته لتجاوز الوباء بروح تضامنية تتجاوز التنمر الاستعماري وتكرس لمبدأ تحمل المسؤولية الأخلاقية للفرد تجاه الفرد الآخر.

انتشار الكراهية: أدى الوباء إلى ازدياد الكراهية بين البشر، وانتشار القلق والاضطراب. يقول بعضهم يكفي أن تعيش في أوروبا لتتلمس الكراهية بشكل واضح، مع عودة ظهور ما يُعرف بـ"الإنذار الأصفر"، وهو توصيف يرجع إلى القرن التاسع عشر، ويدل على التمييز ضد وجود الوجوه الآسيويّة في المجتمع. وإن كان بعضهم يبرر ذلك برهاب الموت والحرب من أجل البقاء، إلا أنّ هذا السلوك يتوازى مع ارتكاب التصرفات العنصريّة التي أصبحت اليوم معروفة باسم الكورونافوبيا. (الحاج حسن، 2020، الصفحات 59-60)

كما أظهرت جائحة كورونا ذلك الجانب الجشع في الإنسان وحبه لذاته، وفطرة السطو والقرصنة عند دول كثيرة كانت تتغنى بحقوق الإنسان وقدسية القانون، والتي عملت على تخزين وتكديس للمواد الغذائية، مما أسفر على ندرة حادة في المعقمات والمواد الطبية الوقائية، وتجار الأزمات تفننوا في استحداث أساليب السرقات المقننة، وتفشي مرض تقديس الأنا على حساب الآخر ، أدخل البشرية في نفق الأنانية ووسع دائرة انتشار الكراهية .

انهيار قيمة الإنسان: كتب إدموند هوسرل (1859- 1938) في وصيته الفلسفية التي نشرت بعد وفاته حاملة عنوانا بليغا أورد الجزء الأول منه أزمة العلوم الأوروبية أضحى هوسرل يتأمل في الإنسان، وقد تحول ذاتا تتفكر في العالم، وموضوعا قابلا للأخذ والتحليل والتشريح الاختباري. رأى أن أوروبا فقدت بعضا من إنسيتها الفكرية ومن رقيها الإنساني حين أهملت الذات الإنسانية فاعلا أساسيا في التاريخ، وحولتها إلى موضوع للاختبار العشوائي، ولاسيما في مختبرات العلوم والاقتصاد والسياسة. أما الحقيقة الأصلية القَبْلية الكونية الشاملة، فهي أن الذات الإنسانية ترتبط ارتباطا وثيقا بعالم الحياة. غير أنها اضطربت في زمن ما بعد الحداثة، لأن الأنظومات السياسية والايديولوجيات القومية والدينية سلخت الذات عن الحياة، فجمدتها في هيئة خانقة، عنيت بها هيئة الخضوع العبدي والاستهلاك المميت (علون، 2020، صفحة 24) وتكشف حقيقة هذا الانهيار للكينونة الإنسانية التي أقرها هوسرل مع جائحة كورونا.

فقد بين الوباء مقدار انهيار قيمة الإنسان، بالأخص عند أصحاب السلطة والكثير من المؤسسات النفعيّة. ولعلّ من أصدق المصاديق عدم مراعاة الدول

الغربيّة للقيم والمثل واحترام الإنسان، هو ما صرح به رئيس وزراء بريطانيا حينما قال: إن على العائلات الاستعداد لفراق أحبّتها، ثم في إيطاليا صار الأمر بترك كبار السن يموتون، وتحويل الأجهزة الإنعاشية إل الشباب المصابين. أما في أميركا، كانت الصورة أكثر بشاعة، فأميركا التي كانت توصف برائدة الإنسانية، انهارت مُثُلُها وقيمها سريعا، فالسطو والاعتداء والجرائم صارت مشاهد مألوفة في الشارع الأميركي، وإن نظامها الصحي صار منهارا تماما، فلا معدات وقائيّة طبيّة، ولا مستشفيات تكفي، وتُرك الفقراء ليلاقوا مصيرهم المحتوم. (الحاج حسن، 2020، صفحة 60) فهذه أطروحات أخلاقية صادمة أحاطت وتحيط حتى الساعة بأزمة كورونا التي نعيشها حول العالم بتخلي بعض الدول والأنظمة عن رعاياهم في الخارج بداية الأزمة عندما تقطعت بهم السبل، إضافة لمعايير اختيار المريض الأول، فالمسار الإيتيقى الحالي في ظل جائحة كورونا تحوّل إلى انقلاب داخلي على جوهر منظومته فأصبحت قيمة الإنسان والحياة مسألة نسبيّة، وانتقلت كذلك الدول الرائدة تقنيا في زمن الوباء من مرحلة تصنيع السلعة والمتاجرة بها، إلى مرحلة "تسليع القيم" واختيار ما يناسب مقتضيات المرحلة على حساب إيتيقية الكينونة الإنسانية.

أصبح الآخر هو الجحيم: إن تفشي جائحة كورونا زاد من بروز النزعة البراغماتية التي حولت الآخر من صديق إلى عدو، وأعادت الجائحة مبدأ جان بول سارتر (1905م- 1980م) "الآخرون هم الجحيم" إلى المعاملات اليومية في الزمن الكوروني فطغت المنافع والمصالح الشخصية على جميع ميادين الحياة، وعصف الفناء بحميمية العلاقات الإنسانية. فإذا كانت هذه الجائحة قد أعادت للأسرة دفأها، وصار البيت مسكنا للوجود بعد سنوات عجاف من العزلة في قلب الحياة المشتركة، فإنها وسعت أيضا من الهوة بين "الأنا" و"الغير" البعيد والغريب. صار الآخرون جحيما ولم يعد وجودهم يهدد وجودي فقط، لكنه بات خطرا يحدق بحياتي برمتها. ولم يعد الآخر جحيما لأنه يزاحمني في الوجود، ويسلبني حريتي، ولأنني أتصرف وأوجد معه على غير سجيتي، ولأنه يجعلني أخاف وأخجل وأقنط وأرتبك وأتردد...الخ. لقد صار قابضا لروحي وبإمكانه إزهاقها بعد أن أصبح يلوث الهواء الذي نشترك في استنشاقه، ويعكر صفو الحياة التي نتقاسمها، ويكدر نقاء

الطبيعة التي تحتضننا. لم يعد يوجد معي فقط، وإنما صار موجودا بل حاملا للعدوى، يوجد معي ويُقبِل علي مطوقا بالموت من كل جهة. فصرنا ننظر إليه- أي الغير- على أنه ذلك " الأنا الذي هو ضدي وعدوي أنا"، وهو الجحيم والموت في الآن ذاته. (حمادي، 2020، صفحة 155)

وما يمكن قوله إننا اليوم في قلب حرب طبيعية ووجودية مع هذه الجائحة الطبيعية، خلقت أزمة على مستوى العلاقات بين الأفراد، عندما سوّل الأنا لنفسه أن يكون تلك الشرارة التي تؤجج نار هذه الجائحة، فتلهب فتيلها، وتطلق لنفسها العنان لتعصف بذوات لا ذنب لها، إلا أنها تشترك الوجود مع كائنات مجردة تحت راية ما يسميه إيمانويل ليفيناس (1906م- 1995م) "المسؤولية"، لكن للأسف غابت تلك المسؤولية وأصبحت حقيقة الآخر عدوا، وما يؤكد هذا هو تداول نشطاء منصات التواصل الاجتماعي على نطاق واسع حكاية طبيب يعمل بأحد مستشفيات مدينة مارسيليا جنوب فرنسا، يعبر فيها عن صدمته واستيائه الكبير من ردة فعل شاب رفض أن يتواصل عبر الهاتف مع والده الذي يلفظ أنفاسه الأخيرة، متأثرا بإصابته بفايروس كورونا المستجد، وذلك بعدما طلب الأب من الطبيب أن يربط له اتصالا مع ابنه ليتواصل معه للمرة الأخيرة قبل أن يموت، فمثل هذه الأحداث التي كان عنوانها الأبرز هو تخلي الأبناء عن الآباء في عز الحاجة أسقطت القناع وكشفت أمامنا "الإنسان كما لم نره من قبل، دون مساحيق الحداثة وإكسسوارات التشدق بقيم العدالة وحقوق الإنسان، هكذا بدا لنا غارقا في الأنانية، بائسا فقيرا، لا يملك أية قيمة عكس التمثل الذي طالما علق بأذهاننا. الأنانية ونزعة البقاء الحيوانية" (الزورى، 2020، صفحة (https://www.aljazeera.net/blogs

انتشار الخوف السائل: ومن جملة التأثيرات التي سيتركها الوباء كذلك على المجال النفسي القيمي "موضوع الخوف"، فقد خلق الوباء معه حالا من" الخوف السائل" كما سماه زيغمونت باومان (1925م- 2017م) من قبل، فلم يعد يقتصر الأمر على أنّه حال بيولوجيّة صحية، بل تعدت لتكون ظاهرة ثقافيّة أو روحيّة، أو كتجربة إنسانية فريدة من نوعها، سوف يتحدث عنها الجميع لاحقا، لمدة زمنية ليست بالقصيرة. والمقصود بالخوف السائل، الحال التي تتحول فيها المخاوف إلى

ما يشبه الحال السائلة، بل أقرب إلى الحال الغازيّة، حتى يتسرب الخوف، ويسيل وينتشر من حولنا في كل مكان.

فالخوف يمحو المعالم الأساسية للحياة المتحضرة في لحظة، وفي ظلّ كل هذا الخوف السائل من كلّ شيء، والذي يستبيح كلّ شيء، يشعر الفرد بأن مواجهة التهديدات والمخاطر مهمته هو، حيث يتفوق الخوف على علاقتنا بكلّ ما يحيط بنا، بالأشياء والأشخاص، وهذا ما يفند وهم الهيمنة والسيطرة وإخضاع الماديات، ليتسرب إلى حال من الضبابيّة واللايقين نحو كلّ شيء، وأي شيء. سينسحب الخوف على كل ما يحيط بنا ماديًا كان أم معنويًا، على علاقتنا بالأشياء والأسطح المحيطة، وسيجعلنا نتصرف معها بطريقة مغايرة، بل ننظر إليها بطريقة مغايرة، ليس كما اعتدنا على النظر إليها من قبل. يتسرب نحو الأشخاص المحيطين، نحو العائدين من السفر نحو الملامح الآسيويّة نحو الماديات، كأكياس البقال والنفايات، والارتياب من التعامل مع الأوراق النقديّة، أو لمس مقابض أبواب المنزل والسيارات والمكاتب، أو شاشات التلفاز، وأصبح كلّ ما اعتاد عليه إنسان الحداثة يظن أنه تحت سيطرته الكاملة، يتسرب ويسيل منه شيئًا فشيئًا، وهو ما يعكس مفهوم سيولة الخوف.

كما يظهر من مجمل التحليلات المقدمة للخوف، سواء من الوباء المستّجد أم غيره، أنّه ناشئ من اضطرابات نتيجة توقع أمر مرتقب هو سلبي بالمجمل، لكن عند تحليل الأسباب، سنجد أن الأمر المرتقب هو نقطة الجهل التي يعيشها الفرد داخله، والتي تسمح بإحلال الخوف مكانه، لذلك من لا يشعر بالنقص أو بالاضطراب من أمر مجهول، فهو بعيد عنه، ومن يستند في قراءاته وتحليلاته لما هو قادم إلى رؤية متماسكة واستشرافية سيكون بعيدا عنه، وبعبارة أخرى، من الواضح أن الاعتقاد يهيئ للشخص المقدمات الضرورية ليقدم تفسيره لما هو مجهول عنده، فشعر تاليا بالقلق والاضطراب. (الحاج حسن، 2020، الصفحات 61-62)

خاتمة:

نخلص في الأخير إلى القول إن طرح سؤال الأخلاق في ظل جائحة كورونا أظهر عمق الأزمة الإيتيقية التي يعيشها الإنسان في هذا الوضع الاستثنائي، أين أصبحت

البشرية بأسرها تعيش مرحلة انتقالية، ومنعطفاً تاريخياً له تداعياته السلبية على قيم الإنسان، في شكل آثار ومؤثرات عديدة مست بنية وعُمْق سلوك وأخلاق الإنسان، وهو ما جعل هذا الأخير يدخل في مأزق حقيقي يطلب منه التفكير العميق والتخطيط المتواصل للخروج من هذه الأزمة الصحية والأخلاقية، وذلك يكون بالنظر والتمعن في مسألة هامة وحيوية هي مسألة احترام الإنسان وكيفية استرجاع مكانته وإنسانيته.

وقد بدا لنا جليا من خلال القراءة الموجزة لإعادة طرح سؤال الأخلاق في الزمن الوبائي أننا نعيش في كنف منظومة إيتيقية ماضية في التآكل والتحول، فلم تعد الإيتيقا كممارسة عملية بتلك الصلابة والقوة التي شكلتها المدارس الأخلاقية منذ الفلسفة اليونانية، فقد بلغت الهشاشة في منظومة القيم الإنسانية هذا المبلغ، ولم يتوقع أحد هذا السقوط المدوي للقيم والمبادئ والأخلاق كما نراه اليوم في ظل جائحة كورونا، وهذا يشكل منعطفا مُهِمًا يدفعنا إلى إعادة النظر في العديد من المواقف والتمثلات المترسبة في أذهان الأفراد سواء كانوا من العامة أو من نخبة المجتمع، وأكبر دليل على هذه المواقف اللاأخلاقية هي ممارسات الأطباء ومقدمي الرعاية الصحية، حيث كان لهم يد في معاملات تتنافى مع قسم أبقراط الطبي الملزم أخلاقيا عندما قاموا بعملية فرز بين مرضاهم وفق معايير ضربت المنظومة الإيتيقية في العمق.

وعليه لا خروج من الأزمة الإيتيقية الراهنة التي فرضتها جائحة كورونا إلا بتحرير الإنسان وإخضاع العلوم لإرشاد الفكر الإنساني الذي تقوده الفلسفة من أجل إعادة اكتشاف الذات الإنسانية الحرة الواعية، ذلك أن علمية المسعى الإنساني لا تقتضي حتما إذلال الناس والأشياء والكائنات والموجودات، وإخضاع الكل لمقياس التحليل الاستقصائي الاختزالي النفعي، بل تقوم العلمية السليمة على إنتاج سبل جديدة من أحضان تدفق الحياة في عالم الإنسان الحكيم المستنير المتبصر.

قائمة المراجع:

1. الحسن بن الهيثم. (1981). مقالة في الأخلاق: دراسات ونصوص في فلسفة العلوم عند العرب. بيروت: المؤسسة العربية .
2. أنوار حمادي. (صيف, 2020). جائحة كورونا ومشكلة العيش المشترك. ضمن الكتاب الجماعي: الزمان الوبائي: دراسات في الدين والفكر والفلسفة .
3. بوعلام غبشي. (7 ماي, 2020). تاريخ ظهور فيروس كورونا...اللغز الذي يحير العالم. تم الاسترداد من https /amp.france24.com /ar/20200507 ://.
4. جلال الدريدي. (صيف, 2017). إشكالية الأخلاق وسبل تحصيل السعادة في فكر ابن الهيثم. مجلة تبيّن، العدد5.
5. جهاد سعد. (صيف, 2020). صحة الغرب في المختبر: تهافت المناعة الحضارية. مجلة الإستغراب ، العدد20.
6. عبد الرحمن بدوي. (1984). موسوعة الفلسفة. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.
7. عبد الرحمن مرحبا. (1983). من الفلسفة اليونانية إلى الفلسفة الإسلامية. الجزائر : ديوان المطبوعات الجامعية .
8. عبد العالي الشداوي. (صيف, 2020). الفلسفة السياسية في زمن كورونا. ضمن كتاب جماعي بعنوان: الزمن الوبائي: دراسة في الدين والفكر والفلسفة .
9. عقيل سعيد محفوض. (صيف, 2020). حادثة كورونا وما بعده: العالم على نشأة أخرى. مجلة الإستغراب . العدد20.
10. علي الحاج حسن. (صيف, 2020). التحولات القيمية في ظل وباء كورونا: رصد تحليلي نقدي لراهن العالم ومستقبله المرهون. مجلة الإستغراب. العدد20 .
11. عماد الزورى. (22 أفريل, 2020). كورونا والغرب وهشاشة القيم. تم الاسترداد من https://www.aljazeera.net/blogs.
12. فادي ناصر. (صيف, 2020). علم فلسفة الأخلاق: دراسة نقدية مقارنة بين فهم الغرب والواقعية الإسلامية. مجلة الإستغراب. العدد20.
13. مشير باسيل علون. (صيف, 2020). الوعي الكوروني الطارئ: العقل الإقتصادي الانتفاعي ومخاطره على الحياة الإنسانية. مجلة الإستغراب. العدد 20.
14. نور الدين قدور رافع. (6 ماي, 2020). إمتخان كورونا...التضامن الإنساني زمن الجائحة. تم الاسترداد من https://www.aljazeera.net/blogs.

جائحة كورونا وضرورة التغيير- قراءة فلسفية نقدية في المنظومات البيوطبية والإتيقية المعاصرة-

موسى قروني

جامعة الجيلالي بونعامة خميس مليانة/التربية والابستمولوجيا الجزائر/

.m.grouni@univ-dbkm.dz

مفتاح بن أعمر

جامعة الجيلالي بونعامة خميس مليانة/التربية والابستمولوجيا الجزائر/

.m.benamor@univ-dbkm.dz

ملخص الدراسة:

نحاول في هذه الورقة البحثية تسليط الضوء على الأزمة التي تسببت فيها جائحة كورونا، لا سيما الأزمة البيوطبية التي فضحت الطب المعاصر والمنظومات الصحية العالمية بسبب فشلها في مواجهة الوباء وعلاجه، حيث عجزت كل المحاولات الطبية على اختلاف طرقها ومضامينها في علاج الأمراض التي خلفها فيروس كورونا المستجد، وعليه دخل الطب معاصرة عميقة مست أسسه ومقولاته. دون نسيان الأزمة الأخلاقية التي فضحت الإنسان وكشفت بعض الجوانب السلبية في شخصيته وسلوكاته، حيث ظهر الجشع والقتل والتدمير والاحتكار، وزادت حدة التمييز العنصري وخطابات الكراهية وغيرها من الممارسات التي عرت الوجه الحقيقي للإنسان. بناء على هذا وجب إعادة النظر في المنظومات البيوطبية والأخلاقية، وضرورة القيام بالتغييرات اللازمة لتفادي الأزمة مستقبلا.

الكلمات المفتاحية: التقدم البيوطبي المعاصر، جائحة كورونا، الضائقة التنفسية الحادة، الإتيقا، التغيير.

مقدمة:

تعد الأمراض والفيروسات من الأمور المصاحبة للإنسان منذ القديم إلى يومنا، وستبقى ملازمة له على الدوام رغم تطور وسائله وأبحاثه الطبية. منذ القديم يحاول الإنسان أن يفهم طبيعة الفيروسات ويطلع على أسبابها ليتمكن من إنتاج لقاح أو علاج يقضي عليها، أو على الأقل التخفيف من آثارها لأقصى حد، اقتصرت محاولاته الأولى على التداوي بالأعشاب وبعض العقاقير الطبية، والحجر الصحي كسبيل وقائي يمنع انتشار الوباء. لكن مع التقدم العلمي في فترة الحداثة وما بعدها، لا سيما التطور العلمي في الطب والبيولوجيا، ساهم في التعامل مع الفيروسات على نحو أكثر فعالية ونجاعة سواء على مستوى التشخيص المبكر للإصابة ومعرفة أسباب ظهور الفيروس، وكذا معرفة الأعراض والأمراض التي يسببها، ومن ثمة تكون إمكانية علاجها أكبر وأفضل. وبالتالي ساهم هذا التقدم البيوطبي في تعزيز فهمنا للأمراض والفيروسات، حتى قيل إن الطب المعاصر قادر على مواجهة كل التحديات الصحية التي تواجهه مهما كان نوعها سواء كانت أمراضا أو فيروسات وأوبئة. لكن فيروس كورونا المستجدة كذب هذه الادعاءات والمقولات حين أعجَزَ الطب المعاصر وأثبت فشله الذريع في مقاومة ومعالجة هذا الفيروس المجهري الصغير على كافة المستويات التشخيصية والعلاجية، لنقتصر على السبل الوقائية المعمول بها قديما من قبيل الحجر المنزلي والتباعد الاجتماعي، ليعيش بذلك الطب المعاصر أزمة عميقة وخانقة لم يسبق لها مثيل، لنعود إلى نقطة الصفر متسائلين عن سبب هذه الأزمة التي لم تقتصر الجانب الصحي بل امتدت إلى الجانب الأخلاقي، حيث فضحت الجائحة الممارسات اللاأخلاقية المبطنة والدفينة في أعماق نفوس البشر، لنعيش أزمة مترامية الأطراف ومتعددة الجوانب في مقدمتها الأزمة الصحية الطبية والأزمة الأخلاقية التي تستوجب التفكير ومن ثمة التغيير، من خلال الإجابة عن هذا التساؤل الجوهري والعميق الذي يلخص هذه الأزمة: **هل الأزمة البيوطبية والإتيقية المعاصرة أزمة أسس تستوجب التغيير أم هي أزمة مؤقتة تستلزم التصويب فقط؟**

1. الثورة البيوطبية المعاصرة:

عرف القرنان العشرون والحادي والعشرون تطورا علميا مذهلا في كافة الفروع المعرفية والعلمية. لا سيما التقدم الطبي والبيولوجي الكبير والمتسارع، حيث شهد الطب والبيولوجيا ثورتان كبيرتان غير مسبوقتين بفضل المنجزات والاكتشافات التي عرفها هذان المجالان، حتى وصفا بعصري الطب والبيولوجيا. أحدث هذا التطور البيوطبي انقلابا معرفيا في الطب والبيولوجيا على حد سواء، يقول الأستاذ في الأكاديمية الطبية الفرنسية جان شارل سورنيا Jean- Charles Sourina في هذا الصدد:" منذ منتصف القرن العشرين، وجدت كل العلوم نفسها في حالة انقلابية اختفت الحدود بين الكيمياء والفيزياء ... في الطب، وبالتساؤل عن كيفية المرور من الفسيولوجيا إلى الباثولوجيا، أصبح تعريف المرض مقارنة بما هو طبيعي أكثر غموضا. بل أصبح مفهوم المرض نفسه مشكوكا فيه، وبالتالي فقدت التصنيفات المستخدمة منذ ثلاثين عاما مبررها. وفي الممارسة الطبية تلاشى ذلك الفصل المنطقي بين التشخيص والعلاج. ولهذا يتسم تاريخ الطب في العقود الخمسة الأخيرة بالكثافة والتشابك"(سورنيا، 2002، ص 320). يبين هذا القول مدى التطور العلمي الحاصل في جميع الميادين المعرفية والتخصصات العلمية، هذا التقدم العلمي أنتج العديد من الثورات العلمية مختلفة التخصصات ومتعددة الفروع، مثل ثورة الفيزياء، ثورة البيولوجيا، وثورة الطب وغيره، ثورة السيبرنيطيقا والرياضيات التطبيقية الطبية) عبرت عنها حالات الانقلابات العلمية، حيث انتقلت العلوم من حالة التخلف والركود(من حالة التجريب إلى الحساب الرياضي والمعالجة السيبرنطيقية) إلى حالة التطور والتقدم. من بين أهم نتائج هذا التطور العلمي المعاصر هو عودة الوفاق بين العلوم بعد فترة من التشظي والقطيعة التي أفرزتها مقولات الحداثة، إذ شهد العصر الراهن عودة التكامل بين العلوم لدرجة اختفاء الحدود الفاصلة بينها، مثل اختفاء الحدود بين الدراسات الكيمائية والدراسات الفيزيائية، حيث ظهر فرع علمي يجمع كليهما معا سمي بالكيمياء الفيزيائية وغيرها، لنعود مرة أخرى إلى حالة التكامل بين العلوم قبل انفصالها عن الفلسفة بدعوى التخصص والتفرد الناجم عن ممارسات الحداثة. من المجالات العلمية التي استفادت من هذا التقدم بدرجة كبيرة نجد الطب، الذي تطورت تقنياته وأبحاثه وتطبيقاته بسبب الترسانة

التقنية والمعدات التي وفرها التطور العلمي والتقني، على سبيل المثال انتقل الطب من الفسيولوجيا الوصفية للأعضاء إلى الباثولوجيا أي العلم الذي يبحث في الأمراض من ناحية أسبابها وأعراضها ومن ثمة علاجها، هذا الانتقال الهام جعل من مفهوم المرض غامضا ومشكوكا فيه، بسبب التطورات والتحولات المتسارعة التي تطرأ على الطب وتقنياته وبحوثه، لأن مفهوم المرض يكاد يختفي بفضل الطب المعاصر الذي أوجد العلاج للكثير من الأمراض المعدية القديمة، وعليه تم إلغاء التصنيفات السابقة التي كانت تصنف الأمراض. كما تم إلغاء الفصل بين التشخيص والعلاج، لأن العمليتين أصبحتا متزامنتين معا ومتلاحمتين ومتلاحقتين في نفس الوقت. ليشهد بذلك الطب المعاصر في العقود الأخيرة تطورا مذهلا في بحوثه وصفت بالكثافة الكمية والكيفية، والتلاحم والتشابك فيما بينها ومع غيرها من العلوم.

إنّ الطب المعاصر سيزداد سرعة ودقة، لأنه دخل مرحلة جديدة، تتمثل في حوسبة الطب، أي إدخال التقنيات والأبحاث الحاسوبية والمعلوماتية في الطب. وبالتالي سيتخلص الطبيب من أدواته ووسائله التقليدية، سواء على مستوى التشخيص أو على مستوى العلاج، حيث سيتخلص من المبضع الجراحي وجميع الأدوات الجراحية التي كانت تملأ غرفة العمليات الجراحية، وسيحل محلها جهاز تلفزيوني وكاميرا ليزرية مجهرية، سيكون هذا الانجاز مفيدا جدا، حيث سيمنع فقدان الكميات الكبيرة من الدم عكس ما كان يحدث في الجراحة التقليدية التي تتم بالمبضع. لأن استعمال الأجهزة الالكترونية من كمبيوتر وكاميرا ليزرية، ستكون معها كمية الدم المفقودة قليلة جدا لا تتجاوز بعض قطرات، كما أن الجراحة الحاسوبية الليزرية لا يلزمها وقت لكي يتعافى المريض من آثار الجراحة، لأن الجراحة الليزرية لا تخلف جروحا عكس الجراحة التقليدية(دك الباب، 2000، ص36). هذا فيض من غيض، لأن تطبيقات المكننة المعلوماتية في الطب عديدة وكثيرة في التشخيص والعلاج على حد سواء، مثل تخطيط الأعمال الطبية، وتحليل النتائج، وإجراء التصاميم والتجارب والمحاكاة وغيرها.

أما التقدم العلمي البيولوجي فكان في مستوى التطور الطبي، حيث تمكن علماء البيولوجيا المعاصرين في السنوات الأخيرة من اكتشاف سرة الشفرة الوراثية

للكائن الحي، والاطلاع على بنيته الجينية ومختلف الوظائف التي تقوم بها أعضاؤه وأجهزته وجزيئاته. يلخص جويل دو روزناي Joel de Rosnay أهم التطورات البيولوجية والبحوث المستجدة في ميدان علوم الحياة في قوله:" في غضون ثلاثين سنة، شهدت البيولوجيا ثورة استثنائية: جرى اكتشاف الرمز الجيني، وآليات تنظيم الخلايا، وبنية الخلية والأعضاء الجزيئية التي تكونها، ودور الغشاء الخلوي والاتصالات بين الخلايا، كما انبثقت اختصاصات جديدة: علم المناعة، وعلم الغدد الصماء العصبي، وكيمياء الدماغ، وهندسة الجينات. وحصل فهم أفضل لأصل الجزيئات السرطانية... وقد قادت هذه الثورة إلى تطوير أدوات وطرق جديدة تضع على كاهل البيولوجيين مسؤولية ثقيلة: فلأول مرة لا يحدد التطور البيولوجي فقط بلعبة الطفور والانتقاء الطبيعي، وإنما يمكنه أن يكون على الإنسان. وباعتباره قادرا على صنع أنواع حيوانية ونباتية جديدة، فقد أصبح بذلك "مهندسا للإنسان" و"ساحرا حقيقيا للجينات" التي يستطيع إعادة برمجتها حسب إرادته"(دو روزناي، 2003، ص 202،201). يوضح هذا القول مدى التطور الحاصل في ميدان البيولوجيا، ويبين معالم الثورة الإحيائية، حيث تمكن علماء البيولوجيا في العصر المعاصر من اكتشاف سر الشفرة الوراثية للكائن الحي، وكذا معرفة التعبير الوراثي وجميع العمليات التي تحدث على مستوى الجينات والخلايا، وخاصة بعدما تمكنوا من معرفة مكونات وبنية ووظيفة الحامض النووي للكائن الحي بما في ذلك الإنسان. بالإضافة إلى تمكنهم من معرفة أسرار الخلية بوصفها وحدة البناء الأساسية في أجسام الكائنات الحية، حيث استطاعوا التعرف على بنية الخلية ومكوناتها، ومختلف الآليات التي تنظم العمليات الخلوية داخل الجسم، كما تمكنوا من معرفة وتحديد دور الغشاء الخلوي المتمثل في حماية مكونات الخلية. استطاع علماء البيولوجيا معرفة الكيفية التي تتواصل فيها الخلايا فيما بينها، بوصفها نسيجا خلويا يشكل بنية جسم الكائن الحي. لم يقتصر التطور البيولوجي على هذه الاكتشافات والمعارف المستجدة، بل امتد ليشمل ظهور فروع ودراسات بيولوجية جديدة، مثل علم المناعة الذي يختص ببحث ودراسة الجهاز المناعي للكائنات الحية محاولا تعزيز قدراتها المناعية لمقاومة كل التهديدات والمخاطر التي تسببها الأمراض والفيروسات. وعلم الغدد الصماء

العصبي الذي يبحث في الغدد العصبية لمعالجة الاختلالات التي تصيب الأعصاب، وكذا معرفة كيفية عمل الجهاز العصبي. كما ظهرت هندسة الجينات Genetic Engineering التي أحدثت ثورة حقيقة في البيولوجيا والطب على حد سواء، لا سيما تصميم الجينات الموجهة للعلاج الجيني، وهندسة الأعضاء وزرعها، ومعالجة العيوب الجينية وغيرها من العلوم والدراسات. بالإضافة إلى هذا كله مكن التطور البيولوجي من تعميق فهمنا للخلايا والجزيئات الجرثومية المسببة للسرطان، مما يفتح باب أمل لمعالجة هذا المرض الفتاك في المستقبل، خاصة مع تطور بحوث الخلايا الجذعية والعلاج الجيني.

إنّ إدخال الكمبيوتر والتقنيات المعلوماتية في البيولوجيا والطب سيقفز بهذين المجالين إلى منحى غير متوقع وغير مألوف، يوضح ميتشو كاكو هذا التقدم المتوقع بقوله:" وسيكون لهذا معان عميقة في الطب والبيولوجيا، وسيتم التخلص من عدد من الأمراض الوراثية عن طريق حقن خلايا بالجين الصحيح. ولأن السرطان اكتشف الآن على أنه سلسلة من التحولات الجينية فقد يكون من الممكن أخيرا- علاج أصناف عدة من السرطانات دون الحاجة إلى جراحة واسعة أو معالجة كيميائية. وبالمثل فإنّ عددا من الكائنات الدقيقة التي تسبب الأمراض المعدية ستقهر عن طريق البقع الجزئية الضعيفة في جهاز مناعتها وخلق وسائط تهاجم هذه البقع الضعيفة. وستتقدم معرفتنا الجزيئية بتطور الخلية بحيث نتمكن من تربية أعضاء كاملة في المعمل بما في ذلك الكلى والكبد"(كاكو، 2001)(كاكو، 2001، ص 25). نستنتج من هذا القول مدى التغيير الذي سيطرأ على الطب والبيولوجيا عندما يتم إدخال وتطبيق التقنيات المعلوماتية في بحوثهما وتجاربهما، ولا سيما إدخال الحاسوب في هذين المجالين. حيث سنتمكن من علاج الكثير من الأمراض الجينية بواسطة العلاج الجيني والهندسة الجينية وزرع الأعضاء التي تعتمد أساسا على المعلوماتية سواء في التخطيط أو الهندسة والتجريب الافتراضي والمحاكاة قبل تجريبها وتطبيقها على جسم الكائن الحي، إذ يمكننا العلاج الجيني من إدخال الجين المناسب والصحيح لتعويض واستبدال الجين التالف الذي لا يعمل بشكل صحيح. فتح العلاج الجيني نوعا جديدا من العلاج غير مسبوق. كما مكننا هذا التوجه البيومعلوماتي والمعلوماتي الطبي من تعميق فهمنا للخلايا

المسببة للسرطان، حيث تم بالفعل معرفة سبب السرطان، فهو عبارة عن التحولات الوراثية في جينات وخلايا الجسم تحيد بها عن نمط عملها الطبيعي والسليم، وعليه يمكننا أخيرا معالجة العديد من أنواع السرطان دون اللجوء إلى عمليات جراحية مرهقة ومكلفة، أو القيام بعلاج كيميائي متعب ومؤلم، سيتم هذا عن طريق العلاج الجيني والهندسة الجينية، كما سيسهم علم المناعة في تعزيز قدراتنا المناعية لمنع هذه التحولات الوراثية. إنّ هذا التطور الطبي والبيولوجي سيسمح لنا مستقبلا من هندسة وإنتاج أعضاء كاملة في مختبراتنا مثل الكلى والكبد، انطلاقا من بحوث البيولوجيا الخلوية التي عمقت فهمنا للخلية وبنيتها ووظيفتها وكل ما يحيط بعالمها السحري. وعليه يمكن اعتبار القرنين العشرين والحادي والعشرين قرني الطب والبيولوجيا بامتياز.

2. جائحة كورونا والانفلات الطبي المعاصر:

رغم التطور الطبي والبيولوجي الكبير على كافة المستويات، كالتشخيص والعلاج وتطور الترسانة التقنية، إلا أن التقنيات البيوطبية المعاصرة وقفت عاجزة أمام كائن مجهري في غاية الصغر، يتعلق الأمر بفيروس كورونا المستجد الذي اجتاح العالم أجمع، مسببا مشاكلَ وأزماتٍ صحيةً للإنسان، بل امتدت آثاره إلى حياة الفرد النفسية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية. والأهم من هذا كله سبب أزمة بيوطبية خانقة عصفت بالمنظومات الصحية العالمية وهدت أسسها ومنجزاتها.

يعرف كوفيد-19 بأنه:" الاسم الذي أطلقته منظمة الصحة العالمية في 11 فبراير 2020 على المرض الذي يسببه فيروس كورونا، ويكون مصحوبا بالحمى، والعياء، والسعال إضافة إلى المشاكل التنفسية. وقد تكون بعض الحالات المصابة شديدة تؤدي إلى الوفاة أحيانا. وقد تم إضافة الرقم 19 إشارة إلى العام 2019 الذي اكتشفت فيه أول حالة للفيروس"(ولد عامر و وآخرون، 2020، ص 16). بمعنى أن فيروس كورونا عموما هو عبارة عن نوع من عائلة الفيروسات ذات الشكل التاجي، ففيروس كورونا المستجد هو نوع من فيروسات كورونا التاجية، يتسبب في مشاكل صحية على مستوى الجهاز التنفسي للإنسان، من الأعراض الدالة على الإصابة بهذا الفيروس ارتفاع درجة الحرارة فوق مستواها الطبيعي بدرجة كبيرة،

وكذا معاناة الإنسان من التعب والإرهاق والضعف، بالإضافة إلى معاناة المصاب من نوبة سعال حادة وجافة، ومشاكل تنفسية تتفاوت درجة خطورتها من شخص إلى آخر، فهناك حالات خطيرة يعاني فيها الفرد من ضيق في التنفس يؤدي إلى الموت. تم إضافة الرقم 19 المصاحب للتسمية للدلالة على العام الذي ظهر فيه هذا الفيروس، حيث تعود أول حالة إصابة بهذا الفيروس إلى ديسمبر 2019.

يعود أصل تسمية كورونا إلى الكلمة اللاتينية CORONA التي تعني التاج أو الإكليل أو الهالة، وهي الصفة المميزة لبنية وشكل فيروس كورونا بما فيها فيروس كورونا كوفيد-19، ذلك راجع إلى البروزات التي تظهر على فيروس كورونا عند وضعه تحت المجهر الإلكتروني، حيث تظهر زغابات وبروزات على الجسم الكروي للفيروس وتملأ سطحه بالكامل. تعتبر تسمية فيروس كورونا الأكثر استخداما والأكثر شيوعا في المجال التداولي العربي، حيث يستعمل أغلب العرب من العوام والمختصين مصطلح فيروس كورونا، رغم أن تسمية الفيروس التاجي أو الفيروس المكلل أو فيروس الهالة أكثر دقة والأصح لوصف الخصائص التي تميزه(أنور العليوي، 2020، ص17).

تعتبر الفيروسات التاجية، بما فيها فيروس كورونا كوفيد-19 من الفيروسات سريعة الانتشار؛ إذ ينتقل هذا الفيروس عن طريق العدوى من شخص مصاب إلى شخص آخر سليم ومعافى. وعليه يعتبر الشخص المصاب الحامل للفيروس المصدر الرئيسي لنقل العدوى إلى غيره من الأشخاص، لا سيما إذا كان هذا الشخص كثير التنقل والسفر من مكان إلى آخر، لا سيما أولئك الأشخاص الذين لا تظهر عليهم أعراض الإصابة بالفيروس. وطرق انتقال العدوى متعددة، منها انتقال رذاذ العطس والكلام والسعال من الشخص المصاب إلى الشخص المعافى، أو عن طريق الاحتكاك والتلامس المباشر بين المصاب والشخص السليم(اللجنة الوطنية الصينية للصحة ومكتب الإدارة الوطنية للطب الصيني، 2020، ص5).

تهاجم الفيروسات التاجية- بما فيها فيروس كورونا المستجد- الأعضاء والأجهزة المسؤولة عن التنفس، كالأنف والبلعوم والرئة، حيث تعمل على تعطيل وتخريب خلاياها الطلائية الهدبية. تتم عملية المهاجمة هذه عن طريق مستقبلات خاصة موجودة في هذه الخلايا، تسمى بمستقبلات" أمينوببتيداز" أو مستقبلات "حمض

السياليك". أما في حالة مهاجمة الفيروس للجهاز التنفسي مباشرة، فتكون عبر مستقبلات إنزيم" أنجيوتنسن 2 المتحول" حيث تعمل المادة الوراثية للفيروس على إحداث انقسامات داخلية في السيتوبلازم للجهاز التنفسي مما يؤدي إلى تخريب الخلايا الطلائية. ثم تصيب الخلايا المسؤولة عن الرد المناعي في الجسم والمسماة بخلايا" الكيموكاينز" وخلايا" الانترولوكينز" وهي خلايا بروتينية متناهية الصغر مسؤولة على الرد المناعي. عندما تدمر المادة الوراثية للفيروس هذه الخلايا تتطور أعراض المرض وتتأزم صحة المصاب، حيث يصاب بأزمة تنفسية حادة(أنور العليوي، 2020، ص 24،23).

تنقسم الأعراض والمشاكل الصحية التي يسببها فيروس كورونا المستجد، إلى مشاكل شائعة الحدوث بين أغلبية الحدوث، ومشاكل وأعراض نادرة الحدوث عند البعض. فالمشاكل الصحية والأعراض شائعة الحدوث الدالة عن الإصابة بالفيروس بعد اكتمال مدة حضانته المقدرة من يومين إلى أربعة عشر يوما، تتمثل في إحساس المصاب بالعياء الشديد والحمى، والمعاناة من نوبة سعال جاف. أما المشاكل الصحية نادرة الحدوث فتتمثل في انغلاق الأنف وسيلانه، بالإضافة إلى التهاب الحلق والإسهال، مما يؤدي إلى معاناة الشخص المصاب من صعوبة في التنفس وانخفاض الأكسجين في الدم، لا سيما الأشخاص المصابون بأمراض مزمنة، حيث ينقل هؤلاء الأشخاص إلى العناية المركزة لتزويدهم بالأكسجين. من الممكن جدا أن تتطور حالتهم الصحية وتتأزم بسرعة كبيرة ليصبحوا معرضين للإصابة بما يسمى" متلازمة الضائقة التنفسية الحادة"، كما يمكن أن يتعرضوا إلى الصدمة الإنتانية والحامض الاستقلابي التي تعد من الأمراض المستعصية عن العلاج. بالإضافة إلى هذا كله إمكانية تعرضهم إلى نزيف دموي، وتخثر الدم وغيرها من الأزمات الصحية الناتجة عن الإصابة بفيروس كورونا(هوي، 2020، ص 10).

إنّ هذه الأزمات الصحية الناتجة عن فيروس كورونا المستجد كوفيد-19، أدخلت الطب والبيولوجيا بتقنياتهما ووسائلهما المتطورة، ومعارفهما المتجددة في أزمة حقيقية وعميقة، حيث تسببت في عجزهما عن إيجاد علاج أو لقاح مضاد له، كما لم يجدوا دواء وعلاجا يقضي بصفة نهائية على المشاكل الصحية التي يسببها، حيث:" أربكت جائحة كورونا بانتشارها السريع برامج الدول للتعامل معها، واتضح

أن القطاع الصحي في أغلب الدول التي توصف بالعظمى أو القوية أو المتقدمة لم تكن مستعدة للتعامل مع الجائحة بكفاءة... الأدهى والأمر، أن الدول الغربية فشلت في اتخاذ قرارات صارمة لتحول دون انتشار الوباء انتشارا واسعا، حيث وجدت أن إمكانياتها الصحية دون مستوى التفاعل بفاعلية مع الجائحة" (مجموعة مؤلفين، دت، ص 34). فضح فيروس كورونا المستجد المنظومات الصحية العالمية التي ادعت القوة والتطور والقدرة على مواجهة كل التحديات، سواء على مستوى الرعاية الصحية أو اتخاذ القرارات الفعالة أو العلاج، حيث كشف هشاشتها ورتابتها وسوء تعاملها مع جائحة كورونا، بالإضافة إلى عدم استعدادها لمواجهة الأزمات الصحية المفاجئة، فالإمكانيات الطبية لهذه المنظومات محدودة ودون مستوى التعامل الفعال مع مستوى الجائحة، إذ افتقدت في الكثير من الأحيان إلى أبسط المستلزمات الوقائية من كمامات وقفازات وغيرها، لتشتعل الحروب والقرصنة من أجل اقتناء هذه المستلزمات البسيطة، فما بالك بمحاولة علاج هذا الفيروس الذي سيتطلب وقتا طويلا. هذا ما يدفعنا بقوة أكثر من وقت مضى إلى إعادة التفكير في السياسات الصحية والطبية وتوجهاتها البحثية، والأهم من هذا إعادة التفكير في أسس البيولوجيا والطب وفي منهجهما وتوجهاتهما البحثية، وفي طريقة تدريسهما، لأن الأزمة البيوطبية الحالية أعمق من أن تكون أزمة طارئة ومفاجئة، لنتساءل عن الفائدة التي سننالها من بحوث الاستنساخ والإجهاض والتحسين الوراثي وغيرها.

لم يستطع الطب بترسانته التقنية المتطورة، ولا البيولوجيا بوسائلها المتقدمة، أن يجدا علاجا أو لقاحا لعلاج المشاكل الصحية لفيروس كورونا، وعليه:" لا يوجد أي علاج لعلاج كوفيد-19. هناك بعض التوصيات الضعيفة فقط ضد استخدام العديد من الأدوية المضادة للفيروسات. ولا تزال هناك دراسات أخرى جارية، واتضح أن هيدروسكي كلوروكيين- الذي بدا في البداية وعادا-، ضارا، قد يعيد للسطح، حيث تجري دراسات أكبر ليتم التحكم فيه"(Abbo, 2020, p. 44). نستنتج من هذا القول عدم توصل الطب والبيولوجيا إلى علاج أو لقاح يقضي على فيروس كورونا بصفة نهائية، وبالتالي يخلص الإنسان من المشاكل الصحية التي يسببها الفيروس، كل ما هنالك بعض التوصيات التي تحذر وتمنع بعض

الأدوية للفيروسات بسبب خطورتها وأعراضها الجانبية. حتى الكلوروكيين الذي كان بمثابة علاج واعد لتخفيف الأعراض المترتبة عن الإصابة بالفيروس، أثبتت الدراسات خطورته على صحة الفرد، إذ يتسبب في أعراض جانبية خطيرة، وعليه تم البدء في دراسات أخرى حول الكلوركيين من أجل التحكم وتخفيف الأعراض الجانبية التي يسببها. لتبقى أزمة الطب متواصلة، بل تتأكد وتتعمق يوما بعد يوم، وتلح على التفكير في التغيير العميق للمنظومات المعرفية في الطب والبيولوجية التي طغت عليها النزعة النفعية الربحية الاقتصادية.

لم يتم التوصل إلى علاج نهائي لفيروس كورونا المستجد، فتم اللجوء قسرا إلى العلاج الداعم للمناعة، والمخفف للأضرار والأعراض، فـ:" بما أنه لم يتم تحديد أي علاجات مضادة للفيروسات ضد كوفيد-19 بشكل قاطع، فإنّ العلاج الداعم في المقام الأول، تستخدم العديد من العوامل الدوائية والعلاجات لتخفيف أعراض كوفيد-19، مثل الباراسيتامول للحمى، والكودبين للسعال، والتهوية للضائقة التنفسية"(Prablakar, and others, 2020, p. 215). يبين هذا القول الانفلات الطبي الذي يشهده الطب المعاصر والعجز الكامل الذي يعاني منه في محاولته لإيجاد علاج أو لقاح مضاد لفيروس كورونا، ليتم اللجوء عنوة إلى العلاجات الداعمة للمناعة والمخففة لأعراض، كاستعمال الباراسيتامول لتخفيف درجة الحرارة المرتفعة، واستخدام الكودبين لتخفيف السعال، واللجوء إلى تهوية الغرف لتخفيف الضيق التنفسي للمصاب. فضح فيروس كورونا هشاشة ورتابة الطب المعاصر، وسطحية تجهيز المنظومات الصحية العالمية التي ادعت التفوق والتقدم.

يُجمع أخصائيو أمراض الرئة على عدم وجود لقاح أو علاج مضاد للفيروس كورونا المستجد، وهو ما يبينه هذا القول:" لا يوجد علاج مضاد للفيروسات محدد موصى به لعلاج كوفيد-19، ولا يوجد لقاح متاح في هذا الوقت" (Tinku & Ashkan, p. 15). هذه شهادة من أهل الاختصاص وذوي الخبرة في مجال الأمراض الرئوية، التي تؤكد على عدم وجود علاج أو لقاح مضاد لفيروس كورونا، هذا الاعتراف أكبر دليل على الأزمة العميقة التي يعيشها الطب المعاصر، فهي أزمة أسس لا أزمة ظرف راهن.

تتواصل أزمة وخيبة الطب المعاصر في مواجهة جائحة كورونا، فحتى العلاج بالمضادات الحيوية لا يجدي نفعا أمام فيروس كورونا، لأن المضادات الحيوية موجهة لعلاج آثار البكتيريا، وليس لمواجهة الفيروسات. وعليه تحذر جميع المنظمات الصحية من استخدام المضادات الحيوية في الوقاية من الالتهاب الرئوي الناتج عن فيروس كورونا، لأنها قد تتسبب في أضرار جسمانية للمصاب، نتيجة التفاعلات الدوائية التي يمكن أن تحدث جراء استعمالها، مما قد يسبب مرض الفلورا المعدية للمصاب. وبالتالي تمنع استعمالات المضادات الحيوية سواء في الوقاية أو العلاج(اللجنةالوطنية الصينية للصحة و مكتب الإدارة الوطنية للطب الصيني، 2020، ص 60).

يضاف إلى فشل العلاج بالمضادات الحيوية، فشل ذريع آخر ، يتمثل في عدم وجود مكمل غذائي يعالج فيروس كورونا، أو حتى وجود عادات غذائية أو نظام غذائي يشفي من أمراض فيروس كورونا، أو يخفف أعراضها. ذلك أن وظيفة ودور المكمل الغذائي هو تعزيز المناعة وتحسينها فقط. لتبقى الوقاية والحجر الصحي والنظافة والتباعد الاجتماعي سبيلنا الوحيد للوقاية من فيروس كورونا(الموصلي، 2020، ص 40).

عموما كشف فيروس كورونا الهشاشة التي يعاني منها كل من الطب والبيولوجيا، وعجزهما عن مواجهة تداعيات الجائحة، لأنهما اهتما بدراسة أمور هامشية سطحية بعيدة المنال وصعبة التحقق، وضررها أكثر من نفعها على غرار الاستنساخ البشري وتحسين النسل والإجهاض وتكنولوجيا الإخصاب الصناعي وغيرها، وابتعدا عن دراسات الأمراض والفيروسات التي نعايشها كل يوم في حياتنا، ولا سيما في الآونة الأخيرة، فلا يكاد يختفي فيروس حتى يظهر آخر، ولا نكاد نعالج مرضا حتى يفاجئنا آخر، وكأننا أمام مؤامرة على الجنس البشري، أو أننا في وسط حرب بيولوجية طبية مبطنة لا نرى سوى آثارها المدمرة. لا سيما في ظل تناقضات خطابات وتصريحات منظمة الصحة العالمية بين استهتار بالفيروس في بداية ظهوره، ثم إعلانه وباء عالميا وجائحة، وغيرها من التصريحات التي تخص سبل الوقاية والعلاج.

3. جائحة كورونا والمأزق الاتيقي:

كشف فيروس كورونا على وجود أزمة إتيقية خانقة يعاني منها المجتمع العالمي المعاصر. تعود هذه الأزمة في أصلها الأول إلى مرتكزات وقيم الحداثة، لا سيما المتعلقة بقيم الفردانية الأنانية الجشعة، والنزعة النفعية الشخصية دون مراعاة مصالح العامة، وكذا التعلق بعالم الأشياء والمادة، حيث أهدرت قيمة الإنسان، بالإضافة إلى الخواء الروحي الذي خلفه الابتعاد عن الدين والانغماس في عالم المادة والأشياء، ليصبح بذلك الإنسان كائنا استهلاكيا أداتيا لا كائنا قيميا أخلاقيا. والأخطر من هذا كله خلو العلم من القيم الأخلاقية في بحوثه وتجاربه وتطبيقاته، لا سيما على الإنسان الذي أصبح مثله مثل الأشياء والمادة قابلا للتجريب، وبالتالي نزعت عنه القداسة وسلبت منه الكرامة، وحولت طبيعته البشرية المتفردة.

إنّ أزمة كورونا اليوم هي أزمة إتيقية بامتياز، غاب فيها الضمير الإنساني والقيم الأخلاقية على الساحة العالمية، فحين ظهر الفيروس في الصين لأول مرة لم تتحرك المركزية الغربية ولا منظمة الصحة العالمية لنجدة الصين، بوصفها قادة العالم وأصحاب القرار، بل حدث العكس من ذلك، لم تتخذ هاتان الكتلتان الفيروس والتحذير الصيني على محمل الجد، وكأن الأمر لا يعنيهما، فهو يعني الصين فقط، وحتى عندما انتقل الوباء إلى إيطاليا وبدأ في الانتشار لم تتحرك الدول الأوروبية لنجدتها، بل لم تتخذ التدابير الوقائية اللازمة للحد من انتشار الفيروس، فجميع هذه الدول تفكر في عالم الأشياء والأرباح الاقتصادية الشخصية، دون أن تفكر في الإنسان وقيمه وضرورة حمايته من الأوبئة والأمراض. هذه الأزمة أخلاقية على كافة المستويات النظرية والعملية، تستلزم منا الوقوف عندها مطولا، وطرح سؤال مكانة وقيمة الإنسان في الوجود أولا، وفي تفكير وخطط سياسات هذه الدول، وإعادة طرح سؤال القيم والأخلاق في مثل هذه الممارسات ولا سيما داخل الممارسات البيوطبية، وفي خطط واستراتجيات الوقاية من مثل هذه الأوبئة. فجائحة كورونا كشفت بؤس النظام العالمي والمركزية الغربية التي تحكمه، لأنها تنصلت من مسؤولياتها والقيم الأخلاقية تجاه الإنسان، حين تركته وحيدا في مواجهة هذا الوباء، وركزت على عالم المادة الذي يعد هدفها الأول والنهائي، حتى ولو تطلب ذلك القضاء على الإنسان من أجل

تحقيقه، مما يوضح لنا الأزمة الإتيقية العميقة التي تعاني منها السياسات الدولية والمركزية الغربية والنظام العالمي المزعوم الذي أثبت فشله الذريع في مواجهة التحديات المفاجئية مثل ما حدث مع جائحة كورونا، كما فشل في تسيير اللحظات الحرجة والأزمة التي يمر بها العالم اليوم (مجموعة مؤلفين، 2020، ص366،367).

يتوقع الكثيرون حدوث تحولات قيمية أثناء وما بعد جائحة كورونا على مستويات إتيقية متعددة، حيث يتوقع مثلا ظهور نوع جديد من الحرية الشخصية يتم فيها تقييد الإنسان ومراقبته مراقبة دقيقة وشديدة لمزاولة السلطة والحكم، بحيث تتقيد حريته وحركته بحجة محاربة الوباء ومنع انتشاره، فمن المتوقع بروز أسلوب جديد في الحكم يتناسب مع هذه الحرية المقيدة، يقوم على أساس تقييد الشخص وتحركاته من خلال فرض الحجر الصحي المنزلي والعزلة والتباعد الاجتماعي على الأفراد، كما تعمل بعض السلطات اليوم على تزويد مواطنيها بأجهزة تكنولوجية تقيس حركتهم البيولوجية، بل وتحدد بدقة الأماكن تنقل الأفراد والأشخاص الذين التقوا بهم، هذا ما يحدث حاليا في الصين. كما عرى فيروس كورونا الإنسان المعاصر، حين أظهر حقيقته المبطنة الدفينة المتمثلة في إنسلاخه من قيم التعايش والتعاون والتضامن والشفقة على الآخرين، وتبدى جبروته وطغيانه، حيث لجأ إلى القتل والتدمير وسرقة الثروات والإمكانيات الطبية واحتكار السلع الغذائية، هذا ما حدث فعلا في حروب القرصنة بين بعض الدول فيما يخص المستلزمات الطبية، كما احتكر الأفراد المواد الغذائية ورفع أسعارها إلى مستوى جنوني، وبالتالي منع المحتاجين والفقراء منها. كما فضح فيروس كورونا مقولات العدل الواهية التي تتغنى بها الأنظمة الحاكمة، كاشفا بذلك الأنانية المفرطة التي تتصف بها سلوكات البشر اليوم، والمتولدة عن مقولة الذاتية الحداثية، كما أسفر عن جشع لا محدود أنتجته الفلسفة النفعية، بالإضافة إلى الاستبداد المتمخض عن الفرادنية المتسلطة الإقصائية وقيم الديمقراطية والحرية الواهية. أظهرت جائحة كورونا قيم الكراهية التي تختلج في نفوس الكثير من البشر، وزادات في نسبة التمييز العنصري، لا سيما كره الجنس الآسيوي بصفة عامة، والجنس الصيني بصفة

خاصة، الذي يعتقد أنه المسؤول والسبب الرئيسي في ظهور وانتشار فيروس كورونا، ليُضاف إلى الممارسات العنصرية التي يشهدها العالم كل يوم، على غرار التمييز العنصري ضد المسلمين والسود وغيرها (حسن، 2020، ص 59).

أظهر فيروس كورونا المستجد قيمة الإنسان المنهارة والمهدرة في الوجود، وفي السلطة وبعض المؤسسات النفعية بصفة خاصة، حيث لم تراعِ هذه السلطات والمؤسسات القيم والمثل التي تحترم الإنسان وجوهره المقدس، والدليل على ذلك التصريحات والممارسات المتتالية لرؤساء الدول، لتؤكد بذلك المأزق الإتيقي والتنصل من المسؤولية، والتخلي على الإنسان في وجه العاصفة الوبائية، مما أدى إلى تحطم الإنسان نفسيا من آثار الصدمة التي تعرض لها، وفقدان ثقته بنفسه وبالعلم ومنتجاته وقدراته، وبالسلطات السياسية والصحية العاجزة، حيث صرح رئيس وزراء بريطانيا قائلا: على العائلات الاستعداد لفراق أحبتهم، أو كما تم في إيطاليا حين ترك كبار السن بلا علاج ليواجهوا الفيروس وحدهم والموت يدنو منهم في كل لحظة، وغيرها من الأمثلة التي توضح حجم العجز البيوطبي والمأزق الإتيقي الذي تعاني منه البشرية اليوم ولا سيما السلطات السياسية والطبية، ليفيق الإنسان من وهم التقدم والمركزية والزهو الذي أحيط به تحت تأثير صدمة نفسية عنيفة (حسن، 2020، ص 61).

من الأمور الواجب إعادة النظر فيها بعد جائحة كورونا هي المنظومات الإتيقية المعاصرة، من خلال التفكير في مقولات العيش المشترك وقيم التضامن والتعاون كقيم مركزية تتأسس عليها المنظومات القيمية، كما يجب التخلص من قيم الفردانية والأنانية والنفعية والعنف تجاه الآخر، وإعادة قيمة الإنسان المنتهكة والمهدرة من طرف السلطات السياسية والبحوث والتجارب البيوطبية بوصفه كائنا قيميا مقدسا ومنزها عن مثل هذه التجارب. كما يجب إعادة النظر في العلاقة بين العلم والقيم، من خلال إعادة بعث الإتيقا في البحوث والتجارب البيوطبية، لا سيما التي تمس بكينونة وجوهر الإنسان، كما يجب إعادة الدين إلى حياة الإنسان المعاصر بوصفه غذاء الروح ومصدر الأمل والطمأنينة والثقة، كما يجب إعادة النظر في التوجه العلمي والبحث البيوطبي المعاصر من خلال توجيهه نحو دراسات الفيروسات والأوبئة والجراثيم والأمراض وتحديد خطط واستراتيجيات

تتعامل معها بفاعلية، وكذا تطوير الصناعات الدوائية لإنتاج لقاحات وعلاجات وأدوية تقضي عليها نهائيا.

4 ضرورة التغيير في المنظومات البيوطبية والإتيقية ما بعد جائحة كورونا:

إنّ الأزمة البيوطبية والإتيقية التي كشفت عنها جائحة كورونا أزمة عميقة، تعود إلى الأسس والمرتكزات التي بنيت عليها المنظومات المعرفية- لا سيما البيوطبية- والمنظومات الإتيقية، الممتدة من زمن الحداثة إلى يومنا هذا، وعليه يتوجب علينا الوقوف مطولا أمام هذه الأزمة والغوص في تمفصلاتها وتشعباتها المختلفة، وإعادة النظر والتفكير النقدي البناء في تركيلاتها وتوجهاتها، ومن ثمة القيام بالتغيير الضروري واللازم لإعادة البحوث إلى الطريق الصحيح، ومن تخفيف الأضرار وتفادي سوء التخطيط والتسيير في مواجهة الأخطار والتحديات المستقبلية.

إنّ الحديث والمعاصر بعقلانيته الأداتية ونزعته التقنية، وتوجهه المادي النفعي، قد شيّأ الواقع وجعل منه موضوعا ومجالا للاستبداد العقلي والسيطرة الحسابية الآلية الميكانيكية. من نتائج هذا التوجه العلمي والتشيؤ سطوة الاقتصاد على مجرى الوجود والحياة، حيث طغت الممارسات الاستهلاكية والنزعات الربحية والصراعات الاقتصادية على المجتمعات المعاصرة، حتى في المجالات الحساسية مثل الطب والبيولوجيا التي كان من الواجب إخراجها من دائرة الربح والاقتصاد وتسخيرها لخدمة الإنسان وحمايته، فالعالم الإنساني الحي لا يصلح أن يكون موضوعا للبحث التجريبي المادي، بل يجب مقاربته مقاربة تحافظ على خصوصيته وعلى كرامة الوجود الإنساني، المتأسس على التعاطف الوجداني والمودة المتضامنة والتشارك البناء والتعاون بدل قيم الذاتية والأنانية المقيتة (عون، 2020، ص24). إنّ هذا التوجه العلمي سبب من أسباب العجز الطبي والأخلاقي الذي نشهده اليوم أمام تفشي جائحة كورونا، لأنه تعلق بعالم الأشياء والموضوعات المادية على حساب الإنسان وجوهره الإتيقي والوجودي وكيفية حمايته من الأخطار المحدقة به، وعلى رأسها الأمراض والفيروسات. فتوجه الطب نحو بحوث الاستنساخ والإجهاض والتعزيز الجيني والتعديل الوراثي وغيرها من

البحوث التي تهدر فيها كرامة الإنسان وتنتهك فيها قدسية الحياة، وتسلب فيها قيمة الإنسان، توجه خاطئ مدفوع بأسس ومقولات الحداثة التقنية والعلمية من قبيل فكرة الزهو بالذات والحرية والعقلانية، تستوجب إعادة النظر في هذا التوجه وفي الأسس التي يرتكز عليها، والتركيز على دراسة الأمراض والفيروسات المصاحبة للوجود البشري منذ القديم إلى يومنا هذا ولا تزال، خدمة للإنسان وحفاظا على حياته، وتقديسا لكرامته ووجوده.

سبيل الخروج من هذه الأزمة يقتضي تحرير الحياة والطب والبيولوجيا من سجن وقيود الأداتية والحسابية والإنتاجية، وبالتالي ضرورة إخضاع العلوم- بما فيها الطب والبيولوجيا- لإرشاد الفكر الإنساني الذي تقوده الفلسفة، قصد اكتشاف الأنا البشرية الواعية والحرة والقادرة على العيش في نعيم وبركات الوجود، وعليه التخلص من قيود الإعلام السوقي الافتراضي المزيف. إنّ الغاية الإنسانية الهادفة تقتضي انتهاج سبيل جديد يحتضن تدفق الحياة في عالم الإنسان الحكيم، المعترف بقدسيته وكرامته وبصيرته ووعيه المشترك في الوجود مع غيره، والمتخلص من الكماليات المادية، والمتشوق إلى الإرتقاء في الوجود والحياة والكرامة والخصوصية (عون، 2020، ص 25).

تفرض علينا جائحة كورونا اليوم إعادة النظر في النظام الصحي على مستوى العالم، حيث يعاني من تشتت الجهود وغياب استراتيجية عمل واضحة، وعليه ضرورة تأسيس نظام صحي عالمي موثوق رفيع المستوى والإمكانيات، يجمع جميع الدول والوكالات الدولية للتعاون في مجال الأمراض والفيروسات، بحيث يتم إعلان كل التفاصيل المتعلقة بالفيروسات والأمراض المستجدة في وقتها وعدم اللجوء إلى التستر والإخفاء، وكذا ضرورة التعاون من أجل التصدي لها ومحاولة علاجها في أقرب وقت ممكن. فنحن اليوم في حاجة ماسة إلى أنظمة مراقبة تخول لنا اكتشاف الحالات الفيروسية والمرضية في وقت مبكر، كما يعتبر الوقت الراهن اللحظة المناسبة لتحسين وتعزيز أنظمة الاستجابة والمراقبة، عن طريق تعزيز مراقبة الأمراض الناشئة والفيروسات المستجدة بدل بحوث التعزيز الجيني والتعديل الوراثي والاستنساخ والإجهاض وغيرها، وكذا ضرورة الاستثمار في الأدوية والعلاجات والتشخيصات لكل تهديد معروف وموجود (ماكنزي، 2020، ص 161).

أما على المستوى الإتيقي فنحن بحاجة إلى إعادة ملء الجانب الروحي للإنسان المعاصر بقيم الدين لتخفيف الأضرار النفسية والاضطرابات والقلق والهلع الذي أفرزه فيروس كورونا، فالدين مصدر الاطمئنان والثقة والأمل والتوازن النفسي والروحي، إذ يعد الخطاب الديني ضرورة ملحة من أجل تحقيق التوازن وتخفيف الأضرار وترميم الثقة التي فقدت، بسبب عجز العلم عن مواجهة الوباء، وبالتالي انتهاء أسطورة العلم الجالب للسعادة، وتحطم المصداقية والثقة العمياء التي نسجت حوله وانكشاف الوهم والخديعة. إننا اليوم ملزمون أكثر من أي وقت مضى بضرورة التخلص من قيم الفردانية الأنانية وقيمها الأخلاقية الجشعة ونظرتها الضيقة للحياة والوجود، والاستبداد الذاتي الإقصائي، وعليه ضرورة الانفتاح على الآخر من خلال قيم التضامن والتعايش المشترك والتعاون والتكافل الاجتماعي والتحلي بالمسؤولية الاجتماعية تجاه الذات أولا واتجاه الآخر ثانيا، قصد الخروج من الأزمة بأخف الأضرار. إنّ التحلي بالأخلاق الجماعية التي تهدف إلى منفعة ومصلحة الجميع وتحافظ على قدسية الحياة والكرامة البشرية، هي الأجدر اليوم بأن تتبوأ صدارة الترتيب القيمي في المنظومات الإتيقية، ومن ثمة التخلص من قيم الفردانية الذاتية.

كشف فيروس كورونا هشاشة التضامن الدولي وعدم صموده في لحظات الأزمة الحرجة بسبب التوجه الفرداني الجشع والأناني والاستعلاء والاحتكار والإقصاء تجاه الآخر. فالآخر اليوم هو سبب لوجودي وسلامتي وضمان استمراري في الحياة، عندما نتضامن معا ونتحلى بالمسؤولية الوقائية تجاه بعضنا، فهو شرط ضروري للبقاء على قيد الحياة، فلم يعد الآخر جحيما كما قال سارتر، بل أصبح ضرورة للعيش المشترك والتعاون والتضامن، لتتهوى بذلك الفلسفات الذاتية الإقصائية، مما يستوجب تأسيس فلسفات إتيقية منفتحة تكرس قيم التشارك والتعاون والاختلاف كقيم مركزية لا قيم هامشية(مجموعة مؤلفين، 2020، ص 413).

إنّ الأزمة البيوطبية والإتيقية تفرض علينا إعادة النظر في الأسس والمرتكزات والقيم التي أثبتت عجزها في مواجهة فيروس كورونا.

خاتمة:

من خلال تحليل ومناقشة الأزمة البيوطبية والإتيقية المعاصرة الناتجة عن فيروس توصلنا إلى ما يلي:

عرف العلم المعاصر تقدما غير مسبوق، خاصة في ميداني الطب والبيولوجيا اللذين تزعما التطور العلمي في القرنين الأخيرين، حيث شهد الطب والبيولوجيا تطورا مذهلا على كافة المستويات العلاجية منها والتشخيصية، وعلى مستوى التقنيات والوسائل، لا سيما بعد دخول الحاسوب والتقنيات المعلوماتية في بحوث وتجارب الطب والبيولوجيا الذي زاد في سرعة التقدم، ودقة ونجاعة البحوث والتجارب البيوطبية. رغم هذا التطور المذهل في الطب والبيولوجيا، إلا أنهما عجزا عن مواجهة فيروس مجهري، حيث ثبت فشلهما الذريع على كافة الأصعدة ففي التشخيص لم تعرف أسباب الفيروس ولا خصائصه وتركيبته، وفي العلاج لم يتم التوصل إلى علاج أو لقاح إلى يومنا، ولم تُجْدِ المضادات الحيوية ولا المكملات الغذائية نفعا مع هذا الوباء، ما يؤكد حجم الأزمة البيوطبية المعاصرة التي فاقت الحدود والتوقعات لا سيما مع التطور البيوطبي المعاصر، الذي عقدت عليه الآمال، وحظي بثقة وشهرة منقطعة النظير في قدرته على مواجهة كل التحديات مهما كان نوعها، لكنه وقف عاجزا أمام جائحة كورونا.

كشف فيروس كورونا عن المكنونات الإتيقية الدفينة، وعلى القيم المبطنة في سلوكات الأفراد، من قبيل قيم الفرادانية والجشع والأنانية والاستبداد والاحتكار والتدمير والقتل والسرقة وغيرها، وغياب شبه تام لقيم التضامن والتعاون والتعايش المشترك، مما زاد من عمق الأزمة، وبالتالي وجب إعادة النظر في المنظومات الإتيقية وفي القيم السائدة المستمدة من الحداثة والتي ثبت فشلها في أكثر من مناسبة، لعل أكبرها فيروس كورونا المستجد.

إنّ هذه الأزمات المتتالية التي خلفها الوباء وفي مقدمتها الأزمتان البيوطبية والإتيقية، تستوجب علينا التفكير بجدية في ضرورة تغيير توجهاتنا وأولوياتنا، ومرتكزات منظوماتنا المعرفية والقيمية، فبنظرة نقدية فاحصة يتضح لنا أن هذه الأسس والقيم ليست مؤهلة لمقاومة التحديات الطارئة والمتزايدة يوما بعد يوم، خاصة أن هذه التحديات تمس بصورة مباشرة الحياة الإنسانية المقدسة، وعليه

يجب توجيه العلم نحو خدمة الحياة المقدسة والكرامة البشرية والمنزهة عن كل تطبيق تجريبي مادي يهدد وجودها وجوهرها المقدس، في كنف منظمة قيمية تكرس قيم التضامن والتعاون لمواجهة التحدايات وتكريس ثقافة العيش المشترك. وبالتالي وجب التفكير والتخطيط لما بعد كورونا انطلاقا من الدروس التي قدمها الوباء للبشرية جمعاء. يجب أن نطور استراتيجياتنا ومخططاتنا وأنظمتنا الوقائية من مثل هذه الأوبئة، عن طريق تحسين وتعزيز أنظمة المراقبة والاستجابة الفورية، والصناعات الدوائية لإنتاج المضادات واللقاحات والعلاجات في أقرب وقت، وتجهيز المختبرات بأفضل الوسائل وادخار أكبر قدر من المعدات الطبية والمستلزمات الوقائية لتفادي النقص، وتكثيف البحوث حول الفيروسات والأمراض بدل البحوث التعزيزية والتحسينية التي تنتهك قدسية الحياة أكثر من تقديمها المنفعة.

المراجع:

1. الحاج حسن. (2020). التحولات القيمية في ظل تحدي كورونا. مجلة الاستغراب.العدد 20. المركز الإسلامي للدراسات الإستراتيجية
2. اللجنة الوطنية الصينية للصحة ومكتب الإدارة الوطنية للطب الصيني. (2020). الدليل الشامل لفيروس كورونا المستجد (معارف عامة، الأعراض، التشخيص، طرق الوقاية، الرعاية النفسية، الشائعات). دط. القاهرة: بيت الحكمة للاستثمارات الثقافية.
3. إيبورا ماكنزي. (2020). كوفيد-19 الوباء الذي ما كان يجب أن يظهر وكيف نتجب الوباء التالي. ط1. ، بيروت، لبنان: الدار العربية للعلوم ناشرون.
4. جان شارل سورنيا. (2002). تاريخ الطب من فن المداواة إلى علم التشخيص. دط. ، الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب.
5. جويل دو روزناي. (2003). مغامرة الكائن الحي. ط1. بيروت، لبنان: دار الطليعة للطباعة والنشر.
6. فانغ هوي. (2020). دليل الوقاية من فيروس كورونا المستجد. دط. المستقبل الرقمي.
7. مجموعة مؤلفين. (2020). الزمان الوبائي دراسات في الدين والفلسفة والفكر. دط. أكادير: منشورات تكامل للدراسات والأبحاث مطبعة قرطبة.
8. مجموعة مؤلفين. (دت). أزمة كورونا وانعكاساتها على علم الاجتماع وعلم السياسة والعلاقات الدولية. مركز ابن خلدون للعلوم الإنسانية والاجتماعية جامعة قطر.

9. محمد نبيل دك الباب. (2000). الصراع من أجل البقاء الطبيب في عصر المعلوماتية ط1). دمشق: دار الرضا للنشر.

10. محمد ولد عامر، وآخرون. (2020). معجم مصطلحات كوفيد-19 إنجليزي فرنسي عربي. دط. الرباط، المملكة المغربية: المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم مكتب تنسيق التعريب.

11. مظهر أحمد الموصلي. (2020). الكورونا الوقاية والعلاج يالنباتات الطبي. دط. دب: دار المعتز للنشر والتوزيع.

12. معاوية أنور العليوي. (2020). كورونا القادم من الشرق. ط1. دب: منارة العلم.

13. موشير باسيل عون. (2020). الوعي الكوروني الطارئ. مجلة الاستغراب.العدد 20. المركز الإسلامي للدراسات الإستراتيجية

14. ميتشو كاكو. (2001). رؤى مستقبلية كيف سيغير العلم حياتنا في القرن الواحد والعشرين.دط. الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب.

15. AbboMichael. (2020). A doctor answers you questions.Howsmyhealthdoc.com.

16. Hobbes Thomas, & Hreng Thomas. (n.d.). Coronavirus closings the hoppenings Covid-19.

17. *Prablakar Hemanshu. (2020). clinical synopsis of Covid-19 evolving and challenging. springer nature, Singapure.*

البيوتيقا: رؤية جديدة أثناء و بعد الجائحة

-نفاي وردية
جامعة الجزائر2: ابو القاسم سعد الله / مخبر مشكلات الحضارة و التاريخ
جامعة الجزائر2 neffai.wardia.2020@gmail.com
- جبارة صافية
جامعة الجزائر2: ابو القاسم سعد الله /مخبر مشكلات الحضارة و التاريخ
جامعة الجزائر2 safiadjebara@gmail.com

ملخص المداخلة:

الهدف من هذا البحث هو إبراز دور البيوتيقا في ظل جائحة كورونا، هذه الجائحة التي تفرض احتمالين إما أن تكون حربا بيولوجية أو تكون وباء كسائر الأوبئة، فإذا اعتبرناها حربا بيولوجية فهنا وجب على خبراء البيوتيقا تفعيل قوانين أخلاقيات البيولوجيا لأنها الرادع الوحيد لهذه الممارسات، أما إذا اعتبرناها وباء كسائر الأوبئة فهنا يجب تنمية الحس الأخلاقي بين الفرد ومجتمعه، فهو يبدأ بالتزام الفرد وإعادة إنتاج سلوكه وإحداث التغيير في ذاته ونقلها من حالة الأنا والذاتية إلى المجتمع والصالح العام، أما بعد الجائحة فإن دور البيوتيقا يضل وفق هذين الاحتمالين، فإذا اعتبرناها حربا بيولوجية وجب وضع رقابة على المختبرات البيولوجية، ورفع القضية إلى منظمة الصحة العالمية والأنتربول لعدم التسبب في حرب بيولوجية أخرى، أما إذا اعتبرناها وباء فوجب دائما التحسيس بالسلوكيات الأخلاقية الواجب اتخاذها في مثل هذه الأوبئة، وفي كل الحالات فإن هذه الجائحة قد سلطت الضوء على تخصص البيوتيقا بعد التعتيم الإعلامي الذي طاله.

الكلمات المفتاحية: البيوتيقا، الكورونا، الحرب البيولوجية، الوباء.

مقدمة:

اهتز العالم في الآونة الأخيرة على ما يعرف بجائحة كورونا. هذا الوباء الذي مس في البداية الصين لينتقل بعد ذلك إلى باقي بلدان العالم و يبث الرعب فيها، فلأول مرة صار اهتمام البشرية اهتماما واحدا فتحولت اهتمامات الناس إلى مراقبة عدد الإصابات ونسبة الوفيات أو بالأصح مراقبة الموت، وبطبيعة الحال أثر هذا الوباء على مختلف ميادين الحياة، ومثلما مس هذا الوباء مختلف المجالات فمعالجته أيضا ليست من اختصاص الأطباء وحدهم بل يجب أن تشترك كل الميادين في إيجاد الحلول، ولم يقتصر الأمر على الميادين الاقتصادية بل امتد إلى الميادين الاجتماعية والنفسية والفلسفية، ومن التخصصات التي ظهرت للعيان في ظل هذه الجائحة ما يعرف بالبيوتيقا إلى ما يعرف بالأخلاقيات الطبية والبيولوجية، وهي فرع من الفروع التي تهتم بالجانب الآخر للعلم، وتمثل جانبا آخر للفلسفة لأن هناك نوعين من الفلسفة، فلسفة عالمة مرتبطة بمؤلّف ما ومبحرة فيه وهي شبه ميّتة، وفلسفة تريد أن تأخذ بعين الاعتبار كلّ ما يجري في عالمنا الحاليّ، فالبيوتيقا تهتم بالقضايا الرّاهنة وهو الفرع الذي يهتم بالجانب الأخلاقي للعلوم البيولوجية الطبية، ذلك أنّ تقدّم البيولوجيا والطّبّ يثير قضايا مصيريّة تقلب أسس وجودنا نفسها: أي العائلة والجسد والإنجاب ومختلف القضايا الطبية والبيولوجية التي تخلق لنا إشكاليات، لهذا نحاول في البحث التطرق إلى دور البيوتيقا في ظل هذه الجائحة التي مست العلم، لذلك قمنا بطرح الإشكالية التالية: ما هو دور الأخلاقيات البيولوجية والطبية في ظل وباء كورونا وبعدها؟

أهداف البحث:

نسعى في هذه الورقة البحثية إلى إبراز دور البيوتيقا في ظل جائحة كورونا ومكانتها قبل وبعد الجائحة.

محاور البحث:

وللإجابة على الإشكالية التالية قسمنا بحثنا إلى محاور:

المحور الأول: تعريف البيوتيقا

المحور الثاني: تعريف جائحة كورونا

المحور الثالث: دور البيوتيقا في ظل هذه الأزمة ودورها بعد الأزمة

1. تعريف الأخلاق الطبية:

ظهر مصطلح الأخلاق البيولوجية في أواخر القرن العشرين، والمصطلح يتكون من مقطعين هما ""Bio تعني الحياة، و"ethics" وتعني المبادئ والقواعد لما هو صواب أو خطأ. وعلى الرغم من أن المصطلح حديث النشأة إلا أن المفهوم قديم الممارسة. فالمصطلح عبارة عن كلمة ومفهوم، و يرجع تاريخ المصطلح إلى عام 1970، أما المفهوم فهو الدلالة اللفظية التي تصدق على كل الممارسات غير الأخلاقية الموجودة منذ فجر التاريخ (potter, 1970)، فهذا المصطلح ظهر في القرن العشرين الذي يتميز بالازدهار العلمي فنجد تطورا في مختلف المجلات العلمية خاصة الطبية التي عرفت نقلة نوعية وصل فيها الطب إلى أعلى مستوى من التطور.

ولكن هذا التطور العلمي أو الثورة العلمية التي ميزت القرن العشرين أثرت على الجانب الإنساني للإنسان؛ الذي صار مثل الآلة، وأهملت الجانب الروحي له كونه إنسانا، مثلما نهتم باحتياجاته الخارجية يجب الاهتمام باحتياجاته الداخلية كونه روحا وذاتا، هذا الاهتمام تولد عنه ظهور بعض المذاهب الفلسفية التي تهتم بالجانب الروحي للإنسان.

فالثّورات الّتي تطال علم الحياة والقانون والفنّ والإنتاج هي من الأهمّيّة بحيث يجب على الفيلسوف أن يستكشفها وأن يفكّر فيها وأيضا يجب احترام كونه إنسان يعيش في مجتمع له قوانينه ودينه. عليه الحفاظ على علاقته بمجتمعه ودينه، فيجب أن لا نطلق العنان للتطور العلمي الطبي دون تقييده بسلطة الدين والقانون والمجتمع.

وهذا ما تحاول البيوتيقا القيام به، فقد استخدم بوتر مصطلح الأخلاق البيولوجية كنظام جديد يجمع بين المعرفة الحيوية ومعرفة الأنظمة القيمية للإنسان حيث أكد أن: علوم البقاء على قيد الحياة يجب ألا تكون أكثر من مجرد علوم، لذلك اقترحت مصطلح الأخلاق البيولوجية للتأكيد على العنصرين الأكثر أهمية في تحقيق الحكمة الجديدة التي نحتاج إليها وهما المعرفة البيولوجية والقيم الإنسانية، ثم استخدم المصطلح عنوانا " لكتاب صدر عام 1971 بعنوان الأخلاق البيولوجية جسرا إلى المستقبل" (محتال، 2017/2016، صفحة 81)

صك بوتر المصطلح ليؤكد مدى احتياجنا Bioethics: Bridge to the Future. لأخلاقيات يمكن أن تدمج واجباتنا ليس فقط تجاه الأشخاص الآخرين وإنما تجاه المجتمع والمحيط الحيوي ككل، وكان يهدف إلى إقامة أخلاقيات شاملة تتسع لتشمل علوم البيئة والطب فهو يؤكد على أن:

هدف فرع المعرفة هذا، يمكن أن يكون بمثابة مساعدة للجنس البشري نحو الفكر والمشاركة الحذرة في عمليات التطور البيولوجي فهو قد اختار مصطلح Bio لعرض المعرفة البيولوجية، ومصطلح ethics لعرض القيم الإنسانية.

2. تعريف جائحة الكورونا (كوفيد 19):

فيروسات كورونا Coronavirus هي سلالة واسعة من الفيروسات التي قد تسبب المرض للحيوان والإنسان. ومن المعروف أن عددا من فيروسات كورونا تسبب لدى البشر أمراضا تنفسية تتراوح حدتها من نزلات البرد الشائعة إلى الأمراض الأشد وخامة مثل متلازمة الشرق الأوسط التنفسية(ميرس) والمتلازمة التنفسية الحادة الوخيمة (سارس). (شلالي، 2015/2014)، ويسبب فيروس كورونا المُكتشف مؤخراً مرض كوفيد-19. حسب **منظمة الصحة العالمية** مرض كوفيد-19 هو مرض مُعْد يسببه آخر فيروس تم اكتشافه من سلالة فيروسات كورونا. ولم يكن هناك أي علم بوجود هذا الفيروس الجديد ومرضه قبل بدء تفشيه في مدينة ووهان الصينية في ديسمبر 2019. وقد تحوّل كوفيد-19 الآن إلى جائحة تؤثر على العديد من بلدان العالم. ولهذا الفايرس التاجي الجديد MERS-CoV خاصية الانتحاء القوي نحو الجهاز التنفسي خاصة الخلايا الطلائية الشعيبية غير المهدبة لدى الإنسان ويعتبر أمرا فريدا من نوعه لأن معظم الفيروسات التنفسية تستهدف الخلايا المهدبة.

وتتمثل الأعراض الأكثر شيوعا لمرض كوفيد-19 في الحمى والإرهاق والسعال الجاف. وتشمل الأعراض الأخرى الأقل شيوعا ولكن قد يُصاب بها بعض المرضى: الآلام والأوجاع، واحتقان الأنف، والصداع، والتهاب الملتحمة، وألم الحلق، والإسهال، وفقدان حاسة الذوق أو الشم، وظهور طفح جلدي أو تغير لون أصابع اليدين أو القدمين. وعادة ما تكون هذه الأعراض خفيفة وتبدأ بشكل تدريجي. ويصاب بعض الناس بالعدوى دون أن يشعروا إلا بأعراض خفيفة

جداً .(orginazation، 2020)، فهذه الأعراض تشبه نوعا ما الإنفلوزا الموسمية ولكنها أكثر حدة، وتتراوح خطورة هذا الفيروس على حسب الأشخاص لأن معظم الناس (نحو 80%) يتعافون من المرض دون الحاجة إلى علاج خاص.

ولكن الأعراض تشتد لدى شخص واحد تقريباً من بين كل 5 أشخاص مصابين بمرض كوفيد-19 فيعاني من صعوبة في التنفس. وتزداد مخاطر الإصابة بمضاعفات وخيمة بين المسنين والأشخاص المصابين بمشاكل صحية أخرى مثل ارتفاع ضغط الدم أو أمراض القلب والرئة أو السكري أو السرطان. (organization، 2020).

وينبغي لجميع الأشخاص، أيا كانت أعمارهم، التماس العناية الطبية فوراً إذا أصيبوا بالحمى و/أو السعال المصحوبين بصعوبة في التنفس ضيق النفس وألم أو ضغط في الصدر أو فقدان القدرة على النطق أو الحركة. ويوصى، قدر الإمكان، بالاتصال بالطبيب أو بمرفق الرعاية الصحية مسبقاً، ليتسنى توجيه المريض إلى العيادة المناسبة.

3. البيوتيقا والكورونا رؤية للجائحة وما بعد الجائحة:

3.1.البيوتيقا والكورونا رؤية للجائحة:

يظهر دور البيوتيقا في ظل هذه الجائحة وفق احتمالين، إذا اعتبرنا جائحة كورونا حربا بيولوجية، وإذا اعتبرناها مجرد وباء كغيره من الأوبئة.

الجائحة حرب بيولوجية:

تعريف الحرب البيولوجية: الحرب البيولوجية بمفهومها الواسع هي استعمال كائنات حية(البكتيريا والفطريات والفيروسات والكائنات الدقيقة المعدلة وراثيا)، (عاشور م.، 2005) أو نواتج نموها في إضعاف كائن آخر أو موته، لأسباب استراتيجية تهم من يستعمل هذه النوعية من الحروب، فهي إرهاب بأتم معنى الكلمة، لأنها تؤدي إلى الموت البطيء للإنسان، ففي السابق كانت الحروب مباشرة ووفق ما هو متعارف عليه وينتج عنه سقوط ضحايا، لكن نشر الأوبئة وإصابة الأشخاص بهذه الأوبئة يؤدي بهم إلى التساقط والموت الواحد تلو الآخر، وهذا ما يسمى بالموت البطيء، كما يبعث الذعر والخوف في نفوس الناس لخوفهم الدائم من الإصابة بهذه الأوبئة.

والأسلحة البيولوجية بديل للأسلحة المتعارف عليها، وهي نوع آخر من الحروب، تتميز بسهولتها وفعاليتها إذا ما قارنّاها بالأسلحة التقليدية.

فالحرب البيولوجية ليست فكرة غريبة على الصراعات الدولية، إذ كانت الأسلحة البيولوجية محل اهتمام الكثير من قادة الحرب كونه سلاح فتاك غير تقليدي لذلك قامت العديد من الدول بتأسيس مراكز علمية وتوظيفها لتطوير الأسلحة البيولوجية مثلما فعلت بريطانيا في عام 1940 حيث تمكنت من إنتاج أول قنابلها البيولوجية المعبأة بجرثومة الجمرة الخبيثة، فكانت الجمرة الخبيثة أول مرض مكروبي معروف تم استعماله في حرب بيولوجية (عاشور، 2005)، وفي الولايات المتحدة شهد عام 1942 تأسيس أول مكتب لبحوث الحرب البيولوجية في وزارة الدفاع الأمريكية، وعلى الرغم من أن أول استخدامات الأسلحة البيولوجية في التاريخ الحديث غير معروفة على وجه الدقة، لكن أبرزها كان خلال الحرب العالمية الأولى عندما استخدم الجيش الألماني(الجمرة الخبيثة، ومرض الرعام، والكوليرا) كأسلحة بيولوجية. وفي حرب فيتنام عندما استخدم الجيش الأمريكي الأسلحة الجرثومية ضد قوات(الفييت كونج) والقرى والبلدات الفيتنامية.

من الفيروسات التي يؤدي انتشارها إلى حدوث كارثة ما يعرف بفيروس كورونا فعلميّا تُعدّ فيروسات كورونا حيوانية المنشأ، وهي قادرة على الانتقال من الحيوان إلى الإنسان ومن ثم تنتقل العدوى من إنسان مصاب إلى إنسان آخر، لأنّ حالات الإصابة الأولى به تعود في أصلها إلى أشخاص من سوق لبيع الأسماك والحيوانات في مدينة(ووهان الصينية)، ولم يتمكن العلماء من تحديد الحيوان الذي بدأ من خلاله انتقال العدوى إلى الإنسان بشكل مؤكد حتى الآن، وتشير أدلة وتقارير منظمة الصحة العالمية ومراكز مكافحة الأمراض إلى أنّ فيروس كورونا الجديد يمتلك أيضا القدرة على نقل العدوى من إنسان مصاب إلى إنسان آخر مما يفسر معدل انتشاره المتسارع.

هل هي حرب بيولوجية؟

فزع العالم من فيروس كورونا يزداد بوتيرة متصاعدة، فحالات الإصابة المؤكدة بالمرض في ارتفاع ملحوظ والوفيات كذلك، والاستنفار العالمي لمواجهة انتشار

الفيروس في أشدّه، بينما مساحة عدوى المرض تتسع بشكل سريع، إلى حد أن منظمة الصحة العالمية أعلنت أن فيروس كورونا هو جائحة عالمية بمعنى إنه أشدّ من الوباء العالمي. في خضمّ هذا المشهد المرتبك، تتباين الآراء والتصورات عن طبيعة فيروس كورونا ومصدره، وفيما إذا كان حالة مرضية تطورت بفعل عوامل طبيعية، أم أنّ هذا الفيروس تمّ تطويره في مختبرات بيولوجية وانتشر بفعل خطأ غير مقصود، أو ربما لاستخدامه ضد البشرية ضمن نطاق حرب بيولوجية مخطّط لها.

ونتيجة لغياب بعض المعلومات المؤكدة عن مصدر وطريقة انتشار فيروس كورونا الجديد لأول مرة، وكأي حدث خطير ذي أبعاد وتأثيرات مهمة وكبيرة، فقد خضعت مسألة فيروس كورونا إلى جدل واضح يتضمن في أحد جوانبه ترجيح كفة نظرية المؤامرة عندما ظهرت على السطح العديد من الروايات القائلة بأن نشوء الفيروس وانتشاره ناتج عن جهد بشري منظم ومقصود تختفي وراءه غايات اقتصادية وسياسية في ظلّ توافر العديد من الدلائل الوبائية والأعراض المَرضية التي يعتقد البعض أنها تُشير لحدوث هجوم بيولوجي، منها مثلا حدوث الإصابة بفيروس كورونا لأسباب غير معروفة، أو وجود سُلالة غير عادية نادرة منه، أو مُعدلة وراثيًّا، كذلك ارتفاع معدلات المرضى والوفيات ممن يُعانون من أعراض متشابهة.

الحرب البيولوجية السياسية:

هذه الحرب البيولوجية لها عدة أهداف؛ فإما أن تكون حربا بيولوجية هدفها استهداف الدول الكبرى و إضعافها اقتصاديا، وإما أن تكون حربا سياسية هدفها القضاء على الدول المجابهة لها والمنافسة لها، وهذا ما أدى إلى وضع البلدان الكبرى في خانة المستهدفين والمسؤولين عن هذه الحرب البيولوجية.

أول من وضع في خانة المجرمين، واشنطن أما المستهدف فهي القوة المقابلة والتي لها صراع سياسي معها وهي إيران، إلى أن واشنطن عملت على هذا السلاح البيولوجي وفق آلية لانتقاله إلى إيران، بُغية إنهاكها ومحاولة عزلها بالكامل عن محيطها، في هذا الإطار صرّح زعيم الحزب الليبرالي الديمقراطي الروسي، فلاديمير جيرينفوكي لمحطة إذاعية في موسكو، بالقول" إن كورونا فيروس يقف خلفه

البنتاغون بمساعدة شركات الأدوية بهدف خلق أوبئة محلية يمكن أن تُدمر مجموعة مختارة من السكان دون الانتشار في دول أخرى". واللافت أيضاً أن السياسي الروسي إيغور نيكولين، وضح لعدد من المنابر الإعلامية، أن المختبرات الأميركية المُنتشرة حول العالم تقوم بجمع ومعالجة المواد الوراثية للسكان الروس والصينيين والإيرانيين من أجل تطوير فيروس- مُحدّد عرقيا- يستهدف شعوبا معينة فقط. (قحطان طاهر، 2020) وفي الغالب يكون هدف كل الحروب بصفة عامة القضاء على الجانب الاقتصادي لأن كل الصراعات السياسية أساسها صراعات اقتصادية؛ فالحرب بين أمريكا وإيران هي صراعات اقتصادية بثوب سياسي.

الحرب البيولوجية الاقتصادية:

بالنسبة إلى الحرب السياسية؛ فنحن نجد طرفا أمريكا وإيران في المقدمة أما الحرب الاقتصادية فممثلاها الرئيسيان هما أمريكا والصين، ونجد تلميحا لحرب بيولوجية اقتصادية في موقع Zvezda الروسي، الذي تموله وزارة الدفاع الروسية، مقالا تحت عنوان(فيروس كورونا.. الحرب البيولوجية الأميركية ضد روسيا والصين وإيران)، حيث بدأ المقال بعرض بعض الخسائر التي تعرض لها الاقتصاد الصيني بسبب كورونا، ليدعم أدلته بشأن المؤامرة الأميركية المفترضة، مُضيفا" ذلك يهدف إلى إضعاف بكين في الجولة المقبلة من المفاوضات التجارية مع واشنطن"، واستعرض المقال الجدل القائم بشأن الشكوك الروسية حول وجود ما يقارب 25 مختبرا أمريكيا للأبحاث البيولوجية في عدد من الدول القريبة من الصين، مثل جورجيا وأوكرانيا وأوزبكستان، على الرغم من توقيع أميركا اتفاقية جنيف بشأن الأسلحة البيولوجية في 1975. وأضاف المقال" إن هذه المختبرات تخبئ وراءها نية خبيثة، لاسيما بعد انتشار تقارير مفادها أن المختبر الحيوي الأميركي في جورجيا قد اختبر أسلحة بيولوجية قاتلة على مواطنين جورجيين". (قحطان طاهر، 2020)، فالصين كانت من بين البلدان الأولى التي تم اتهامها في التسبب في هذا الوباء على الرغم من أنها من أكثر البلدان التي عانت منه، فالصين تظهر كضحية وكمستهدفة وأيضا كمتسببة لهذا الوباء.

الاتهام الثاني نجده في المقابلة التي أجراها المحامي الأمريكي فرانسيس بويل وأستاذ القانون الدولي ومؤلف كتاب الحرب البيولوجية والإرهاب الذي يرى بأن الصين هي المتسبب في هذا الوباء، وهذا لأن مدينة ووهان تحوز على مختبر فيروسات مميتة من أصل 50 مختبر في العالم والذي تم بناؤه في 2015، وحصل على شهادة المختبر عالية الأمان من قبل السلطات الصينية في يناير 2017 ولم يقتصر اتهامه للصين بل تعدى إلى منظمة الصحة العالمية التي يرى بأنها مسؤولة عن هذا الوباء لأن مختبر ووهان مصمم من المنظمة العالمية(Audureau, 2020)، وهذا يعني أنها تعلم بهذا وهي المسؤولة عن هذا الوباء.

فإذا تم التأكيد على فرضية أن فيروس كورونا مصنع، فهذا يعني أن الجهة التي صنعته قد خرقت الاتفاقيات الدولية التي تحظر تطوير وتصنيع الأسلحة الكيميائية والبيولوجية، ولكن كيف يمكن للبيوتيقا أن تسهم في الحد من هذا الخطر؟

من أهم الخطوات التي يجب على خبراء البيوتيقا القيام بها: وضع رقابة على المختبرات العلمية، والتشديد على عقاب المتسببين وتفعيل القوانين التي تعاقب هذه الممارسات، فيجب القيام بعمل رقابة على مختلف المختبرات البيولوجية مثل الرقابة على المختبرات الخاصة بالفيزياء النووية.

وأهم ما يمكن القيام به التركيز على جانب الوعي والتثقيف، أما الأمور الأكثر فاعلية فهي في تثقيف باحثينا الشباب كما يقول سبيستيان ليبل جرينير تدريب الجامعة لباحثي الغد(Pauline, 2003) والقيام بالتحسيس حول هذا الخطر في كل الجامعات والثانويات ومختلف القطاعات والنقطة الفاصلة في هذا الأمر هي وعي الطلاب ومسؤوليتهم في هذه الجوانب الأخلاقية؛ لأن هناك من لا يعرف حتى هذه الاتفاقات الدولية؛ فالطلاب عليهم القيام بحملات توعوية يتطرقون فيها إلى هذه الحروب البيولوجية والمخاطر التي يمكن أن تنجم عنها.

هذا بالنسبة إلى الخطوات التي نضعها على عاتق البيوتيقا إذا اعتبرنا أن جائحة كورونا حرب بيولوجية، ولكن هذه الفرضية نسبة قبولها تبدو ضئيلة وهذا راجع إلى عدة احتمالات: فالتأمل جيدا في الآراء القائلة إن فيروس كورونا تمّ تطويره ونشره من قبل البشر، يضع أمامنا بعض الحقائق يمكن من خلالها الردّ

على هذه الآراء، فالقول بوقوف الولايات المتحدة وراء فيروس كورونا لم يتأكد علميا وثبت خطؤه عندما انتشر الفيروس في عقر دارها، لأنه من غير المعقول أن تصنع الولايات المتحدة فيروسا وتنشره دون أن تصنع اللقاح المضاد له أو تضمن عدم انتشاره عالميا وتحوله إلى خطر يداهم الشعب الأمريكي كما يحصل أثناء كتابة هذه السطور.

أمّا فرضية وقوف الصين وراء فيروس كورونا؛ فإنها لا تصمد أيضا أمام النقد فاقتصاد الصين وتجارتها العالمية أُصيبا بضرر جسيم نتيجة الشلل الذي عمّ الحياة العامة فيها بسبب كورونا، ولا يمكن لعاقل أن يقتنع بأن الحكومة الصينية تُلحق الضرر بدولتها وشعبها.

من جانب آخر، من المعروف أن الحرب البيولوجية تستخدم أثناء الحروب من خلال نشر الجراثيم والفيروسات القاتلة لأكبر عدد ممكن من الأعداء، بينما الظروف التي نشأ وانتشر فيها فيروس كورونا ليست ظروف حرب عسكرية، كما أن نسبة من يموت جرّاء الإصابة بكورنا قليلة جدا قياسا بنسبة من يصابون به، لهذا يمكن الأخذ بفرضية إنه وباء عالمي.

الكورونا وباء عالمي:

هذا إذا آمنا بالفرضية الأولى حول أن الكورونا حرب بيولوجية، أما إذا أخذنا بالفرضية الثانية التي ترى بأن الكورونا وباء كغيره من الأوبئة، فهنا يجب تبيين أخلاقيات التعامل مع هذا الوباء بين الفرد مع المجتمع بصفته محور هذا الوباء وبين المجتمع والمؤسسات؛ فالتساؤلات الأخلاقية في ظل هذا الوباء تتناول الفرد والمجتمع والمؤسسات لأنها كلها مشتركة في الحد من انتشاره.

أما بالنسبة إلى الفرد وعلاقته مع المجتمع ومسؤوليته الأخلاقية حول هذا الوباء، وبالتحديد الحد من انتشاره، فهذا الوباء قد أدى إلى استنتاج أن العلم والتكنولوجيا لا يكفيان أبدا لحل مشاكل الصحة العالمية بمفردهما بدلا من ذلك فنحن بحاجة إلى تكامل استراتيجي ومنهجي للعلوم الاجتماعية، ولم يعد بإمكاننا إهمال الأبعاد الاجتماعية لمشكلات الصحة العالمية فلا يمكن شراء القفازات والأقنعة وتوزيعها إذا لم تكن لدى الأفراد الحس بالمسؤولية والالتزام بشروط التباعد. فلا يمكن جعل الناس يثقون بالمؤسسات.

فعلماء البيوتيقا بدور لا غنى عنه في الأزمة الحالية؛ إذ يجب عليهم تخفيف العبء على الأطباء وصناع القرار عند اتخاذ قرارات صعبة وغير مسبوقة في كثير من الأحيان، ومن هنا فإنه يجب الحديث عن البيوتيقا ودورها في ضمان تأصيل ثقافة إنسانية قيمية مشتركة متوازنة قادرة على استيعاب ظروف الأزمة والتعايش معها عبر استنطاق منظومة القيم والأخلاق والمبادئ والاستراتيجيات والآليات التي تضمن قدرة الفرد على التعاطي الواعي مع متطلباتها بمهنية عالية وعقيدة إيمانية راسخة تقلل من حجم الأضرار المترتبة عليها والمخاطر الناتجة عنها.

وتظهر علاقة الفرد بالمجتمع أيضا، وتظهر في أخلاقيات الفرد في التعامل مع الأزمة والتكيف مع ظروفها والسلوك الذي يرافقه في كل مراحلها للوصول إلى إنتاج واقع جديد يتجاوز الأزمة ويزيل آثارها السلبية، والطريقة المثلى في التعاطي مع كورونا والحلقة الأقوى في الحد من انتشاره، بهدف إنتاج سلوك واعٍ رشيد، ومنهج أخلاقي جيد، وإدراك فكري يتسم بالقوة والمنهجية لخلق مساحة تقارب فكري وأخلاقي لقياس مستوى الوعي المتحقق لدى المواطن ومدى قدرته على إعادة إنتاج المواقف والأحداث، وقراءتها بطريقة إيجابية تحفظ للمجتمع هيبته وقوته.

وتبرز أخلاقيات الفرد في قدرته على صناعة التحول، وإدارة الأزمة وترقية الوعي وتصحيح المسار وتقويم اعوجاج الفكر، ونقل صورة مكبرة للواقع النوعي الذي يعيشه الشارع في التعاطي مع كورونا، وإيجابيته وثباته وتعاونه، والابتعاد عن التكهنات والأفكار والوساوس التي تحاول أن تزرع في سلوك الفرد هواجس الخوف، وزيادة مساحة الابتعاد عن الهدف أو تشتيت الانتباه وإثارة الرأي العام بقضايا أخرى قد تتقاطع مع أولويات وتوقعاتها نحو انحسار المرض والمؤشرات التي رسمها خبراء البيوتيقا المنظومة الصحية في القضاء عليه، والإجراءات التي اتخذها سواء بالتقيد التام بإجراءات العزل الصحي، وعبر البقاء في المنزل وهو الأساس، بالإضافة إلى تعزيز مساحات التباعد الاجتماعي ومنع الاختلاط والتجمعات العائلية والاختلاط المباشر (العالمية، 2020) ، بالإضافة إلى التزام الثقافة الصحية والتعليمات الواردة من جهات الاختصاص المتعلقة باتباع

العادات الصحية عند العطس والسعال والمداومة على غسل اليدين بالماء والصابون واستخدام المعقمات وغيرها.

وبالنسبة إلى المؤسسات والمجتمع؛ وأقصد المؤسسات الاستشفائية بالتحديد، ظهر هناك من الظلم لبعض المناطق على حساب أخرى وهذا ما ذكره طبيب أمريكي يشرف على مستشفى منهانتان في نيويورك فهو قد لاحظ عدم المساواة بين الولايات الأمريكية فمستشفى منهانتان قام بإجلاء مرضى من مستشفى بروكلين وكينز، لمساعدتهم على حساب مرضى هذه الولاية(j.Fins, 2020) ،هذا بالنسبة إلى التصرفات اللاأخلاقية للمؤسسات مع المجتمع، ونجد أيضا هذه الممارسات في تعامل المدرسة مع التلاميذ؛ فكثير من المدارس بقيت مفتوحة في ظل الوباء، وهذا ما يؤدي إلى انتشار الوباء بشكل سريع لأن المدارس أماكن لتجمع التلاميذ والأساتذة. وما أوجده من وضع كارثي خانق تطلب مستويات عليا من الجاهزية والاستعداد والتفعيل لخطوط التأثير ذات العلاقة بالأزمة والكوارث وتعزيز دور القطاعات المعنية بالإسعاف والإغاثة والإيواء أو تلك المرتبطة بجانب التوعية والإعلام.

3.2 دور البيوتيقا بعد الجائحة:

يتمثل دور البيوتيقا بعد الجائحة في أن على علماء البيوتيقا وباحثيها مراجعة قوانين أخلاقية فرضها تخصص البيوتيقا، وتندرج هذه الأخلاقيات ضمن قواعد قانونية تضبط سلوك الفرد مهما كان دوره في هذا التقدم العلمي؛ سواء كان طبيبا أم ممرضا أم مريضا، وقد عرف ما يعرف بالأخلاق الحيوية. فهذه القوانين عرفت في التدخل لردع كل الممارسات اللاأخلاقية التي تمس الجسم البشري مثل الاستنساخ والتعديل الجيني وأطفال الأنابيب... إلخ، ولكن في مجال الحروب البيولوجية لا توجد قوانين واضحة تردع هذه الممارسات لهذا وجب على علماء البيوتيقا التشديد على وضع القوانين وأيضا تقنين المجال الطبي البيولوجي وربطها بالحركات التي تدافع عن حقوق الإنسان واستنكار هذه الممارسات اللاأخلاقية والتنديد بأن هذه الحروب البيولوجية يمكن أن تهدد حياة الإنسان، وتفعيل المنظمات من منظمة الصحة العالمية إلى منظمة الأنتربول.

هذا إذا اعتبرنا وباء كورونا حربا بيولوجية.

أما إذا اعتبرناها مجرد وباء عالمي ويجب على علماء البيوتيقا محاولة إنشاء استراتيجية حياة، ومسار عمل يقوم على بناء الإنسان الواعي والمسهم في إعادة هيكلة الواقع الناتج عن الأزمة، عبر ما يحققه من إنجازات وما يؤصله من قدوات وما يبنيه من قيم وأخلاقيات، وما يبتكره من أدوات أو يساهم به في سبيل درء المخاطر ومعالجة الأزمة والوقاية من الجائحة. ونشر الوعي بين الناس في التعامل مع الجائحة.

وأيضا يكمن دور خبراء البيوتيقا في التوعية والتثقيف الصحي والاجتماعي والأمني والآليات التي يجب اتخاذها لمجابهة أوبئة أخرى وعليهم أن يثبتوا فاعليتهم وكفاءتهم من خلال حزمة الإجراءات الاحترازية وعبر القرارات التي يجب اتخاذها في التعامل مع هذا النوع من الأوبئة في ظل تشخيص دقيق للواقع وقراءة فاحصة للمستجدات الدولية في التعامل مع هذه الجائحة، وعبر دراسة واعية للفرد القوة والضعف التي ارتبطت بجهود الدول وتباينها في هذا الجانب، والاستفادة من المعطيات التي تؤسس لمرحلة القوة في التعامل مع متطلبات الأزمة.

وأيضا يجب على خبراء البيوتيقا تنمية ذلك الحس بين الفرد ومجتمعه؛ فهو يبدأ بالتزام الفرد وإعادة إنتاج سلوكه وإحداث التغيير في ذاته ونقلها من حالة الأنا والذاتية إلى المجتمع والصالح العام؛ إذ إن الأزمات ليست حالة شخصية بقدر ما هي مرتبطة بالكل، وهو سلوك يرتبط بالتقارب الاجتماعي، والإيمان بالقدرة على تجاوزها، وإحياء الضمير المؤدي إلى نمو وتجسيد عملي للمبادئ الأخلاقية ووصف دقيق لها وتأطير فعلي لمتطلباتها في الواقع العملي، عندها تتجه الأزمات إلى التلاشي، إذ وجدت في المجتمع أسباب القوة التي تزيل أثرها، وتنشئ منها مرحلة جديدة لبناء القوة، وتزول الجائحة.

الخاتمة:

نستنتج أن جائحة كورونا رغم سلبياتها الكثيرة إلا أن لها دورا إيجابيا يتمثل في تسليط الضوء على ذلك الجانب الخفي الذي يتمثل في البيوتيقا، فهذا الوباء قد أدى إلى استنتاج أن العلم والتكنولوجيا لا يكفيان أبدا لحل مشاكل الصحة العالمية بمفردهما، بل نحن بحاجة لحل إلى تكامل استراتيجي ومنهجي للعلوم الاجتماعية، ولم يعد بإمكاننا إهمال الأبعاد الاجتماعية لمشكلات الصحة العالمية.

وهذا ما أدى إلى التحول من البحث في الطب إلى أخلاقيات الطب؛ فالبيوتيقي له دور مهم في هذه الجائحة هذا الدور له احتمالان إذا اعتبرنا جائحة كورونا حربا بيولوجية وإذا اعتبرناها وباء عالميا، فإذا اعتبرناها حربا بيولوجية اقتصادية وسياسية بين الدول الكبرى فهنا وجب تفعيل سلسلة من القوانين الردعية التي وضعتها الهيئات القانونية لمحاربة هذه الممارسات، وحشد مختلف الجهات لتجريم مختلف هذه الممارسات وتفعيل القوانين الردعية التي تحد هذه الممارسات. أما إذا اعتبرناها وباء عالميا مس العالم مثل باقي الأوبئة السابقة؛ فهنا وجب التقيد بسلسلة من التعليمات الوقائية التي تحد من انتشار الوباء وتفعيل أخلاقيات بين الفرد والمجتمع، والمجتمع ومؤسساته. فالعالم البيوتيقي الأكاديمي يمكن أن يعمل كمفكر ومدرب ودليل لرفع مستوى الوعي، من خلال تحليل وانتقاد التحديات المتعلقة بالقضايا الاجتماعية الرئيسية، على سبيل المثال رفع الحجر الصحي، وكيفية التعايش مع فيروس كورونا باتباع تعليمات الوقاية التي أعلنت عليها منظمة الصحة العالمية، هذا بالنسبة لمجابهة هذه الجهة.

أما دور البيوتيقا بعد الجائحة فتظهر أيضا وفق احتمالين، فإذا اعتبرنا جائحة كورونا حربا بيولوجية وجب على خبراء البيوتيقا مراجعة قوانين الأخلاقية بالنسبة للحروب البيولوجية وتفعيل هذه القوانين، وتسليط الضوء على هذه القضايا والقيام بحملات توعية حول مخاطر الحروب البيولوجية وطرح القضية أمام منظمة الصحة العالمية والأنتربول، أما إذا اعتبرنا جائحة كورونا وباء كسائر الأوبئة العالمية، فهنا تقع على عاتق خبراء البيوتيقا تنمية ذلك الحس بين الفرد ومجتمعه، فهو يبدأ بالتزام الفرد وإعادة إنتاج سلوكه وإحداث التغيير في ذاته ونقلها من حالة الأنا والذاتية إلى المجتمع والصالح العام.

وفي الأخير كشفت البيوتيقا عن أهميتها ودورها في التوعية في ظل هذه الجائحة، فعلماء البيوتيقا يلعبون دورًا داعمًا وحافزا في توجيه جميع الأطراف التي يتفاعلون معها، مع الاحتفاظ بروحهم النقدية في خدمة المجتمع والحث على العودة إلى الأخلاق في المجال الطبي.

المراجع:

باللغة العربية:

1. منظمة الصحة العالمية .(2020). نصائح للجمهور بشأن مرض فيروس كورونا (كوفيد 19)، Consulté le 2020, sur:

-https://www.who.int/ar/emergencies/diseases/novel-coronavirus-2019/advice-for-puplic/q-a-coronaviruses.

2. يورونيوز"الإشاعة فيروس أيضا "ناشطون يحاربون "وباء التضليل "في زمن كورونا ,2020) (07 21

. شلالي.ع، Consulté le 11 20, 2020, sur euronews: http://arabic.euronews.com

(2014/2015)المدرسة العليا للأساتذة القبة الجزائر العاصمة.

3. عاشور .(2005). الميكروبات و الحرب البيولوجية.الإسكندرية :منشأة المعارف.

4. قحطان طاهر .(2020, 03 30). الكورونا و فرضية المؤامرة بين الرفض و التأييد Consulté .

le 11 20, 2020, sur شبكة النبأ المعلوماتية :

http://annabaa.org/arabic/strategicissues/22702

5. محتال.Brevet n° 81 .(2016/2017). جامعة أبي بكر بلقايد تلمسان. الجزائر

باللغة الفرنسية:

- *Audureau. (2020, 03 06). le monde. Consulté le 11 25, 2020, sur le monde: http://www.lemonde.fr.*

6. *world health organization,coronavirus Disease(covid-19):Question and answer. (s.d.). Récupéré sur world health organization: https://www.who.int/ar/emergencies/diseases/novel-coronavirus-2019/advice-for-puplic/q-a-coronaviruses*

7. *j.Fins, j. (2020, 06 08). COVID-19 makes clear that biothics must confront health disparities. Consulté le 11 20, 2020, sur theconversation: ,https//:theconversation.com/covid-19-makes-clear-that-bioethics-must-confront-health-disparities-142136.*

8. *Pauline, G. (2003, 10 06). la biotechnologie au service de la guerre. Consulté le 11 15, 2020, sur ledevoir: http://www.ledevoir.com/*

9. *potter. (1970). Bioethics,sience of survival. prees biol med.*

10. *world health orginazation, (2020, 11 1). overview of the covid-19 pandemic. Consulté le 11 23, 2020, sur world health orginazation: (https://www.who.int/epi-win)*

واقع التعليم عن بعد في ظل جائحة كورونا برامج تكوين في المدرسة العليا للأساتذة
وضرورة تفعيل التعليم عن بعد- الفلسفة أنموذجا-

أسماء عقوني

جامعة وهران 2 . aggouni.asma@univoran2.dz

ملخص الدراسة:

كان نظام التعليم التقليدي القائم على التواصل المباشر مُفيدا ومثمرا ولكن إلى حد ما؛ نظرًا إلى أنه كان عائقًا أمام العديد من طلاب العلم ممن يفتقدون القدرة على الحضور المادي إلى مراكز التعليم والتدريب المختلفة، وبالتالي؛ فإن دور التعليم عن بُعد في حل تلك المشكلة؛ قد جعله ذا أهمية كبيرة جدًا لدى الجميع فضلًا عن الفوائد الإيجابية الأخرى المتعددة، الناتجة عن اتباع هذا الأسلوب التعليمي المتطور.

عند النظر إلى فوائد التعليم عن بُعد؛ سوف نجد أنه يجمع بين مزايا التعليم التقليدي والتعليم الإلكتروني معًا؛ حيث إنه يوفر طريقة اتصال بين الطالب والمعلم يتم من خلالها شرح وفهم ودراسة المقررات الدراسية بالاعتماد على وسائل إيضاح متعددة، فضلًا عن أنه وسيلة جيدة تدفع الطالب إلى البحث والاستكشاف في مواقع الويب والبرامج المختلفة من أجل الوصول إلى المعلومات بنفسه؛ وهي بالطبع أهمية وميزة لا يستهان بها، ولقد ساعد التعليم عن بُعد أيضًا في التخلص من جزء كبير من الفاقد التعليمي نظرًا إلى أنه يتيح القدرة على الحضور إلى الحصص والمحاضرات والدورات التدريبية لأي فرد ومن أي مكان.

ولأن التكوين أمر ضروري لابد منه لمزاولة مهنة التعليم، ومن المستحيل أن ينجح أي مشروع إصلاحي في ميدان التربية والتعليم إذا كان المعلم غير مكون بطريقة جيدة أو غائبا عن العملية التكوينية أو غير مستوعب للحقائق التربوية والعلمية التي تحمل مهنة التعليم، وهذا كله يكون من خلال محتوى فعال ومنهجي لبرامج التكوين للأستاذ، حيث تسعى من خلال هذا البحث لتسليط الضوء على دور الاعتماد على نظام التعليم عن بُعد بالطبع أمر هام وجيد؛ ولكن تُجدر الإشارة إلى أن العمل على

تطوير هذا النظام وإدخال أحدث التقنيات التكنولوجية إليه؛ إنما هو وسيلة هامة سوف تتمكن الأمم من خلالها من تحقيق الجودة المطلوبة في مستويات التعليم سواء الجامعي وهنا نركز على برامج تكوين الطالب الأستاذ في المدارس العليا للأساتذة في الجزائر، وضرورة تكييفها مع مستجدات الوضع الراهن.

فما هي محتويات هذه البرامج التكوينية؟ وما هي النقائص فيها؟

وهل تستجيب هذه البرامج التكوينية للمعطيات الراهنة؟

الكلمات المفتاحية:

التعليم عن بعد: ونقصد به مختلف الوسائل والطرائق سواء البيداغوجية التقليدية مثل المراسلة قديما أو وسائل التواصل المتطورة حديثا، والتي تعتمد على التكنولوجيا الحديثة وعلى التواصل الافتراضي من خلال الانترنت.

برامج التكوين: ونقصد بها مضامين ومحتويات التكوين الأولي المقدم في المدارس العليا للأساتذة من تكوين أكاديمي وعلمي وبيداغوجي (اللقائي والجمل، 1996).

الطالب: وهنا نركز على الطالب الأستاذ: وهو الطالب المسجل في كلية التربية أو في دار المعلمين والمعلمات، ويتهيّأ لأن يكون مدرسا يلتحق بعد التخرج بإحدى مدارس وزارة التربية الوطنية. يمارس الطالب الأستاذ المتدرب التعليم ميدانيا في إحدى المدارس النموذجية وتحت إشراف مدرس.

وهو الطالب الذي يتابع تكوينه داخل المدرسة العليا للأساتذة ضمن برنامج تدريبي يتوج عند تخرجه بمهنة التعليم أي مرتبة أستاذ (بوفحلة، 1984).

المؤسسات التعليمية؛ وهنا اخترنا نموذج المدارس العليا للأساتذة هي مؤسسة تكوينية تابعة لوزارة التعليم العالي والبحث العلمي، تعنى بتكوين الأساتذة لمختلف المراحل التعليمية في الجزائر ابتداء بالتعليم الابتدائي مرورا بالمتوسط إلى الثانوي، حيث يستغرق التعليم الابتدائي ثلاث سنوات، والمتوسط أربع سنوات، والثانوي خمس سنوات، ويشترط في الطالب المرشح أن يكون حاصلا على شهادة الباكالوريا بمعدل جيد جدا أو أكثر، ثم يخضع لمقابلة شخصية على أساسها يتم قبوله أو رفضه (بوفحلة، 1984).

التكوين: يقصد بالتكوين كل العمليات والأنشطة التي تتم من أجل تمهين الأساتذة سواء تلك التي لم تتم قبل التحاقهم بالمهنة، أو التي تتم بعد التحاقهم بالمهنة، وهو

تنمية منظمة وتحسين لاتجاهات والمعرفة والمهارات ونماذج السلوكات المتطلبة في مواقف العمل المختلفة من أجل قيام الأفراد بمهامهم أحسن قيام، وفي أقل وقت ممكن، وغالبا ما يكون ذلك في إطار التربية (بوفحلة، 1984، صفحة 16).

مقدمة:

إن صناعة المعلم تمر عن طريق مدارات تربوية متخصصة- المدارس العليا للأساتذة - حيث يتم إعداد الطالب الأستاذ ثقافيّا وعلميّا وتربويّا، ويتدرب من خلال برنامج تكويني على أنماط التعليم المختلفة، ويتعرف على نظريات التعليم المتعددة ويواكب مناهج التدريس التي تتبناها المنظومة التربوية؛ حيث يمكن محتوى برنامج الإعداد قبل الخدمة الطالب الأستاذ من الولوج في عمله وهو مزود بتكوين فعال وعملي، يمكنه من أن يكون معلما ناجحا يؤدي رسالته ويوفق في مهنته، وهذا بمحتوى برنامج تكويني يخلق توازنا بين الجانبين النظري والتطبيقي وفق بيداغوجيا حديثة للتربية تسهل على الطالب الأستاذ توظيف ما تعلمه طيلة سنوات التكوين ليحقق الانسجام مع مهنته؛ أي التوافق المهني، وهنا تكمن أهمية التكوين الأولي- قبل الخدمة- حيث يعزز روح الانتماء للمهنة وهذا من خلال خلق أستاذ مؤهل لأداء عمله على أكمل وجه، من خلال تكوين نوعي يصل بالطالب الأستاذ إلى مخرجات تكوينية نوعية تستجيب لمتطلبات التدريس، ومن هنا يجب الاهتمام بطرق إعداد وتدريب المدرس المستقبلي لمهنة التدريس تدريبا كافيا يمكنه من ممارسة العملية التدريسية بدرجة عالية من الإتقان في الأداء، وهذا بالاهتمام ببرامج وأساليب تدريب الطالب الأستاذ، وهذه هي المهمة الأساسية للمدارس العليا للأستاذة التي يجب عليها تقديم تكوين أكاديمي ذي جودة عالية يستجيب لمتطلبات واحتياجات مهنة التعليم ويراعي خصوصية المجتمع الذي يعايش ويتماشى والتطورات والمتغيرات الحاصلة في المدرسة عامة، وفي المدرسة الخاصة خاصة، والتي تشكو في معظمها من نقص تكوين المتعلمين ونقص كفاءتهم المهنية وقصور خلفيتهم العلمية والثقافية، وهذا مرده نقص في الإعداد المهني لهم قبل الخدمة وعدم تلقيهم تدريبا كافيا يمكنهم من ممارسة الفعل التعليمي بالشكل المنشود، ومن كل هذا نقول إن الحاجة أصبحت ماسة إلى إعادة النظر في محتوى وسياسة التكوين، وتأهيل الطالب الأستاذ ليصبح ناجحا في مهنته، ومنه حاولت من خلال هذا البحث الإجابة عن الإشكالية الأساسية:" ما مدى

استجابة برامج تكوين الطالب الأستاذ مع متطلبات التعليم"؟ ماهي معايير إعداد المعلم وتكوينه؟ وما مدى تحقيق برامج تكوين المعلم لأهدافها؟

صلب الموضوع:

أهمية الموضوع:

-إنّ التكوين أمر ضروري لا بدّ منه لمزاولة مهنة التعليم، ومن المستحيل أن ينجح أي مشروع إصلاحي في ميدان التربية والتعليم إذا كان المعلّم غير مكوّن بطريقة جيّدة، أو غائبا عن العملية التكوينية أو غير مستوعب للحقائق التربوية والعلمية التي تتطلبها مهنة التعليم، ويهدف النظام التعليمي إلى تحقيقها، وهذا كله يكون من خلال محتوى فعّال ومنهجي لبرامج التكوين للطالب الأستاذ ومتوافق مع متطلبات المهنة المستقبلية.

-إنّ مراجعة محتويات برامج التكوين وجعلها تخدم المسار المهني المستقبلي يزوّد المعلم بأصول وأسرار مهنة التدريس، ويكسبه الكيفية التي سيتعامل بها مع تلاميذه وطرق تنظيم عمله؛ لأنه هو الذي يعمل على تنظيم العملية التعليمية وضبطها، وهذا بمحتوى تكوين متخصص وفعال يساهم في نجاح العملية التربوية.

- تتمثّل أهمية البحث في تسليط الضوء على دور محتوى برامج التكوين الجيد والفعال وهذا لما يعطيه من مادة معرفية وطرائق بيداغوجية لقيام المعلم بعمله على أكمل وجه، وكذا إبراز النقائص الموجودة في برامج التكوين ومحاولة إيجاد طرق علمية وصيغ فعّالة لسدّ هذه النقائص.

-إنّ الأهمية هنا تفرضها الحاجة المستمرّة لإعادة النظر في برنامج تدريب-تكوين- المعلمين لتساير متطلبات المهنة وتحقق القدرة على التغلب على المعوقات التي تحول دون تحقيق جودة تكوين المعلم.

-لقد أصبح من الضروري تطوير المناهج الدراسية بالمدارس العليا للأساتذة خاصة في ظلّ الظروف الحالية، والتي يشهد العالم فيها عدّة تغيرات وعلى جميع المستويات، والتي ستؤثّر على تكوين المعلم المهني وأداء مهامه التعلمية وهذا ما يتطلب تغير المحتوى التعليمي بما يتناسب مع مقتضيات العصر، بتعاون كل القائمين والفاعلين على إعداد وتطوير برامج التكوين لمطالب الأستاذ عن طريق تحديد نقاط

الضعف وتحديد الحاجات التدريبية للتدريس وفق المقاربة بالكفاءات ممّا قد يساعد في تصميم برامج تدريبية متكاملة لخلق المربّي والمعلم الناجح.

-إنّ أهمية تسطير محتويات برامج التكوين للطالب الأستاذ ذات جودة وفعالية هو تخريج معلمين ذوي قدرة على القيام بعملية التدريس بطريقة صحيحة وبكفاءة عالية، وهذا ما يجعلنا نقرّ نجاح العملية التعليمية التعلمية وليس الاعتماد على معايير تقليدية عقيمة من خلال تقييم الكم المعرفي، وكذا نتائج التحصيل الدراسي(الامتحانات النظرية) لمطالب الأستاذ أثناء فترة تكوينه والتي في أغلب الأحيان لا تعدّ المؤشّر الحقيقي لمستوى خرّيجي المدرسة العليا للأساتذة، بل الجودة تكمن في إظهار الطالب الأستاذ لقدرته على أداء المواقف التعليمية المطلوبة منه.

-إنّ أهمية دراسة مدى استجابة برامج التكوين لمطالب الأستاذ هو الحياة المهنية الناجحة هو إجراء عملية تقييم ثم تعديل لتحقيق التوازن المطلوب لنجاح العملية التعليمية، والتي هي قائمة على هذا التوازن بين النظري والتطبيقي.

-إنّنا بطرح فكرة برامج التكوين وتحقيق الاستجابة لما هو مُكون له أي مهنة التدريس إنني أسعى إلى تفعيل دور المدرسة العليا للأساتذة في إطار الاتجاهات الحديثة في التربية عامة، وفي إعداد المعلم خاصة هذا الأخير الذي يجب أن يعدّ إعدادًا جيّدًا بحيث يصبح قادرا على تنظيم الخبرات التعليمية والنشاطات العملية، ولديه القدرة على توجيه طلبته والوصول بهم إلى تفكير عملي يوصلهم إلى إبداع خلاق، فالتعلم هو استماع إقناع واستمتاع.

1. البحث: الأستاذ بين التكوين والتعليم

1. الخطوات الأساسية لإعداد برنامج تكويني قائم على الكفايات:

-اختيار الأهداف والنشاطات التعليمية المطلوبة.

- اختيار محتوى برنامج يتوافق مع الأهداف المسطرة وهي تكوين معلم كفء.

- اختيار التقنيات التربوية المناسبة وإجراءات التقويم.

- تحديد وكتابة أهداف الأداء بصورة عامة ثم تحويلها إلى أهداف إجرائية (مهارية، ووجدانية، ومعرفية).

- تحديد محتوى المنهج التدريبي وأساليب التدريب والوسائل والنشاطات التدريبية المناسبة، وهذا بكتابة وإعداد المادة التدريسية بما يتوافق واحتياجات المتعلمين.

-ضبط البرنامج وعرضه على مجموعة من المتخصصين للتأكد من محتوى البرنامج وقدرته على تحقيق الأهداف المطلوبة(الفتلاوي وكاظم، 2003).

2-**آليات برامج التكوين لمخرجات ذات جودة وفعالية:**

- **آلية التخطيط:** فالمعلم الكفء هو الذي يخطّط لمراحل أدائه لمفعل التربوي، وهذا ما يكتسبه من المدرسة المكونة له، حيث إنّ فلسفة التكوين الناجحة هي التي تُسيّر عمليا وفق تخطيط محكم، ولكن في الجزائر نجد التخطيط التربوي هو كليّ حيث أهمل التخطيط النوعي، والتخطيط للمفعل التربوي يختلف عن التخطيط في أي مجال كان، فالبرنامج التكويني لمطالب الأستاذ يجب أن يرسم الطريق التي يسلكها المكون ويحدّد الأهداف بدقّة، والتي تتوافق واحتياجات مهنة التدريس حيث نجد في التخطيط أنماطا معروفة هي: العودة إلى الماضي، الحفاظ على الحاضر، إسقاط المستقبل، صناعة المستقبل، فالمعلم الجيّد هو الذي يُكون على أساس العمل على إعمال الفكر، وهذا بإعداد التصورات القبلية للمتعلمين وفق المناهج لأطوار التعميم في وزارة التربية والتعليم، ويضع لكل واحدة أو لكل مرحلة تعليمية تصوراته وأهدافه ويقيس المستويات المعرفية للأهداف.

- **آلية التمكين التشخيصية:** إنّ عملية التعليم شيّقة وشاقّة ولا تخلو من التحدّي والصبر، حيث عملية التشخيص تتخذ عدّة مراحل قبل التكوين وأثناءه وبعده حيث لكل مرحلة آلياتها، فهي عملية مستمرّة ولا تنتهي بانتهاء مرحلة ما، حيث يجب انتقاء الطالب الأستاذ بمراجعة مستوياته التعليمية في مراحل التمدرس التي مرّ بها، لأنّ عملية التشخيص لا تنتهي مع بداية الانتقاء، فمعرفة ميولات ومعارف ومواقف الطالب المعلم تستغرق فترة زمنية يمكن خلالها تصميم وتعديل حالات المُكون، فإذا ما توافقت آلية التشخيص الأولية المعتمدة على الحوار والاختبار والاستعانة بصفات محدّدة موضوعة مسبقا، وكذا فحص الجوانب العملية والشخصية لهذا الطالب يكون الانتقاء التشخيصي سار وفق

منهج عملي في بدايته؛ لأن الانتقاء التشخيصي يعبر عن وضعية اكتشاف تؤدي إلى التحقق من الفحص التربوي.

-**آلية التمكين الأخلاقية:** لكي يكتمل التكوين للطالب الأستاذ يجب مراعاة آليات أولها كما قلنا الانتقاء وفق معاينة دقيقة للسيرة الذاتية لمطالب المترشح للدخول إلى المدرسة العليا للأساتذة وكذا تزكيته من طرف معلميه وأساتذته، ثم تليها المعاينة في فترة التربص والتكوين وما لها من دور في الكشف عن الكثير من الحقائق التي تدعم ملف الطالب أو العكس، فالأخلاق للأسف أصبحت مغيبة من برامج التكوين لمطالب الأستاذ ومن الرسالة التعليمية ككل، إذ إن غرس القيم الأخلاقية والتي يرغب بها المجتمع تعمل على اكتمال شخصية المتعلم واتزانه وتحقيق التوازن بين أداء مهامه، أي مصلحة التلميذ والمجتمع وبين أخذ حقوقه وتحقيق مصالحه، هذا من حيث برنامج تكويني يحوي النظم التربوية في مختلف المجتمعات، وكذا الخبرات الإنسانية والقيم والاتجاهات وأساليب الحياة، وهذا عن طريق التنشئة الاجتماعية التي تركّز على القيم والأخلاق في مختلف التعاملات، فالأنماط السلوكية التي يتعلمها المعلم خلال فترة تكوينه تكون بهدف التأثير على سلوك المتعلم وتوجيهه حتى يصبح أكثر إيجابية من خلال نموذج القدوة.

- **آلية التمكين الذوقية:** إنّ البرنامج التكويني في المدارس العليا يجب أن يوفّر آلية التمكين الذوقية وهذا من خلال شرح المنهاج الدراسي المقرّر بعد تخرجه، وكذا تعريفه بالكتاب المدرسي وبالمنهاج المكتوب، والذي يترجم المنهاج الرسمي. ولذا وجب على برنامج التكوين أن يشمل هذه النقاط من المنهج التربوي ومحتويات الكتاب المدرسي الخاص بتدريسه، ليكون الطالب الأستاذ منذ بداية تكوينه على علم بما سيدرسه ويستطيع تحقيق الأهداف المرغوب فيها في المنهاج، لأن المنهاج يمثل فلسفة وأدبيات المنظومة التربوية التي تتبعها المؤسسة التربوية التي ينتمي إليها المعلم، بوسائلها وأساليبها وأهدافها ومحتوياتها وأهمها محتوى الكتاب المدرسي.

-**آلية التمكين المعرفية**: إنّ التكوين الجيّد هو الذي يمكن الطالب الأستاذ من أداء الفعل التربوي بصورته الصحيحة، وأن يتمكّن كذلك من استيعاب التدفّق

العملي والمعرفي، ليشبع رغبات تلاميذه ويكفيه مع الأهداف التربوية، حيث إن استخدام المهارات التكنولوجية والقدرة على التعامل مع البرمجيات بالنسبة لطالب الأستاذ المتمدرس في المدرسة العليا للأساتذة يجعله مهندسا للفعل التربوي من خلال التعميم المتوازن الذي يقضي على التناقضات ويبني الإنسان من الداخل حتى يتوافق مع محيطه الخارجي في عملية التعليم، وهذا ما يجعل المشيد التربوي بغاية الوضوح لأنه ومنذ البداية خاضع إلى انطلاق صحيح يبدأ من معاهد التكوين، المدارس العليا للأساتذة، وهذا في تهيئة المعلم وتكوينه ثم تجعله ينتقل من التعليم التقليدي إلى التعليم التكنولوجي.

-**آلية التمكين التواصلية:** إنّ عملية الاتصال تعدّ نشاطا تعليميا يلبي الكثير من الرغبات المعرفية، ولذا وجب على برامج التكوين أن تكيف حسب هذه الآلية، فالطالب الأستاذ هو مكلف بعد تخرجه بتعميم المهارات والمعارف وتحقيق الكفاءات، وهذا لا يكون إلا بالقدرة على التواصل والتعبير ومن نقائص المدارس العليا للأساتذة: عدم الالتفات لهذه النقطة المركزية والاكتفاء بالتلقين النظري على الرغم من أنّ الطالب الأستاذ مكلف بالشفهي والتطبيق أثناء ممارسة مهنة التعليم أكثر من مجرّد حشو للمعلومات النظرية، فنجد المُكون الطالب الأستاذ فاقدا لكل مهارات التواصل وأولها المهارة اللغوية، إنّ تعليم مادة ما لا يعني مجرّد حلّ مسائلها أو إشكالياتها بل يعني تنمية التفكير المنطقي لدى التلميذ والقدرة على حل المشكلات على اختلاف معطياتها، والانتقال من التجسيد إلى التجريد والعكس، وهذا بمخاطبة عقل وحس ووجدان المتعلم يحكمها نظام وقواعد، أما اللغة العامية فتخلق متعلما مشلولا ذهنيا وتوتر فكري وجماد حسي. فطريقة التبليغ والأداء وإيصال المعلومة هي مهارة يجب أن يتعلمها خلال سنوات التكوين ولذا يجب الالتفات لهذا العنصر وإدخاله في محتوى البرنامج التكويني، وجعل الفعل التربوي ناجحا (مرعي، 2000).

الخصائص العامة لبرامج إعداد وتدريب الطالب الأستاذ:

- تدريب المعلم على الأداء والممارسة لا على أساس المعارف النظرية.

- تزويد برنامج الإعداد بخبرات تعميمية في شكل كفايات محدّدة تساعد المعلم على أداء أدواره التعليمية الجديدة.

- تزويد برنامج الإعداد لمطالب الأستاذ بالمعيار الذي سيتم بموجبه تقويم كفاياته التعليمية من مهارات وأساليب القيام بالفعل التربوي.

- إنّ البرامج التدريبية يجب أن تقوم على تحديد الاحتياجات التدريبية لمطالب الأستاذ؛ ومن ثم وضع أهم خطوات البرنامج التدريبي المتضمن أهم الكفايات لتطوير مجموعة الكفايات المهنية لهذا المعلم؛ حيث نركّز على الجانب المعرفي والسلوكي لمطالب الأستاذ ولا نكتفي بالجانب النظري التلقيني فقط، بل نحتاج إلى آليات جديدة تتناسب وطبيعة الفترة التي نعيشها حيث التواصل عن بعد عن طريق شبكة الإنترنت.

-يتم من خلال البرنامج التكويني تحويل مسؤولية التعلم من المعلم إلى المتعلم فيتم التعلم على أساس سرعة المتعلم نفسه وحاجاته واهتماماته.

- أن تكون مرتبطة بمبادئ الديموقراطية في التربية، حيث تتيح المجال للطالب الأستاذ وللأساتذة في المدرسة العليا للمشاركة مع القائمين على إعداد البرامج وهذا بنشر ثقافة الحوار والاستماع للآخر في منتديات وملتقيات تفسح المجال للتكلم والاستفادة والتعديل والتحسين.

-تحمل الطالب الأستاذ المسؤولية في الوصول إلى أهداف البرنامج حسب سرعته الخاصة والتعلم المباشر الحضوري أو التعلم عن بعد.

-تقريب المتدرّب إلى أقصى درجة ممكنة من متطلبات عمله الميداني وذلك من حيث المستوى الأكاديمي والمهارة في الأداء.

-إنّ الطلبة الأساتذة عندما يعرفون الكفايات التي تتطلبها الحصة أو الدرس فإنّهم يستطيعون تحديد الأهداف التي يعملون من أجلها، ويستطيعون بسهولة أن يعرفوا ما ينبغي لهم أن يتعلموه وصولا للأهداف المرجوّة.

- توضع الكفايات التي يتوقع من المعلم القيام بها داخل الفصل وخارجه وفي صورة أهداف سلوكية يمكن ملاحظتها وقياسها، ويعدّ الأداء التدريسي لمطالب الأستاذ معيارا للحكم على مدى نجاحه في مهنة التعليم، وتتمثّل هذه الكفايات في:

مجال كفايات التدريس: وهي ثلاث كفايات:

- كفايات التخطيط وهي الأداءات المتصلة.

- كفايات التنفيذ بسلوك التدريس التي يؤديها.
- كفايات التقويم المعمّم داخل الفصل "القسم".

-مجال الكفايات لإدارة القسم: وهي الإجراءات التدريسية التي يقوم بها المعلم أثناء عملية التعليم داخل القسم الدراسي.

- مجال كفايات الاتصال والتفاعل الصفي: فعملية التدريس هي عملية تفاعل جماعي؛ ولذا ينبغي على المعلم أن يكون متمكنا منها للنجاح في مهنته.

-مجال كفايات العلاقات البينية مع مجتمع المدرسة: وهي تعبّر عن قدرة المعلم على تكوين علاقات إيجابية وبناءة بينه وبين مجتمع المدرسة، وكذلك الوسط التربوي ككل.

وهناك كفايات أخرى مثل: كفايات تحديد الاستعداد واستثارة الدافعية للمتعلم، كذلك كفايات التخطيط للمتعلم وتوظيف الوسائل التعليمية ...

-الاهتمام بتضييق الفجوة بين التنظير والتطبيق، وذلك بإحكام الترابط والتكامل بين المجالين النظري والتطبيقي في برامج إعداد الطالب الأستاذ، وبهذا تتحوّل النظريات والأسس العملية إلى كفايات تدريسية يظهر أثرها في أداء المعلم لعمله أي في العملية التعليمية.

- الاستفادة من التغذية الراجعة Feed Back من مختلف المصادر ليكون التحصيل منتظما ومفيدا وعمليا نلاحظه من خلال واقع سلوك الطالب الأستاذ وتصرفاته التربوية وأسلوب اجتهاده في تحقيق الفعل التربوي والتقدّم في المستوى المعرفي.

- العناية بالتدريب بدلا من التدريس لمساعدة الطالب الأستاذ من امتلاك القدرة على الأداء العملي المنتج، وليس امتلاك المعلومات والمعارف النظرية فحسب، فالمعلومات تكتسب قيمتها ومدى إسهامها في تطوير الأداء المتصل بها وبذلك يتحقق التكامل بين المجالين النظري والتطبيقي(محمد مصطفى و حوالة، 2005).

فلسفة التعليم عن بُعد:

ينطلق التعليم عن بعد من المسلمات الآتية:

إن العصر الحالي، سواء في القرن العشرين أو القرن الحادي والعشرين هو عصر تفجر المعرفة، إذ أصبحت المعارف تتضاعف كل ثلاث سنوات تقريبا، وبوجود هذا الزخم الهائل من المعرفة فإن أساليب التعلم التقليدية التي ما زالت تؤكد على: دور المعلم على حساب دور المتعلم وحفظ المادة الدراسية، وبناء النظم التربوية من هذه المنطلقات بما في ذلك عقد الامتحانات للتأكد من حفظ المتعلمين للحقائق واسترجاعها عند الحاجة، واستخدام طرائق التعليم التقليدية كالمحاضرة والإلقاء وغيرها من الممارسات التي سادت لعقود طويلة ... لم تعد ذات جدوى الآن.

فلقد آن الأوان للبحث عن أساليب وطرائق جديدة تمكن المتعلم من مسايرة الانفجار المعرفي، ولعل الأسلوب الأكثر فائدة في تحقيق ذلك هو أسلوب التعلم الذاتي، فهذا الأسلوب يحقق التعلم عن بعد، حيث يمكن للمتعلم أن يبلغ أهداف التعلم المستمر؛ فالتعليم عن بعد هو الأسلوب الأكثر ملاءمة لمواجهة عصر تفجر المعرفة الذي نشهده اليوم.

يحقق التعليم عن بعد مبدأ ديمقراطية التعليم والتي تنطلق من ضرورة توفير فرص التعليم لكل راغب فيه بعض النظر عن الظروف الاقتصادي والاجتماعية والزمانية و .....التي يمر بها، فالتعليم حق لكل إنسان سواء كان كبيراً أو صغيراً، غنياً أو فقيراً . فالتعليم اليوم أصبح باهظ التكاليف، بحيث لا تستطيع الفئات المحرومة من نيل حظها منه، وبما أن التعليم عن بعد هو أقل كلفة من التعليم التقليدي فإنه يكون بذلك أكثر ملائمة لشرائح عددية من المجتمع، لاسيما لأولئك الذين تمنعهم ظروفهم الاقتصادية أو الجغرافية من الالتحاق بالتعليم كدارسين نظاميين.

يمكن للمتعلم أن يتعلم بمفرده، فلقد انقضى عهد الاعتماد على المعلم في التعليم، فالاعتماد على المعلم في كل شيء يقلل من شأن المتعلم وأهمية دوره في التعلم؛ فلقد أثبتت الدراسات أن ما يتعلمه المتعلم بنفسه أفضل وأبقى مما يتعلمه المتعلم اعتمادا على الآخرين، والتعلم عن بعد يحقق مبدأ التعلم الذاتي، مع حد أدنى من الاعتماد على المعلم، وحتى إن حدث ذلك فسيكون طبقا لحاجات المتعلم الحقيقية وبمبادرة منه، الأمر الذي يجعل التعلم بأسلوب التعليم عن بعد فعالا.

أهداف التعليم عن بُعد:

لقد برزت الحاجة إلى التعليم عن بعد استجابة للعديد من المبررات والحاجات الناجمة عن التغيرات العلمية والتكنولوجية والاجتماعية التي شهدها القرن الماضي وسيشهدها القرن الحالي، ولهذا فإن التعليم عن بعد يسعى إلى تحقيق أهداف عدة ولعل من أهمها ما يلي:

أ- تقديم الخدمات التعليمية لمن فاتهم فرص التعليم، وفي هذا الشأن يقول نشوان(1425هـ، ص259): لقد حالت الظروف الاجتماعية والاقتصادية والجغرافية والسياسية دون توفير فرص التعليم للعديد من فئات المجتمعات المختلفة، وبعد أن أزيلت المعيقات أصبحت هذه الفئات راغبة في التعليم في الوقت الذي لا يلائم التعليم التقليدي، والتعليم عن بعد يعيد الأمل لدى الكثيرين ممن يرغبون في التعليم نظرا لما يتمتع به من مرونة وأنظمة تعليمية تسمح لهم بالتعلم إلى جانب قيامهم بالمهن والأعمال التي يمارسونها.

ب- تقديم البرامج الثقافية والتوعوية والعلمية لشرائح واسعة من أبناء المجتمع وهو ما يسمى بالتربية المستمرة أو التعليم مدى الحياة، وهذا ما أكد عليه السعدون (1423هـ، ص 59) حينما قال: أن التعلم عن بعد يستخدم الوسائل التقنية المختلفة كالتلفاز والإنترنت والإذاعة والأقمار الصناعية التي تدخل كل بيت، وهذا الأمر يسهم في جذب اهتمام الكثيرين نحو البرامج الثقافية والصحية والاجتماعية والاقتصادية، بل وتزويدهم بالمعرفة والمعلومات التي تفيدهم في حياتهم.

اقتراحات وتوصيات:

من خلال البحث المتواضع استطعت أن أصل إلى مجموعة من الاقتراحات التي يمكن أن تكون خطوة في سبيل تحسين مخرجات المدرسة العليا ولمسايرة مستجدات الوضع الراهن.

_ضرورة التعامل مع التعلم عن بعد كواقع تعليمي نخلق له مجاله الخاص ونوفر له إمكانيات لكي يكون ناجعا وفعالا.

_ تدريب وتكوين الأساتذة والطلبة على أحدث التقنيات والتطبيقات، وهذا لتمكينهم من القدرة على الاستخدام الصحيح والمرن والناجح للتعليم عن بعد.

_إدراج طريقة برامج التعليم عن بعد كمقياس ضروري طيلة تكوين الطالب سواء لسانس أو ماستر أو دكتوراه.

-يجب بناء برنامج تكويني لمطالب الأستاذ بإشراك جميع الأطراف الفاعلة في العملية التربوية من أساتذة جامعيين مختصين في علوم التربية وعلم النفس، وكذا المفتشين التربويين في وزارة التربية والتعليم لمادة التخصص، وكذا أساتذة المادة في المؤسسة التربوية ذوي الخبرة في التربية والتعليم، وكذلك يجب التمكن والاستجابة السريعة لمختلف وسائل التواصل الرقمية التي أصبحت لغة العصر، فهذا ضروري ومطلوب لتحقيق أكبر فائدة وهي الأستاذ المتمكن والناجح.

- لقد أصبح من الضروري تطوير المناهج الدراسية بالمدرسة العليا خاصة في ظل عالم التكنولوجيا، لأن هذا الواقع التكويني القائم على التلقين والحفظ والتقييم المبني على أساس اختبارات فصلية قائمة على الاستظهار وفق مبدأ(هذه سلعتكم ردّت إليكم) لم يعد مجديا، بل أصبح التعليم عن بعد واقعا فرضته جائحة كورونا.

- كيف نُكون طالبا أستاذا على أساس المقاربة بالمحتوى ثم نريد أن نوجهه إلى التدريس وفق المقاربة بالكفاءات، وهذه هي المفارقة وهي نقطة يجب أن تؤخذ بعين الاعتبار.

-يجب الانفتاح على التجارب التكوينية الناجحة في تخريج أساتذة أكفاء مثل التجربة الماليزية، وكذا إخراج البحوث العملية والدراسات الخاصة بتطوير المناهج والبحث العملي وتطوير المنظومة التربوية من الأدراج ومحاولة الاستفادة منها عمليا.

-إلغاء المذكرة وتعويضها ببرمجة لمادة المنهجية منذ السنة الأولى.

- التركيز على الجانب البيداغوجي من خلال زيادة الحجم الساعي للمواد البيداغوجية وكذا زيادة معالمها وربطها بالجانب الميداني؛ فهي مواد تطبيقية عملية لا نظرية، وهي الأساس في إعداد معلّم ناجح.

-إن التربص الميداني يعاني؛ فهو في الغالب حبر على ورق إلا من كان له الحظ في أستاذ مكون له ضمير مهني، فيجب إنشاء وتشكيل متابعين للمسار الحسن للمتربص وهم أساتذة مختصون من المدرسة العليا يرافقون الطلبة المعنيين طيلة

مدة التربص، وهذا ليس مستحيلا؛ ففي المدرسة العليا للأساتذة بوهران ينفّذ هذا الأمر ويعطي نتائج جيدة فلم لا نطبقه نحن؟

– جعل التربص يبدأ من السنة الرابعة لأن المدة في السنة الخامسة قصيرة لا تمكّن الطالب من الاستفادة بالقدر الكافي؛ حيث الأهم من الكم المعرفي هو التوظيف المناسب لها في الموقف التعليمي.

– إدخال الكتاب المدرسي للمقرر الدراسي لمادة التخصص لمطالب الأستاذ طيلة سنوات تكوينه؛ حيث يصبح الكتاب إلزاميا، أي مادة يحاسب عليها أو يقيّم على أساسها.

– التركيز على الوظيفة التواصلية أي الكفاءة التواصلية والقدرة على التبليغ والأداء والتأثير، وهذا من خلال تغيير الأساس الذي نقيم به الطلبة أو النقاط المتحصّل عليها في السداسي الأول والثاني المتحصل على معدّل 01 من 01 والبحث عمّا هو أنجع وأنجح للممارسة المهنية.

- بما أن الطالب هو تلميذ الأمس وأستاذ الغد، فستكون له تجربة مخضرمة ولتفكيره ونظرته للأمور اتساع ورؤية واضحة ودقيقة وواقعية لمختلف المهام التربوية الموكلة إليه، ويعتبر لذلك ذا دور مهم في رسم خارطة التعميم في الجزائر خلال العقود القادمة، لذا يجب أن نحسّن ونجود ونفكر في التعليم في ظل الأزمات والرهانات الحالية التي تفرض نوعا من البرامج التي نكونه بها، وكذلك يجب أن نشرك الطالب الأستاذ في عملية الإصلاح والتحسين لإكسابه ثقة وروح المبادرة والقدرة على التفكير والإبداع، لذا لا تعلّم بلا معلّم كفء لأن الظل لا يستقيم والعود أعوج.

خاتمة:

الحضور المادي أصبح عائقا أمام الكثيرين في الحصول على أبسط حقوقهم التعليمية لعدة أسباب، ومن هنا علينا أن نعتبر أن نظام التعلم عن بُعد عند تطبيقه بشكل صحيح؛ هو الحل الأمثل والأكثر فائدة وفاعلية في إتمام العملية التعليمية في أي وقت وبأي مكان وتحت أي ظرف.

والفوائد التي قد تركها التعلم عن بُعد مُتعددة وملحوظة، ولكن: تجدر الإشارة إلى أهمية ألا يتم تحويل النظام التعليمي بالكامل إلى نظام رقمي فقط، بل على الهيئات

والمؤسسات التعليمية أن تتيح الفرصة للطلاب الحضور إلى الحرم الجامعي أو المدرسة أو غيرها من دور العلم من وقت لآخر واللقاء بالآخرين من أهل العلم والثقافة، ولا سيما أن البيئات التعليمية المتمثلة في الدور التعليمية بجميع أنواعها هي أفضل مكان يُمكن للطالب أن يلتقي من خلالها بشخصيات مرموقة ذات علم وثقافة.

المراجع:

1-أحمد اللقائي، وعلي أحمد الجمل. (1996). معجم المصطلحات التربوية في مناهج وطرق التدريس. القاهرة، مصر: عالم الكتب.

2-أحمد توفيق مرعي. (2000)، الحياة محمد محمود، المناهج التربوية الحديثة مفاهيمها وعناصره واسمها وعملياتها، عمان، الأردن: دار الميسرة للنشر والتوزيع.

3-سهيلة الفتلاوي، ومحسن كاظم. (2003). الكفايات التدريسية، سلسلة طرائق التدريس. الأردن: دار الشروق للنشر والتوزيع.

4-عبد السميع محمد مصطفى، وسهير حوالة. (2005). إعداد المعلم وتنميته وتدريبه. عمان، الأردن: دار الفكر.

5-غياث بوفحلة. (1984). الأسس النفسية للتكوين ومناهجه. الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية.

الإنسان الموبوء وليس الإنسان الفائق

1- بورني نسيم . 2- ليامين عكاشة .
1-جامعة العربي بن مهيدي- أم البواقي/ مخبر علم اجتماع الاتصال والترجمة قسنطينة /Bourani.Nacim@univ-oeb.dz.
2-جامعة العربي بن مهيدي- أم البواقي/ مخبر علم اجتماع الاتصال والترجمة قسنطينة /lyamine.akachat@univ-oeb.dz.

ملخص الدراسة:

العالم مليء بالقوة، قوّة السّيطرة وقوة الخضوع، ويعيش الإنسان فيه ليمارس انطلاقا من مقدار قوته سيطرة أو خضوعا، استعبادا أو حريّة نسبية، وفي هذا العصر الذي أصبح فيه مقدار قوة شيء ما مرتبطا برقعة المجهول واللايقين فيه يصير فيه كل شيء غير معروف ذا قوّة أكبر، وعليه كان وباء كورونا بتلك القوة لأنه يفرض نوعا من عدم المعرفة والإبهام على الإنسان، واستنادا لنقطة الظلّ التي فرضتها حالة المجهول للفيروس نتج خوف فظيع من الزوال دفع الإنسان للاحتماء خلف الكثير من السلوكات والتوجهات الفكرية التي تكيف ذاته مع هذا الخوف من جهة، وتضمن له ثبات الوجود من جهة ثانية، فحد من حريته وعزل نفسه وبخس جسده قيمته، وأصبح الآخر هو التهديد بعدما كان هو الآخر الذي ينعكس وجود الأنا فيه.

الكلمات المفتاحية:

مجتمع الوباء، الكورونا، الإنسان الموبوء، العزلة، الخوف من الآخر...

مقدمة:

مجتمع المخاطرة مفهوم وضعه" أولريتش بيك" في ثمانينات القرن العشرين واصفا به ما آل إليه تطور المجتمعات عبر التاريخ، وبطريقة ما تصير المخاطرة في هذا المجتمع جزءا من الحياة اليومية وتطغى فيه عقيدة اللايقين والخوف واللاأكادة، وتنتشر فيه الأخطار بأنواعها وخاصة الصّناعية والبيولوجية ويهدّد

فيه وجود الإنسان كجزء من كل- العالم- هو الآخر مهدد بالزوال، وعلى سبيل تأكيد ما طرحه أولريتش بيك" هو وجود فيروس بيولوجي ظهر إلى الوجود بصيغته الحالية منذ بضعة أشهر خلت.

تماما كما وضعت المخابر البيولوجية الفيروس تحت النّظر والبحث اشتغلت المخابر الفكرية لتحليل هذا المفهوم الجديد خاصة في إطار أنه مهدد للبشرية من جهة، وفارض لسلوكيات واستجابات بشرية معه من جهة أخرى، فلسفيا وفكريا يعتبر الفيروس مفهوما وجوديا مهدّما لمشاريع فلسفية انبنت على خلق إنسان ما بعد حداثي أو إنسان الغد ككل قيمي ومفاهيمي وتصوري عن الخاصة عن نفسه وعن العالم ككل، ولقد كان تصور نيتشه للإنسان هو الآخر مصابا بمطرقة هذا المفهوم الجديد لدرجة جعلت شعورا بالعدمية النيتشوية قد يخالج أحدهم وهو يرى كيف يرى نيتشه فيروس كورونا لو كان حيا الآن؟

لقد كان هذا الوباء - كوفيد 19- منفى للذّوات فقط. تلك الذّوات التي تنتمي إلى مجتمع الوباء وبطريقة العزل تم نفي الفرد عن القطيع، وفي نفس الوقت نفي الفرد داخل القطيع وداخل فضاء علاقاتي شوهت التكنولوجيا والقيدية والافتراض جزءا كبيرا منه، وهذا ما يمثّل النّوع الثاني من المنفى، من جهة أخرى كانت مفاهيم من قبيل الغيرية ذات حضور لأن هذه الأزمة الوجودية التي خلقتها كورونا عززت النزوع نحو التّشارك بغض النظر عن كونه نزوعا ناتجا عن الغيرية أو الأنانية أو الفردانية. ليكون نوعا ما من الصّراع على البقاء وبالتالي إحياء لبعض مبادئ الداروينية خاصّة مبدأ البقاء للأقوى والأصلح، فتكون بموجب هذا الأخير جميع الإجراءات التي جاءت بمجيء مفهوم كورونا بمثابة البيئة التي ينبغي للقطعان البشرية أن تتمثل لها ولقيمها بغض النظر عن كون هذه الفكرة تطرح تعقيدا على مستوى أعلى وأعمق وأبعد من المرحلة الحالية للعالم يتلخّص في تساؤلات أهمّها: هل ستكون بشرية ما قبل كورونا هي نفسها بشرية ما بعد كورونا أم أنّها ستتغير على جميع الأصعدة بداية بيقينية الثّقة في العلم ووصولا إلى بناء المفاهيم والواقع، وهل حقا سيعرف الإنسان ماذا سيحصل ما بعد كورونا؟

1. مطرقة نيتشه تصاب بالكورونا

نيتشه هذا الفيلسوف الذي يتفلسف وهو يحمل المطرقة كما كان يقول في أحد أكثر أفكاره ضجّة يضرب منذ قرن أو يزيد قليلا ليهدم فكرة الإله هذا الوجود الأخلاقي غير المجدي حسبه كان عليه أن يتهدم ليتحرّر فكر الإنسان ليخلق شيئا أخلاقيا أعلى وأرقى وأكثر كمالا. نموذجا أخلاقيا ينتجه إله، هنا نيتشه يهدم إله الوهم ليصنع إله الحقيقة، ولكن لكي يصنع الإنسان من إنسانيته وجوهره كائنا أرقى منه بكل هذه المراتب كان عليه أن يتخلص من كل أوهامه القديمة بخصوص فكرة الإله، ويتجرد من كل فكرة تمت بصلة للإله القديم، وبهذا تتخلص الذوات من إله متعالٍ كثير التسلّط مانح القيود وكاسر الإرادة يضم إليه الكثير من مسائل الفكر البشري ويطرح عبره الكثير من المفاهيم والأفكار والأحكام الأخلاقية.

الإنسان الفائق والإنسان الأرقى الإنسان الأخير هي المفاهيم التي أسس عليها نيتشه فكره فيما يخص استبدال الإله المهدم بالإله الفوق إنساني، ويصف بها الحالات التي إمّا سيكون عليها الإنسان وإما التي هو كائن عليها وتمثله، ولعل في هذه الأخيرة عبر نيتشه عن إنسان عصره بأنه هو الإنسان الأخير الذي استكن لموت الإله وتوقف عن التفكير في التطور الخلاق له، وتجمد لتجاوز القيم التقليدية، وهو لا يملك إرادة غير إرادة العدم (عبد الرحمان، 2016 ، ص .45). واستدلالا بهذه القيم كان الإنسان الآن هو بشبه كبير للإنسان الأخير، فحسب تعبير الكثير من المفكرين كانت المرحلة الما بعد حداثية هي عبارة فقط عن النبش في التراث الفكري الما قبلي، وليست إعادة إنتاج أو تجاوز للقيم التقليدية والأفكار.

إن الإنسان الأخير لهذا العصر إنسانا افتراضيا، مصابا بفيروس كورونا، وفي تعامله مع هذا الكائن الخارجي غير العاقل الذي يهدّد وجوده، فرض على نفسه الكثير من الالتزامات التي حدت من حريته أكثر فأكثر وجعلته بشكل أعمق ينغمس في بيئة افتراضية مشبّعة بالخوف من الزّوال يتم فيها إعادة بناء قيم ومفاهيم وفلسفات إن صحّ التعبير داخل الأقفاص من أجل جعل الحياة خارجها لا تشكل تهديدا على وجوده هذا من جهة، ومن جهة أخرى إعادة هضم قيم جديدة وأفكار على غرار العقاب الإلهي، فكرة من شدة الخطايا سيهدم الرب هذا العالم أو تحت مسمى الفناء أو فكرة الجحيم انتقل ليكون في الدنيا ولأجل ذلك لن يكون عذاب

آخرويّ وغيرها من الأفكار التي تجعل من الإنسان الفائق مجرّد يوتوبيا وليس هذا فقط، ولكن هذه الأفكار بحد ذاتها ستحمّل من الجوانية هذا الإنسان ربّما ما لم يحمله أي إنسان من الأزمان الفارطة، وتدفع يقينا هذه الجوانية إلى عودة أخلاق العبيد بشدّة أكبر، وحتى في فكرة البحث عن إيجاد عالم خالٍ من الخوف هي فكرة مربوطة بالدرجة الأولى بمفهوم عودة الحياة العادية إلى ما قبل كورونا؛ أي إلى الحالة الفكروجودية السّابقة التي كان عليها الإنسان، وهذا تكريس أكبر لفكرة أخلاق العبيد.

هذا الفيروس قد أوضح أن الإنسان الأخير بذلك الضّعف الذي جعله بعيدا عن أن يكون إنسانا فائقا، وحتى فكرة العود الأبدي بفهم دولوز(دولوز، 1998،ص. 42).غالبا ما ستعيد إنتاج الإنسان الأخير، الإنسان الذي يشعر بالاستياء لأنه لا يتقبّل الجوانب المريعة من الواقع محكوم بأن يملك أخلاق العبيد(بووي، 2015، ص.70). ربما في الغد سيعيد استنساخ نفسه ربما بشكل أكثر تطوّرا في الانحطاط والعود الأبدي إن كان سيحذف شيئا من وجود هذا الإنسان الأخير المتخم بالافتراضية- وهو لا بد سيحذف- وحسب الكوارث البيولوجية التي يقع أو يوقع نفسه فيها سيحذف دون شك وجوده في حد ذاته وليس شيئا آخر.

1 - هي عزلة أم هروب من الآخر !؟

يطرح الوضع الرّاهن للحالة المرضية الجديدة على المجتمع الكثير من الإجراءات تحت مسمى الوقاية من وباء كورونا، وينطوي تحت هذه الإجراءات العزل أي عزل الذوات عن الذوات الأخرى أو عزل الأنا جسديا عن الجسد الآخر، وهذه العزلة تعبر عن إعادة ترتيب للفضاء العام بطريقة تجعله ينتقل إلى كل بيت ولكن بمفهوم أكثر خصوصية، وهذا الإجراء من شأنه أن يجعل الواقع كمفهوم يختفي أو يختزل كواقع افتراضي يحتوي على كثير من الصور المزيفة والمتنوعة ذات القدرة على التوالد الذاتي دونما توقف، وهي طور تصل فيها قيمة الشيء أو دلالته مرجعا ذاتيا تطغى فيه مصطلحات محيلة على غياب أصل الشيء نفسه، وممّا عزز التحول إلى هذا النوع من الواقع هو انتشار فيروس كورونا، وكذا تخمة الواقع الفعلي أو الحقيقي بأدوات تكنولوجية اتصالية، وهنا كما يقول بودريار بأن هذه

التكنولوجيا الاتصالية قد طمست منه معانيه وتقلص فيه المجتمع إلى كتلة مبهمة (عبد الدائم، 2020.).

المجتمع اليوم محكوم بقوى أكثر عنفا تقبع في الداخل الإنساني، وهي الرّغبة في السيطرة والجنوح نحو امتلاك القوّة هذه القوّة التي تفرض نظاما كونيا تنتهي بموجبه العلاقات الإنسانية لتكون فيها الكل القوى الضعيفة تابعة لقوى أقوى منها، وقد عبّر عن هذا المفهوم ما طرحه نيتشه بإرادة القوة (بووي، 2015، ص.70)، وتتجسد أحد أكبر أشكالها وأكثرها مطلقية في الصّراع مع الطبيعة ومع الآخر وإفرازات استعمال الأدوات التكنولوجية من جهة ثانية، وقد ينطوي ضمن هذا المسمى الأخطاء البيولوجية، الأسلحة النووية وغيره، وتحت مسمى الأخطاء البيولوجية أو مسمى آخر فرضت الحالة الوبائية الجديدة على المجتمع أن يحكمه الخوف من الزوال، ويدفع هذا الخوف الذّوات إلى الانزواء داخل أقفاص ذاتية الصنع توجه فيها طريقة التفكير وتتوحد فيها المشاعر، وهذا الخوف الجمعي قد حفز غريزة القطيع لإنتاج تعاطف تجاه الآخر، فهنا لم يعد الآخر هو الذي يهدد الأنا، ولكن أصبحت الأنا والآخر تحت تهديد غريب بيولوجي من نوع آخر ألزمهما -أي الأنا والآخر- على اللجوء إلى البيت كمكان آمن نوعا ما. هذا طبعا إذا نحينا منحى أن الفيروس لا يجسد رغبة أحدهم في السيطرة على آخر، وهذا الطرح يختصر في فكرة فهم الوباء انطلاقا من كونه مؤامرة بكل بساطة.

إن الانتهاء إلى البيت كمجال فلسفي يعطي عزلة ناعمة كانت أو قاسية أو غير ذلك للأنا عن الاختلاط المرضي بأفراد القطيع، هذا الوضع الذي فرضه إجراء الوقاية من الجائحة، وفي فلك العزلة تحدث"بيريائيف" عنها في كتابه العزلة والمجتمع، وقد طرح فيه بأن العزلة توجه سلبي تسلكه الذّات، وهو تهديد لها فيقول:" إن الأنا تهددها العزلة ولكنها تحاول باستمرار أن تعيد تكاملها وأن تتغلب على عزلتها" هنا فيه قول ضمني بأن الآخر جزء لا يتجزأ من وجود الأنا، وهو بتلك الأهمية التي تجعل من الأنا تتبلور وتعلو على نفسها(بيريائيف، 1960، ص. 110)، وكل هذا يفرض على الذات كسر عزلتها، أما في الوضع الوبائي الراهن لم تعبر العزلة عن توجه إرادي أو اختياري، ولكن كانت فرضا قسريا تبنته الذوات إضافة إلى هذا لم يعد الآخر هنا جزءا لاكتمال الأنا كما كان في السّابق، ولكنّه أصبح

منحدرا عظيما يهدد الوجود الفيزيقي بصفته حاملا للفيروس أو بصفته حاوية قد تحمل الفيروس، وعليه الأمر هنا ليس منوطا بكيف تتطور الأنا في ظل العزل ولكن كيف تحافظ هذه الأنا على وجودها في واقع مرضي فرض عليها الانزواء داخل ركن مادي ومفاهيمي معين، ونقصد هنا خضوع الذوات للشعور بالقلق والسأم نتيجة الإفراط في الشّعور داخل العزلة، ويشير هذا القلق إلى ارتباط عميق بأحد مفاهيم" هايدغر" ويقصد هنا مفهوم الخوف الذي هو قوة من عدم الاستقرار الداخلي، وهو بذلك المعنى الذي يجعله مقيدا للحرية وليس باعثا لها (السعدي، 2018).

إن هذا القلق ذو بعد نفسي مدمّر من شأنه خنق تفكير الذّوات ودفعها لتسقط نحو الأمس قبل وجود الكورونا أو نحو الغد ما بعد زوال الكورونا، وإذا استمر الوضع لمدة أطول من التي جاوزها الإنسان الآن هل يستطيع الواقع الذي اختبأ خلف الافتراض أن يوفر ذلك التفاعل الخلاّق والدّافع لتحقيق الذّات لنفسها ؟

هنا لعل أكثر الأفكار ملاءمة مع هذه المشكلة هو ما طرحه" بيريائيف" نفسه عندما تحدث عن كون أن فكرة المعرفة هي التي تستطيع بها الأنا أن تتغلب على عزلتها(بيريائيف، 1960،ص .110).

2 - مجتمع الكورونا حريّة أقل وقيد أكثر:

-ربما سآتي معك ... ربما سأبقى معك ، من يعلم أنّي حرّا!

-كلا إنّك لست حرّا، فالحبل الذي ربطت به نفسك أطول بقليل من حبال الآخرين، هذا كل ما في الأمر(كازانتيزاكيس، 1968، ص. 289).

هذه العبارة البسيطة في رواية "زوربا" اليوناني "لنيكولاس كازانتيزاكيس" تلخّص معنى كيف أنّنا مقيدون بأحبال ذات قياس نسبي يختلف بين الأفراد ويختلف من زمكان لآخر أو بتعبير روسو بأن" الإنسان يولد حرّا ولكنّه يستعبد أينما يذهب"(روسو، 2013، ص. 25). يستعبد بما ينتج هو ذاته، وبما يفرضه هو على نفسه وبما يخضع له بتعبير آخر وبدلالة أوسع ويقصد فكرة الاستعباد بمفهوم أكثر شمولية وهو استعباد النظام الاجتماعي، نظام العلاقات والقيم والمعايير

والمعتقدات، وحتى المفاهيم التي تُكوّن وتنبلج في فهم هذا العالم هي مستعبدة للفكر، فمعظم القراءات والأطر الفكرية التي ينبني عليها أو فيها فهم الإنسان للواقع هي قراءات تطويرية لما يراه الآخر للواقع عن طريق الولوج إليه من زاوية ما وهي أيضا قراءات منتجة ثقافيا وذات حدود زمكانيّة، وهذا الوباء بغض النظر عن كونه خطأ بيولوجيا أو أنّه إرادة فوقية لحتمية التطور الفائق لهوس الإنسان المرضي في السّيطرة على الطبيعة وعلى العالم ككل هو في نهاية الأمر قيد آخر يضاف إلى القيود السّابقة للإنسان، وأصبح فيه الاستهلاك أكثر الأبعاد التي اختزل فيها الإنسان الآن، لا بل أصبح يختزل في بعده الاستهلاكي لدرجة جعلت منه مجرد آلة بيولوجية تسعى فقط لإشباع الغرائز المرتبطة بالبعد البيولوجي أكثر من بعدها الرّوحي، ولعل سمة الاستهلاك هذه ما هي إلا تمادٍ لسمة الاستهلاك الكلاسيكية التي يتميّز بها هذا العصر أصلا، والتي جاءت بمجيء المجتمع الحديث وهذه النزعة أصبحت جموحا نحو الاستهلاك في مجتمع الوباء، وهذا ما كان ملاحظا في السوبر ماركت وغيرها من أماكن تكدّس المواد الغذائية، وبغض النظر إن كانت سلوكات التدافع على الحيازة المرضية لتلك المواد راجعة للخوف من نفاد المخزون الاستهلاكي من الطعام أو لسبب آخر، إلا أنها تبقى تعبيرا عن خضوع أكثر للإنسان أمام نزعة الاستهلاك، في مجتمع الوباء هذا أصبح فيه التباعد والعزل وانحصار التفاعلات الجسدية في بضع مساحات مكانية، وأصبح الفكر أحدّ وأضيق من قبل كلها قيود أغرقت هامش الحرية للإنسان الموبوء.

تحدّث"جوليان باجيني" في مقال له عن مفهوم الحريّة من زاوية كون الجائحة قد جعلت الإنسان يتحرّر أكثر ممّا يتقيّد وبالتالي يقول"جوليان" إنّه لم يفتقد الحياة قبل جائحة الكورونا لأن الحياة إبّان الجائحة أعطته أو عزّزت فيه خاصية التدبّر قبل أي اختيار، والتي تجعله حرّا أكثر من أي وقت مضى، وينتقد بدوره مجتمع الاستهلاك الذي يشجّع على التصرّف بمنطق الشهوانيّين وهم أولئك الذين يتّبعون رغباتهم دون تخطيط وتدبّر، وبالتالي هذا النّوع يفتقد للحريّة(جوليان، 2020).

3 - الإنسان الموبوء وغريزة البقاء

في الواقع الموبوء يظهر مبدأ البقاء للأقوى مرة أخرى ليس كمحصلة للصراع بين أفراد النوع الإنساني الواحد، ولكن كنوع من الاختيار لجأت إليه الحكومات والأنظمة الحاكمة للدول الموبوءة في تعاملها مع الفئات التي إن كتب لها النجاة ستنجو، وفي مقال" لسلافوي جيجك" الذي عنونه بـ بربرية بوجه إنساني (جيجك، 2020)يقول إن حالة الوباء قد أنتجت ممارسات قد أحيت مبدأ البقاء للأقوى بدليل أن بعض الأنظمة الحاكمة قد تبنت فكرة إمكانية حرمان المصابين بأمراض عضال والمسنين الذين تجاوزت أعمارهم الثمانين من الرعاية الصّحية في حال تفاقم الوضع أي سيُتركون ببساطة ليموتوا، وهنا كان للمبدأ الذي فسّر به داروين استمرار الأنواع في الطبيعة تجليا واضحا في تعامل الأنظمة الحاكمة مع الأزمة في الدّول وليس فقط إيطاليا من ستتعامل بهذا الشكل، ولكن عند نفاد الموارد وانحسار الإمكانيات سيكون التخلّي على الأضعف أحد المبادئ لتخطي أزمة الوباء.

لقد وجد الإنسان الموبوء نفسه في تعامله مع كائن لا يملك غير وجود مادي غريزة تكاثر يلجأ لكثير من المبادئ التي تعزز فيه أكثر الانصياع وراء غريزته البحتة غريزة البقاء، وفي سبيل هذا البقاء قد يتخلى عن مئات من الممارسات والمبادئ ليعود إلى الحياة العارية كما عبر عن هذا" أغامبين" في مقال له بعنوان : لسنا أكثر من حياة عارية، وقد انتقد في هذا المقال ممارسات المجتمع الإيطالي الذي أصبح حسبه يؤمن فقط بالحياة العارية، وذكر بأن الإيطاليين تفاديا لأن يصابوا بعدوى الوباء مستعدون للتضحية بالعلاقات الاجتماعية والعواطف والقناعات الدينية والسياسية، و"أغامبين" يرى بأن الحياة العارية ليست الحياة العارية، والخوف من فقدانها أمر يوحّد البشر ويجمعهم، بل يفرّق بينهم ويصيبهم بالعمى كما يقول أغامبين (أغامبين ، 2020) .

5-الإنسان الموبوء يُسقط قيمة الجسد

لقد اعتبر نيتشه بأن الجسد هو التركيبة الجوهرية للإنسان أولا، وقبل كل شيء وإذا هو أساس بناء الذات الإنسانية التي تعيش على هذه الأرض(مرزوقي، 2018) ، وفي قول له يعبر على كون الجسد أكثر إدهاشا من الوعي يقول: " فإنك

تقول أنا وتنتفخ غرورا بهذه الكلمة غير أن هناك ما هو أعظم منها شئت أن تصدّق أم لم تشأ، وهو جسدك وأداة تفكيره العظمى، وهذا الجسد لا يتبجح بكلمة أنا لأنه هو أنا هو مضمر الشخصية الظاهرة"(بيدوح، 2009،ص. 84)، وهذا جاء كمعارضة صارخة للفلسفات المثالية التي تنظر للجسد على أنه وجود فيزيقي دوني مقارنة بالنفس، وهذا الدّوني أشبه بذلك الوجود الفيزيقي للحيوان وبطريقة ما كان هو مصدر نجس وقذارة ودوني مقارنة بالرّوح التي هي مصدر للإنسانية والتعالي وليست هذه النظرة حكرا على الفلسفة فقط ولكن حتى الديانات (المسيحية والإسلام) تنظر بهذه النظرة الدّونية للجسد تجسدت مرة أخرى في كثير من الممارسات الدينية على غرار تطهير الرّوح من الآثام على حساب الجسد ويتعلق الأمر بالعقوبات المرتبطة بتعدي الحدود الدينية مثلا كالجلد بالسّوط وغيره، وإن كان الفكر الديني الإسلامي عن الجسد يختلف قليلا عن الفكر المسيحي له، ويشتركان في كون أن نظرتهما للجسد تنحصر في كونه الجسد كتلة فيزيقية تحتوي على نجاسة وغرائز مفسدة والتي تستوجب دائما الطّهارة (مرزوقي، 2018)

وهذا الجسد الذي كان على الدّوام مرتبطا بالحياة الدنيوية أو بالحياة في هذا العالم البائد والآيل للزّوال في لحظة ما ينفصل عن الرّوح تحت مسمى الموت لتصعد الرّوح بعدها إلى السماء بوصفها قبل كل شيء معنى للرفعة والتسامي والقدسية، ببساطة هي محل وجود الملائكة والرب ومنه اكتسبت هذا البعد القيمي لها.

جائحة الكورونا جاءت لتنزل الجسد منزلة الإذلال، فقد كانت الأجساد أو الجثث المصابة بالوباء تكدس مع بعض في جناح حفظ الجثث، وبعدها بلا أي عزاء أو مرافقة للجثة أو تجمع أو إقامة مأتم أو تأبينية حتى، وتؤخذ تلك الجثث ليحفر لها عميقا في الأرض بآلة وتلقى في الحفرة وتنتهي، فلا تقال فيها آيات مقدسة بالكمّ الذي في السابق، ولا ترمى عليها باقات الزّهور، وقد أشار أغامبين في مقال له بأنّه في حالة الوباء التي نعيشها اليوم أصبح الموتى لا يملكون حقا في جنازة(أغامبين، 2020)، كل هذا الإذلال للجسد كان تحت مسمى إجراءات الوقاية من وباء كورونا هذا الوباء الذي حطم الإرث الثقافي لفكرة الموت وكيفية توديع الموتى.

6-نزعة للغيرية أم روتين فرداني؟

طرح" أوغست كونت" في بدايات ظهور علم اجتماع بصيغته العلمية مفهوم الغيريّة ليعني به الإيثارية ليكون مضادا للأنانية، وترتبط بهذا المفهوم مفاهيم فرعية من قبيل إنكار الذّات، تبجيل الآخر وغيرها، في مجتمع اتهمه الكثير من المفكرين بالفردانية وتعزيز كل ما هو أناني في الفرد(عابد، 2018 ،ص. 104). ولقد تجلى في خضم جائحة الكورونا في هذه المجتمعات ذات النزعة الفردانية سلوكات تعزز شعور الأنا بالآخر وتنتهي في سياق ما طرحه كونت عن الغيرية، وقد كان التعاون والتساند كأحد أهم التجليات للغيرية في مجتمع الوباء وبطريقة ما أصبح الضمير الجمعي بتعبير دوركايم هو من يتحدث ومصدر الكثير من السلوكات على غرار التعاون أو التضامن، وهنا أحيا الضمير الجمعي فكرة التضامن وإن كان الأمر يتعلق بالتضامن العضوي القائم على فكرة تقسيم العمل كما فهمه دوركايم في كتابه تقسيم العمل، والذي تحكمه طبعا أبعاد ثقافدينية تختلف من مجتمع لآخر ومن حقبة زمنية لأخرى، ربما بشكل سطحي فقط يمكن فهم التضامن أو التعاون كانعكاس لإحساس لارتباط كبير بين الأنا والآخر، ولكن بشكل أعمق كانت الأنانية هي مصدر هذه السّلوكات، وعليه تكون سلوكات من ذاك النوع هي في نهاية الأمر ذات بعد نفعي مادي يلخص سمة العصر للأنا أكثر من كونه سلوكا جمعيا نابعا من الالتزام الإنساني تجاه الآخر أو تجاه باقي أفراد القطيع، وما يعزز هذا الرأي هو ما طرحه ماركس في تحليله لمفهوم التّضامن حيث اعتبره إدراك أفراد الطبقة لمصالحهم المشتركة في مواجهة خصومهم أيضا "سيجموند باومان وماري دوغلاس" اعتبرا التضامن لا يقوم على المصالح الشخصية، وبالتالي فهو إيثار وليس أنانية (سكوت، 2009، ص. 106،105). ولأن الإنسان الموبوء الآن تملكه الفزع من الزّوال مارس عن وعي أو عن لا وعي وبشكل غريزي أو عقلاني سلوكات وأفعال من شأنها أن تبقيه على قيد الوجود ملخصة في عدّة مفاهيم أهمها التّضامن أو التعاون أو التشارك. هنا كان الخوف هو الدّافع الأساسي لتمثل الأفراد لكل هذه المفاهيم فيما بينهم، وما دمنا جميعا على جناح واحد فإما أن نستمر في التحليق جميعا أو نسقط في العدم جميعا، كان هذا أكبر تمثيل يليق بأن تدرج ضمنه فكرة أن الخوف قد جمع ووحّد القطعان البشرية تماما كما كان يفعل الفكر الدّيني

سابقا أو أكثر وبفعل الخوف انسحبت النزعة الغيرية لصالح الروتين الفرداني أو الاعتياد الفرداني أو البديهية الفردانية.

7-ماذا بعد الوباء؟

هذا الإنسان المعاصر وبتعبير"فتحي المسكيني" تحول إلى دوائر حيوية لا متناهية من إمكانيات المرض لا يرى منها سوى طبقتها الخارجية فقط، والذي أصبح فيه المرض بطبيعة جديدة، طبيعة أنه خرج عن كونه حتمية بيولوجية يفرضها التقدم في السن مثل الموت، بل قد أصبح مساحات فيروسية لا نراها في أي لحظة تشكل تهديدا خارجيا باختراق وهدم الأمكنة التي كونت الفرد (المسكيني، 2020)، سيقع مرارا وتكرارا في حالة من الهلع من أحد هذه التهديدات الخارجية، لأنه ببساطة لم يعد في عصر اليقينيات والتوقع، ولكن هو في عصر اللايقين ليس واضحا ما قد يحدث للإنسان في الغد، قد يستمر وباء كورونا مدة طويلة، وقد يكون غير ذلك، والشيء الأكيد أن المجهول هو ما يلوح في الأفق، وعليه ستكون المرحلة القادمة مغامرة غير محسوبة العواقب، وبتعبير"موران" توقع ما هو غير متوقع(NicolasTruong2020, p 01,).

بالنسبة إلى "سلافوي جيجك" فإن المجتمع سينتج اشتراكية جديدة وإن لم تكن نظاما، ولكن هي فقط مجموعة ممارسات محصورة في أوضاع الأوبئة والمصائب البشرية ذات التهديد بزوال البشرية، وطبعا الخوف ضمنيا هو ما ينتج هذه الاشتراكية، ولكن هل جميع الأزمات ذات التهديد الخطير بزوال البشرية تنتج تضامنا أو اشتراكية بتعبير"جيجك"؟

ربما لو طرح هذا السؤال على" شوبنهاور" لكان سيجيب دون تفكير عميق بنعم ستنتج هذه الأزمات تضامنا واشتراكية من النوع الذي تحدث عنه جيجيك وببساطة سيكون ذلك راجعا لما أورده شوبنهاور في بحثه المعنون ب" أسس الأخلاق" والذي يقوم على تساؤل جوهري هو: كيف يستطيع الفرد أن يضحي بحياته دون تفكير وبشكل تلقائي من أجل الآخر؟ ويجيب بأن الأنا عندما تضع وجودها أمام الزوال من أجل الآخر يحدث اقتحام أو تجاوز لإدراك ميتافيزيقي بأن الأنا والآخر واحد، والانفصال بينهما ليس إلا أثرا للأشكال الزمنية الزائلة والناتجة من الشّعور بالزمان والمكان، وحقيقتنا تكمن في الوحدة بين كل الحيوات، إنها

حقيقة ميتافيزقية تدرك بشكل تلقائي لأنها الحقيقة الصحيحة لحياتك(كامبل، 2014).

عكس المفكرين السّابقين، عبّر أغامبين عن قلقه إزاء الحاضر والمستقبل ويرى بأن المجتمع الذي يعيش حالة الاستثناء الدائمة لن يكون مجتمعا حرّا والمجتمع الذي ضحّى بحريته في سبيل دواعٍ أمنية حكم على نفسه في العيش في حالة من الخوف وانعدام الأمن، وعليه فهو ينتقد بشدة إجراءات الحجر التي فرضتها الدّول على المجتمع(أغامبين ، 2020) .

خاتمة :

لقد كان النموذج" النيتشوي" للإنسان الذي يركّز على هدم صنم الأفكار اللاهوت- قيمية التي ركّبتها الذّات البشرية على مرّ السنين أحد أهم المشاريع الإنسانوية في العصر الحديث لا بل أكثرها ضجّة لما تطرحه من فهم للعالم وللإنسان، هذا الإنسان الذي هو مشروع للإنسان الفائق يصاب بالكورونا ولا يستطيع حتى التفكير فيما سيؤول عليه الوضع، لا بل أكثر. هذا الكائن العاقل تحوّله غريزة البقاء التي حفزها الخوف من الوباء إلى فكرة إلغاء وجود الآخر في سبيل إثبات وجوده ويقصد هنا تلك الممارسات الأنانية حول تكديس الغذاء، هذا الإنسان الذي يدعي الحريّة في أغلب الأحيان ينزوي شيئا فشيئا داخل قوقعته المسمّاة بالمنزل ويعزل نفسه عن العالم وينغمس في الافتراضية التي تشغل من الواقع بمفهومه التفاعل- جسدي ينتهي إلى نقطة التخيّل؛ أي ينحصر الواقع في كونه شاشة إلكترونية بمشاعر ووعي حقيقي فيتقيّد فيه أكثر فأكثر حتى الشّعور، هذا الوباء لطالما غيّر الكثير من المفاهيم عن العالم إضافة لكونه غيّر فكرة الآخر فهو غيّر حتى بناء مفهوم الإنسان عن جسده، هذا الجسد الذي أصبح حالة فيزيقية بحتة أشبه بأي شيء فيزيقي غير ذي معنى آخر كالصّخرة أو كجذع شجرة مقطوع، وقد تجلّى هذا أبسط شيء في طرق الدّفن والنظر إلى الموبوئين والموتى.

إلى الآن ليس معروفا ما سيصير عليه العالم بعد الكوفيد 19- هذا إن لم تنتهِ البشريّة به، وليس معروفا أيضا كيف سيتحاور الإنسان بعد الآن مع الأوبئة من صنف الكورونا، ولكن الشيء المعروف هو أن كل شيء لن يبقى على حاله كما كان وسيتغير إلى وجهة معينة ذات مجهول لا متناهٍ.

قامة المراجع :

1 - الكتب العلمية :

-ببوي، أندرو (2015). الفلسفة الألمانية مقدمة قصيرة جدا، ط1، القاهرة : مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة.

-بيرديائيف، نيقولاي (1960). العزلة والمجتمع، ترجمة: عبد العزيز فؤاد كامل، ط1، القاهرة: مكتبة النهضة المصرية.

-بيدوح، سمية (2009). فلسفة الجسد، ط1، تونس : دار التنوير للطباعة والنشر

-سكوت، جون (2006). علم الاجتماع المفاهيم الأساسية، ترجمة: محمد عثمان، ط 1، بيروت: دار الشبكة العربية للأبحاث والنشر.

-جيل، دولوز (1998). نيتشه ، ترجمة: أسامة الحاج، ط1، بيروت : المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع.

-عبد الرحمان، طه (2016). شرود ما بعد الدهرانية - النقد الإئتماني للخروج من الأخلاق - ، ط1، بيروت: المؤسسة العربية للفكر والإبداع.

-روسو، جان جاك (2012). العقد الاجتماعي، ترجمة: عادل زعيتر، ط1، القاهرة : مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة.

-كازانتيزاكيس، نيكوس (1998). زوربا ، ترجمة: جورج طرابيشي ، ط3 ، بيروت : دار الآداب .

2- المجلات العلمية:

- عابد، نورة (2018). الفردانية نسق إنساني، مجلة تطوير، المجلد 5، العدد 01.

-مرزوقي، قوراية حليمة (2018).الجسد في فلسفة فريديريك نيتشه، مجلة دراسات فلسفية، المجلد 15، العدد 01.

3- المواقع الإلكترونية :

-أغامبين (03 أفريل 2020)، لسنا أكثر من حياة عارية، ترجمة سولارا شيحا، https://alittihad44.com/ .

-جيجك ،سلافوي (14أفريل 2020). بربرية بوجه إنساني، ترجمة سولارا شيحة . https://alittihad44.com/ .

-السعيدي، أيوب (فبراير 2018)، القلق من وجهة نظر مارتن هايدغر، https://www.mominoun.com/ .

-فتحي المسكيني، (فيفري 2020) الفلسفة و الكورونا: من معارك الجماعة الى حروب المناعة، https://www.mominoun.com/ .

-السلامي، عبد الدائم (29 أكتوبر 2020)،اختفاءُ الواقع في غابة المرايا، https://www.alittihad.ae/ .

-جوليان ،باجيني(13أكتوبر 2020). فضل كورونا على فهمنا للحرية، جريدة عمان، https://www.omandaily.om/ .

-كامبل،جوزيف (29 نوفمبر 2014). لماذا قد نضحي بحياتنا من أجل الآخرين – الحقيقة الميتافيزيقية عند شوبنهاور Translation : Rzm ،- https://youtu.be/hk7FkA4I13E?list=TLPQMjYxMTIwMjCV-dGLu-rmnA .

- Nicolas Truong 2020 Edgar Morin « Cette crise devrait ouvrir nos esprits depuis longtemps confinés sur l'immédiat, Le Monde, https://www.lemonde.fr/

الكورونا وانتكاسة الإنسان المعاصر

1-د.ابراهيم كراش 2- هزلون سعاد 3- بن حمادة فتيحة

4 - ابراهيم كراش جامعة قاصدي مرباح ورقلة.b.kerrache@yahoo.fr

5 - جامعة جيلالي بونعامة خميس مليانة/ مخبر التربية والابستمولوجيا .hazlounesouad@gmail.com

6 - جامعة جيلالي بونعامة خميس مليانة/ مخبر التربية والابستمولوجيا / benhamadafatiha4@gmail.com

ملخص الدراسة:

إنّ الإنسان في سعيه في التأقلم في التطورات العميقة في المجال العلمي حاول أن يجد لنفسه حقولا ومفاهيم معرفية جديدة أثبتت بها وجوده وأهميته في ظل هذه التحولات حتى يعزز لنفسه المكانة في المجتمع المعاصر آملا أن تصون له العلوم البيولوجية كرامته وإنسانيته وتسعى للرقي به، فهل فعلا استطاعت العلوم البيولوجية أن ترتقي بالإنسان المعاصر؟ أم أنها عمقت من جراحه؟ هل الواقع يفرض عليه أن يتأقلم مع التغيير مسايرا لكل التغير الذي سيلحق به أم أنه يجذب الكفة إليه ويغير من مجرى الأمور لتصب في صالحه؟ غير أن العاصفة التي عصفت به ممثلة جائحة كورونا قد قلبت كل الموازين، إن الدور الذي لعبته الجائحة قد زعزع العالم بشكل عام والعلم بشكل خاص، حيث أثر على الفرد أيما تأثير. إن تعلق الأمر بجانبه الإنساني أو بجانبه القيمي تلا ذلك ترتيب العديد من الأولويات، فما الذي بلورته جائحة كورونا؟ وهل فعلا غيرت إلى الأحسن أو إلى الأسوأ؟

الكلمات المفتاحية:

كورونا- انتكاسة- إنسان معاصر

مقدمة:

لقد أصبح العالم اليوم يعيش رعبا حقيقيا. هذا الأخير يهدد الوجود الإنساني إنه فيروس كورونا الذي غزا العالم بأسره دون أن يفسح لنا مجالا لقبوله أو رفضه أو حتى الاستعداد له وأخذ الحيطة والحذر منه، إنها حرب ضد عدو مجهول صنعه الإنسان بيده ليس جهلا، ولكن تجاهلا منه لمعنى حقيقة الوجود الإنساني لذا انقلبت حياة الإنسان المعاصر رأسا على عقب إذ أصبح حبيس بيته، فرغم أن الإنسانية مرت على مدار تاريخها بالكثير من الحروب الطاحنة والكوارث الطبيعية والأوبئة والمجاعات التي حصدت حياة الملايين من البشر إلا أن الوضع الحالي الذي نعيشه الآن يبدو غير مسبوق في طبيعته وتهديده ورقعة انتشاره الواسعة وآثاره السياسية والاجتماعية والاقتصادية المدمرة، وما يتسبب به من فقدان الوظائف وإضافة مئات الملايين من البشر إلى قائمة الجياع في العالم وقدرته على إجبار سكان الكوكب أن يلزموا بيوتهم في انتظار مصير غامض مجهول.

إن غموض الحاضر والشك في المستقبل وما ستكون عليه الحياة بعد هذه الجائحة هي العلامات الأساسية لهذه اللحظة الفارقة في تاريخ البشرية، وهي ما يتردد في جميع التعليقات والتحليلات والتنبؤات التي تتدفق كل لحظة في جهات الأرض الأربع فلا أحد لديه جواب مقنع يشفي العليل على ما سيكون عليه شكل الحياة بعد أسابيع أو أشهر أو سنوات في غياب معرفة يقينية بصفات فيروس كورونا أو طرق انتشاره أو السبب الحقيقي لسرعة انتقاله أو طرق الوقاية منه أو علاجه أو إمكانية اكتساب المناعة ضده إذا أصيب المرء به.

المهم أنه لا أجوبة لدى السياسيين أو المتخصصين في علوم الاقتصاد أو المفكرين وعلماء المستقبليات، والأهم من كل هذا أنْ لا أجوبة يقينية لدى العلماء والأطباء الذين يسابقون الزمن للعثور على علاج ناجع أو لقاح يقي من هذا المرض الذي يهدد حياة البشر جميعا وعليه السؤال المطروح هنا، هل هذا يعني عجز الإنسان المعاصر عن مواجهة فيروس كورنا رغم التطور الهائل الذي أحرزه العالم؟ هل يمكن القول إننا بدأنا عهدا جديدا يبشر بنهاية العلوم التجريبية ورفضها؟ هل صناعة الموت الذي كان يخشاه الإنسان القديم أصبح إنجازا علميا يتباهى به الإنسان المعاصر؟

صلب الموضوع:

الكورونا ونكبة الإنسان المعاصر:

من الألفاظ التي أصبحت كثيرة التداول في يومنا هذا حتى من قبل المواطن العادي لفظ" الكورونا"، وبقدر ما شاع استخدام هذا اللفظ بقدر ما يزداد الغموض واللبس اللذان يكثفانه، ومهما يطلق عليه من لفظ إن كان" كورونا كوفيد19"، إلا أنه من الواضح أن الآثار التي تخلقها الكورونا تصل في يومنا الحالي إلى حياتنا وقيمنا، سواء أكانت هذه الآثار تمسنا بشكل مباشر أم غير مباشر فقد أصبحت شبحا مخيفا يهدد بخراب ودمار البشرية، فأي أمل ستقدمه البيولوجيا والعلماء لإزاحة مخاوف الناس من هذا الشبح القاتل الذي يحيط بكل جوانب الحياة البشرية.

عندما عجز العلم عن احتواء الجائحة وإيجاد حل للوباء، فتح المجال لتفشي الخرافات والأفكار الزائفة حول المرض، بعد أن كان يعتبر العلم قد قضى على الخرافة والشعوذة، ها هي عادت إلى الواجهة والمغزى من ذلك هو الخلاص ولو كان ذلك بعيدا عن كل منطق أو قاعدة علمية، فبعد أن استطاع العلماء تجاوز كل العقبات وإيمانهم المطلق بإمكاناتهم من معالجة كل مأزق تمر به البشرية جاءت جائحة كورونا فغيّرت هذا المعتقد وأصبحت فرصة يستنهض العلماء لجعلها فرصة يعيدون فيها النظر بمسلمات مراحل تاريخية سابقة.

إذا كانت العلوم قد نشأت بفعل الأحداث الجسام والتطورات الشاذة عن طريق ثورات علمية تلت استعصاء فهم الحالات الشاذة وتفسيرها وفق التصورات الراسخة. فهل للعلم مقدرة على تقديم إجابات شافية جامعة عن الأسئلة التي تطاله، فهل أخطأ جون بولكنحهوم في عبارته حين قال:" فمن أراد تأسيس يقينه على أرض صلبه من الحقائق عليه أن ينظر في العلم وحده, (بولكنجهوم، 1998، ص 11).

قد بدا لنا أن أنظمة استبدادية كانت أكثرة قدرة على ضبط انتشار الفيروس بفرضها لقواعد وقوانين ضبط اجتماعي شديدة الصرامة، وأن المجتمعات الديمقراطية المفتوحة رغم كونها أكثر تقدما وحرية وثقة وإفصاحا عن المعلومات،

إلا أنها كانت مسرحا للوباء والتخبط والفشل في أكثر من جانب (الباحثين، 2020، صفحة 18)

أربكت جائحة كورونا بانتشارها السريع برامج الدول للتعامل مع الموقف. الكل في ضياع وسط دوامة من التعقيدات والمشاكل التي أسفرت عنها الجائحة، فقد غدت كل الدول سواسية لا اختلاف بينهم، واتضح أن القطاع الصحي العام في أغلب الدول التي توصف بالعظمى أو القوية أو المتقدمة لم تكن مستعدة لاحتواء الأزمة.

ما يلفت الانتباه أن العالم بعد كورونا لن يكون كما قبله، حتى الإنسان لن يغدو كما كان.

كان يعتقد أن العلم كافٍ وصالح لكل المنزلقات التي تداهم البشرية، والكثير من المعتقدات والأفكار التي كان يسلم بها الكثير من الأفراد ستتغير وسنسلم فعلا بنظريته النسبية حيث إنه لا شيء دائم، وأن كل شيء متغير وصالح لزمن معين، وكل شيء قابل للتغيير في أي لحظة، ولا وجود لشيء مطلق، وهذا ما أثبتته لنا فعلا كورونا في رمشة عين تغيير كل شيء بعدما كنا نعيش في عالم مليء بالحرية والسلام أصبحنا اليوم نخاف حتى من الخروج إلى عتبة البيت. أصبحنا محبوسين نعيش وسط خوف ورعب وفزع لا يكاد يفارقنا لحظة، كل هذا يجعل من الإنسان المتعب والمتأمل يطرح على نفسه أسئلة بسيطة وفي نفس الوقت معقدة، ما الذي ينتظرنا بعد الكورونا؟ ما الذي ستفسره المرحلة الفكرية القادمة؟ أصبح الإنسان في حالة جمود وسكون، غاب عن جانب التخطيط والاستشراف لما بعد، لأنه لا يعرف ما سيلحق به، أو ما ستكون عليه حياته، أصبح إنسانا مجهول المستقبل. "…. فإن الإنسان يعلو كل شيء في الدنيا، فإذا انحط وتدهور فإن جمل الحضارة، بل حتى عظمة الدنيا المادية، لن تلبث أن تزول أو تتلاشى" (الباحثين، عالم ما بعد الجائحة قراءات في تحولات الفرد و المجتمع و الأمة و العلاقات الدولية، 2020، ص 278).

الإخفاقات والنكسات التي لحقت بالإنسان أصبحت متتالية على مستوى عودة الإنسان إلى الإنسان، ستعود إلى الواجهة تنديدات وصراخات الفلاسفة والمفكرين الداعية إلى قيمة الإنسان في ظل العولمة التائهة التي تغتال الإنسان، ولا تراعي

هويته ولا وجوده، وانتقادهم لتغيير فكر الإنسان من فكر انفتاحي إلى فكر ضبابي قاتم لا غير معروف الوجهة، فبعد أن باغتهم وباء كورونا في غفلة منهم وقلب كل الموازين قد تلاشت صورة الإنسان المتكامل، وبعدما كان الإنسان مغترا متفاخرا بنفسه وإمكانياته حطمت الكورونا هذه الصورة لتأتي ببديل، الإنسان المهزوم العاطل عن فعل أي شيء، يقف موقف المتفرج لمعاناة الإنسانية ومرضها، فكل الثقة التي كان يتمتع بها تبخرت وذهبت أدراج الرياح.

إن مستقبل الثورة البيولوجية سنكشف عن طريق متوالية لا تنتهي من الحوادث العجيبة والاكتشافات المثيرة، والمآزق المستحدثة، حيث إن الإنسان بالنسبة لذاته يصبح كالرحالة الذي يسكن بلدا معاديا، ليجد نفسه لا يكاد يستقر ومضطر للرحيل إلى بلد ثان... ثم ثالث وهكذا... فيصبح الفرد تجاه المنجزات السلبية للثورة البيولوجية أشبه بغريب في بلد غريب." (الحفار، 1996، صفحة 18)

إن التطورات الذي أنجزتها البيولوجية أخذت منحى خطيرا جدا، ولا تبشر بالخير وتنبئ بأن القادم أعظم وأخطر ولا يمكن تصوره ولا توقع نتائجه, إذا يستطيع المرء على سبيل المثال تطوير جرثومة تسبب مرضا لا تعرف له مضادا لعلاجه مما ينجم إلى كارثة تهدد الحياة مثل هذه البحوث تجري حقا في غطاء الحرب البيولوجي." (الحفار، البيولوجيا و مصير الإنسان ، 1996، ص 19).

البيولوجيا ومصير الإنسان" وهذا ما جسدته أزمة كورونا أو كوفيد 19 فهو فعلا أبان عن عجز عالمي في مواجهته وكبح الانتشار، وأضحى وباء عالميا أو كارثة تهدد البشرية وهذا يفتح استفسارات حول جدوى البحوث العلمية في احتواء الأزمة والقضاء على الوباء، فالأمر لم يقتصر على دول العالم الثالث بل امتد إلى دول العالم المتطور فهي الأخرى بقيت في موضع المتفرج دون أن تجد حلولا فعلية ناجحة للقضاء على الفيروس، ولكن الغريب في الأمر أن مصدر الفيروس مجهول وغير معروف، فالبعض يعتبر أن مصدره أكل بعض الحيوانات لكن في مقابل ذلك المحير في الأمر أن أكل هذه الحيوانات ليس بالأمر الجديد، بل كان موجودا من قبل ولم يظهر هذا الفيروس، وهذا يثير إشكاليات عديدة؟؟ وهناك من يعطي قراءات أخرى للموضوع بحيث الأمر يتعلق بحرب البيولوجية، والمجال يبقى مفتونا دون أن تكون هناك وجهة واحدة للموضوع، ولكن المغزى والأهم من كل هذا أن كل

التطورات التي وصلت إليها البيولوجيا والبحوث قد أثبتت فشلها في القضاء على المرض، وبالتالي عجزها عن إيجاد علاج والحد من انتشاره على الأقل برغم كل الإمكانيات جعلت إنسان المستقبل يبقى مدهوشا يتأمل هذا المزيج المتناقض من الزهو والتواضع الذي أفرط في المبالغة في قدراته على مواجهة أي تطور أو أي مستجد أو أي خطر يواجه البشرية، وبين التهوين وغلب عدم قدرته على التكيف مع خطر ألم البشرية.

النص (العنوان الفرعي الأول):

لقد سمحت العلوم الحديثة بالاغتراب والسقوط الأخلاقي، وترتب عن ذلك عدة مشاكل أخلاقية مما ألزم تدخل النظرية القيمية، التي انطلقت من كانط من خلال تأسيسه لقواعد أخلاقية، مما جعل الفلسفة تتراجع نظريتها للعلم ونتائجه. وقد صب اهتمام وتركيز فلسفة القيم حول حفظ كرامة الإنسان المنتهكة في حدود أخلاقية تدعو إلى الحكمة والتعقل لضمان حياة آمنة وسالمة للإنسان. عرفت البيولوجيا تطورا كبيرا في العديد من المجالات التي كانت في مجملها تهدف إلى تحسين الحياة الصحية للإنسان، إلا أنها عرفت العديد من التجاوزات في بحوثها وتقنياتها على المستوى العلمي إذا يمكن إرجاع مجمل المشاكل البيوتيقية إلى عامل رئيسي وهو المساس بالكرامة الإنسانية، فتدخل الفلسفة لوضع الحلول الأخلاقية التي تلائم الإنسانية، فتزاوج بين العلم والفلسفة بحيث يكمل كل طابع الآخر في الطابع الأخلاقي لقد أوقعت الثورة البيولوجية الإنسانية في أزمة هذه الأزمة جوهرها يكمن في الأسس الأخلاقية، وما نتج عنها من آثار غيرت في واقع الإنسان من فرد يتمتع بكرامة وهوية إلى شيء منه مثل باقي الكائنات ولا شيء يميزه وبالإمكان إخضاعه لمختلف التجارب" مجمع اللغة العربية: معجم البيولوجيا(في علم الأحياء والزراعة)".

نحن اليوم أمام بوادر نظام دولي جديد ومنظومة من القيم لم يسبق لها وجود، فها هو الفيروس المجهري يقلب موازين المقولات الفلسفية في كتابة التاريخ والتأريخ له ليشكل ابستيمية جديدة تدخل التاريخ، وتصنع التاريخ لم يصبح التاريخ بعدها بمقولات الحداثة وما بعد الحداثة أو كما قال هيجل:" تاريخ العالم ليس إلا تقدم

الوعي بالحرية" أما الآن فأصبح تاريخ العالم ليس إلا تقدم الوعي بمشكلة جائحة كورونا، سيصبح التاريخ ما قبل الكورونا وما بعدها. (قاضي، 2020، صفحة 09)

اليوم وجدت الإنسانية نفسها أمام واقع جديد ولكن في حقيقة الأمر أمام أصعب اختبار وأهمه على الإطلاق؛ حيث ستكون الأسئلة واضحة ومباشرة: هل ستصمد الإنسانية؟ هل ستتآزر وتتّحد بغض النظر عن إيديولوجيتها وأجناسها وألوانها وأطيافها الدينية؟ أم أنها ستظهر على حقيقتها ككائنات متوحشة عاقلة؟ (قاضي، 2020، صفحة 12)

أعتقد أن المنظومة الأخلاقية للإنسان قد فشلت ورسبت أمام اختبار جائحة كورونا، وما سيحدث ثورة قيمية فيما بعد كورونا لأن هذه المنظومة أثبتت هشاشتها (قاضي، كورونا نحو موت الاديولوجيا و ميلاد الإنسان الجديد، 2020، صفحة 4241). إن هذا ما يفرزه الفكر البيولوجي من نتائج، فقد تغيرت وتيرة التغيير في المجال البيولوجي بدرجة غير مسبوقة ما ينبئ بمستقبل مجهول ومفزع لا أحد يعرف ملامحه ويعود ذلك بجزء كبير إلى ظهور البيولوجيا الحديثة وهذا ما أوجد إشكالية استمرارية ملاءمة الأطر الأخلاقية التقليدية وما تفرضه البيولوجيا، وهل نحن بحاجة إلى إمكانيات إيجاد أطر الأخلاقية الجديدة من عدمها أو بإضافة تعديلات فقط، وهل التعريفات الموجودة أو الأحكام الأخلاقية تستلزم تعديلا للاستجابة لبروز البيولوجيا الجديدة؟ بمعنى آخر هل صلاحية الفكرة الأخلاقية ما زالت سارية المفعول أو أنها بحاجة إلى مراجعة وتمحيص من أجل مواكبة التطورات. لقد بات تحديد السلوكيات أمرا مبهما ومستعصيا حول ما إذا سلوكا صائبا أخلاقيا من عدمه... حيث تكون المعلومات غير كاملة ويعتبر التقييم الأخلاقي من التداعيات والتطورات الجديدة أمرا صائبا جدا المكون الأخلاقي الذي يغطي مجالات متداخلة، وهذا لما تتسخ به القضايا والمكتشفات البيولوجيا من غموض وتعقد وتشعب بحيث من الصعب على المبادئ الأخلاقية تحديد حكم وسياق أخلاقي لهذه المكتشفات، وبالتالي يجد المرء نفسه في خضم صراع بين حتمية القبول بالمكتشفات وما سيوفره له من علاج وتطوير في مجالات حياته وبين الإلزامات الأخلاقية. فهو بذلك يوقع الفرد في مفاضلات بين القيم الأخلاقية وبين الرفاهية والتطورات العلمية وما سيلحقها من تبعات أخلاقية"

نهاية الإنسان هي المعرفة، لكن شيئا واحدا لا يمكنه أن يعرفه: إنه لا يستطيع أن يعرف ما إذا كانت المعرفة ستنقذه أم أنها ستقتله، سيقتل، نعم، لكنه لا يستطيع أن يعرف ما إذا كان قد قتل بسبب المعرفة التي اكتسبها أم بسبب المعرفة التي لم يكتسبها" (فوكوياما، 2002، صفحة 09)

استطاع علماء البيولوجيا فك الشفرة الوراثية من تطوير مناهج جديدة في التشخيص والعلاج، وبهذا أصبح في وسعها أن تكون المفتاح الذي يوسع الآفاق. لقد سعت فلسفة دراسة الأخلاق إلى فهم الإنسان ومكانته، وقد تباين اهتمام الفلاسفة بالإنسان من عصر لآخر ولكن الهدف كان دائما هو الارتقاء بالإنسان من المستوى الحيواني إلى أعلى درجات الرقي الفكري والروحي بمقدار ما تسمح قدراته وملكاته.

إقحام الإنسان في التطبيقات البيولوجية بصفته موضوعا للتجريب ووضعه في مصاف باقي الكائنات الأخرى من نباتات وحيوانات، ودخوله كعنصر أساسي في تركيب هذه التجارب دليل كافٍ حسب الفلاسفة على تجريد الإنسان من حقوقه الأخلاقية، فالتدخل في جسم الإنسان بهدف تغييره على أساس علاجي هو تدخل في حريته، وإذا غابت هذه الأخيرة يفقد الإنسان إنسانيته وهذا يخالف مبدأ قدسية الحياة.

الخوف مما سيلحق بالأجيال اللاحقة، إن هذه النمطية من الأخلاق، تبني أساس الخوف من المستقبل الإنساني، والقول إن الأخلاق تسعى إلى التوفيق بين ما هو كائن وبين ما سيكون فعليا، ونتائج البيولوجيا وتطبيقات نسبية تحتمل الخطأ وفي بعض الأحيان الرجحان لأنها تكون على عينة صغيرة ثم تعمم ولا تستوفي في كل عينة، وبالتالي ما يصلح لشخص معين يمكن أن لا نستحضر مثالا على ذلك منطقة رقان في الجزائر؛ فبرغم أن الاستعمار قد غادر المنطقة إلا أن مخلفاته لا والت حاضرة في المنطقة فالأطفال الذين ولدوا بتشوهات خلقية كان مصدرها الانبعاث الكيميائي الصادر عن القنابل التي زرعت في الأرض، فكان تأثيرها على الأجيال اللاحقة، ونفس القراءة والتحليل بالنسبة للبيولوجيا.

إن التقدم المذهل في مجالات التقنية والعلوم سوف يتسبب في اختفاء أنماط القيم الأخلاقية المتوارثة في المجتمعات دون أن تحل محلها أنماط أخلاقية جديدة

تحفظ بتلك الثقافات والمجتمعات تماسكها وهواياتها المختلفة ما لم يتم التركيز على البعد الأخلاقي عند التعامل مع هذه التغيرات العلمية والتقنية" فبيئتنا قد تغيرت بمعدل غير مسبوق تغيرت بيئتنا فجأة منتجات العلم والتكنولوجيا قد حورت وتحور معها كل شيء من حولنا إننا نحيا الآن بيئة جديدة تماما لم تكن منذ قرن مضى، فهل علينا أن نتمحور لملاءمتها. هل سيلزم هنا أن يتمحور الذكاء حتى يمكنه أن يتعامل لا مع الطبيعة كما خلقت وإنما مع ما صنعه الإنسان" (فوكوياما، 2002، صفحة 281)

"كانت الصدمة التي أصابت الناس من عودة الفيروس مرعبة، على أن الأسوأ لم يكن قد أتى بعد، مما دفع الكثير من المعاصرين إلى التسليم بأن الكورونا صار جزءا من بيئتهم، وأنها واقع لا مفر منه. واقع محتم وإجبارية التعايش معه" أحداث مثل تلك وغيرها، جعلت من بقوا على قيد الحياة، وقد استبد بهم الهلع والهذاءات ويتطلعون في معظمهم إلى هدف وحيد هو أن يجتنبوا المرضى وكل من يتصل بهم، وبهذا يستطيع أي امرئ منهم أن يحافظ على صحته" (جوتفريد، 2017، صفحة 128)

"إن كان ثمة شيء واضح فهو حقيقة أن للذهن البشري القدرة على بناء أنساق نظرية تتميز بخاصية الوصول إلى أبعد الآفاق وبخاصة الخيال الجامح. وبعض هذه الخيالات الجامحة التنظيرية هي حقا مواضع الشك. ويمكننا أن نجد أمثلة على ذلك في كل مجال تقريبا من مجالات سعي الإنسان، وذلك على مدى يبدأ من أشباه العلوم مثل التنجيم حتى التجاوزات الميتافيزيقية في مجال الفلسفة، وحتى الانحرافات التي من داخل العلم نفسه، وليس أكثر وضوحا من حقيقة أنه ما من فكرة مهما كان شذوذها إلا وقد آمن بها بعض البشر في مكان ما عند زمن ما." (موريس، 1995، صفحة 175)

نحن نعلم أن الفيروسات موجودة في جميع أنحاء العالم، وأن الفيروسات شديدة التنوع، وما من شك أن هذا المستودع سوف يطرح ميكروبات مرضية جديدة من حين لآخر ليبتلي بها بني البشر، والسؤال هنا هل نحن مستعدون؟ أو لنكن أكثر تحديدا في تساؤلنا: هل يمكننا التنبؤ بأنواع العدوى الفيروسية

الجديدة والسيطرة عليها أو علاجها أو الوقاية منها؟ (كروفورد، الفيروسات ، 2012، صفحة 143).

"فإذا أطل الفيروس بوجهه القبيح من جديد فإننا جاهزون بالعقاقير المضادة للفيروسات واللقاحات المناسبة. لقد مرت البشرية بأصعب من هذا من امتحانات وهذا ما هو إلا عثرة وسنتجاوزه وسنتطلع إلى المستقبل بنظرة استشرافية ملؤها الأمل بأن غدا سيكون أفضل وأحسن مما مضى" (كروفورد، 2012، صفحة 143).

خاتمة:

في الأخير يمكن القول إن العالم كان مستعدا لخوض كل أنواع الحروب العسكرية ولكنه لم يكن مستعدا لخوض مواجهة واحدة مع فيروس متناهي الصغر، ورغم أن خبرة البشرية في مواجهة ليست ضئيلة، إلا أن دول العالم تفاجأت بقدرة كورونا(كوفيد 19) على التخفي عن أجهزة الرصد والمراقبة وسرعة انتشاره وتجاوزه للحدود وهشاشة منظومة الصحة العالمية وعجزها في مختلف أنحاء العالم.

ومهما يكن من أمر فالعالم اليوم يقف عاجزا عن هزيمة فيروس فتاك بالرغم من التقدم الهائل في الطب والاختراعات، كما وقف العالم عاجزا عن صد مرض الطاعون بين العامين 1918-1920 والذي راح ضحيته آنذاك نحو 100 مليون إنسان في أنحاء المعمورة والسؤال الذي يطرح نفسه هل يصل الطب الحديث إلى حل للوباء أم أن ما صنعه الإنسان سيكون ما سيقضي عليه في نهاية المطاف؟ أو لم يحن الوقت لتتظافر جهود الدول في مجالات الطب والاقتصاد بدل الحروب والطائرات والحروب الالكترونية والحروب بالوكالة وتضليل الشعوب والناس بخرافات وروايات عن تاريخ مجيد أو عظمة الجيوش؟ أسئلة كثيرة تدور وتخرج إلى فضاء الكرة الأرضية من مواطنين عاديين وبسطاء كل همهم هو تأمين حياة كريمة ويبقى الجواب عليها معقدا أو ربما مستحيلا في عصرنا هذا.

الهوامش:

1. بولكنجهوم. (1998). *ما وراء العلم*. المجلس الأعلى للثقافة.
2. دوروثي إتش كروفورد. (2012). *الفيروسات* . القاهرة: هنداويللتعليم و الثقافة.
3. دوروثي إتش كروفورد. (2012). *الفيروسات* . القاهرة: هنداوي للتعليم و الثقافة.
4. روبرت س جوتفريد. (2017). *الموت الأسود. جائحة طبيعية و بشرية في العصور الوسطى*. القاهرة: المركز القومي للترجمة.
5. ريتشارد موريس. (1995). *حافة العلم*. أبو ظبي: منشورات المجمع الثقافي.
6. سعد محمد الحفار. (1996). *البيولوجيا و مصير الإنسان* . الكويت : عالم المعرفة.
7. سعد محمد الحفار. (1996). *البيولوجيا و مصير الإنسان*. الكويت : عالم المعرفة.
8. فرنسيس فوكوياما. (2002). *نهاية الإنسان و الثورة البيوتكنولوجية*. سطور.
9. مجموعة من الباحثين. (2020). *أزمة كورونا و انعكاساتها على علم الاجتماع و العلوم السياسية و العلاقات الدولية*. قطر: مركز ابن خلدون للعلوم الإنسانية و الاجتماعية.
10. مجموعة من الباحثين. (2020). *عالم ما بعد الجائحة قراءات في تحولات الفرد و المجتمع و الأمة و العلاقات الدولية*. المغرب: منشورات جمعية النبراس للثقافة و التنمية.
11. مجموعة من المألفين. (2020). *أزمة كورونا و انعكاساتها على علم الاجتماعو العلوم السياسية و العلاقات الدولية*. قطر: مركز ابن خلدون للعلوم الإنسانية و الاجتماعية.
12. هشام قاضي. (2020). *كورونا نحو موت الاديولوجيا و ميلاد الإنسان الجديد*. الجزائر: دار خيال للنشر و الترجمة.
13. هشام قاضي. (2020). *كورونا نحو موت الاديولوجيا و ميلاد الإنسانالجديد*. الجزائر: دار خيال.

قائمة المراجع:

14. .جون بولولكنجهم، (1998م)، ما وراء العلم، ترجمة: علي يوسف على المجلس الأعلى للثقافة.
15. سعد محمد الحفار، (1966)، البيولوجيا ومصير الإنسان،الكويت، سلسلة عالم المعرفة للمجلس الوطني للثقافة و الفنون و الآداب
16. مجموعة من الباحثين، (2020م)، وجدة، عالم"ما بعد الجائحة قراءات في تحولات الفرد و المجتمع و الأمة و العلاقات الدولية.
17. مجموعة من الباحثين، جامعة قطر، أزمة كورونا و انعكاسات على علم الإجماع و العلوم السياسية و العلاقات الدولية مركز ابن خلدون للعلوم الإنسانية و الاجتماعية.
18. بهشام قاضي، (2020م)، كورونا نحو موت الإيديولوجية و ميلاد الإنسان الجديد، الجزائر، دار خيال للنشر و الترجمة.

19. دوروثي إتش كروفورد، (2014)، الفيروسات، القاهرة، ترجمة: أسامة فاروق حسن، مؤسسة هنداوي.
20. روبرت جوتفريد، (2017م)، الموت الأسود، القاهرة، الترجمة: عبادة كحيلة المركز القومي للترجمة.
21. ريتشارد موربيس، (1995)، أبو ظبي ، كتاب حافة العلم ، ترجمة مصطفى إبراهيم فهمي، منشورات المجمع الثقافي . ط1.
22. فرنسيس فوكيوما،(2002م)، نهاية الإنسان و عواقب الثورة البيوتكنولوجية، ترجمة: أحمد مستجير سطور.

قراءات في مشاهد الجائحة ـ كوفيد 19

بن حجبة عبد الحليم
جامعة حسيبة بن بوعلي ـ كلية العلوم الاجتماعية ـ الشلف/ مخبر الأبعاد القيمية للتحولات الفكرية والسياسية بالجزائر،جامعة وهران./
a.benhadjba@univ-chlef.dz

ملخص الدراسة:

تهدف هذه الدراسة إلى تقديم قراءة فلسفية تحليلية لجائحة(كوفيد 19)، وهي الجائحة التي أصبحت تهدد الإنسان في وجوده وكيانه العام خاصة بعد تحولها إلى أزمة صحية عالمية، من هنا جاءت محاولتنا هذه لتسليط الضوء على أثارها المتنامية في مختلف جوانب الحياة الإنسانية، الاقتصادية، والعلمية والنفسية والاجتماعية، على المستوى الفردي والجماعي، المحلي والعالمي.

الكلمات المفتاحية:

الجائحة، فيروس، كوفيد 19، قراءة، أثار.

مقدمة :

إن ما يحيرنا اليوم تجاه عالمنا المعاصر هو كم العجز الذي كشفته جائحة ـ كوفيد 19، فبعدما اعتقدنا أننا حققنا زمن الحداثة الفائقة والتي تعني الانتصار لمعالم التحضر والعلم والعقل والتكنولوجيا تجاوزا لمظاهر الجهل والتخلف، ها نحن نعيش مع فيروس كورونا مشاهد تراجيدية مهزلة، إفراغ للمتاجر من المواد الغذائية، محارق بالجملة للجثث، تراشق واتهامات بين القوى السياسية الكبرى (أمريكا/ الصين)، الشجار والتدافع بين الأشخاص على أتفه الأمور ومنها ورق المرحاض لتسقط حضارة الرجل الأبيض في ورق المرحاض.

مع جائحة- كوفيد 19- تعرت الكثير من المقولات، ودخلنا زمن قلب القيم وتحطيم المألوف وكشف المستور بامتياز، كما لو أن البشرية استفاقت على زلزال

مدمر لتجد نفسها تنزلق إلى بنية جديدة متحملة أعباء هذا الانزلاق الذي كلفها الكثير، لأنه لم يحدث بصورة هادئة سلسة بل تم بطريقة عنيفة مدمِّرة.

ولعل هذا الحدث كان من المفترض وقوعه(بغض النظر إن كان أمرا مفتعلا أو طبيعيا)، فحال البشرية لم يكف يوما عن معايشة مثل هذه الانزلاقات، إلا أن المميز هذه المرة أن الوقع جاء شديد التأثير، ومن هذه الشدة يحصل الوعي والمراجعة للكثير من المفاهيم والسلوكات الخاطئة التي نعيشها ولا نشعر بها مجانا في قلب حركة العالم المتسارعة، ومن ذلك انتباهنا لكبريائنا الزائف، وفهمنا الخاطئ لمقولة التقدم والتي على ما يبدو أنه قُدِّر لها أن لا تستمر إلا بمتلازمة الفناء، العجز، والتحطيم، وربما جائحة كوفيد 19 هذه المرة إحدى الأوجه الدراماتيكية الثانية لعملية التقدم والاستمرار في الحياة، فهل يعني هذا أن مبدأ الفساد والتحلل(أوبئة، حروب، أزمات) مبدأ ضروري من مبادئ الكون والحياة؟ وإذا صح ذلك فلماذا تناسى البشر هذا المبدأ، أو غيبوه عن قصد وبنوا استشرافهم للمستقبل على مقومات التقنية والنمو الصناعي والتنمية الاقتصادية، دون وضع ظل هذه المقومات في الحسبان؟ هل يعني ذلك أننا مخطئون في فهمنا لهذه الحياة؟ ومن الضروري علينا وضع ظل التقدم في تقديرنا المستقبلي على الأقل؟

من هذه التساؤلات تسعى هذه الورقة البحثية إلى التأكيد على:

أن بناء الحياة والاستمرار في تقدمنا لا يتم بلا حدود وضلال، وأن ما يقع من أوبئة وجوائح يحتاج منا النظر والتأمل والمراجعة، ما دامت الحياة لا تتأسس على ما هو إيجابي فقط، وعليه فمن الضروري أن نتأمل جائحة هذا القرن ونقرأ آثارها وتداعياتها، وهو ما يدعو إلى التساؤل:

ما الذي أحدثه كوفيد 19؟ وماذا كشف لنا هذا الفيروس؟

- مشاهد كوفيد 19:

من المشاهد التي كشفها كوفيد 19 صدمتنا تجاه العلم ومن يمثله، فبعدما كان الرهان عليه لفك شفرة الغموض والجهل وتجاوز حتمية الأمراض والأوبئة، يصبح مصدر قلق وإزعاج إلى حد الغثيان، وإذا أردنا مثالا عن تجاوزاته اللاإنسانية، فلنتأمل اقتراح الطبيب الفرنسي جان بول ميرا، رئيس قسم العناية

المركزة بمستشفى" كوشن" في باريس، بإجراء دراسات واختبارات اللقاح ضد فيروس كورونا في بعض الدول الإفريقية، عندما قال بصريح العبارة في قناة "LCI" الفرنسية: إذا استطعت أن أكون مستفزا، ألا يجب إجراء هذه الدراسة في إفريقيا؟ حيث لا توجد أقنعة ولا علاج ولا إنعاش!

إن مثل هذه القناعات المتجردة من القيم الإنسانية ليست شيئا جديدا في تاريخ الحضارة الغربية، ولا هي نتيجة تخطيط محكم وإنما نتيجة عفوية للرؤية النفعية المادية المتحررة من الأسس الدينية والمرجعيات المتجاوزة والمؤمنة بالعقل المحايد والعقل الأداتي وحدهما، لندرك جيدا حجم التغيرات التي طرأت على المجتمعات الغربية، بسبب غياب المنظومات القيمية وسقوط الأنساق الكبرى وتهاوي الطوباويات، في مقابل سيطرة النيوليبرالية المتوحشة والتقنية الحديثة اللتين زادتا من قدرات الإنسان المادية وأثرتا بدورهما على من أوجد هذا الوضع حتى أصبحنا خاضعين له مجردين من كل ماهية إنسانية.

تماما مثلما أرسل لوي باستور(1822 .1895) هو الآخر طلبا إلى حاكم البرازيل يقول فيه:" سيدي لو كنت حاكما أو رئيسا، إليك أسلوبي في العفو عن المساجين المحكوم عليهم بالإعدام، أخيرهم ليلة إعدامهم بين الموت أو القيام بتجربة علمية تتمثل في حقنهم بمصل مقاومة داء الكلب، فكم أكون سعيدا رغم كبري للانتقال إلى ريودوجانيرو للقيام بهذه التجارب إذا وافقتم (dagognet F. , 1988, p. 162)، ليس هذا فقط، فلنتذكر أيضا جملة التجارب العلمية التي كانت تتم في المختبرات النازية الألمانية على أمخاخ اليهود والآسيويين بعد ما يتم تصفيتهم بناءً على طلب من علماء التشريح من أمثال" الدكتور<هيرت> الذي كان يتحمس لدراسة أمخاخ اليهود بالخصوص، والدكتور<برجر> الذي كان مهتما بالآسيويين، أما البروفيسور <هاليرو فورد> فكان أكثرهم حيادا ولا يتردد في طلب أكبر عدد من الجماجم، حتى إنهُ- في يوم كما يذكر عنه التاريخ- سأله الموظف المسؤول عن نقل تلك الجماجم: كم تريد؟ فأجابه البروفسور< فورد> أنه كلما زاد العدد كان ذلك أفضل" (المسيري، 2007، صفحة 234)، وهذا ليس إلا فيضا من غيض.

وفق هذه الرؤية المادية المحايدة والمنطق المنفصل عن الاعتبارات الأخلاقية يتعامل الغربيون إذا مع الإنسانية عموما والمجتمعات الإفريقية والأسيوية خصوصا، كمادة استعمالية نافعة يمكن التجريب عليها وعرضها للبيع، وحالهم في ذلك يقول نفسي نفسي نحن ومن بعدينا الطوفان، مطبقين في ذلك قانون الصحة العرقية الذي يقرر ضرورة الحفاظ على وحدة الشعب الأوروبي وعلى بقائه، أو لنقل بعبارة أدق ضرورة الحفاظ على مصلحة أبناء البلد الواحد. ولو أن هذه العبارة هي الأخرى أصبحت غير دقيقة، فقد حطم فيروس كورونا هذه المرة مثل هذه المفاهيم الكاذبة من نوع مقولة الاتحاد الأوروبي والمجتمع الواحد والصحة العالمية، فبدأنا نلاحظ كيف نأت كل دولة بذاتها متسابقة على إغلاق الحدود وقتل المسنين بموافقة السياسيين، فأصبحت عبارة الحفاظ على أبناء البلد الواحد هي الأخرى غير صحيحة، فداخل المجتمع الواحد هناك المسن والشاب والمواطن الأصلي والمجنس والمهاجر، وطبعا ليس الجميع من طينة واحدة هذا إنسان من الدرجة الأولى، وذاك من الدرجة الثانية أو الثالثة.

أما إذا صحت فرضية أن فيروس كورونا صناعة بيولوجية، وقد يكون ذلك محتملا جدا فالجميع يعرف أن الدول الكبرى تشتغل منذ عقود على تطوير الأسلحة الجرثومية، وبأن أنواعا من الفيروسات معروفة لدى علماء الأوبئة والباحثين، وفي الواقع هناك براءات اختراع وتسابق بين المختبرات. كما أن التوجه السيء للعلوم بتحولها نحو الاعتبارات الاقتصادية النفعية بات المنطق الذي يفرض نفسه، من خلال الميل إلى صناعة التقنيات المربحة بدل الاهتمام بالمشاكل الحقيقية للبشرية مثل صناعة الفيروسات البيولوجية والإلكترونية والمتاجرة بمضاداتها، أو احتكار الأدوية ثم بيعها بأسعار خيالية، فقد ذكر السيد:"جوزيه بوفيه زعيم فيدرالية المزارعين في فرنسا أن الشركات المتعددة الجنسية التي تحتكر صناعة الدواء تضع يدها بالفعل على الدواء الذي يشفي من مرض الإيدز، ولكن سعره للفرد الواحد يبلغ نحو 300 دولار، ويذكر بأنه تفاوض مع هذه الشركات لتقوم ببيع الدواء بنصف الثمن الذي ستدفعه إليها جمعيات غير حكومية على أن تتبرع

الشركات بالنصف الثاني، لكنها رفضت العرض ولم تأبه بالآلاف الذين يموتون صرعى بهذا المرض يوميا في العالم" (قويدري، 2015، صفحة 92) .

وإذا أردنا مثالا آخر فلنتأمل قليلا شراسة الشركات العالمية التي أصبحت تتنافس على الجينوم البشري ومحاولة التحكم فيه والمتاجرة به، وخير دليل على ذلك سيطرة الشركة الأمريكية المعروفة باسم سيلارا جينوم ـgenomeis celar ـ على سوق الجينوم لتتحول الجينات البشرية إلى بضاعة مادية للبيع تبعا لمبادئ البورصة، مما يتسبب لا محالة في ضياع الهوية الذاتية للأفراد وتفكك العلاقات الاجتماعية والعاطفية ويفتح إمكانية إنشاء مؤسسات للإنتاج البشري، أو بمعنى آخر إمكانية الحصول على آلات بشرية تحت الطلب ليس لها ماض أو حاضر.

إذا صح فرضنا فتلك الخيبة الكبيرة التي فضحها كوفيد 19 بحق، إذ بعد قرون من الاستنارة يحدث ما كان غير متوقع، وتكتشف المجتمعات المعاصرة نكستها في العلم والعلماء، وأن الأمور ليست بذلك التفاؤل الساذج الذي نادت به النزعات العلمانية حينما دعت إلى اعتبار العلم الديانة الرسمية التي يجب اعتناقها، فبقدر الإمكانيات الهائلة التي وفرها أمام الأفراد بات يطرح من الإحراجات الأخلاقية والإنسانية ما لا يمكن السكوت عنه، وهو ما يدعونا إلى مراجعة كبريائنا ونزعتنا العلمية هذه، إذ من غير المعقول أن لا يتميز العالم ورجل المعرفة عن الجاهل والمجرم ما دامت معارفهم وعلومهم لم تمنعهم من السقوط في حمأة الخطيئة بل زادتهم سطوة وشرورا.

ويمكن القول إنه مع هذه الصدمة ينبغي أن نلاحظ أيضا أن المعضلة هنا هي معضلة أخلاق، إن لم نقل تحولا عميقا في سؤال الأخلاقـ إذ المميز لأخلاق عالمنا المعاصر هذه المرة أنها باتت تعيش إشكالاتها لا بين أفراد المجتمع الطبيعي وإنما بين أفراد العلم وممتلكيه، فبخلاف الأخلاق التقليدية التي كانت تسعى إلى تأسيس سلوك فاضل بين الهمجيين والمتوحشين والجهلة، نعيش النكسة داخل العلم ومن جهة من يمثلونه، ويدعون أنهم يؤثثون بيت الحكمة، مما يفترض أنهم

يقدمون صورة فاضلة ويحتلون منزلة متقدمة في سلم المجتمعات التي عرفها التاريخ البشري، فنحن هنا لا نتكلم عن بدائيين أو جاهلين أو مجرمين، بل أناس يمثلون المعرفة ويحسنون إنتاجها وتوظيفها بكفاءة في جميع مجالات نشاطاتهم الاقتصادية والمدنية والسياسية، فكيف يعقل أن يزداد كل هذا الإجرام والعفن في عالم يتميز أفراده بهذا الكم الهائل من المعرفة والعلوم؟ أين الخلل؟ وهل ما وصلنا إليه مجرد وهم وكبرياء زائف؟

- ماذا كشف لنا كوفيد 19 أيضا؟

لقد فضح لنا درجة النفاق السياسي ودجله الزئبقي عندما دحض الكثير من الأكاذيب السياسية التي تتغني بها جل الدول الغربية من قبل الشعار الفرنسي: أخوة، مساواة، حرية، فشاهدنا قتل المسنين بموافقة السياسيين لتسقط مقولة المساواة، والعدالة الاجتماعية، أما أكذوبة أمريكا راعية السلام الدولي والدولة التي لا تقهر تعرت هي الأخرى عندما عجزت عن إنقاذ شعبها واقتصادها، فلم تنفعها أسلحتها المدمرة ورأسماليتها المتوحشة من قبضة فيروس لا لون ولا رائحة له. "قد يكون ما نعيشه إيذانا بعالم مغاير، وقد نغوص في التوحش أكثر كما قد تنهض صحوة جديدة للضمير، وإن كان يستحيل التعويل على صحوة ضمير شخص مثل دونالد ترامب الذي اتخذ قرارا قاتلا بوقف مساهمة أمريكا المالية في ميزانية منظمة الصحة العالمية، التي أنجزت وما تزال أعظم الخدمات الطبية في تاريخ الإنسانية طيلة الثمانين سنة الماضية، وقامت بأكبر عمليات تلقيح وعلاج أمراض مُعدية في كل بلدان العالم" (أفاية، 2020)

لقد كشف هشاشة تخطيطنا الاقتصادي، فأصبحنا نلاحظ كيف انهارت أكبر الشركات في أيام قليلة، وكيف غلقت المصانع وتوقفت رحلات الطائرات والسفن، وكيف عجزت دول متقدمة حتى عن توفير الكمامات لمرضاها، فبدأت صور القرصنة للطائرات المحملة بأجهزة التنفس والأدوية والمساعدات الطبية الموجهة للشعوب الفقيرة تعم المشهد العالمي.

من المنطقي أن ترتفع تكاليف القطاع الصحي أوقات الأزمات والأوبئة بسبب ارتفاع النفقات الصحية والإدارية، وزيادة الإجراءات الوقائية، ولكن الأمر الذي

فاق التصور هو حجم الضرر الحاصل داخل الاقتصاد العالمي، والذي تجاوزت عواقبه أثار الأزمة الاقتصادية عام 1929 وأزمة 2008، وربما ما يدهشنا هنا هو الاضطراب الذي ظهر على اقتصاد الدول القوية والتي انهارت أمام الضربات الأولى لفيروس ـ كوفيد 19، رغم توقعها للوباء بسنوات سابقة. فعندما تعجز دولة مثل الولايات المتحدة الأمريكية عن توفير أجهزة التنفس لمرضاها، فذلك ما نسميه فشلا في التخطيط الاقتصادي، أما الحدث الأكثر غرابة فهو عجز حكومات هذه الدول عن دفن جثث موتاها لينفق الإنسان مثل الحيوان دون تشييع ولا توديع ولا صلاة، فتأبى الجائحة إلا أن تذكرنا بخطيئتنا الأولى عندما عجز ابن ادم على أن يواري سوءة أخيه.

كذلك أسفر كوفيد- 19 من الناحية الصحية أيضا عن ضعف البنيات الاستشفائية وقدرتها العلاجية، حتى وإن كانت شراسة الوباء هذه المرة أقوى، وقد تجاوزت الإمكانيات المعتادة، إلا أن التخبط الذي وقعت فيه دول العالم أظهر بوضوح تام غياب رؤيتها الاستشرافية، وإلا كيف نفسر حالة التهاون التي سادت الموقف في بداية الأمر فلم تعلن الصين عن خطورة الفيروس وتكتمت على الوضع رغم تحذيرات العلماء، أما بعد انتشار الوباء فهناك من تعامل معه باطمئنان ساذج حتى وجد نفسه مضطرا إلى إنزال الجيش لفرض الحجر الصحي، وهناك من انتهج مناعة القطيع تاركا الفيروس ينتشر، فأمام هول الواقعة الكل شعر بدوار الجائحة ولم يتبين له الخيط الأبيض من الأسود، بعدما استنفذ المعتاد ولم تبق إلا لحظات الترقب والانتظار في قلب الفرملة الحاصلة.

يظهر أن هذه الفرملة القوية التي أحدثها فيروس كوفيد ـ 19 لم تمس الجانب الاقتصادي العام فقط، بتوقيفها لعجلة الإنتاج ونشاط البورصة والتجارة، وغلق الحدود، بل مست ذاتية الأفراد ونفسيتهم أيضا بتقييد حرياتهم وحقوقهم الأساسية، مثل حرية التنقل والسياحة والتجمع وإقامة الأفراح والشعائر الدينية، بحجة المحافظة على الصحة العامة- إلا أن طول مدة القيد دون إيجاد حلول مناسبة، خلق نوعا من التذمر عند الناس، وولد لديهم شعورا بالضيق في حياتهم وهو شعور مؤلم، فبعدما كانوا يخففون على أنفسهم بخارجات سياحية

ينتظرونها نهاية الأسبوع، ويقللون من ضغوطات البيت وصخب الأطفال بزيارتهم للأصدقاء والأقارب، أصبحوا محجورين في منازلهم .

صحيح أن كوفيد- 19 لم يقيد الناس بالحبال والسلاسل، ولكن بانتشاره الواسع وإزهاقه للأرواح، وفي ظل الإجراءات الصحية المطبقة والعجز العلمي عن إيجاد دواء له فرض على الجميع ملازمة بيوتهم، فتحول إلى فيروس مستبد يتحكم في سلوك الناس ورغباتهم وأفكارهم، مضيفا عليهم أعباء نفسية ومرضية جديدة فوق أعبائهم التي يحملونها، وهي أخطار أكثر إتلافا من ضروب الحرمان المادي، فهل هي أيام الفرملة والعبودية أم أن الحرية مجرد أكذوبة كبرى أو مسلمة كما وصفها إيمانويل كانط، مثلها مثل أكذوبة الديمقراطية والعدالة الاجتماعية وغيرها من الأوهام التي خَلقها الإنسان وصدقها، وها هو كوفيد ـ 19 يفندها ويسقطها الواحدة تلوى الأخرى؟

أما إذا تكلمنا على الفرملة الحاصلة من جهة العلم، فيمكن وصفها بأنها حركة تحطيمية أناركية والتحطيم ظهر عندما كسر هذا الفيروس جميع النظريات العلمية واستنفذ أدواتها المعرفية على تفسير المعطيات الجديدة، أما الفوضوية فتتجلى في عدم اعترافه بأي سلطة(علمية/ صحية/ وقائية) خارجة عنه، تزاحم سلطته التدميرية أو تحد من نشاطه السائل بين عدد متضارب من الأبحاث المتنافسة للظفر بلقاح ناجح. وكأن حركة هذا الفيروس جاءت منسجمة تماما مع فلسفة ما بعد الحداثة المناهضة للمعايير والأسس معلنة عن عقيدة التصدع والاضطراب.

أما على المستوى الروحي فقد أظهر فيروس كورونا ـ كوفيد 19 درجة خوائنا الروحي، وكيف تحول البشر إلى آلات فارغة ليس لها أي أساس أنطولوجي، ولعل لجوء الإيطاليين والفرنسيين إلى الغناء والموسيقى في شكل فردى أو جماعي من شرفات منازلهم ليس إلا بحثا عن أساس ما يستندون إليه، للتنفيس على أنفسهم وطرد القلق والخوف والملل الذي يشعرون به، إلا أن" الإنسان ذو البعد الواحد على حد تعبير <ماركيز> لا يستطيع أن يخلق لنفسه بعد التعالي، والأمل لا يمكن

أن يتحقق في حالة انعدام أي تأسيس للوجود البشرى، أو في حالة انعدام المعنى المطلق الذي يلهم الإنسان الطمأنينة"(صلاح، 2005، صفحة 245)

قد يقول معترض: إن مسألة الأوبئة لا يمكن مواجهتها بالاعتقادات الدينية، وأن التدابير الروحية لا تقدم لنا أدوية أو مضادات حيوية، يمكن أن نجيب المعترض: نعم هذا صحيح، والحاجة إلى العقل والعلم في مثل هذه الأوقات العصيبة ملحة وتأتي على رأس الأولويات، ولكن هذا لا يمنع من الاستعانة بالتدابير الدينية للتخفيف من حدة الموجات الوبائية ودفع أثارها وتداعياتها، ألم تكن مسألة المزاوجة بين الاعتقادات والحلول المادية من طرق تدبير العامة للكوارث والأوبئة عبر التاريخ، ثم هل الاستعانة بالغناء والموسيقى هو أفضل حال من التدابير الدينية؟

يقول المفكر< سبونفيل اندروه كونت> في كتابه: هل الرأسمالية أخلاقية: "اسمحوا للملحد الذي هو أنا أن يقول لكم إن هذه المخازن الكبرى(قاصدا أماكن الرقص)، لا تحل محل الكنائس؟ وإن مجتمعنا ليس لديه ما يقدمه إلا المخازن الكبرى وخاصة إلى شبابه، ثم يضيف قائلا: لهو على الأرجح مجتمع يرى المستقبل وراءه"[6] (كونت، هل الرأسمالية أخلاقية، 2005، صفحة 36)، إن اعترافا مثل هذا ومن طرف شخص ملحد، يؤكد حاجة الإنسان عموما إلى أساس يستند عليه وأرض ثابتة يقف عليها، إلى حتمية ميتافيزيقية ما تمنح حياته معنى وتزرع فيه روح الرضا والأمل خصوصا في لحظات الأزمة، إن اعتراف سبونفيل يعبر عن حيرة واضحة، وهمّ يقلق وهو هذا الخواء والانفصال الحاصل لأبناء مجتمعه بعد فقدان الاتحاد الديني، أَلَمْ ينتهِ <مشال سير> في تتبعه للجذر اللاتيني: Religo إلى الفعل Religar الذي يعني ربط أي ما يربط، مما يبين أن الدين يربط البشر فيما بينهم من خلال ربطهم جميعا بالله، ويضيف قائلا: إنه إذا كان الدين هو ما يربط، فإن عكس الدين ليس هو الإلحاد كما يسود الاعتقاد غالبا، وإنما هو انعدام الربط أي الهمل(أو الإهمال)[7] (كونت، هل الرأسمالية أخلاقية، 2005، صفحة 36)

يمكننا القول إذن من دون تردد: إن ما يهدد المجتمعات المعاصرة وهي في قمة تحضرها المادي ليس الكوارث والأوبئة التي تعترض طريقها، بل الحياة الحيادية المنفصلة عن الاعتبارات الدينية التي تعيشها والمكتفية بآليات العلم والعقل كأسس بديلة كما توهمت، أكيد أن العلم والعقل والتقدم العلمي مما تتوسل به الحضارة الغربية أسس جوهرية لا شك، ولكنها ليست كافية لوحدها، إذ ينبغي أن نضيف إليها البعد الإيماني.

ـ ولكن بمَ نفسر هذا الفشل في مواجهة كوفيد 19؟

يجيبنا المفكر الأميركي وعالم اللسانيات ناعوم تشومسكي: في حوار أجراه مع موقع تروث أوت الأميركي، أن" الرأسمالية النيوليبرالية نفسها تقف وراء التعامل الفاشل للولايات المتحدة مع جائحة كورونا"[8] (تشومسكي، نقص أجهزة التنفس الإصطناعي يكشف قسوة الرأسمالية وفشل أمريكا، 2020). وهو الأمر الذي حذرنا منه كارل ماركس من قبله منذ سنوات طويلة عندما كان يكثر الحديث عن أزمات الحضارة الغربية من جهة الأسباب الكامنة خلفها، فإن الكثير من المفكرين المهمومين بواقع الحضارة الغربية ومصيرها المأزوم، من شاكلة <إرفنج كرستول>، و<إسولد شبنجلر>، و<زيغمون باومان>، و<هانزكونغ> و<دوستويفسكي>، وغيرهم يرجعون أسباب الورطة إلى العلم أو العقلانية الأداتية أو أفول الآلهة، أما <كارل ماركس> فكان يقول دائما: " إنّ أساس المأزق أو الورطة أكثر ملموسية ودنيوية بكثير: إنه كامن في أعمال الاعتيادية اليومية للنظام الاقتصادي البرجوازي، وهو نظام يساوي بين قيمتنا الإنسانية وسعرنا في السوق لا أكثر ولا أقل، الأمر الذي يجبرنا على مَط أنفسنا وتوسيعها سعيا وراء رفع سعرنا إلى أقصى الحدود الممكنة"[9] (سبيلا، 2006، صفحة 08) .

من المؤكد أن ربط <ماركس> جوهر الأزمة في الحضارة الغربية بالرأسمالية كان نابعا وقتها من ذهوله من قوة سوقها الجبارة وآليات تبادلها المجردة ومنطقها الرأسمالي القائم على التسوية بين الأشياء، مما يفرض ضريبة على كل ما هو إنساني، وكأن تحذير كارل ماركس من خطر الرأسمالية ما فتئ ينكشف لنا

بوضوح اليوم مع جائحة كورونا، ما جعل تشومسكي يبدأ حواره عن وباء كوفيد19 بعبارة مؤسفة قائلا: " إن نقص أجهزة التنفس الاصطناعي يكشف قسوة الرأسمالية وفشل أميركا. موضحا قصده من ذلك- إن الوباء كان متوقعا قبل ظهور جائحة كورونا بوقت طويل، لكن الإجراءات الاستباقية اللازمة للتعامل مع مثل هذه الأزمة منعتها الضرورات القاسية لنظام اقتصادي لا يهمه منع وقوع كارثة مستقبلية لأن ذلك غير مربح اقتصاديا، فوزارة الصحة الأميركية تنبأت بالمشكلة قبل وقوع الجائحة، وتعاقدت مع شركة صغيرة لإنتاج أجهزة تنفس اصطناعي غير مكلفة وسهلة الاستخدام، ولكن بعد ذلك تدخل المنطق الرأسمالي، عندما اشترت شركة كبرى (كوفيديان) تلك الشركة، وقامت بتهميش المشروع، وفي عام 2014 أخبر المسؤولون التنفيذيون في شركة كوفيد يان في وكالة الأبحاث الطبية الفدرالية الأميركية أنهم يريدون فسخ العقد لأنه ليس مربحا بما يكفي للشركة"[10] (تشومسكي، نقص أجهزة التنفس الإصطناعي يكشف قسوة الرأسمالية وفشل أمريكا، 2020) .

والمشكلة هنا هو أن كل من ينطلق من هذه الرؤية الاقتصادية المحضة يقوم بهذه الممارسات منطلقا من منظور ترشيدي مادي خالص منفصل تماما عن أي اعتبارات إنسانية، معتقدا أنه ليس سوى فاعل ينبغي أن يؤدي عمله بكفاءة وينفذ ما تقتضيه الضرورة الاقتصادية، لا يدين بالولاء إلا للآلة الرأسمالية ومنطقها الداعي إلى زيادة الربح. وإلا كيف نفسر تقاعس الولايات المتحدة الأمريكية التي سجلت أسوأ سجل في الاستجابة لأزمة كورونا، خصوصا بعدما حذر العلماء من الجائحة لسنوات، منذ وباء سارس عام 2003 وكان الوقت مناسبا منذ ذلك الحين!

ببساطة يقول تومشسكي:" لأن إشارات السوق كانت واضحة، ليس هناك ربح في منع وقوع كارثة مستقبلية. كان يمكن أن تتدخل الحكومة، ولكن هذا ممنوع بسبب عقيدة الحكومة، مما يعني أنه يجب تسليم عملية صنع القرار بشكل كامل إلى عالم الأعمال، وهو مكرس للقطاع والربح الخاص وليس فيه أولئك الذين قد يهتمون بالصالح العام"[11] (تشومسكي، نقص أجهزة التنفس الإصطناعي يكشف

قسوة الرأسمالية وفشل أمريكا، 2020) يحدث كل هذا والمجتمع الرأسمالي يحتفي بحضارته المتحررة الواعدة، ولا يضع في حسبـانه مآلات هـذا التوجه اللاإنـسـاني.

ـ خاتمة:

ختاما يمكن القول إن الأزمة الوبائية العالمية الراهنة مسالك العلاج فيها تستوجب منا جميعا، حسـا استشرافيا لما نعيشه من أوبئة وأزمات ليس في ما يجري الآن، بل في ما هو آت، ولا يكون ذلك إلا باستيعاب الدروس وأخذ العبر انطلاقا من السعي إلى فهم عناصر الجائحة التي يعيشها العالم اليوم ـ ولكن بنوع من المعرفة العلمية والجدية السياسية، لأن هذا الفيروس كان معروفا والعلماء حذروا منه منذ فيروس H1N1 وسارس 2003، ولكن منطق المصلحة والرأسمالية من جهة واللامبالاة وربما الاستهزاء من جهة أخرى كان غالبا، ما جعل الأمور تكون أكثر سوءا.

لهذا فمن الضروري أن نكون حذرين أكثر من أي وقت مضى وأن نتحمل مسؤوليتنا الأخلاقية في ما نفعل ونسلك، فليس من شأن الإنسان أن يعيش فحسب بل من الواجب أن ينظر إلى مَآلاَت ما يصنع، ولا تتحدد مسؤوليتنا الأخلاقية في المستوى الاجتماعي فقط باحترام الأفراد لقواعد الصحة الوقائية، بل تكتمل بشقها العلمي والسياسي أيضا.

فعلى المستوى العلمي تتم بكف العلماء عن تجاوزاتهم الخطيرة التي تمارس سرا في المخابر العلمية والمؤسسات البحثية الخاصة والعسكرية، من تجارب تطبق على الناس والحيوانات والبيئة، وكذا التوجه السيء نحو صناعة الفيروسات الخطيرة للهيمنة والمتاجرة بها، خصوصا وأن الشكوك ما زالت قائمة حول اتهام بعض الدوائر بصناعة فيروس كوفيد- 19، أما على المستوى السياسي فتكون بـزيادة الترابط الدولي والعمل على التعاون الصحي بتبادل المعلومات عن حقيقة هذا الفيروس، وكذا المعارف والخبرات في كيفية التعامل معه، بدل تبادل الاتهامات بين القوى السياسية الكبرى (أمريكا/ الصين) حتى وصل الأمر إلى حد التقاطع الاقتصادي.

كما يستوجب منا الأمر تصحيح رؤانـا الإدراكية ونماذجنا المعرفية القائمة على فعل التفكيك والاختزالية، فلا ينبغي مثلا الاحتكام إلى الموضوعية الحيادية فقط والتي تعني موضوعا مرصودا دون ذات راصدة، ولا إلى الواحدية السببية التي تفرض حتمية العلاقة بين العلة المعلول، بل لا بد من نماذج كلية شاملة ومركبة تؤمن بوجود حدود ميتافيزيقية تضفي على الكون أسراره وتحافظ على وجود مسافات معه، فربما من أسباب هذه الجائحة عدم احترام خصوصية الطبيعة والتدخل المفرط في نظامها نتيجة الاستهلاك المفرط لمواردها، خصوصا إذا علمنا أن مصدر هذا الفيروس حيواني.

. هوامش البحث:

1 . François dagognet , Le vivant, Edition bordas, paris, 1988, p 162.

2. عبد الوهاب المسيري، الفلسفة المادية وتفكيك الإنسان، الطبعة الثانية، دار الفكر، دمشق، 2007، ص 234.

3 . الأخضر قويدري، حاجة الاختراعات العلمية المعاصرة إلى الترشيد الأخلاقي، مجلة أبعاد، مخبر الأبعاد القيمة للتحولات الفكرية والسياسية، جامعة وهران، العدد الثاني، 2015. ص 92.

4. محمد نورالدين أفاية: برهنت الجائحة أن العقل العلمي هو الملاذ وسبيل الخلاص بالنسبة للإنسانية ـ https://couua.com/2020

5 . هاشم صلاح، مدخل إلى التنوير الأوربي، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة الأولى،2005، ص 245.

6 . سبونفيل أندره كونت، هل الرأسمالية أخلاقية، ترجمة:بسام حجار، الطبعة الأولى، دار الساقي مركز البابطين للترجمة، الكويت، 2005، ص35.

7 . المرجع نفسه، ص36.

8 . تشومسكي : نقص أجهزة التنفس الاصطناعي يكشف قسوة الرأسمالية وفشل أميركا . 2020، https://www.aljazeera.net/news/cultureandart

9 . محمد سبيلا، عبد السلام بنعبد العالي، الحداثة و انتقدتها، نقد الحداثة من منظور غربي، الطبعة الأولى، توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، 2006، ص8.

10. تشومسكي : نقص أجهزة التنفس الاصطناعي يكشف قسوة الرأسمالية وفشل أميركا، المرجع نفسه.

11 . المرجع نفسه.

كورونا وسؤال الإيديولوجيا

د. عاشور بن قويدر. جامعة قاصدي مرباح- ورقلة - الجزائر
achourbenkouider@gmail.com
أ. هشام قاضي. جامعة خميس مليانة – الجزائر
hichamgadi4@gmail.com
أ. نجية ضيف . جامعة الجزائر
nadjia.socio.dif@ gmail.com

ملخص الدراسة:

يعيش العالم في الآونة الأخيرة أزمة صحية وبائية خطيرة وشديدة الانتشار، تتمثّل فيما يسمّى فيروس كورونا أو جائحة فيروس كوفيد 19، والتي ما فتئت تحصد الآلاف من أرواح البشر، لذا صنفت من أخطر الأوبئة في هذا العصر؛ فهي تشكل تحديا للخبراء والدول. وفي ظل هذه الظروف المحاطة بالخوف وغموض المستقبل، تزايدت الحاجة إلى تحقيق الأمن والسلامة النفسية والاجتماعية، ووجدت الإنسانية نفسها أمام واقع جديد وأمام أصعب اختبار لما له من دور بالغ الأهمية في تحقيق حالة من الاتزان والاستقرار والطمأنينة، والراحة النفسية، وكذا البحث عن حلول في ظلّ التآزر والتعاون والاتحاد الإنساني، بعيدا عن التفرقة والعنصرية والأنانية والتعالي. وهكذا، ومع انتشار فيروس كورونا برزت في الساحة الدّولية الحاجة إلى البحث عن أفضل التصوّرات والممارسات التي تستطيع الدول من خلالها إدراك وتقدير الحاصل، ومن ثم تحديد الخيارات والمسارات للتّعامل مع الخطر المُحدِق بها؛ وهي تروم من وراء كل ذلك الولوج إلى كيفية المعالجة والوقاية والحماية من انتشار الفيروس بشكل فعّال في المجتمع الدّولي. ولكن السّؤال الذي يطرح نفسه بقوّة هو: ما علاقة فيروس كورونا بالإيديولوجيا؟

الكلمات المفتاحية: العالم، الإنسان، الإيديولوجيا، الصراع الإيديولوجي، جائحة كوفيد19.

مقدمة:

يشهد العالم منذ نهاية عام 2019 تحولات متسارعة وغير متوقعة، وهذا من خلال ما تفرضه أزمة انتشار جائحة كوفيد19، التي أصبحت تشكل خطرا كبيرا على الصحة العمومية جسميا ونفسيا على الأفراد والجماعات والدّول، فلقد احتلت هذه الجائحة مكانة واسعة في تفكير النّاس، فهي تعتبر حدثا صادما يهدد حياة الأفراد والجماعات بل يهدّد الوجود البشري برمّته، وهذا ما أدّى إلى تغيير جذري في تفكير الناس وفي سلوكاتهم وفي كلّ مجالات حياتهم واحتياجاتهم، في ظلّ مظاهر نفسية صعبة مثل القلق والخوف الشّديد والكآبة والحزن...الخ؛ فانعكس هذا على مقدرتهم على التّكيف والتوافق مع الوضع الراهن. ومن هنا يمكن أن نتساءل عن ماهية هذا الفيروس، فما هي حقيقة هذا الفيروس؟ وكيف يمكن معالجته وإبعاد خطره؟ وما علاقته بالإيديولوجيا؟

ماهية فيروس كورونا وكيفية الوقاية منه:

قبل الحديث عن الحلول لهذا الوباء، وعن التصورات الفكرية والإيديولوجية؛ لا بد أن نتعرف أوّلا عن هذا الفيروس وتأثيراته على الإنسان من الناحية النفسية والجسمية بالدّرجة الأولى. إنّ فيروسات كورونا هي سلالة واسعة من الفيروسات التي قد تسبب المرض للحيوان والإنسان. ومن المعروف أنّ عددًا من فيروسات كورونا تسبب لدى البشر أمراضا تنفسية تتراوح حدّتها من نزلات البرد الشائعة إلى الأمراض الأشد تعقيدا مثل متلازمة الشرق الأوسط التنفسية(ميرس) والمتلازمة التنفسية الحادة الوخيمة (سارس). ويسبب فيروس كورونا المُكتشف مؤخراً مرض كوفيد-19. ومرض كوفيد-19 هو مرض معد يسببه آخر فيروس تم اكتشافه من سلالة فيروسات كورونا، ولم يكن هناك أي علم بوجود هذا الفيروس الجديد ومرضه قبل بدء تفشيه في مدينة ووهان الصينية في كانون الأول/ ديسمبر 2019. وقد تحوّل كوفيد-19 الآن إلى جائحة تؤثر على العديد من بلدان العالم. وتتمثل الأعراض الأكثر شيوعاً لمرض كوفيد-19 في الحمى والإرهاق والسعال الجاف، وتشمل الأعراض الأخرى الأقل شيوعا، ولكن قد يُصاب بها بعض المرضى مثل:

الآلام والأوجاع، واحتقان الأنف، والصداع، والتهاب الملتحمة، وألم الحلق، والإسهال، وفقدان حاسة الذّوق أو الشّم، وظهور طفح جلدي أو تغيّر لون أصابع اليدين أو القدمين؛ وعادة ما تكون هذه الأعراض خفيفة وتبدأ بشكل تدريجي، ويصاب بعض الناس بالعدوى دون أن يشعروا إلا بأعراض خفيفة جدا، ويتعافى معظم الناس(نحو 80%) من المرض دون الحاجة إلى علاج خاص؛ ولكن الأعراض تشتد لدى شخص واحد تقريبا من بين كل 5 أشخاص مصابين بمرض كوفيد-19 فيعاني من صعوبة في التنفس، وتزداد مخاطر الإصابة بمضاعفات وخيمة بين المسنين والأشخاص المصابين بمشاكل صحية أخرى مثل ارتفاع ضغط الدّم أو أمراض القلب والرّئة أو السّكري أو السرطان. وينبغي على جميع الأشخاص، أيّا كانت أعمارهم، التماس العناية الطبية فوراً إذا أصيبوا بالحمى و/أو السعال المصحوبين بصعوبة في التنفس/ ضيق النفس وألم أو ضغط في الصدر أو فقدان القدرة على النطق أو الحركة. ويوصى، قدر الإمكان، بالاتصال بالطبيب أو بمرفق الرعاية الصحية مسبقا، ليتسنى توجيه المريض إلى العيادة المناسبة، وفي كلّ الحالات لابدّ من اتّباع الإرشادات الصّحيّة المتعلقة بالعزل الذاتي.

وحسب شبكة معلومات منظمة الصحة العالمية عن الوبائيات(2019)، فإنّه يمكن أن يصاب الأشخاص بعدوى كوفيد-19 من أشخاص آخرين مصابين بالفيروس، وينتشر المرض بشكل أساسي من شخص إلى شخص عن طريق القُطيرات الصغيرة التي يفرزها الشخص المصاب بكوفيد-19 من أنفه أو فمه عندما يسعل أو يعطس أو يتكلم. وهذه القطيرات وزنها ثقيل نسبياً، فهي لا تنتقل إلى مكان بعيد وإنما تسقط سريعاً على الأرض. ويمكن أن يتلقى الأشخاص مرض كوفيد-19 إذا تنفسوا هذه القُطيرات من شخص مصاب بعدوى الفيروس، لذلك من المهمّ الحفاظ على مسافة متر واحد على الأقل (3 أقدام) من الآخرين؛ وقد تحطّ هذه القطيرات على الأشياء والأسطح المحيطة بالشخص، مثل الطاولات ومقابض الأبواب ومقابض السّلالم، ويمكن حينها أن يصاب الناس بالعدوى عند ملامستهم هذه الأشياء أو الأسطح ثم لمس أعينهم أو أنفهم أو فمهم، لذلك من المهمّ المواظبة على غسل اليدين بالماء والصابون أو تنظيفهما بمطهر كحولي لفرك اليدين؛ وتعكف منظمة الصّحة العالمية على تقييم البحوث الجارية حول طرق

انتشار مرض كوفيد-19، وستواصل نشر أحدث ما تتوصل إليه هذه البحوث من نتائج. وطبقا لتوصيات إدارة الصحة العالمية (2020) والخاصة ب COVID-19، فإنّ أعراض الإصابة بفيروس كورونا المستجد تظهر عادة في الفترة من بين يومين إلى أربعة عشر يوما عقب الإصابة بالفيروس، وتأخذ الشكل التالي: صعوبة في التنفس، ارتفاع في درجة الحرارة، السعال الحاد(نهلة صلاح علي 2020: ص396). وفقا للدليل الإرشادي لمنظمة الصحة العالمية(2008) فإن هناك العديد من الممارسات الصحية التي يمكن تطبيقها على نطاق واسع للوقاية من انتشار الفيروسات وخاصة تلك المرتبطة بعدوى الجهاز التنفسي وتتلخص فيما يلي:

- الوقاية من المرض في البيت: هناك إجراءان رئيسيان هما نظافة الأيدي واتباع السلوكيات الرفيعة الخاصة بالجهاز التنفسي، بالإضافة إلى ذلك فإنه أثناء حدوث الجائحة يمكن الحد من انتشار العدوى وذلك بعزل المرضى من أفراد العائلة عن الأصحاء منهم.

أ- نظافة الأيدي: فهي تعتبر إجراء مهما جدا للوقاية من انتشار الأمراض وخاصة تلك التي ترتبط بعدوى جهاز التنفسي الحاد، فرذاذ السعال والعطس أو لمس المواد التي تحتوي على ملوثات الجهاز التنفسي العدوانية قد تلوث الأيدي والملابس والسطوح، لذا يتوجب تنظيف الأيدي بغسلها وكذا استعمال المستحضرات المركزة مثل الكحول تكون فعالة للقضاء على الفيروس.

ب- السلوكيات الرفيعة الخاصة بالجهاز التنفسي: تحدث العدوى التنفسية المكتسبة بالشكل الأكثر شيوعا بسبب استنشاق القطيرات التنفسية الناتجة عن الكلام أو السعال أو العطس، وهذه القطيرات تبقى حيّة فترة وجيزة على الأيدي والملابس والسّطوح، لذا يجب تغطية الفم والأنف بقطعة قماش أو قناع لمنع انتشار القطيرات التنفسية في الهواء ووصولها إلى السّطوح، وهذا يعني ضرورة ارتداء ما يسمّى بالكمامة.

ج- يجب غسل الأيدي وتنظيف السطوح بالمواد المطهرة لتجنب انتقال العدوى (صلاح علي،2020).

لقد كتب الكثير عن وباء الفيروس التاجي، وفي هذا الإطار نسجل أنّ هناك مفارقة عميقة تتمثل في كون عالمنا أصبح أكثر ارتباطا ببعضه، حيث استطاعت

كارثة محلية إطلاق خوف عالمي وفي نهاية المطاف حدثت كارثة عالمية، بدأت بعدد معتبر من الضحايا في منطقة ووهان بالصين، وانتقلت إلى مناطق أخرى فيما بعد، خاصة في أوروبا أين تزايدت أعداد المصابين والضحايا باستمرار خاصة في إيطاليا وإسبانيا...الخ لتمتد الجائحة فيما بعد إلى كل مناطق العالم دون استثناء. لتتوقف الحركة الجوية في معظم أوروبا وفي كلّ دول العالم فيما بعد، بل أكثر من ذلك يسجن الإنسان نفسه طواعية، وينظر من النّافذة إلى الخارج متشوقا إلى الحرية ليرى الحيوانات تتجول بكل حرية في الأزقة والشوارع في صورة نادرة؛ وهنا نذكر شيئا مهما وهو أنّه على الرغم من قدرة البشرية المدهشة على تحويل الطبيعة، فإنّها ليست سوى نوعا واحدا من الكائنات الحية على كوكب الأرض؛ وأنّ الإنسان رغم قوّته؛ فهو ضعيف أمام كائن مجهري هو فيروس كورونا أو كوفيد19 (covid19). إنّ التكنولوجيا تجعلنا أكثر استقلالية عن الطبيعة من ناحية، وأكثر تبعية لتقلباتها من ناحية أخرى؛ وهذا ما يفسّر انتشار فيروس كورونا بهذه السّرعة مع ما شكّله من أخطار وأتعاب للإنسانية جمعاء. والسؤال المطروح بقوّة: كيف سنحارب الفيروس في وقت يتكاثر فيه كشكل غير مرئي من الحياة الطفيلية التي تظل آليتها الدقيقة غير معروفة بشكل أساسي؟

كان رد فعل الدولة الصينية على هذا الوباء متوقعا في ظلّ اهتمامها بحرية التعبير، وسوف تتكرر مثل هذه الأزمات طالما أن حرية التعبير والحقوق الأساسية للمواطنين الصينيين غير محترمة. يتطلب الأمر- على العكس من ذلك- جرعة إضافية من الثقة والحرّية، وشعورًا متقدمًا بالتضامن، ومقداراً إضافياً من حسن النية، كل الأشياء التي تم استنفادها بالكامل". ففي مجتمع صحي، يجب أن يتم سماع أكثر من صوت واحد، وهذه الحاجة الملحة للتعددية لا تعني بالضرورة أنه يجب نسخ النموذج الغربي لديمقراطية متعددة الأحزاب. إنه يدعو ببساطة إلى فتح حيز يمكن فيه سماع انتقادات المواطنين. إن الاعتراض الرئيسي على فكرة أن الدولة يجب أن تتحكم في الشائعات لتجنب الذعر هو أن هذا التحكم نفسه ينشر عدم الثقة ويخلق بالتالي المزيد من الشائعات المؤامراتية- فقط الثقة المتبادلة بين الشعب والدولة يمكن أن تعمل. يجب أن تكون الدولة قوية خلال فترة من الوباء، لأنّ تدابير واسعة النطاق يجب أن تتخذ ويتم تطبيقها بانضباط

عسكري(مثل الحجر الصحي). تمكنت الصين من عزل عشرات الملايين من الأشخاص. لنتخيل للحظة انتشار وباء هائل كهذا في الولايات المتحدة، هل ستتمكن الدولة أن تطبق نفس الإجراءات؟ يمكن المراهنة على أن الآلاف من الليبرتاريين المسلحين سيفرضون الطريق، مشتبهين في أن الحجر الصحي هو مؤامرة دولية... وبالتالي، هل كان من الممكن منع انتشار الفيروس عبر مزيد من حرية التعبير أم أن الصين على طريق التضحية بمقاطعة من أجل إنقاذ العالم؟ بمعنى ما، كلا الأمرين صحيح، وما يزيد الأمور سوءاً هو أنه لا توجد طريقة واضحة للتمييز بين حرية التعبير "الجيدة" والشائعات "السيئة". عندما ترفع أصوات تشتكي من أن السلطات الصينية "ستعامل الحقيقة دائماً على أنها شائعة"، يجب أن نضيف أن وسائل الإعلام الرسمية والمجال الواسع للمعلومات الرقمية مليئة بالفعل بالشائعات. بالإضافة إلى ذلك، يجب علينا أيضاً أن نتوقف عن التفكير في أنه من الأفضل في بعض الأحيان عدم قول الحقيقة كاملة للجمهور لمنع الفزع، بذريعة أنه يمكن أن يؤدي إلى ضحايا جدد. في المرحلة التي نجد أنفسنا فيها، فإن المشكلة لا نهاية لها: السبيل الوحيد هو الثقة المتبادلة بين الشعب وأجهزة الدولة، وهذا هو ما يُفتقر إليه في الصين.

فيروس كورونا والصراع الإيديولوجي:

مع انتشار فيروس كورونا برزت في الساحة العالمية الحاجة إلى البحث عن أفضل التصوّرات والأفكار والممارسات، التي تستطيع الدول من خلالها فهم الواقع وتشخيصه جيّدا، ومن ثم تحديد الحلول والخيارات المناسبة للتعامل مع الخطر المُحدِق بالإنسانية؛ وقبل الإجابة عن التساؤل المتعلق بالعلاقة بين فيروس كورونا والإيديولوجيا، يجب الإشارة إلى ضرورة عدم التقليل من تداعيات انتشار الفيروس على دول العالم سواء أكانت صحية، أم اجتماعية، أم اقتصادية، أم غير ذلك، والتي ربما تُعيد العالم وبشكل مغاير إلى سالف الصراع الأيديولوجي بين الدول الكبرى؛ ولكن بطريقة مختلفة هذه المرة.

إن المتتبّع لأحداث انتشار فيروس كورونا يُلاحظ حدوث سباق دولي محتدم من أجل فرض تصوّرات وأفكار وممارسات إيديولوجية، رغم أنّ البعض يرى أنّ الإيديولوجيا أثبتت للعالم" أنّها مجرّد أوهام ووعي زائف لا يعبّر عن حقيقة الواقع،

وأنّها وراء كلّ مصيبة تصيب الإنسان، انطلاقا من الحروب إلى الإرهاب إلى التّعصب والتّشدّد" كما يرى هشام (2020، ص34) ؛ بالرغم من سعي بعض مفكري النظام الليبيرالي الحثيث إلى تأكيد أطروحة" إن المنظومة الليبرالية هي نهاية الأيديولوجيا أو أنّها هي نهاية التاريخ"، وذلك وفقا لما طرحه فرانسيس فوكوياما وغيره من المفكرين. لقد خاض الفلاسفة والمفكرون في فكر"النهايات"، فطرحوا فكرة" نهاية التّاريخ" كما طرحوا فكرة" نهاية الإيديولوجيات"؛ والحديث عن هذا الأمر يقودنا حتما إلى الحديث عن فلسفة التّاريخ عند الفيلسوفين الألمانيين هيغل (1831-1770) وكارل ماركس (1818-1883)، اللذين يعود إليهما الفيلسوف الأمريكي فرانسيس فوكوياما ليدافع ويثبت أطروحته"نهاية التاريخ". وفي هذا الإطار نذكر أنّ الأحداث المأساوية التي شهدها القرن العشرون وما ترتّب عن الحربين العالميّتين من دمار واحتقان وشرور، دفعت إلى ظهور أطروحات فكرية جديدة من أبرزها فكرة" نهاية الإيديولوجيا وسقوطها"، وفي هذا السّياق يمكن أن نذكر آراء الفيلسوف الفرنسي ريمون آرون(1905-1983) الذي نادى ب"نهاية عصر الإيديولوجيا"، حيث رأى أن نهاية الإيديولوجيا ضرورية، ذلك أنّها تمثّل عائقا أمام تطوّر الدّولة. كما يمكن أن نذكر آراء الفيلسوف الأمريكي دانيال بال Daniel Belle (1919–2011) الذي اعتقد أنّ الولايات المتّحدة تعيش نهاية الإيديولوجيا (مراد وهبة 2012) ، نشير في هذا الصّدد إلى أنّ نهاية الإيديولوجيا ليست مرتبطة بالجانب السّياسي فقط، بل هي عند دارسيها لها علاقة بالعلم والتّكنولوجيا أيضا، حيث إنّ« التّقنية والعلم يأخذان في هذه الأيام وظيفة شرعيات السّيطرة» (هابرماس 2003، ص68)، ولو أنّ هذه السّيطرة هي لصالح الطّبقة البورجوازية على كافة مؤسسات المجتمع مادامت هي التي تمتلك التّكنولوجية العلمية وتستخدمها في النّشاط الاقتصادي.

هذا ويمكن القول إنّ تراجع دور الإيديولوجيا في الغرب خاصّة، أمر لا يمكن إنكاره، لكن الادّعاء أنّ زمن الإيديولوجيا قد ولّى بشكل مباشر ونهائي، ادّعاء زائف يكذّبه الواقع، ذلك أنّ الواقع يؤكّد أنّه تم استبدال إيديولوجيات معيّنة بإيديولوجيات أخرى جديدة بشكل مباشر أو غير مباشر، حيث إنّ التّطوّر الصّناعي والعلمي والتّكنولوجي في عصرنا هذا، لم يقض على الإيديولوجيا، وإنّما

أسهم في ابتكار إيديولوجيات جديدة، وهذا ما لاحظه الفيلسوف الألماني هربرت ماركيوز (1898-1979) الذي ذكر أنّ الإنسان المعاصر يجد نفسه محاصرا بالإيديولوجيات الخفيّة والظاهرة أينما التفت، ويجد نفسه مطاردا من الأجهزة الإيديولوجية التّقليدية من الخطابة والكتاب والمدرسة، ووسائل الإعلام والأجهزة الحديثة المتطوّرة والفاعلة؛ بل إنّنا نلاحظ مظاهر الإيديولوجيا في الحياة العادية العامّة، حيث« إنّ جميع النّاس مفكّرون سياسيّون، وسواء علموا بذلك أم لم يعلموا، فإنّ النّاس يستخدمون المفاهيم والأفكار السياسيّة حينما يعبّرون عن آرائهم أو يصرّحون بما في أذهانهم » حسب أندرو هيود (2012، ص10).

ويذهب بعض الباحثين إلى التأكيد على أنّ الإنسان يستحيل أن يتخلّى عن الإيديولوجيا بشكل أو بآخر، ذلك أنّ الإيديولوجيا كما يراها مراد (2012، ص12) «هي في صميم كينونة الإنسان بحكم قدرته على مجاوزة الواقع من أجل تغييره، ولكن الإيديولوجيا تمتنع عن إحداث التغيير إذا تحوّلت إلى معتقد مطلق. ومع ذلك فهذا التّحوّل لا يستقيم مع مسار التّاريخ الإنسانيّ، ومن ثم يلزم نفيه؛ وفي حالة نفيه يكون الإنسان بلا إيديولوجيا. ولكن هذا النّفي مؤقت، إذ يعقبه إبداع إيديولوجيا جديدة. وهكذا تكون نهاية الإيديولوجيا مؤقتّة وليست دائمة.»

إنّ الفكرة الأخيرة المشار إليها تتأكد حينما نتابع آراء أبرز دعاة نهاية الإيديولوجيا ورافضيها أيضا؛ إذ نجد أطروحات هؤلاء أفكارا غريبة وتحتوي على لبس وغموض وتناقض، يتجلى في حديثهم عن نهاية الإيديولوجيات من جهة وتمجيدهم للإيديولوجية اللّيبرالية من جهة ثانية. وهذا ما نجده عند فرانسيس فوكوياما الذي أكّد في أطروحته أنّ الإيديولوجيّة اللّيبرالية هي "نهاية التاريخ" ولا يمكن أن تظهر أو تتطور إيديولوجية جديدة مستقبلاً. إنّ مفهوم الإيديولوجيا تتبناه كلّ دولة، وهذه الجزئية الأخيرة غاية في الأهمية، وهذا يعني أن أيّة دولة من دول العالم تستند في رؤيتها وخططها وآليات عملها إلى الإطار المنظومي الإيديولوجي الذي أشرنا إليه آنفًا، فتستطيع من خلاله إدراك الواقع، والتقدير وإعادة التقدير، واستكشاف البدائل، وبناء الخطط، ومن ثم يبدأ وفاؤها بما تطرحه في الواقع؛ والمبني على رهان المستقبل. وهكذا يتبين لنا أنّ نجاح أو فشل أيّة دولة من دول العالم في التصدي لفيروس كورونا ليس مرتبطًا- كما لاحظنا- بفعالية القطاع

الصحي أو وفرة الموارد المالية فحسب، بقدر ما يكون مرتبطا- وإلى حد كبير- بحركة التفاعل بين التصورات والأفكار والقيم والممارسات من جهة، إضافة إلى المسارات والخيارات من جهة أخرى، وتأسيسًا على ذلك فإن الإطار المنظومي الذي تتبناه الدولة هو الذي يقوم بعملية المعالجة والحماية والوقاية في مواجهة الأخطار والمشكلات المحتملة بغية بناء مستقبل أفضل، وهذا بالضبط ما نلاحظه عندما تتحكم الصين، وهي بؤرة الفيروس، في انتشار المرض ثمّ تقضي عليه شيئا فشيئا، والولايات المتحدة الأمريكية ما زالت تتصارع معه إلى يومنا هذا. وبالتالي عندما تنجح دولة ما في عملية الإدراك والتقدير والتعامل والتصدي للفيروس؛ فهذا يعني بشكل عام نجاح حركية التفاعل، حيث استطاع الإطار المنظومي الإيديولوجي أن يقوم بإنتاج ممارسات وقيم جيدة تعمل كنظام معالجة وحماية ودفاع (Anti-Virus) في المجتمع لمواجهة أيّ مشكلات أو أخطار قد تواجهه.

أما حين تفشل دولة ما في عملية الإدراك والتقدير والتصدي لذلك الفيروس؛ فهذا يعني عدم وجود مقدرة حركية التفاعل على إدراك وتقدير الواقع، ومن ثم لم يستطع ذلك الإطار المنظومي الإيديولوجي إنتاج ممارسات وقيم قادرة على الإحاطة بكل الأبعاد والنفاذ إلى الأعماق، وبالتالي تكون الممارسات والقيم غير فعّالة أو شبه منعدمة، ولذلك سترضى بأي شيء، وبكلّ شيء ليخرجها من ذلك النفق المظلم، ليجعلها أكثر قدرة على المعالجة والحماية والدفاع لمواجهة الأخطار والمشكلات. إذن الخطاب والدعم والمساندة الصينية الموجهّة لدول العالم تحمل في طياتها الإطار المنظومي الإيديولوجي من التصوّرات والأفكار والخيارات والمسارات والممارسات والقيم الصينية، كما تتضمن وظائف تعمل على تعظيم التصوّرات والاختيارات والمسارات والممارسات الصينية، بالمقابل تعمل على زحزحة وتفكيك تأثير المنظومات أي الإيديولوجيات الأخرى؛ فكلاهما واحد.

بعد هذا، ندرك بأن أزمة انتشار فيروس كورونا بيّنت مدى حاجة الإنسانية إلى تجديد الافكار والتصوّرات بهدف ترجمة أو تفسير الواقع بكيفية مُرضية، كما نرك مدى فعالية تجديد الأفكار والتصوّرات في إدراك الواقع وتغييره، فالمشكلات والأخطار التي تواجهنا لا يمكن حلّها بمستوى التفكير نفسه الذي أدى إلى إيجادها، كذلك تبرز الحاجة إلى تحديد مدى إمكانية تحقيق أو تنفيذ الخيارات

والمسارات المرسومة وفقًا لتلك التصوّرات والأفكار، كما نود التنويه إلى أهمية ألّا تكون هناك مسافة أو مسافات ما بين الأفكار والتصوّرات والخيارات والمسارات من جهة، والممارسات الفعلية المُطبّقة من جهة أخرى، فوجود تلك المسافة أو المسافات بشكل واضح دون وجود أيّ نظام للحماية أو المعالجة سيجعل خطر الانهيار قائما بحدّة.

كشف الناقد والفيلسوف السلوفيني، سلافوي جيجيك Slavoj Žižek، في كتابه "جائحة كوفيد-19 تَرُجُّ العالم"(2020)، المعاني العميقة لجائحة كورونا التي تجتاح العالم، وتأمَّلَ في مفارقاتها المحيرة وتكهَّن بعواقبها. ويُبَشِّر جيجك بشيوعية جديدة، تختلف عن الشيوعية بمفهومها التقليدي وتلك التي تتبنَّاها الصين، للخروج من الأزمة وتفادي الانحدار إلى بربرية عالمية. سلافوي جيجك هو الذي يذكر أنّه يشعر بقروب انتشار كارثة عالمية وشيكة لأسباب إيديولوجية، وهذا ما جعله يركز في أعماله على الأزمة السياسية والاقتصادية والبيئية العالمية القائمة، ويتحدى الأفكار السائدة والحقائق التي يُسلِّم بها اليسار واليمين.

فيروس التفكير في مجتمع جديد

من الأشياء القليلة الجيدة في الوباء، حسب جيجك، أنه جعلنا ندرك بشدة الحاجة إلى تعاون عالمي، وهذا ما ذهب إليه أيضًا يوفال نوح هراري Yuval Noah Harari (2020) حيث يرى أنّه يجب على البشرية الاختيار: هل سنسير على طريق الشقاق، أم سنسلك مسار التضامن العالمي؟ إذا اخترنا الشقاق، فإن هذا لن يؤدي إلى إطالة أمد الأزمة فحسب؛ بل قد يؤدي كذلك إلى كوارث أشد سوءًا في المستقبل. وإذا اخترنا التضامن العالمي، سيكون نصرًا، ليس على فيروس كورونا فحسب، بل على كل الأوبئة والأزمات التي قد تفتك بالإنسانية في القرن الحادي والعشرين. ذلك أنّ " كورونا لا دين لها ولا إيديولوجيا ولا أخلاق، وهي عدوّة الجميع. إذن ليس هناك أيّ حجة للتفرقة اليوم بين البشر بل فرصة لا مثيل لها للوحدة والتّعاون وبروز ملامح جمال الإنسان بفسيفساء أخلاقه ومعاملاته ليشهد التّاريخ على أنّه فعلا كائن أخلاقي متحضر" كما يعتقد قاضي (2020، ص11).

لقد تسبَّب الهائل لوباء الفيروس التاجي في فضح شرارة وباء واسع النطاق من الفيروسات الأيديولوجية كانت كامنة في مجتمعاتنا: الأخبار المزيفة، ونظريات

المؤامرة، والعنصرية. ووجدت الحاجة الطبية المبررة للحجر الصحي صدى في الضغط الإيديولوجي لإنشاء حدود واضحة ولحجر الأعداء الذين يشكِّلون تهديدًا لهويتنا. ففي عزّ الأوجاع والألم والبكاء على الأموات، وأمام عجز العالم عن تجاوز محنته وتوحّد عواطفه، تتجلى العنصرية الفرنسية بدعوة طبيبين فرنسيين إلى القيام بتجارب أدوية موجّهة لعلاج فيروس كورونا على مجتمعات القارة الإفريقية، وبكلّ ثقة يتحدث الفرنسيون عن الأمر باعتباره أحد الحلول الممكنة التي يسهل فرضها على بلدان تعيش تبعية تكرّس لا شعوريا اعتقاد الغرب بامتلاك حق الأبوة. إنّ هذه العنصرية هي نفسها جائحة وفيروس قاتل للإنسانية، وربّما تكون أقسى من جائحة كورونا، وهذه العنصرية واحتقار الآخر ليست وليدة اليوم بل جذورها ضاربة في أعماق التّاريخ، ولا أدلّ على ذلك مما فعلته أغلبية الدّول الأوروبية المستعمرة في مستعمراتها من انتهاكات يندى لها الجبين لبشاعتها، رغم أنّ تلك الدّول صدعت رؤوسنا بمصطلحات حقوق الإنسان والحرية والعدالة والاحترام والمساواة وغيرها من القيم النبيلة. ولا غرابة في ذلك إذا علمنا أنّ دول ما يسمى بالاتحاد الأوروبي خذلت وخانت بعضها البعض: فإيطاليا- وهي إحدى الدّول الفاعلة في الاتحاد الأوروبي- تركت لتصارع وحيدة قساوة الفيروس وهو يقتل بالآلاف يوميا دون أدنى مساعدة، وحديث الرئيس الفرنسي ماكرون عن خطورة تداعيات عدم مساعدة دول الاتحاد الأوروبي لبعضهم البعض، ينبع من إدراك زعماء الاتحاد للخطأ الذي ارتكبوه ضد إيطاليا.

وفي هذا الإطار دائما، نقول إنّ فيروسا آخر سيصيبنا وهو فيروس التفكير في مجتمع بديل، مجتمع ما بعد الدولة القومية، مجتمع يحقق نفسه بأشكال التضامن والتعاون العالميين؛ ولهذا شخَّص الفيلسوف الفرنسي، إدغار موران Edgar Morin (2020، ص11،12)، أبعاد الجائحة في كونها" أزمة كونية، فإنها تسلِّط الضوء على المصير المشترك لجميع البشر المرتبطين بالمصير الطبيعي والبيئي لكوكب الأرض؛ وتفاقم في الوقت نفسه أزمة البشرية التي لم تتمكن من تشكيل نفسها بإنسانية. وكونها أزمة اقتصادية، فإنها تخلخل كل المسلَّمات التي تحكم الاقتصاد وتهدد بأن تتفاقم لدرجة الفوضى والعوز في مستقبلنا. وباعتبارها أزمة وطنية، فإنها تكشف النقاب عن أوجه القصور في سياسة قدمت رأس المال على

حساب العمل، وضحَّت بالوقاية والحيطة لزيادة الربحية والتنافسية. وباعتبارها أزمة اجتماعية، فإنها تسلِّط الضوء بشكل كبير على عدم المساواة بين أولئك الذين يعيشون في مساكن صغيرة مكتظة بالأطفال والآباء، وأولئك الذين تمكنوا من الفرار إلى إقاماتهم الثانية المحاطة بالخضرة. وباعتبارها أزمة حضارية، تدفعنا إلى إدراك أوجه القصور في التضامن والتسمم الاستهلاكي الذي طورته حضارتنا، وتدفعنا للتفكير في بلورة سياسة حضارية. وكونها أزمة فكرية، يجب أن تكشف لنا الثقب الأسود الهائل في تفكيرنا، الذي يجعل تعقيدات الواقع الواضحة غير مرئية لنا... ينبغي أن يشجع الحجر الصحي على رفع الحجر عن العقول ".

خاتمة:

في الأخير، يمكن القول إنّ الكثير من الحقائق المحزنة أيقظتنا ونبّهتنا إلى أننا بحاجة إلى كارثة، حتى نتمكّن من إعادة التفكير في الخصائص الأساسية للمجتمع الذي نعيش فيه. لقد أدركنا أنّه: كلّما زاد ارتباط عالمنا، يمكن أن تؤدي كارثة محلية إلى إثارة خوف عالمي وفي نهاية المطاف كارثة. ومن المؤكّد أن العزلة وحدها، وبناء جدران جديدة والمزيد من الحجر الصحي، لن يؤدي المهمة؛ فالحاجة ماسَّة إلى تضامن بشري كامل غير مشروط واستجابة منسقة عالميًّا، فإذا لم نوجِّه جهودنا في هذا الاتجاه، فقد تكون" مدينة ووهان" اليوم أنموذجًا لمدينة مستقبلنا. وربما يمكن للمرء أن يأمل في أن تكون إحدى العواقب غير المقصودة للحجر الصحي للفيروس التاجي في المدن في جميع أنحاء العالم هي أن بعض الناس سيستخدمون وقتهم -على الأقل الذي تم تحريره من النشاط المحموم- للتفكير في لا معنى (عبثية) مأزقهم. إن الذعر ليس الأسلوب المناسب لمواجهة تهديد حقيقي؛ عندما نأتي رد فعل ونحن في ذعر، فإننا لا نحمل التهديدات على محمل الجد، بل على العكس من ذلك، نحن نستهين بها. إن مثل ذلك النهج الشامل يجب أن يتجاوز إلى حد بعيد آلية الحكومات التي تعمل بشكل منفرد، وأن تشمل التعبئة المحلية الجهات التي هي خارج سيطرة الدولة وكذلك التنسيق والتعاون الدولي القوي والفعال. كما يجب على الدولة أن تسعى للتعاون مع الدول الأخرى، كما هي الحال في حملة عسكرية، يجب تبادل المعلومات وتنسيق الخطط بالكامل. ذلك أنّ أكبر تهديد هو الانتكاس نحو البربرية المطلقة، ثم العنف الوحشي من أجل البقاء

فضلًا عن الاضطرابات العنيفة، فما يجب أن نخشاه، أكثر من البربرية المطلقة، هو البربرية بوجه إنساني، وفرض إجراءات قاسية من أجل البقاء، وإضفاء الشرعية عليها بآراء الخبراء. كما يمكننا أن نخشى بشدة من تراجع عام كالذي حدث بالفعل خلال العشرين عامًا الأولى من هذا القرن(أزمة الديمقراطية، والفساد، والديماغوجية المنتصرة، والأنظمة الاستبدادية الجديدة، والنزعات القومية والمعادية للأجانب والعنصرية). تبقى كل هذه النكسات(والركود في أحسن الأحوال) واردة طالما لم يتبلور المسار السياسي- الإيكولوجي- الاقتصادي- الاجتماعي الجديد الذي تحكمه إنسانية متجددة، وهذا من شأنه مضاعفة الإصلاحات الحقيقية.

قائمة المراجع:

أوّلا: اللّغة العربية:

1 - أندرو هيود، مدخل إلى الإيديولوجيات السياسية،تر محمد صفار(مصر-القاهرة:المركز القومي للترجمة) سلسلة العلوم الاجتماعية للباحثين ، 2012،.

2- هشام قاضي، " كورونا: نحو موت الإيديولوجيا وميلاد الإنسان الجديد"(الجزائر: دار خيال للنشر والتّرجمة، 2020.

- دانيال بال Daniel Belle (1919-2011) من المحافظين الجدد في الجيل الأول، أستاذ محاضر في جامعة هارفارد بالولايات المتحدة الامريكية، من أهم كتبه "نهاية الايديولوجيا".

3- مراد وهبة: رؤيتي للقرن العشرين، جريدة الأهرام العدد 45837، الثلاثاء 5حزيران-يونيو 2012.

4- يورغن هابرماس، العلم والتقنية كإيديولوجيا، تر؛ حسن صقر (سوريا-اللاذقية: منشورات الجمل، 2003).

5- صلاح نهلة علي (2020): دراسة العلاقة بين الضغوط النفسية الناتجة عن انتشار فيروس كرونا المستجد COVID-19 والاضطرابات النفسجسمية لدى المرأة العاملة ، المجلة المصرية للدراسات النفسية، المجلد 30، العدد 108.

ثانيا: اللّغة الأجنبية :

1 - Edgar Morin, Un festival d’incertitudes, Collection Tracts, Série Tracts de crise (no 54), Gallimard, (April 21, 2020): 11-12

2- Slavoj Žižek, Pandemic! COVID-19 Shakes the World, Kindle edition (London, New York: OR

Books, 2020).
3- Yuval Noah Harari, "The world after coronavirus, Financial Times," March 19, 2020, "accessed, June 20, 2020". shorturl.at/jrFG1

ثالثا: الموقع الإلكتروني:

1-https://www.who.int/ar/emergencies/diseases/novel-coronavirus-2019/advice-for-public/q-a-coronaviruses

2 - *https://www.who.int/epi-win*

الخطاب البيوإتيقي من الثورة البيوتكنولوجية إلى جائحة كورونا

سفيان عمران
جامعة محمد الامين دباغين سطيف2 مخبر المجتمع الجزائري المعاصر
s.amrane@univ-setif2.dz

ملخص الدراسة:

تعتبر " البيوإتيقا" " الثورة البيوتكنولوجية" "جائحة كورونا" من المفاهيم الجديدة التي ظهرت في سياق التطورات الكبيرة التي حدثت في ميدان العلم، خاصّة الطب والبيولوجيا في عالم تشكل فيه لغة التقنية المحرك الأساسي لمختلف العلاقات المعلنة والخفية، هذه المفاهيم التي بسطت سيطرتها على حركة البحث بمختلف أنواعه، والعلاقات على تعددها السيطرة التي مكنت من تغيير وجه العالم، وقلب التصورات وقولبة الحياة، وكلما شهد العالم تغيرا علميا جديدا، كان الخطاب البيوإتيقي حاضرا ، حفاظا على كيان الإنسان وكرامته، وقدسية الحياة، هذا ما حدث في علاقته البيواتيقا مع تجاوزات الثورة البيوتكنولوجية، ومع فيروس كورونا، لذلك تهدف هذه الورقة البحثية إلى تبيين وضعية الخطاب الأخلاقي الجديد قبل وأثناء وبعد الجائحة.

الكلمات المفتاحية: البيوإتيقا، الثورة البيوتكنولوجية،كورونا، القيم، العلم.

مقدمة:

لقد دخلت البشرية حقبة جديدة نتيجة تسارع التقدم العلمي والتكنولوجي بصورة مذهلة، صورة غيّرت وجه العالم ووجهته، وقلبت التصورات، وعملت على قولبة الحياة، فقد شهد العالم تفجّرا معرفيا باذخًا غير مسبوق، وأضحت الاستشكالات تتوالد تباعا، والثورات تتدفق بصورة لم تشهدها البشرية من قبل؛ إذ لاحت في الأفق ثورة مدهشة، عملت على انتزاع العرش من الفيزياء بملمح غريب، لتعتليه علوم الطب والبيولوجيا؛ فمنذ النصف الثاني من القرن العشرين ، تصدرت العلوم الطبية والبيولوجية لائحة العلوم التجريبية، بل صارت تستقطب اهتمام

الدارسين على اختلاف توجهاتهم وتباين مذاهبهم. إنّها تغيرات كثيرة متعاقبة، طفرات معرفية متفرقة ، فتحت آفاقا جديدة أمام الإنسان المعاصر ولم يعد- بعدها- السؤال الجوهري الذي يفرض نفسه: ممّ تتكون المادة؟ بل السؤال كان حول مستقبل البشرية ومع هذه الأسئلة برزت الثورة البيوتكنولوجية، وبرز مع متغيرات كثيرة، فتحت نقاشات عميقة، حتّمت على الفكر الفلسفي أن يترك المواضيع الكلاسيكية على الهامش ويعمل على تجديد نفسه، مبتعدا تدريجيا عن المواضع الميتافيزيقية الفارغة من المحتوى والنزول إلى الواقع حتى يلحق بالتسارع الذي يتحرك به التقدم العلمي، فكانت الأخلاق الحيوية من أهم المواضيع التي برزت في العصر الراهن، ذلك أنّها جاءت تحمل معها آمالا موعودة للنهوض بالبشرية والتقدم بها نحو عالم آمن، وعليه امتدت إلى كل أشكال التغيرات التي طرأت على هذا مثلما يحدث اليوم مع ظهور الجائحة الجديدة، فهل يستطيع الخطاب البيوإتيقي فعلا تمكين نفسه في ظل هذه التحولات الكبيرة؟

أولا- مسارات ومدارات الخطاب البيوإتيقي(مطارحات أكسيولوجية)

ظهر مصطلح" البيوإتيقا Bioethics "في الولايات المتحدة الأمريكية في سبعينيات القرن الماضي على يد طبيب السرطان الأمريكي " فان رونسلاير بوتر Van " Rensselaer Potter (1911-2001)، في مقال له بعنوان " البيوإتيقا، علم البقاء على قيد الحياة Bioethics , science of survival ".

تحدّث في هذا الكتاب عن علم جديد هو علم البقاء على قيد الحياة، حيث أكّد من خلاله أن البشرية بحاجة إلى حكمة جديدة من أجل تحقيق البقاء وتحسين نوعية الحياة، وذلك بتجاوز الأطروحات التقليدية التي لم تحدد بعد كيفية التعامل مع الجسد البشري، والاعتماد على مختلف الفعاليات الاجتماعية، خاصة تلك التي نجدها في العلوم الإنسانية، حيث نجده يقول:" تحتاج البشرية بشكل عاجل إلى حكمة جديدة، تقوم على فكرة أساسية مفادها: المعرفة كيفية استخدام المعرفة من أجل بقاء الإنسان، وتحسين نوعية الحياة، وبالتالي إنشاء علم البقاء على قيد الحياة، الذي يجب أن يرتكز على علم الأحياء، ويتسع إلى ما وراء الحدود التقليدية، ليشمل أهم العناصر الأساسية في العلوم الاجتماعية والإنسانية، مع التركيز على الفلسفة باعتبارها حب الحكمة"

(Potter, Bioethics Bridge To Future, 1971, p. 1).

وقد سعى من خلال إعادة الوصل بين حقلين هامين في تاريخ البشرية هما العلم والفلسفة، بين البيولوجيا الأخلاق بحثا عن أهداف مشروع ترتبط في الدرجة الأولى بالحفاظ على البقاء، الذي يقتضي بدوره تحسين نوعية الحياة، وبهذا يكون علم البقاء أكثر من كونه علما، بل هو حقل معرفي كبير يجمع بين نوعين من الحكمة، المعرفة البيولوجية والقيم الإنسانية، مزيج جاءت منه" الأخلاقيات الحيوية" .

يقول:" يجب أن يكون علم البقاء على قيد الحياة، أكثر من كونه علما، وفي هذا أقترح مصطلح الأخلاقيات الحيوية، من أجل تحقيق الحكمة الجديدة التي تشتد الحاجة إليها، مع تطوّر العلم وتقدّم التكنولوجيا، من خلال الجمع بين المعرفة البيولوجية، والقيم الإنسانية.(Potter, Bioethics Bridge To Future, 1971, p. 2) "

ومن هذا الطرح الذي بين فيه" بوتر" ضرورة وجود الأخلاقيات الحيوية يتبين أنّ البشرية في ظل التقدم العلمي والتكنولوجي، كانت تعاني هاجس البقاء، والخوف من انتهاء الحياة بطريقة مأساوية، ذلك أنّ العلم لم يعد ذلك الحقل الذي ينتظر منه دائما حمل آفاق طيبة للبشرية، بل لم يعد مصدر ثقة، خاصة الخسائر الكبيرة التي خلفتها الحربان العالميتان بفعله، ثم جاء التقدم الكبير في الطب والبيولوجيا، ليرفع من هاجس الخوف، مع ظهور أبحاث لا يكاد يصدقها العقل البشري، فازدادت الهوة بين العلم والأخلاق، وبفعل ذلك تعاكست الثقافتان، تقدم علمي كبير، يقابله تخلف فادح في القيم، هذا ما أدركه "بوتر" واهتدى بفعله إلى" البيواتيقا"، فالجمع بينهما هو غاية الحكمة، التي بوسعها أن تنقذ البشرية، وتصنع جسرا نحو المستقبل.

إنّ البيوتيقا جمعت بين حقلين حقل الأخلاق كعلم معياري، تهتم بما ينبغي أن يكون عليه السلوك، وحقل علم الأحياء وهو علم وضعي يصف ما هو كائن، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على الحاجة الملحة لضبط الممارسات الجارية في علوم الحياة والطب، حتى لا تعود نتائجها بالسلب على الإنسان، وفي الوقت نفسه تعرضت محاولات الضبط إلى معارضة شديدة من طرف أنصار النزعة العلمية الضيقة، هؤلاء الذين يفتحون مجال الحرية المطلقة لممارسات التقنية، لأن هذا الفتح في نظرهم تشجيع على الإبداع، دعوة إلى التقدم والتطوّر ومسايرة الركب

الحضاري الذي هو أساس السيادة (Taguieff, La Bioéthique ou la Just milieu, 2007, p. 18) .

هذه النظرة الضيقة كانت سبب ظهور الحقل المعرفي الأخلاقي الجديد، من أجل الحد من أخطار تعيق البقاء هنا ستؤدي" البيوتيقا" دور الرقيب الذي يقف أمام الممارسات التي تجري في دهاليز المختبرات، خاصة في علوم الأحياء المتعلقة بالطب والبيولوجيا، حفاظا على قدسية الحياة، ذلك أنّ هذه الممارسات إذا قامت على نوع من الحرية المطلقة، فإنه من المتوقع أن تحمل بين جنباتها نتائج سلبية، تشكل ضررا كبيرا على حياة الإنسان خاصة، فتأتي البيوتيقا كحقل أخلاقي لتضع القواعد الأساسية التي تحقق الهدف المنشود، لأن الإنسان ما زال يعاني مشكلة حفظ البقاء، والحفاظ على هويته وكرامته، في ظلّ الممارسات الأخلاقية التي لا يجدها، وبهذا" تدل الأخلاق الحياتية على المسؤولية اتجاه الإنسانية القادمة، والبعيدة الموكلة لحراستنا، وعن البحث عن أشكال الاحترام الواجب للشخص، بحث يجري على الأخص بالنظر للقطاع الحيوية الطبي وتطبيقاته" (روس، 2001، صفحة 111)، فتصبح "البيوتيقا" إلزاما يحمل في ذاته مسؤولية تجاه إنسان المستقبل تقديرا له واحتراما على اعتباره إنسانا، شكّل عبر تاريخه الطويل مركز الكون وأرقى الكائنات الحية وأكرمها.

هذه المسؤولية حسب" بوتر" لا ترتبط بالبيولوجيا والطبّ، حيث إن "البيوإتيقا" مع تطورها ودخولها مختلف الحقول، نجدها قد ارتبطت بهذين الحقلين، لكن " بوتر" أعطاها طابعا شموليا مميزا بين نوعين من " البيوإتيقا": "بوإتيقا طبية"، و"بيوإتيقا شمولية"، هذه الأخيرة تهتم بإشكاليات الممارسات الطبية فضلا عن مختلف التجارب على الإنسان والقضايا البيئية والمستقبل، فهي التي ترتكز على المعنى الواسع والشامل للكلمة، وكل ما يحافظ على البقاء وتحسين نوعية الحياة، يقول :" البيوإتيقا الشاملة توحيد لأخلاقيات البيولوجيا الطبية وأخلاقيات البيولوجيا البيئية، إنّها تحتوي سلما من القيم الذي يؤدي إلى بقاء مقبول للنوع البشري (Potter V. R., Global Biothics, 1983, p. 76) "، وبهذا فقد نظر إلى اليواإتيقا بوصفها حقلا معرفيا متعدد التخصصات، لا يقتصر على الطب فقط، بل يمتد إلى حقول معرفية أخرى.

وقد اتفق مجموعة من الباحثين على مجموعة من المواضيع التي تشتغل عليها "البيوإتيقا" خاصة منذ نهاية القرن العشرين، وذكر منها: الاجهاضAbortion، منع الحمل، الاستنساخ Cloning، الهندسة الوراثية Genetic Engineering ، تجارة الأعضاء والأنسجة البشرية، الموت الرحيم، Euthanasia أبحاث وعلاجات الخلايا الجذعية Stem Cells ، الإخصاب في المختبر وخارجه، وتقنيات الإنجاب الأخرى، وهي أطفال الأنابيب IVF والأم البديلة Surrogate mother ، فضلا عن التجارب السريرية ومرافقة المرضى، بالإضافة إلى هندسة الدماغ البشري، وهي حقول يكثر الحديث عنها في ظل تطور الطب والبيولوجيا، أو التكنولوجيا الحيوية (Caplan, Contemporary Debates in Bioethics, 2014, p. 2) .

ويبدو أن هذه المواضيع تلتقي في نقطة أساسية، اشتراكها في مختلف الأبحاث التي تقصد الإنسان، والارتباط يكون على مستوى الصحة النفسية والصحة الجسدية، وإن كان الجسد هو المسيطر، ويبدو أنّ الهدف هو الحفاظ على المكانة التي يكتسبها الإنسان، باعتباره أرقى الكائنات الحية، هذه المكانة التي بدأت تتزعزع تدريجيا في ظل أبحاث الطب والبيولوجيا، وهو ما يشكل خطرا كبيرا على مسائل الحقوق والكرامة، وقدسية الحياة، والحفاظ على تركيبة المجتمع والأسرة، والحفاظ على النوع البشري في أصله الطبيعي، وهذه الحقول التي تشتغل عليها "البيوإتيقا" حصرها الفيلسوف البلجيكي المعاصر المهتم بالفلسفة والعلم والتقنية "جلبرت هوتوا(1949-2019) Gilbert Hottois " في مجموعة من القضايا تشترك في الإحاطة بمصير الجسم البشري، ووضع مجموعة من القيم والمعايير الأخلاقية المتناسبة مع أطروحات هذه الإحاطة، ومن القضايا ذكر منها: التدخل في طبيعة الإنجاب البشري، التدخل في الجينوم البشري، التدخل في الشخصية الإنسانية (سلوك الدماغ)، التدخل في الجسم البشري(التجريب عليه، زراعة الأعضاء)، التدخل في مسألة نهاية الحياة (الموت الرحيم)، ثم عاد إلى ذكر مواضيع أخرى ترتبط بالبيوإتيقا الشاملة كما صاغها" بوتر" وذكر في هذا السياق المحافظة على الطبيعية، والتدخل في التعدد الجيني للطبيعة(بوحناش، 2015، صفحة 39).

ثانيا- المشكلات الأخلاقية للثورة البيوتكنولوجية (قراءات بيوإتيقية)

لقد شكّل التقدم العلمي نقطة تحول بارزة في المجتمعات الحديثة، جعلت الباحثين يؤكدون على أنّ العلم أقوى القوى على الإطلاق، له تأثير اجتماعي وثقافي واقتصادي كبير، ويرتبط بصور متعددة من بينها النفوذ العسكري مثلا، فالعلم الذي يولّد الثورة الرقمية Digital Revolution ؛ هو محرّك أساسي للاقتصاديات الحديثة، وعلوم الكيمياء والفيزياء حوّلت طبيعة الحرب في القرن العشرين، وغالبا ما تتم تسوية القضايا القانونية المدنية والجنائية بشهادة العلماء، والأشخاص الذين يعانون من أمراض مستعصية كالعضال Cancer مثلا ينتظرون على أمل أن يتمكن العلماء من تطوير علاج، وذلك كله عبارة عن سلطة التقنية (Hellyer, 2003, p. 1)، وهذه الأدوار البارزة التي لعبها العلم، جعلت الأبحاث تتدفق بسرعة مذهلة، خاصة في العصر الراهن، بصورة لم تتعود عليها البشرية، ولم تعرفها من قبل جعلها ترتقي إلى مصاف الثورات، فالثورة العلمية جاءت نتيجة هذا التقدم فالقضية ليست متعلقة بالعنف والحرب بل هي قضية تقدم مذهل في ميدان العلم نتج عنه تحولات كبيرة في المجتمعات، وفي هذا السياق يطرح التقدم الحاصل في ميدان الطب والبيولوجيا كثيرا، على اعتبار أنها من الميادين الحيوية التي تقترب من مفهوم شكل مكانة هامة في التاريخ البشري وهو الحياة.

وقد أفرز التقدم الكبير الذي حدث في ميدان التكنولوجيا الحيوية مجموعة من المنجزات التي عبرت عن ثورة علمية ألقت بظلالها على كثير من الميادين، فصار العصر الجديد في العالم يتحدث لغة الطب والبيولوجيا، من خلال مجموعة من المظاهر، حدثت البشرية عن آفاق منتظرة، أو كانت مصنفة ضمن معطيات الخيال العلمي، هذا التحقيق الكبير للآفاق والأماني ، جلب معه تقدما ثانيا يبحث عن أشياء لم تعد حاجات ضرورية، بل ما يمكن اعتباره مرتبطا بالفضول، فانطلق الطب والبيولوجيا لغزو جميع العوالم الممكنة والمحيطة بالكائن البشري. تلك التي تتأرجح بين الحياة والموت، فمن تكنولوجيا جديدة للحياة، تدفقت تكنولوجيا جديدة للموت، فمن إطالة الحياة إلى تسهيل الموت، وهي معادلات لا تكاد تصدقها العقول، بل خرجت عما اعتاده الإنسان من حيث كونه أرقى المخلوقات، فتحولت الآفاق إلى

عواقب والمنجزات المنتظرة إلى نتائج سلبية، ليعبر العلم مرة أخرى عن سطوة كبيرة جديدة، بعدما صنع الحروب.

هذه العواقب التي انتبه إليها كثير من الناس، وهاهم الفلاسفة يجددون اهتمامهم بها، من خلال إعادة حلقة الوصل التي تربط العلم والفلسفة، نحو مسايرة السؤال الفلسفي لما يتركه العلم من مخلفات، أو ما سيتركه مستقبلا بصورة تنبؤية تريد أن تحمي الإنسان من كل الشرور المحيطة به، لهذا فإن عواقب" الثورة البيوتكنولوجية" عجّلت ببروز السؤال الأخلاقي للسطح، وهذا هو بيت القصيد؛ البحث في المشكلات الأخلاقية التي أفرزتها هذه الثورة، وهي مشكلات تزامنت مع تجدد الفكر الفلسفي في صورته الأخلاقية من أجل محايثة التحولات، بعدما استنفذ الفكر الفلسفي القديم أغراضه، منذ ظهور التجارب الخطيرة على الإنسان، لهذا جاءت البيواتيقا لتحاكم العلم- إن صح التعبير- وتصنع طريقا يتم فيه عقلنة الممارسات العلمية على الإنسان، ومنه فإن عواقب الثورة البيوتكنولوجية الحاصلة والتي ترتبط بالمستقبل تضع البيوإتيقا في المواجهة، دون أن تستثني أي منجز من منجزات التقدم العلمي الكبير في الطب والبيولوجيا، فمن الهندسة الوراثية إلى الاستنساخ، ومن الإجهاض إلى الموت الرحيم، ومن إطالة الحياة إلى الإنجاب الاصطناعي بأنواعه، وغيرها من المشكلات الأخلاقية التي عملت البيوإتيقا، وتعمل على بسطها، بمساعدة القانون والدين والسياسة ، ولقراءة هذه المشكلات قراءة بيوإتيقية سنعرض بعض النماذج في السطور التالية:

1. إجراء التجارب على البشر

لقد كانت معاهدة " نيورنبرغ Nürnberg "انطلاقة حقيقية للخطاب البيوتيقي، هذا الخطاب الذي سعى إلى الحد من هذه التجارب، التي كانت نتائجها سلبية على الإنسان، من خلال وضع مجموعة القواعد التي تنص في عمومها على احترام الإنسان، والحفاظ على كرامته، بل ألحقت هذه القواعد باللجان الأخلاقية والقوانين وغيرها تأكيدا على خطورة هذه المستحدثات فمثلا " في عام 1976 طالب العلماء والاساتذة في جامعة " هارفارد" بالتوقف عن إجراء تجارب إعادة تركيب الحمض النووي، إلى أن يتأكدوا من سلامة هذه التجارب وإنها لا تشكل خطورة على المجتمع ككل" (البقصمي، 1993، صفحة 48) ، وهذا التوجس من التجارب على

البشر مرده العواقب التي تنجم عنها، عواقب تؤثر مباشرة على الإنسان فردا كان أو جماعة، خاصة من الناحية الأخلاقية، فمن غير الأخلاقي إجراء تجربة على الإنسان، لا يمكن توقع نتائجها، ذلك أن أي ضرر يلحق بالإنسان سيضع الكثير من الأخلاقيات موضع النقاش والتساؤل، فهذه التجربة تجعلنا نتحدث عن إنسانية الإنسان، التي يكاد يفقدها في ظل هذه البحوث، وفقدان الإنسانية معناه فقدان الاحترام والكرامة، فضلا عن مصير الإنسان في ظلها، وهو الذي يمتلك حق الحياة بموجب القانون الطبيعي.

ويذهب المشتغلون في حقول" البيوإتيقا" إلى أن إجراء التجارب على البشر يقضي على المبادئ الأساسية التي يقوم عليها الخطاب الأخلاقي على غرار مبدأ الاستقلالية، أو الاستقلال الذاتي Autonomy الذي يعني في المجال البيواتيقي خاصة الأخلاق الطبية: احترام كل أشكال تقرير المصير، وحق الفرد في السيطرة التامة على جسده، ويقتضي ذلك احترام حريته، وحرية فكره وعمله، التمكين الكلي للاختيار، فضلا عن احترام الخصوصية والسرية التامة فيما يخص المعلومات المتعلقة بالمريض، للمشاركة في البحوث الطبية، مع شرط الإفصاح المبين، لهذا ينظر لاحترام الاستقلالية على أنها معيار الحقيقة في الكشف عن المعلومات التي تركز على المريض (Jr, 2009, pp. 13-14).

وبالتالي فإن إجراء التجارب على البشر لابد أن يحترم القواعد الأخلاقية للاستقلال الذاتي، والتي يمكن تبريرها بمجموعة من المبادئ التي تشمل ما يلي :

- قول الحقيقة.
- احترام خصوصية الآخرين.
- حماية المعلومات السرية.
- الحصول على الموافقة للتدخل في جسد المريض.
- عند السؤال يجب مساعدة الآخرين في اتخاذ قرارات مهمة (Tom L. Beauchamp, 2009, p. 107).

كما أن تاريخ الممارسات الطبية على الجسم البشري، يثبت أن مختلف التجارب التي أجريت على الإنسان، تمت دون علمه، حيث اشتملت على المساجين، وأسرى الحرب، والمعاقين، والفقراء وغيرهم، وهذه التجارب لا تبنى على نتائج

مضمونة، بل لغاية تغذيها أهدافا مستترة، بل وإنها تؤدي في الغالب إلى الهلاك وقتل النفس، ومن مقاصد الشريعة الإسلامية حفظ النفس، وتحريم قتلها، وما هذا التحريم إلا زيادة في تكريمه، وبالتالي: " يكون التكريم ماهية الإنسان الأساسية في الخطاب القرآني، وهو إعلان عن تميزه واحتلاله قمة التراتب في سلم الكائنات الحية... وتعبر الشريعة عن أهم مظاهر هذا التكريم، فما أنزلت إلا زيادة في تكريمه، وتحويله من منزلة البهيمة إلى منزلة الإنسان، إخراجا له من داعية الهوى الذي تمكن منه ضروب الغفلة الأنانية، وهنا تتحدد جملة أسئلة فطرية أهمها حول الوجود الإنساني من عدمه، وهو السؤال نفسه الذي يحير العقل البيوأتيقي ليشحذ آليات المحاججة العقلية، حول ما يجب فعله من عدمه في مادة الحياة" (بوحناش، الاجتهاد وجدل الحداثة، 2016)

إن " البيوإتيقا" في وقوفها ضد محاولات التجريب على البشر، وسعيها إلى عقلنة مثل هذه الممارسات، وجعلها في صالح الإنسان، هي تقف كذلك ضد الثنائية الغربية التي تفصل الإنسان عن جسده، وتجعل منه محل التجريب والاختبار كمادة فيزيائية يمكن العمل عليها، وبفعل هذه الثنائية انتهكت البيوتكنولوجيا حرمته وكرامته، مصيره وقداسته" لتصيره منجما لقطع الغيار، ومسرحا للعمليات التجميلية، والترقيعية والتبديلية، والتجارب المخبرية التي تحط من قيمة الإنسانية لمحاولات تهجين الكائن البشري، وتجارب تجمع بين الإنسانية والحيوانية" (بيدوح، 2016، صفحة 54) ، فالجسد لا يمكن أن يكون كيانا مستقلا عن الإنسان، والمساس به هو تعدٍّ على الإنسان ككل، وما يصيب الجسد من محاولات التجريب عليه، سيؤدي في النهاية إلى نتائج لا تؤثر على الجسد ككل بل على الإنسان باعتباره روحا كذلك، فتأتي في هذا السياق المشكلات الأخلاقية لتعبر عن خطورة التجريب عليه، حاملة معها الأسئلة الكبيرة المتعلقة بالكرامة والقدسية، والحرية والمصير، ومكانة الإنسان في هذا الكون.

2. المشكلات الأخلاقية لتقنية الهندسة الوراثية :

تعتبر الهندسة الوراثية واحدة من الاكتشافات الهامة التي ساهمت في تبلور الثورة البيوتكنولوجية، بل إنّ الأبحاث الكبيرة التي سعت إلى اكتشاف أسرار الوراثة، أسهمت مباشرة في تشجيع التجريب على البشر، لهذا سنجدها تثير الكثير

من الأسئلة الأخلاقية التي مست جوانب قيمية متعددة، وبموجبه ستسهم "البيواتيقا" في وضع أبحاث هذه التقنية التي هي بمثابة ثورة في مكانها الصحيح، وتسخيرها لصالح الإنسان بدلا من تدميره.

يؤكد " فرانسيس فوكوياما Yoshihiro Francis Fukuyama "أنّ الهندسة الوراثية تثير الكثير من الجدل فيما يخص الكائنات المحورة وراثيا على جميع المستويات؛ (النباتات، الحيوانات، الإنسان)، وعلى مستوى الإنسان ستؤدي هذه التقنية إلى ظهور شكل جديد من البشر بفعل عمليات تحسين النسل، وهذا سيحمل مضمونا أخلاقيا جديدا يثير التساؤل حول العبث بالطبيعة البشرية (فوكوياما، 2002، صفحة 120)

ذلك ما جعل الكثير من الدارسين يؤكدون على أن أبحاث الهندسة الوراثية أبحاث خطيرة، تضع الإنسانية أمام مشكلات أخلاقية كبيرة ومعقدة، والدليل على ذلك أنه في سنة 1975 أعلن بعض العلماء رغبتهم الشديدة في إيقاف أبحاث هذا المجال البيوتكنولوجي، وإعادة النظر في نشاطه، ووضع مجموعة من الضوابط التي تحكمه، واعتبر هذا الإعلان حدثا غير عادي (البقصمي، 1993، صفحة 199)

البداية من حيث المشكلات تكون بالزراعة وإنتاج الغذاء، إذ اعتبر المتتبعون في هذا الصدد أن الهندسة الوراثية تتجه نحو خلق استعمار من نوع خاص، خاصة مع توقعات انخفاض الإنتاج الغذائي بفعل زيادة النمو السكاني، خاصة في الضفة الأخرى من العالم، بالإضافة إلى تدهور البيئة نظرا لانتشار الصناعة، مما عجل بظهور بدائل أخرى لتغطية النقص، وهو ما يسمى" التحوير الجيني "Genome Editing عن طريق التدخل في التركيبة البيولوجية للنباتات باستخدام أساليب الهندسة الوراثية، واعتبرت هذه التقنية هي البديل للمستقبل، وتسيطر عليها الدول الصناعية المتقدمة مما يجعل بقية الدول تابعة لها وهذا نوع من التبعية Subordination، وهذه السيطرة عبر عنها بعض الدارسين بـ"الاستعمار الجيني" Genetic colonization، الذي هو أخطر من الاستعمار العسكري، الذي جلب معه حديثا أخلاقيا عن "الامبرالية البيولوجيةImprialism Biological "، تدمير استقلالية العلم، التلوث المعرفي، احتكار يتسلط على المعرفة وحق الحصول على

المعلومات، وفي هذا دعت "البيوإتيقا" إلى إعادة الدمج بين تكنولوجيا البيئة والأخلاقيات (عرب، 2010، الصفحات 150-151).

ولم يجلب الاستعمار تاريخيا أي خير للدول المستعمَرة، خاصة في ظل الأنانية التي تسيطر على العلاقات بين الدول وبموجب هذا الاستعمار ستصبح الكثير من فئات المجتمع ، وكثير من العوامل الأخرى مهددة بالانقراض" ارتقاء الطبيعة بقاء البشر، سيادة الغذاء وحريته، وحرية الفلاح والمستهلك، كل هؤلاء في مهب الريح، الاختيار هو الإمبريالية البيولوجية" (عرب، 2010، صفحة 151) ، هنا ستفرض الشركات العملاقة والصناعية والمتقدمة سيطرتها الدكتاتورية على الدول التي تحتاج إلى الغذاء، وسيختفي شعار "خبزنا حريتا."

بالإضافة إلى الاستعمار اللاّأخلاقي الذي يسببه التحوير الجيني، نجده يهدد الكيان البشري من خلال إنتاجه الكثير من الأمراض التي من شأنها أن تفتك بالإنسان ومصيره، خاصة وأنّ الكثير من الأمراض التي يعاني منها الإنسان مردها الغذاء، وهذا التحوير الجيني التي حددت معالمه الهندسة الوراثية، لا يتعلق بالنباتات فقط، بل حتى الإنسان، أو كما عبر عن ذلك المفكر المصري " فؤاد زكرياء" بقوله:" ... وكما أن الصناعة قد مدت سلطان الإنسان على إنتاجه الاقتصادي بحيث لم يعد مقتصرا على ما تجود به الأرض في الزراعة، بل أصبح الاقتصادي يحور موارد الطبيعة، ويشكلها وفقا لإرادته، كذلك يبدو أنّ العلم قد أمسك بأوّل الخيط: المؤدي إلى إحداث تغير مماثل في الكائنات البشرية" (زكرياء، 1978، صفحة 191)، وهذا معناه أن التعديل الوراثي سيطبع بقوة على الإنسان، حيث يمكن إنتاج إنسان حسب الطلب، أو إنسان حسب إرادة العالم التجريبي، وفي ذلك يزداد الأمر خطورة: الخطورة المرتبطة بالمخاوف التي تسببها مثل هذه العمليات، حاضرا ومستقبلا، على الإنسان، ثم على المجتمع، ثم على العالم ككل، معادلات كثيرة ستتغير، وتشهد الإنسان تغيرا كبيرا في المفاهيم، مثل الإنسان، الكرامة، المصير، المسؤولية...وبموجب ذلك سيتغير وجه العالم، وتبرز المشكلات الأخلاقية الكبيرة.

والمشكلات الأخلاقية الأخرى التي تثيرها الهندسة الوراثية في هذا السياق هي السيطرة، سيطرة إنسان على إنسان أو مجتمع على مجتمع، خاصة في الدول ذات الأنظمة العدوانية؛ التي تسعى من خلال التعديل الوراثي إلى زيادة قسوة مواطنيها،

وتقوية قدراتهم بصورة لا عقلانية، من أجل سحق خصومهم، فضلا عن ذلك قد توضع هذه التقينة في مجتمع تسوده الأنانية، يحكمه أصحاب الأطماع الاقتصادية والمصالح التجارية، والجشع، فمن الممكن أن يتم تعديل بشرية تعمل وتستهلك دون توقف أو شكوى (زكرياء، 1978، صفحة 193) هذه احتمالات مشروعة، خاصة مع وجود أطماع بشرية كثيرة لاستغلال البحث العلمي في خدمة مصالحهم الأنانية، وهذه الأطماع متنوعة منها الاقتصادية والتجارية، مع العلم أن الإنسانية تعيش في عالما تسيطر عليه رأسمالية ليبرالية، الغاية منها تحقيق الثروة، ولو بطرق غير مشروعة، ومثل هذه الأبحاث لا شك في أنها وسائل لتحقيق الثروة، هذه الأخيرة التي ستوجه الإنسان اتجاها آخر غير أخلاقي، هو السيطرة من خلال مختلف التبعيات المتاحة.

وتصل " البيوإتيقا" في بحثها المتعلق بالهندسة الوراثية إلى مشكلة أخلاقية أعمق، وهي التحوير الوراثي للإنسان، الغاية منه إنتاج أفراد خارقين، بقدرات فائقة، غير القدرات التي تقدمها الطبيعة، هذه الفكرة تناولها الكثير من الفكرين على غرار عالم المستقبليات الأمريكي " آلفين توفلر(1928-2016) Alvin Toffler " الذي تساءل في كتابه " صدمة المستقبل" عن عواقب إنتاج إنسان معدّل وراثيا خاصة ما يسمى " الإنسان الفائق Superman "يقول :" قد تكون اللحظة التاريخية مناسبة لمثل هذه المحاولات الهادفة إلى دعم قدرات الكائن البشري، وللقفز به نحو مستوى جديد من الإنسان الفائق، ولكن ماهي معقبات ذلك؟ وما هي البدائل؟ وهل نريد عالما مأهولا بكائنات خارقة؟ وتحت أي شروط؟ ومن له الحق فيها، هل تستخدم المعالجة الوراثية لرفع المتخلفين ذهنيا، إلى المستوى العادي أو لرفع المستوى العام؟ أم نركز على محاولات تنشئة فئة من العباقرة الممتازين" (توفلر، 1990، صفحة 459) ، مجموعة من الأسئلة توحي بخطورة تطبيق الهندسة الوراثية على الإنسان، خاصة في عالم تشكل فيه السيطرة هدفا مقصودا، فبدل أن تستعمل هذه التقنية لمعالجة الأمراض، والقضاء عليها، تتجه منحى لا يمكن أن تعرف عواقبه المستقبلية، فمثلا قد تستعمل هذه الكائنات في السيطرة على العالم، خاصة في محاولة إيجاد أشخاص بقدرات غير طبيعية .

إنّ هذه التجارب تهدد كيان الإنسان، وقدسيته، وحقوقه، بل أكثر من ذلك؛ إن اعتماد الهندسة الوراثية في تغيير الإنسان أو تغيير صفاته، هو قضاء على حريته واستقلاليته، وهذه مبادئ لا يمكن للبيواتيقا إغفالها، والإنسان متى فقد حريته فقد إنسانيته، وذلك مساس لقدسيته وقدسية الحياة، والباحثون الذي يعارضون هذه التقنيات، لا يقفون حد الخوف على الإنسان، بل إن الخوف الأكبر يكون على المجتمع، فقد تحدث الأخطاء التي تجلب الكوارث، ومثالها ظهور ميكروب أو فيروس من الصعب التحكم فيه، قد يدمر المجتمع، ويسبب هلاك الأفراد والأمم، لهذا انبرت كثير من المؤسسات المتخصصة في سياق الأخلاقيات الحيوية إلى مراقبة أنشطة الهندسة الوراثية ومشتقاتها، على غرار مؤسسة كنيدي في الولايات المتحدة الأمريكية التي اتخذت دور الرقيب على مثل هذه الأبحاث نظرا لخطورتها (البقصمي، 1993، الصفحات 206-207-208) ، فالمشكلة لم تعد مرتبطة بفرد معين، أو إنسان تجرى عليه التجربة، بل مجتمعات بأكملها يمكنها أن تعيش دمارا وكوارث حقيقة بفعل الأخطاء التي تحدث في ميدان العلم، ذلك أن فيروسا واحدا (مثل كوفيد19) يمكنه تعطيل وتدمير وتغيير عالم بأكمله، فالحروب البيولوجية أشد الحروب فتكا بالإنسانية.

3. المآلات الأخلاقية لبيوتكنولوجيا الاستنساخ:

يعتبر الاستنساخ من أكبر المواضيع إثارة للأسئلة الأخلاقية، خاصة إذا تعلق الأمر بالممارسة على مستوى الإنسان، ذلك أن هذه العملية تهدف إلى تخليق كائن، صورة طبق الأصل، لا أصول والدية ولا تواريخ عمرية أو إنسانية، ولا حتى شهادة ميلاد، وبالتالي بعيدا عن الاعتبارات التي عرفها الإنسان من فجر التاريخ، التي يأتي الإنسان من خلال ثمرة التقاء بين رجل وامرأة، الذين يمكن اعتبارهما الأصل الأول له، في إطار عمليات التكاثر المعروفة من قديم، هذه المستحدثات التكنولوجية جعلت المتتبعين يصفون الاستنساخ بقنبلة العصر: نعم استنسخ العلماء النعجة " دوللي" بطريقة فريدة وكأنهم فجروا قنبلة ذرية، بل إن البعض ذهب إلى أن عملية إنتاج تلك النعجة بتلك الطريقة يفوق في آثارها اختراع القتيلة الذرية، حتى أضحى الاستنساخ بحق هو قنبلة العصر، وخصوصا عندما يمس البشر" (الدمرداش، 1997، الصفحات 9-10) ، وعندما انفجرت القنبلة الذرية أتت على كل شيء كان في

مجالها، إلى الحد الذي وصف فيها الحدث بالمذهل المثير للخوف الشديد، عمل لا أخلاقي يفتقد تماما للإنسانية، فهل سيكون الأمر عينه مع الاستنساخ؟

ستكون هذه التقنية سببا في اختفاء العلاقة المقدسة التي تجمع الأب وابنه، مفهوم الوالدية سيختفي تماما من قاموس العلاقات، وستطرح أسئلة من مثل، من هو الأب؟ ومن هي الأم؟ كيف سينظر المستنسخ إلى المستنسخ منه؟ هنا ستطرح مشكلات أخلاقية تتعلق بالهوية، وكثيرا ما يذكر التاريخ، كيف يسعى الأشخاص المجهولو الهوية إلى البحث عن أصولهم، فضلا عن ذلك سيحدث نوع من التمييز بين الصورتين، الأصلية وطبق الأصلية، هذا التمييز الذي يخلق صراعا ينتهي إلى مشكلات عميقة تؤثر على مسار الحياة البشرية، حتى إنه تمييز لا يدعم الاختلاف والتنوع البيولوجي بل يزيد المشكلات بروزا، وتظل الأسئلة الأخلاقية مطروحة بشدة.

إن اختفاء مفهوم الوالدية والبنوة، وفقدان الصلة بين الآباء والأبناء، في ظلال الاستنساخ الحيوي هو مشكلة أخلاقية ترد بالدرجة الأولى إلى أن عملية الاستنساخ الحيوية لا تحتاج إلى الالتقاء بين الرجل والمرأة، ولا إلى دمج مني الذكر وبويضة الأنثى، بل يتم من خلال إخلاء البويضة من نواتها، من أجل تعطيل انقسامها، ودمجها مع خلية من الإنسان المطلوب إنتاج نسخ منه، وانتظار النتيجة (الخطاب، د-س، صفحة 34) ، ومع تتبع هذه العملية يتضح أن كل شيء ضد الطبيعة، لم يعد الأمر متعلقا بالمفهوم التقليدي للاتصال الجنسي بين الذكر والأنثى، ومع هذه التحولات تظهر أسئلة مشروعة كثيرة ومتنوعة:" هل سيكون المولود الجديد متشابها تماما مع السابق الأصلي؟ هل سترث النسخة الجديدة الأمراض نفسها الموجودة عند القديمة؟ أم ستكون لها أمراضها الخاصة؟ هل سيكون لكل منهما الذكاء عينه؟ والجنون والغباء والعبقرية عينها؟ وهل سيؤدي ذلك إلى عدم التوازن الذي أراده الله بين الذكور والإناث؟" (الخطاب، د-س، الصفحات 34-35)

سيعمل الاستنساخ على الإخلال بالتوازن الحيوي للبشرية، من خلال المساس بقانون الكائنات الحية، المتعلق بالحياة والموت، فلم تعد بداية الحياة تقوم على الفطرة، وصار لنهايتها شروط، فضلا على أنّه سيتم إلغاء أهم خصائص المادة الوراثية للإنسان، والإنسان إذا فقد التفرد الوراثي؛ "وإذا فقد الإنسان صفة التفرد فقد معها صفة الإنسان الذي يختلف عن سائر الحيوانات، فلا مكان في ظل النسخ

المتشابهة للحياة أو الموت، أو الحب أو الرحمة، ولا معنى للسعادة أو البؤس، والفرح أو الحزن، ولا معنى للأبوة والبنوة والتضحية والشرف والجمال والإبداع، فإذا تم نسخ البشر كنسخ الأوراق فقدت الإنسانية معانيها للأبد" (الخطاب، د-س، صفحة 41)، وعندما تفقد الإنسانية معانيها فقد قضينا على نمط الحياة الطبيعي الذي يقوم على التنوع والاختلاف، الذي يجمع بين المتناقضات التي تجعلها تسير في سلم يعبر عن التناسق البديع للكون، وكأن هذه النسخ ستقضي على هذا التناسق، وتخلق الفوضى، فلا يمكن لأحد أن يتصور العيش في عالم يملك لذاته نسخا متنوعا، بل إنّ البشر بموجب ذلك سيصبحون آلات، أو ربما شيئا آخر لا يمكن لأحد أن يتصوره على الإطلاق، وهذه معطيات الخيال العلمي، التي إن طبقت تخلق مشكلات أخلاقية، فنحن إذا قضينا على الإنسانية، سنقضي على كرامة الإنسان، وقدسية الحياة، كما أننا سنهدد مفاهيم الأسرة والوالدية، والتربية والأمومة وغيرها، ستتحول مفاهيم الحب والحنان والعطف إلى مفاهيم من الصعب تطبيقها على أشخاص ليسوا من الصلب وفق قانون التناسل الطبيعي الذي أقرته القوة الإلهية خاصة عندما تصبح الحياة دون معنى.

هذه بعض من النماذج، ونقول بعضا من قليل، ذلك أنّ هناك الكثير من التقنيات التي استحدثت في ظل الثورة البيوتكنولوجية، كان لها تأثير عميق على الإنسان، أثارت الكثير من الأسئلة الأخلاقية التي عززت الخطاب البيوإتيقي الذي انبرى المتخصصون فيه اجتهادا من أجل الحد من مشكلات عصفت بكثير من المفاهيم، وهددت كيان الإنسان، وهكذا ستسعى البيوإتيقا جاهدة من أجل مسايرة التقدم العلمي والتكنولوجي، وما ينجر عنه من نتائج قد تؤدي إلى مشكلات خطيرة .

ثالثا- من بيوإتيقا الثورة البيوتكنولوجية إلى بيوإتيقا الجائحة الجديدة:

الحديث عن الجائحة حديث عن الكورونا Corona وما صنعته من تغيرات على مستوى العالم، فيروس استطاع أن يلقي بظلاله على كل حديث، وكل حركة، تبدلت النظرة إلى العالم، وتحولت العلاقات بين الأمم، تأثير قوي لم يكن لعقل بشري أن يتصوره، حتى منظومة القيم.." يبدو أن الفيروس التاجي يندرج ضمن الاختصاصات التي تأخذ على عاتقها دراسة الجوانب الصحية لموجود الحي... وفي الباطن كلام وتحليل وقراءات من وحي ما آلت إليه الأمور، جرّاء تفشي الوباء، حيث

توقّف الإنسان عن أشكال حركته كافة إلا الضروري منها، فقد أغلقت الحدود بين الدول، ومنع السفر والتجول... وما إلى هناك من نتائج ظهرت ومازال يظهر الكثير منها، قبيل انعدام الأفق بما ستؤول إليه الأمور" (حسن، 2020، الصفحات 41-42)

تغيرات كثيرة وأفق مجهول يجعل هذه الجائحة من أعمق المسائل التي ستفرض نفسها في عالم اليوم، على جميع الأصعدة بما فيها الأخلاق، وعلى اعتبار أن "البيواتيقا" الوجه الجديد للأخلاق في العصر الراهن، فإن المتخصصين في هذا المجال سيتحدثون دون أدنى شك عن هذا الوباء، وأخلاقياته، وهو اقتحام سيمكن الخطاب البيواتيقي من التطور والدخول إلى هذه العوالم، كاشفا عن أخلاقيات التعامل مع المرضى، فضلا عن الابتعاد عن إنتاج مثل هذه الفيروسات القاتلة، خاصة وأن" البشرية تعيش تحت وطأة حرب فرضها عليها كائن غريب... عدو لا تعرف له جنودا ولا تشكيلات ولا آليات ولا استراتيجيات، لا تعرف له وجها ولا صوتا، لا تحس بوجوده الغادر والمدمر فقط عندما يتمكن منك دون تمييز أو فرز أو ترتيب بين البشر" (الزوري، 2020، صفحة 49)

التجاوزات التي كشف عنها المتخصصون في هذا السياق والتي تزامنت مع هذا الوباء، هي كشف هذه الجائحة عن هشاشة الخطاب الأخلاقي، الذي سيعمل البيواتيقيون على تقويته، والمقصود في هذا الصدد المواقف العديدة التي تركت الخطاب البيواتيقي جانبا، وذلك ترتب عنه نتائج مخزية، جرّت الدول إلى خسارات لا تحتمل، على غرار ما فعله الرئيس الأمريكي" دونالد ترامب" D.Trump والعديد من الجمهوريين الذين أكدوا على ضرورة إعطاء الأولوية للشباب في موجة كورونا وللاقتصاد للحفاظ على فرض الشغل وذلك على حساب المسنين (حسن، 2020، الصفحات 50-51)

هذا يجعلنا نتساءل: أليس هؤلاء المسنون بشرا؟ أين الكرامة الإنسانية؟ هل هذه الأمور مبررة أخلاقيا "؟ وهل حظر السفر وإغلاق المطارات والمساجد والأسواق مبَرَّر أخلاقيًّا؟ وهل إجراءات العزل الاجتماعي والحجر الصحي مسوَّغة أخلاقيًّا؟ وإذا كانت مبرَّرة فكيف نضمن وصول الاحتياجات الأساسية إلى الناس في هذه الحالة؟ وكيف نحول دون وصْم الناس المصابين بالفيروس؟ وما الفضائل التي يجب على الأفراد أن يتحلوا بها في حالة الأوبئة سواء في تحركاتهم أو في استهلاكهم وتخزينهم

للسلع، أو في التطوع لمساعدة الجهات الصحية إن لزم الأمر أو في الامتثال لتعليمات الجهات المختصة؟" (الخطيب، 2020)

ويقوم البيوإتيقيون بأدوار هامة في ظل انتشار هذا الوباء القاتل : إذ يجب عليهم تخفيف العبء على الأطباء وصناع القرار عند اتخاذ قرارات صعبة وغير مسبوقة في كثير من الأحيان، كما يجب عليهم أن يكونوا حاضرين لدعم هؤلاء وهذا للتأكد من أنهم يتخذون أفضل القرارات الممكنة في المواقف التي يواجهونها.

كما يتعامل البيوإتيقيون حاليًّا مع قضايا تخصيص الموارد (الأقنعة، وأجهزة التنفس، وأسرة العناية المركزة). لكنهم يتدخلون أيضًا في دعم المديرين ومقدمي الرعاية في سياق الأزمة، والذين، على سبيل المثال، يجب عليهم تحديد أكثر الوسائل احترامًا للتعامل مع العدد الهائل من وفيات المسنين: مكان تخزين الجثث وتعامل جدير بالمتوفين وعائلاتهم؟ ومن جهة أخرى ، يمكن للبيوإتيقيين أن يعملوا كمفكرين ومدربين ودليل لرفع مستوى الوعي، من خلال تحليل وانتقاد التحديات المتعلقة بالقضايا الاجتماعية الرئيسية، يحتفظ بحريته الأكاديمية، مما يسمح له بإلقاء نظرة ناقدة على القرارات الاجتماعية والسياسية، على سبيل المثال عدم شفافية الحكومة في السيناريوهات المختلفة لرفع الحجر الصحي، أو استخدام تطبيقات الهواتف الذكية وتحديد الموقع الجغرافي من أجل تحديد وتعقب الأفراد وعزل الحاملين. (لعرج، 2020)

إن البيوإتيقا يمكن أن يحول الوباء من نقمة إلى نعمة" فالأوبئة فرصة فردية وفرصة مجتمعية، وفرصة للإنسانية، وفرصة تاريخية، على كل منا الالتزام بالقرار الصحي وملازمة البيوت، والاستمرار في المقاومتين الإيجابية والسلبية، مقاومة مسلحة بالأدوات، الطبية والصحية، وقرارات العقل السياسي، ومقاومة سلبية لا تختلف عن الغاندية في جدواها ونتائجها الوقائية" (الدريسي، 2020، الصفحات 93-94)، هذا ما يفسر تماشي الخطاب الأخلاقي الجديد مع مختلف التغيرات التي تحدث في ميدان العلم، خاصة المتعلقة بالطب والبيولوجيا، والخطاب الأخلاقي يوحي دائما أن البشرية بحاجة إلى دعم، يراعي مكانة الإنسان الأساسية داخل المجتمعات، ويحافظ على أقدس مقدساته، التي تجعله لا يدنو تماما من مرتبة الحيوانية.

الخاتمة:

الخطاب البيوإتيقي خطاب حيوي، يحاول أن يكون دائما حاضرا، في ظل التغيرات المتسارعة التي يشهدها العالم، خاصة منذ النصف الثاني من القرن العشرين، يحمل معه آليات تسعى جاهدة إلى حماية قيم الإنسان، في عالم تسيطر على لغة العلم والمادية المفرطة، ورأسمالية جشعة تجعل من الثروة هدفا مقدسا، وقد تزامن هذا الخطاب مع التقدم الكبير في ميدان الطب والبيولوجيا، كفرعين هامين كبيرن من العلم يشتغلان على الحياة، ومنه ظهرت الأخلاق الحيوية، فكانت الثورة البيوتكنولوجية بمثابة الحافز الذي دفع البيواتيقا إلى التقدم والتطور، فكانت حاضرة في كل سياق علمي متجدد، كما هو الحال مع ظهور الجائحة الجديدة، التي سيطرت على حركة العالم، وهنا كان البيواتيقا تضطلع بتنظيم ممارسات الحجر والتعامل مع المريض، وأخلاقيات الفيروسات أثناء الجائحة، أما بعدها فستستغل المتغيرات الحاصلة في بناء فكر أخلاقي يمكن العالم من تجنب المشكلات التي عصفت بكيان الإنسان في ظل هذه الجائحة ، وفي الوقوف أمام التجاوزات التي صدرت من مختلف السياسات والتي تحاول أن تؤذي كرامة الإنسان وقدسيته.

قائمة المراجع:

اللغة العربية:

1. أحمد راضي أحمد أبو عرب. (2010). الهندية الوراثية بين الخوف والرجاء. القاهرة : دار الفوائد.
2. أحمد مستجير، فرانسيس فوكوياما. (2002). نهاية الإنسان، عواقب الثورة البيوتكنولوجية . القاهرة: سطور.
3. تر: عادل العوا جاكلين روس. (2001). الفكر الأخلاقي المعاصر (المجلد 1). بيروت: عويدات للطباعة والنشر.
4. جاكلين روس: ، تر: عادل العوا. (2001). الفكر الأخلاقي المعاصر (المجلد 1). بيروت: عويدات للنشر والطباعة.
5. سمية بيدوح. (2016). الجسد في ظل التطورات العلمية الراهنة . تأليف مصطفى كيحل، الأخلاقيات التطبيقية والرهانات المعاصرة للفكر الفلسفي (صفحة 54). الجزائر : الجمعية الجزائرية للدراسات الفلسفية.
6. صبري الدمرداش. (1997). الاستنساخ قنبلة العصر، . الكويت : دار الفكر الحديث.

7. عبد الحق الزوري. (2020). الإنسانية بين رعب الكورونا وعطالة القراءات المخلصة. الجوائج في الزمنة المعاصرة.

8. عبد المعز الخطاب. (د-س). الاستنساخ البشري هل هو ضد المشيئة الالهية. القاهرة: لدار الذهبية للنشر والتوزيع.

9. علي الحاج حسن. (2020). التحوّلات القيميمة في ظل وباء كورونا، رصد تحليلي نقدي لراهن العالم ومستقبله. دورية الاستغراب ، 5(20)، 41-42.

10. فؤاد زكرياء. (1978). التفكير العلمي . الكويت : المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب.

11. محرز الدريسي. (2020). الكورونا والحركة نحو الإنسانية، الكورونا لا تقتل على الهوية. الجوائج ف يالازمنة المعاصرة.

12. محمد علي ناصف، آلفين توفلر. (1990). صدمة المستقبل، المتغيرات في عالم الغد. القاهرة : لجمعية المصرية لنشر المعرفة.

13. مرسلي لعرج. (15 أكتوبر , 2020). كوفيد 19 كيف يمكن للبيوإتيقا ان تساعد في مواجهة الاختيارات المفجعة . تم الاسترداد من thakafamag.com: https://thakafamag.com/?p=37758

14. معتز الخطيب. (15 أكتوبر , 2020). كورونا وأخلاقيات الأوبئة. تم الاسترداد من الجزيرة : https://www.aljazeera.net/

15. ناهدة البقصمي. (1993). الهندسة الوراثية والأخلاق. الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب.

16. نورة بوحناش. (2015). البيوإتيقا انفجر أخلاقي داخل العلم (المجلد 1). الجزائر : منشورات الاختلاف.

17. نورة بوحناش. (2016). الاجتهاد وجدل الحداثة (المجلد 1). الجزائر: منشورات الاختلاف.

اللغات الأجنبية:

1. L. (2014). Contemporary Debates in Bioethics. Usa: Wiley-Blackwell.

2. Arthur L. Caplan. (2014). Contemporary Debates in Bioethics. Usa: Wiley-Blackwell.

3. Capla, O. A. (2014). Contemporary Debates in Bioethics. Usa: Wiley-Blackwell.

4. Caplan, A. L. (2014). Contemporary Debates in Bioethics. Usa: Wiley-Blackwel.

5. Hellyer, M. (2003). The Scientific Revolution, The Essential Readings. usa: Blackwell Publishing Ltd.

6. James F. Childress Tom L. Beauchamp. (2009). Principles of Biomedical Ethics (Seventh Edition). New York: Oxford University Press.
7. Jr, J. B. (2009). A Handbook Of Bioethics Terms. Washington, D.C: Georgetown University Press.
8. Other's, A. L. (2014). Contemporary Debates in Bioethics. Usa: Wiley-Blackwell.
9. Potter, V. R. (1971). Bioethics Bridge To Future. Usa: Prentice-Hall.
10.Potter, V. R. (1983). Global Biothics. USA: Michigan University Press.
11.Taguieff, P. A. (2007). La Bioéthique ou la Just milieu . France: Fayard.
12.Van Rensselar Potter. (1971). Bioethics Bridge To Future. Usa: Prentice-Hal.

كورونا والعولمة ومستقبل الإنسان من منظور إدغار موران

د. حملاوي مهتور

جامعة 20أوت 1955- سكيكدة mehtour.hamlaoui@yahoo.fr

ملخص الدراسة:

إذا كان العالم قد شهد العديد من الأوبئة عبر التاريخ، فإنه لم يشهد وضعا وبائيا كالذي يعيشه اليوم؛ فقد تسببت جائحة كورونا في وضع وبائي كارثي لم يكن يتوقعه أحد على الإطلاق، وقد سارع خبراء الصحة والطب، والاقتصاد ورؤساء الدول والحكومات، والوزراء للحديث في موضوع كورونا والوضع المأزوم الذي آل إليه العالم، وفي خضم النقاش العالمي الراهن بشأن مسألة كورونا تبرز وجهة النظر الفلسفية، والتي سنتوقف مع أحد أبرز رموزها وممثليها، ويتعلق الأمر بالفيلسوف، وعالم الاجتماع الفرنسي إدغار موران؛ الذي ذهب إلى التأكيد على أن أزمة كورونا من شأنها أن تذكّر البشرية بالمصير المشترك، وأن ترغم الدول المصنعة على مراجعة تسابقها المحموم نحو التطور التقني والاقتصادي.

وينتهي موران إلى القول بأن علينا أن نستخلص من كورونا دروسا للمستقبل، دروس حول وجودنا، ووضعنا الإنساني، فقد أنعشت كورونا ذاكرة الإنسان، الذي ظن أنه ككائن جبار فرض سيطرته على الطبيعة سيطرة مطلقة ونبهته إلى اللايقين الذي يحيط به، وأرغمته على إعادة النظر في علاقته بالموت وأيقظت فيه روح التضامن، ودفعته إلى مقاومة الفردانية الأنانية، وفداحة التفاوت بين البشر تحت الحجر الصحي، ونبهته إلى تحدي العولمة المأزومة والتحدي الوجودي، والسياسي، والإيكولوجي، والاقتصادي، وهي التحديات التي عليه مواجهتها من أجل مستقبل أفضل.

الكلمات المفتاحية: الوضع الوبائي؛ كورونا؛ إدغار موران؛ العولمة؛ المستقبل.

مقدمة:

في ظل الجنون الحماسي نحو أفق ما بعد الإنسانية[i] فاجأت جائحة كورونا[ii] بني البشر لتدخلهم في عالم مريب وتراجيدي، وتخلط كل حساباتهم وتوقعاتهم؛ وإذا كان العالم قد شهد العديد من الأوبئة؛ فإنه لم يشهد وضعا وبائيا كالذي يعيشه اليوم؛ ذلك أن كورونا قد تسبب في وضع وبائي كارثي لم يكن يتوقعه[iii] أحد على الإطلاق.

وإذا كان خبراء الصحة والطب، والاقتصاد، ورؤساء الدول والحكومات ووزراء الصحة؛ قد استحوذوا على فضاءات الإعلام، ومنصاته، وشاشاته؛ فإن الفلاسفة، وعلماء الاجتماع قد كانت لهم كلمتهم أيضا في النقاش العالمي الراهن بشأن مسألة كورونا؛ التي تجاوزت الموضوع الصحي إلى دوائر أخرى فكرية وفلسفية، وسياسية، واجتماعية، ونعتزم في مداخلتنا هذه أن نتناول موضوع كورونا من منظور فلسفي، أو من زاوية فلسفية؛ ممثلة هنا بنظرة إدغار موران[iv](Edgar Morin)، وهو الفيلسوف وعالم الاجتماع الفرنسي الذي كان شاهدا طيلة حياة تناهز القرن على حروب، وثورات، ومشاكل اجتماعية واقتصادية لا حصر لها، وإذا كان الوباء الجديد قد فاجأ موران فإنه ومن دون شك لم يباغت تفكيره الذي تعود المحن، فهو طفل كل الأزمات، وحكيم يعرف كيف يتوقع غير المتوقع .

وإذا كانت الفلسفة قد تعودت على التأمل والانتظار إلى آخر النهار، لأنها وكما عبّر عن ذلك هيغل بمثابة طائر الحكمة، والذي هو البومة التي تطير فقط عند أفول النهار، وهذا يعني أن الفلسفة هي النظام الذي يأتي بداية الليل بعد نهار من المعرفة والتجارب؛ فإن الفلسفة هذه المرة، وعلى ما يبدو لم تجد الفرصة للانتظار أمام هول الفاجعة، وأمام خطر الموت المحدق بالإنسان من كل مكان ولكن الفلسفة لم ولن تقف موقف المتفرج في الحياة، فهي كما يقول موران "محكومة بأن تفكر الإنسان، وتفكر الحياة، وتفكّر العالم والواقع، ومن المفترض لهذا التفكير أن يكون له مفعول راجع على العلوم وأن يوجه الحياة"(موران، 2012، ص61).

وإذا كانت الفلسفة على مستوى "المفاهيم" هي تاريخ من المفاهيم الكبرى التي تفاعلت، وأثرت في التغيرات المهمة لتصورات، ومفاهيم، وقوانين وأخلاق البشرية،

فإنها على مستوى"نمط الحياة" هي تحسين القدرة على التفكير والعيش، والقدرة على النقد العقلاني، فالفلسفة تجعل المرء ذاتا مفكرة واعية نشطة معبّرة عن العقل وحضوره في العالم لتفكّر في حالات الوجود والموت، حتى في عصر العلم، وهنا يصرّح موران بأن الوحدة بين العلم والفلسفة، مهما كانت صعبة فهي أمر مرغوب فيه، رافضا الانسياق وراء دعوات الفصل بين الفلسفة والعلم (موران، 2004، ص111).

لقد أثبتت الفلسفة حضورها في مواجهة القلق والخطر، ويمكننا النظر إليها كسمة، وملكة إنسانية عقلية ترافق الإنسان عبر مراحل تطوره الأنثروبولوجي، فهي تعايشه في سياق تنوعاته، وتناقضاته الآنية، والتاريخية فللفلسفةِ نزوع متعدد الخواص بما يلائمُ صيرورةَ الإنسان، وما الفلاسفة إلا معبر ومنفذ إلى الواقع وحركته وتناقضاته، وأزماته وألغازه. وكلما غرق العالم في أفاق التيه، تصبح الفلسفة أكثر من ضرورة، لأن الفلسفة تستطيع أن تعمل على تنمية مخلوقات أكثر تسامحا وإدراكا لحق الاختلاف وتفهم الآخر، وهذه من أهم الأسباب التي دفعتنا إلى الخوض في موضوع كورونا من منظور فلسفي.

ونسعى من وراء مداخلتنا هذه إلى التعريف بوجهة نظر إدغار موران حول كورونا، وعلاقتها بالعولمة، وانعكاساتها على الحياة الفكرية والثقافية، وهذا عبر إثارة العديد من التساؤلات الهامة والمحورية، والتي تتعلق بوجه عام بوجهة نظر إدغار موران حول كورونا وعلاقتها بالعولمة، وهي الأسئلة التي يمكن إجمالها فيما يلي: كيف ينظر موران إلى الحجر الصحي الكوني الذي فرضته الجائحة؟ وماهي الآثار النفسية التي يمكن لكورونا أن تخلفها على الإنسان؟ وإذا كانت العولمة هي سبب المشاكل والأزمات التي يعيشها العالم اليوم؛ فما الذي ينبغي فعله إزاءها، وهي التي استطاعت أن توحّد الإنسانية تقنيا وثقافيا، ولكنها عجزت عن التقريب بين الشعوب، وبث روح الأخوة والتضامن فيما بينها؟ وإذا كان النظام العالمي قد أثبت فشله وإفلاسه، وعدم قدرته على إضفاء الطابع الإنساني على العلاقات بين الدول، فما هو البديل الذي يقدمه موران؟ هل يرى موران ضرورة تلاشي هذا النظام واستبداله؟ ما هو البديل الذي يقدمه موران من أجل مستقبل الإنسان؟

أولا: إدغار موران والحجر الصحي

عندما يتعلق الأمر بالوباء الأشد خطرا وفتكا في المنظومة الاقتصادية والاجتماعية، والسياسية العالمية؛ فمن الطبيعي أن ينتاب الفرد الشعور بالخوف فيعمل على توخي الحيطة والحذر، ويكون دائما على أهبة الاستعداد والمواجهة وإذا كان الخوف من الوباء قد جعل العديد من الدول في البداية تلجأ إلى الحجر الصحي، فإن هذا الأخير قد أصبح إجراءً كونيا، وقد كثر الحديث عن الحجر الصحي، وأصبح موضوعا مثيرا للجدل في الأوساط الثقافية والفكرية، حيث انقسم الفلاسفة والمفكرون إلى فريقين، أحدهما يؤيد هذا الإجراء، والآخر يعارضه، فما هو موقف إدغار موران من الحجر الصحي؟ وما هي في رأيه انعكاساته على الحياة اليومية للبشر؟

لأن عمره يقارب القرن فإن إدغار موران يعتبر نفسه محظوظا، وهو ينعزل في منزله بسبب كورونا والحجر الصحي، وليس في دار للعجزة، ولم يكن موران متحمسا لمثل هذا الحدث المفاجئ، والذي يأتي كل يوم بمفاجأة جديدة وشكوك جديدة، ولكنه مع ذلك لم يكف عن التفكير في المآسي التي يتسبب فيها الحجر الصحي؛ كالاكتظاظ السكاني في المساكن الضيقة، وما ينتج عنه من مشاكل ونزاعات بين الأزواج، وكذا الخوف والقلق عند الأطفال، أما المتشردون في رأي موران فهم الضحايا الحقيقيون لهذا الحجر(مُعلقاً- على- جائحة- كورونا- الفيلسوف الفرنسي إدغار موران، 2020. https://www.alquds.co.uk) .

ويذهب موران إلى التأكيد على أن الاستمرار في الحجر لمدة طويلة من شأنه أن يعرقل حياة الإنسان الفكرية والثقافية؛ فمقاطع الفيديو مثلا لا يمكنها أن تحل محل ارتياد السينما، و"التابليت" لا يمكن أن يعوض زيارة المكتبات والتطبيقات الرقمية مثل"سكايب"، و"زوم" لا تشكّل بديلا لضرورة الاتصال الحقيقي المباشر (إدغار موران، وباء كورونا أدخل البشرية في مغامرة مذهلة 2020، http://orient.ma/avis). وكان موران يقضى وقته في القراءة والمراقبة والتفكير، وقد شعر مع نهاية هذه الفترة الخاصة للغاية، بالحاجة إلى تعلم ما أسماه"دروسا" تسلط الضوء على أمل لعالم آخر جديد .

ثانيا: انعكاسات الحجر الصحي على حياة الأفراد والدول

إذا كانت الإجراءات، والتدابير الاحترازية، والصحية المفروضة لمجابهة انتشار فيروس كورونا قد أجبرت الناس على البقاء في المنزل، فإنها في نظر موران قد أيقظت فيهم مشاعر الأخوة، ففي فرنسا على سبيل المثال، كل مساء عند الساعة الثامنة يخرج الناس للنوافذ والشرفات للتصفيق، وتقديم التحية للأطباء وأطقم المستشفيات الذين تصدوا لمواجهة المرض، وفي إيطاليا أيضا يخرج الناس للشرفات لأداء النشيد الوطني، والرقص على أنغام الموسيقى الشعبية.

وإذا كان الوباء قد أظهر أن الإنسانية تمثل قارة موحدة، وأن البشر مرتبطون ببعضهم بشكل عميق. إذ إننا في هذه اللحظات العصيبة من الوحدة والعزلة، بعيدا عن المشاعر والأصدقاء والمجتمع، أصبحنا أكثر وعيا وإحساسا بحاجتنا للآخر، وكثيرون رفعوا شعار" سأبقى في المنزل، ليس فقط لحماية نفسي بل أيضا لحماية الآخرين الذين هم جزء من مجتمعي" (فيلسوف فرنسي، 2020 https://www.aljazeera.net/news/cultureandart/)، فإن التجارب علمتنا أيضا أن الأزمات الخطيرة يمكن أن تؤدي لتفاقم ظواهر الانغلاق، لأن البعض يشرعون مباشرة في البحث عن ضحية يلقون عليها باللائمة، وعادة ما يكون الأجنبي أو المهاجر هو الضحية، ولذلك فإن مثل هذه الأزمات يمكن أن تشجع على قبول المهاجرين، وبالمقابل فإنها قد تغلق الباب في وجوههم (فيلسوف-فرنسي-كورونا-كشف،2020، https://www.aljazeera.net/news/cultureandar).

لقد تداعت شرارة الفيروس عالميا، فأحدثت لدينا أزمة صحية[v] بشكل مرعب، فرضت تطبيق إجراءات العزل الصحي، وقد أدت هذه الأخيرة ضمنيا إلى خنق للاقتصاد، والتحول من أسلوب حياتي منفتح على الخارج إلى انطواء ذاتي داخل المنزل، كما دفع هذا بالدول الوطنية إلى الانطواء على نفسها، وطغيان الأنانية، وغياب روح التضامن، وظهور السرقة والسطو على وسائل مكافحة الفيروس[vi].

ويكشف هذا من وجهة نظر إدغار موران عن غياب التقدير الجيد لدى المؤسسات الدولية، ومنها الأوروبية بخصوص تفعيل تضامن عملي بين الدول (2020، https://intelligentcia.ma/29468.html)، وإذا كان وباء كورونا قد أدى إلى نزوع الدول الوطنية إلى الانطواء على نفسها، وأحدث أزمة اقتصادية هائلة

فإن هذا النزوع سيتحول إلى نزعة وطنية تكره الأجانب، وهو ما يدفعنا، ومن دون شك إلى التفكير من جديد في علاقتنا بالآخر؟(مُعلقاً-على-جائحة-كورونا-الفيلسوف الفرنسي إدغار موران/2020، https://www.alquds.co.uk) .

لقد جعلت سياسات العزل الإنسان المعولم، وبصفة خاصة في البلدان الصناعية والرأسمالية الإنسان مدمنا إلى حدّ الشطط في الفردانية، وهذا التحقق الأقصى للفردية المعزولة الذي فرضه التباعد الاجتماعي خوفا من الكورونا يكاد يعصف بنا، وهنا ينبغي أن نقف على حقيقة أننا لا نستطيع أن نوجد وحدنا، فلا بد لكلّ أنا من وجود أنوات أخرى تخوض معها تجربة الوجود الحيوي، وفي ظل تفكك حزمة الروّابط الفعلية، وهو أمر يخيفنا ويربكنا، فإن ما نتطلع إليه وفق هذا التشخيص، وكما ينصحنا موران ويوجهنا؛ هو أن نسعى لاستعادة لذّة ومتعة العيش مع الآخرين ونصادقهم، ولا نكنّ لهم العداوة(إدغار- موران- في-ضرورة-2020 /-https://ar.lemaghreb.tn/item/42680)، وقد بات من الضروري اليوم في نظر موران التشجيع على خلق نوع من الوعي المشترك بين سكان العالم، بناء على أسس إنسانية، وذلك من أجل تشجيع التعاون.

ثالثا :كورونا الموت القادم من الصين وأزمة اللايقين

يرى إدغار موران أن كل شيء في هذا العالم، يعيش في أزمة، وبأن ملامح اللايقين تكبر، وإذا كان اللامتوقع يباغتنا ويفاجئنا، فمرد المفاجأة هو كوننا آمنا بوثوقية مبالغ فيها من نظرياتنا، وأفكارنا دون أن نعمل على تخصيص أي فضاء لاستقبال الجديد، مع أن هذا الأخير يداهمنا باستمرار، ولا يمكن إطلاقا التنبؤ بالطريقة التي سيحل بها، ومع ذلك يجب أن نكون دوما على أهبة الاستعداد لتوقع حدوث اللامتوقع (موران، 2002، ص64) .

ففي كل مكان، وفي كل شيء يكبر الغموض، وقوى الموت التي كنا نعتقد أنها في طور التلاشي قد ثارت علينا، فقد غزانا فيروس السيدا، والذي يعتبر أول فيروس يدخل التاريخ من بين جملة من الفيروسات الأخرى المجهولة والتي هي الآن قيد الظهور، وبينما كنا نعتقد أننا تخلصنا من البكتيريا عادت لتطفو على السطح من جديد أنماط جديدة تصمد أمام المضادات الحيوية، وهكذا يتغلغل الموت من

جديد بحدة في أجسامنا، والتي كنا نعتقد أنها أصبحت معقمة إلى الأبد. (موران، 2002، ص65).

لقد بدا واضحا جدا أنه لم يعد بإمكان المشخصين تكوين رؤية واضحة، ولم يعد بإمكان المتكهنين التكهن، فالحاضر في طور الهلاك، وكوكب الأرض يحيا، ويترنح، يتدحرج، ويتجشأ. كل ما يحدث يحدث ويحيا في مدة قصيرة والمستقبل ينمحي خصوصا وأنه يتوقف، لا على احتمالات وانعراجات (ربما أنه قد حصلت سلفا...)، وإنما أيضا على مخاطرة كلية محتملة. إننا في عالم يعيش الأزمة والخطر(موران، 2009، ص41).

وقد نتجت عن أزمة كورونا حسب موران العديد من التمزقات، والتي نتج عنها عدم اليقين فقد أدى فيروس ضئيل ظهر في مدينة نائية في الصين إلى إثارة اضطرابات عالمية، ويفترض بهذه الصدمة أن تكون كافية لجعل جميع البشر يدركون أخيرا مصيرهم من خلال إبطاء سباقنا المحموم من أجل التنمية التقنية والاقتصادية، فنحن نواجه اليوم ظروفا جديدة، وشكوكاً كبيرة، ومستقبلاً لا يمكن التنبؤ به، ولم تستعد له البشرية التي تعيش في حالة تغير متوتر، ويقول موران بأنه تعلم من الأزمة التي عشناها مؤخراً، ومن احتجاز أكثر من نصف البشرية بشكل غير مسبوق لمدة ثلاثة أشهر دروساً عديدة حول حالة عدم اليقين في حياتنا، وعن علاقتنا بالموت، وعن حضاراتنا، ونشوء روح التضامن، وعدم المساواة الاجتماعية في الحظر الصحي، وتنوع أساليب إدارة الوباء حول العالم وطبيعة الأزمة وما يتعلق بها في مجال العلم، والعمل السياسي، والترحيل، والدعم الوطني، والأزمة في أوروبا والكوكب بأكمله .

إن اللايقين يحاصرنا ويفرض نفسه علينا؛ فنحن لا نعرف شيئاً مع هذا الفايروس، وكيف نتعايش مع توقعات تستمر لمدة 15 يوماً؟ فمع هذا التنبؤ المحدود، والتفكير في الحياة، والتاريخ الشخصي، والسياسة، والاقتصاد، والمجتمع في عموم العالم، يصبح تغيير المسارات أمراً ضرورياً؛ لأن الحياة كلها مغامرة غير مضمونة، فنحن لا ندري مسبقا كيف تكون حياتنا المهنية، ولا كيف ستكون صحتنا أو عواطفنا، وما سوف يحدث مستقبلا؛ رغم أننا نعرف أن موتنا محتوم (https://www.almadapaper.net/view.php?cat=231137) .

إن اللايقين في نظر إدغار موران يكتسح كل شيء، ويفنّد ادعاء الإنسان، وإحساسه بأنه قادر على السيطرة على الطبيعة والأزمات، والتنبؤ بالتطور، فالتطور لا يخضع للقوانين ولا لحتمية متفوقة، وهو ليس ميكانيكيا ولا خطيا. ولا وجود لعامل مهيمن باستمرار يقود التطور، وبالفعل سيكون المستقبل سهل التنبؤ لو كان التطور يتعلق بعامل مهيمن وبعلية خطية. ينبغي علينا على العكس من ذلك الانطلاق من الإقرار بغباوة كل تنبؤ يقوم على تصور تطوري بهذا القدر من التبسيطية. وهكذا فحركة الصيرورة شيء مركب بشكل هائل. والتاريخ يبدع، وينحرف، ويتمايل. وهو يغير السكة، ويصل السبيل: والاتجاه المضاد للتيار الذي أثاره تيار يختلط بالتيار، وبتغيير اتجاه هذا الأخير يصبح هو التيار. والتطور انحراف، وخلق، واضطراب، وأزمات(موران، 2002،ص16،15) .

رابعا: كورونا والعولمة والأزمة الكوكبية[vii]

إن المهمة الأصعب في نظر موران تكمن في التفكير بكوكبنا، هذه المهمة هي أيضا الأكثر ضرورة. ففي زمن العولمة[viii]، تحوّل العالم إلى سوق كبيرة، وذلك من خلال التكنولوجيا المتطورة التي قرّبت المسافات بين القارات، ولكن في الوقت نفسه فإن تجاوز عائق المسافات لم يعمل على إرساء الحوار بين الشعوب.

فالعولمة في الواقع تعمل على الترويج في العالم بأكمله لاقتصاد السوق، العلم، التقنية الصناعة، وهذه الكلمات السحرية بالنسبة للبعض مرادفة لتحسن وضع العالم الذي يتجه نحو النمو الاقتصادي والصناعي، وبالتالي نحو التقدم والتطور وفقا للمعايير والقواعد الغربية(بودريار، موران،2005، ص76،77). وإذا كان النظام الرأسمالي العالمي قد كان سببا في نمو الإنتاج، والتبادلات، والتواصلات، فإنه قد كان أيضا سببا فاعلا في تحويل كل شيء إلى بضاعة، بما في ذلك المساعدات والتضامنات، والخيرات المشتركة غير النقدية، مهدمة بهذا الشكل العديد من أنسجة المؤانسة. إن السوق يولي في كل المناسبات أفضلية لحساب المصلحة ويفكك عرى التضامن كذلك. إن النتائج العكسية لعملية تحويل الأشياء إلى نقود هي ضرورة توفر مقادير متنامية من المال من أجل البقاء، وتقلص نصيب الخدمة المجانية، والهبة، أي نصيب الصداقة والأخوة (موران،2010، ص14).

ويرى موران أن التنمية الرأسمالية قد أدت إلى خلق مشاكل أكثر مما قدمت من حلول، وأدت إلى الأزمة العميقة للحضارة، والتي مست المجتمعات الغربية المزدهرة. ومن هذا المنطلق يؤكد موران بأن اختزال التنمية فقط في المنظور التقنواقتصادي، شيء لم يعد مقبولا. ذلك أننا نحتاج إلى مفهوم أعمق وأكثر غنى للتنمية، وذي طابع تركيبي أكثر، بحيث لا يختزلها فقط في الجانب المادي، بل يأخذ بعين الاعتبار الجوانب العقلية، والوجدانية، والأخلاقية.. إدغار موران: 2002، ص63) .

لقد فرضت العولمة من منظور موران سوقا عالمية لم تتمكن من خلق مشاعر الأخوّة بين الشعوب، بل على العكس من ذلك خلقت حالة من الخوف من المستقبل، فقد أفرغت الحياة من مضمونها الإنساني، فهي وفي سعيها لتوحيد المجال التقني والاقتصادي للكوكب، لم تعزز التفاهم بين الشعوب، فبات من الحاصل وأمام غياب تضامن دولي ومنظّمات مشتركة لاتّخاذ تدابير في مستوى الوباء، بروز" انغلاق أناني للأمم حول ذاتها". فهذه الأزمة باعتبارها أزمة بيو-إيكولوجي لكوكب الأرض، عرّت بشكل واضح عجز الجنس البشريّ عن تحقيق إنسانيته.

ولا يتردد إدغار موران في التأكيد على أن العولمة، وإن كانت تبدو كنزعة موحدة، فإنها في جوهرها أيضا نزعة تصارعية. فالتوحيد المعولم غدا في نفس الوقت مقسم أكثر فأكثر، وهذه هي مفارقة العصر الكوكبي(**موران**، 2002، ص62). لقد تفاقمت أزمة العولمة في القرن العشرين، وقد عمل هذا الأخير كما يقول موران" على خلق نسيج كوكبي موحد، وعمل في نفس الوقت على تجزئته، إذ أصبحت أجزاؤه معزولة، وشائكة، كما دخلت في صراع مع بعضها البعض.. وفي نفس الوقت فالتدفق التقنو_ صناعي يميل نحو القضاء فعلا على التعددية البشرية، الإثنية، والثقافية"(موران 2002، ص63).

ولا يكفّ موران عن التذكير بأنه وإذا كان التقدم العلمي التقني والطبي، والاجتماعي مذهلا، فإنه لا يجب التقليل من قيمة السلطة المريعة والمدمرة، والتي تجد تحت تصرفها العلم والتقنية، والتي يظهر معها للمرة الأولى في التاريخ الإنساني أن ثمة إمكانية للقضاء نهائيا على الإنسانية. كما أن الحياة على كوكبنا

هي أيضا مهددة بالفساد، وكل الأخطار التي نعيشها هي ثمرة تقدمنا(موران، 2005، ص84) .

خامسا: دروس كورونا وضرورة تغيير الطريق

يرى إدغار موران أننا اليوم، وبعد الإختلالات[ix] التي كشفت عنها كورونا سواء كان ذلك في فرنسا[x] أو في العالم ككل؛ نجد أنفسنا في أمس الحاجة إلى" تغيير المسار" ومعالجة[xi] الاختلالات؛ فقد كشفت لنا الجائحة عن العيوب العميقة التي تواجهها البشرية، وعززت وعينا وقناعتنا بأن الحياة التي نحياها الآن ليست هي الحياة الفضلى التي يمكن أن نحياها، وهذا يعني أنه من حقنا أن نحلم ونتخيل العالم بشكل مختلف؛ فهل هناك احتمالية لمستقبل أفضل؟ وما نوع النسق الذي يتعين علينا أن نقيمه ليحل محل النسق القائم؟ وما السبيل للتخلص من سلبيات النظام الاقتصادي والاجتماعي العالمي القائم واستبداله بنظامٍ عالمي إنساني كي يكون هناك مستقبل للبشرية قابل للبقاء؟

يعتقد موران أنه ينبغي الإسراع لعلاج مشكل العقيدة العلمية المزعومة المسيطرة على أغلب بلدان العالم والتي تحصر كل سياسة في الاقتصاد، وكل ما هو اقتصادي في مذهب التنافس الحر كحل لكل المشاكل الاجتماعية، وهي عقيدة تزيد في الواقع من حجم التفاوت الاجتماعي، وتمنح للقوى المالية سلطة لا حدود لها سعيا وراء التطور، وهذا التطور ذو النموذج الغربي يجهل بأن هذا النموذج يحتوي على مساوئ، حيث إن رفاهية تعمم البؤس، وفردانية تحتوي على الأنانية والعزلة، وتفتحه المديني يولّد القلق والملل، وقوته المنفلتة تؤدي إلى الموت، وهذا يعني ضرورة عدم الاستمرار في هذا الطريق(موران،2005، ص84).

إن علينا تغيير المسار، حتى وإن كان في الأمر مخاطرة ومجازفة، حتى وإن كانت الرؤية ضبابية وغير واضحة؛ ذلك أننا قد نتحرك صوب عالم أكثر ديمقراطية ومساواة، غير أننا من ناحية أخرى قد نتوجه صوب نسق عالمي جديد أسوأ مما نحن فيه. ولتغيير الطريق يقترح موران أن نتخذ مسارا جديدا وليس ثورة، لأن الثورات كثيرا ما أنتجت اضطهاداً يتعارض مع مهمتها في التحرر، وينبغي لهذا المسار أن يكون مساراً سياسياً، ايكولوجياً، اقتصادياً واجتماعياً، (2020، https://www.almadapaper.net/view.php?cat=231137) .

ينبغي تغيير المسار لأن الإنسانية في نظر موران ليست مجرد مفهوم بيولوجي، على الرغم من أنها غير منفصلة عن المحيط الحيوي، كما أنها ليست مفهوما بدون جذور؛ فهي متجدرة في "وطن" في أرض، والأرض هي عبارة عن وطن في خطر. وليست الإنسانية مفهوما مجردا بل هي واقع حي، لأنها أصبحت ولأول مرة مهددة بالموت، وليست الإنسانية مفهوما مثاليا، فقد أصبحت جماعة ذات مصير مشترك، ووحدة الوعي بهذه الجماعة يمكن أن يقود نحو ما يمكن تسميته بجماعة الحياة. لقد أصبحت الإنسانية على الخصوص مفهوما أخلاقيا، إنها ما يجب أن يتحقق من طرف الجميع، وما يجب أن يتحقق كليا داخل كل واحد منا فلننقذ الإنسانية بالعمل على تحقيقها(موران، 2002،ص107).

إن الأمر كله ومن دون شك يعتمد علينا، وعلى طبيعة الفعل الأخلاقي والسياسي الذي نقوم به، أفرادا وجماعات، والمؤكد أن بلوغ نسق عالمي أفضل مما نحن فيه الآن، يتطلب وضوحا فكريا حول الخيارات الحقيقية التي نقف إزاءها اليوم وغدا(فالرشتاين،2017، ص10). وإذا كنا ومن خلال تغيير المسار ننشد التطور، فإن السياسة العالمية تجبرنا على التغيير في مفهوم التطور[xii]، بما فيه التطور الحي والإنساني(الشكل المتملق للتطور). فالمقصود بكلمة "التطور" هو أن النمو التقني والاقتصادي عصب التطور الاجتماعي والإنساني، حسب المفهوم الغربي، وأن الوضع الراهن للمجتمعات الغربية غاية كل المجتمعات الأخرى بالإضافة إلى أنه غاية كل التاريخ الإنساني، وفي هذا ضرب من "فوكويامية" معممة ومضمرة، وهنا ينبغي التأكيد على أن في المجتمعات الغربية المتطورة يوجد أيضا تخلف نفسي وأخلاقي، وحالات عجز وقصور، ونقص واضحة، فالتطور التقني ـ الاقتصادي ينتج في نظر موران حالات تخلف أخلاقية ونفسية مرتبطة بالتضخم في الذات الفردية التي تحولت إلى فردانية مفرطة في الأنانية بفعل فقدان التضامن مع الآخر(موران،2002، ص81،82،83).

ولذلك فإن المسار الجديد الذي ينبغي للعالم أن يأخذه يستدعي في نظر موران خلق تضامن على كوكبنا، وإضفاء الطابع الإنساني الخالي من الحساب والفائدة على معاملاتنا، ويعتقد موران بأنه من السهل أن تتآلف الإنسانية، وأن تصبح وحدة، دون أن تتوقف على التنوع. فكل جهاز عضوي من أجهزتنا يشكّل جمهورية

تتأسس من ثلاثين مليار خلية. فلماذا لا تتمكن فيدرالية مكونة من بعض مئات الأمم، ومن ثلاثة إلى ستة مليارات من الكائنات العاقلة من تنظيم ذاتها؟ (موران، 2009، ص48).

إن التكوكب الذي يتم داخل التقنية ومن خلالها، وداخل وحدة المصير ومن خلالها، لا يتحقق في نظر موران على مستوى إنسانية مقسمة وممزقة بين أمم وإمبراطوريات وأعراق. وحيثما تقدم هذا التكوكب بفضل الهيمنة، وبفضل عملية التجانس، هناك تقهقر. وهكذا نرى أن أزمة التكوكب هي أزمة الإنسانية التي لا تستطيع التأسيس على شكل إنسانية، وهي أزمة العالم الذي لم يستطع بعد أن يصير عالما، وهي أزمة الإنسان الذي ما زال عاجزا عن التحقق كإنسان(موران، 2009، ص48).

ويلح موران على ضرورة السعي لتعويض التفكك الحاصل بتثبيت الترابط، ودعوة العقول إلى"حكمة التعايش" مع بعضنا البعض. ونطوّر فينا الميل نحو الوحدة، والتمازج، والتنوع، مقابل هذا النزوع نحو التجانس والانغلاق فالتمازج ليس فقط خلق لأشكال جديدة من التنوع انطلاقا مما يتيحه اللقاء(مع الغير)، بل إنه يصبح داخل الصيرورة الكوكبية نتاجا للترابط والوحدة ومنتجا لهما (موران، 2002، ص71).

إن العمل الجوهري للحياة في نظر موران يتمثل في مقاومة الموت عن طريق التضامن، ويجب على الوعي بإنسانيتنا أن يقودنا نحو التضامن والعطف المتبادل لكل واحد اتجاه الآخر، وللكل اتجاه الكل(موران، 2002، ص 72). علينا أن نتعلم كيف نعيش، كيف نتقاسم الأشياء بيننا، وكيف نتواصل، وكيف نتوحد فيما بيننا. هذا شيء نتعلمه فقط في، ومن خلال، ثقافتنا الخصوصية، بينما يتعين علينا من الآن فصاعدا أن نتعلم كيف نعيش، وكيف نتقاسم الأشياء وكيف نتواصل، وكيف نتوحد فيما بيننا، باعتبارنا أناسا ينتمون لكوكب الأرض. لا يتوجب علينا فقط أن ننتمي لثقافة ما، بل علينا أن نشعر بوجودنا ككائنات أرضية، علينا أن نطمح ليس نحو السيطرة على الأرض، بل نحو توفير سبل العيش فيها، ونحو تحسينها، ونحو فهمها. وبالتالي فإن علينا أن نرسخ بداخلنا وعيا أنثروبولوجيا يعترف بوحدتنا في إطار تعدديتنا، ووعيا إيكولوجيا يجعلنا ندرك بأننا

نعيش مع كل الكائنات الفانية داخل نفس المحيط الحيوي، ووعيا مدنيا أرضيا بالمسؤولية والتضامن مع أطفال الأرض، ووعيا حواريا يسمح لنا بنقد بعضنا البعض، وبنقد أنفسنا، وكذا بتفهم بعضنا البعض، ونأمل في سياسة تخدم الكائن الإنساني، غير مفصولة عن سياسة الحضارة، والتي تعمل جاهدة من أجل تحضر الأرض باعتبارها بيتا وحديقة للإنسانية (موران، 2002،ص67،70).

خاتمة:

وختاما يمكننا القول إن أزمة كورونا من منظور موران من شأنها أن تذكّر البشرية بالمصير المشترك، وأن ترغم الدول المصنعة على مراجعة تسابقها المحموم نحو التطور التقني والاقتصادي، وأن تكشف للجميع بأن لا شيء يقيني ولا شيء مأمون ومضمون في هذا العالم، ولذلك فمن الضروري أن تتضافر الجهود لكي يكون قوام المستقبل فتحا لآفاق الفكر، وتجديدا في السياسة وحماية للبيئة، وأنسنة للمجتمعات، وبأننا ما دمنا ضائعين في هذا الكوكب الشاسع، وما دام محكوما علينا بالعناء، وبالموت، فإن من واجبنا أن نكون إخوة.

إن علينا أن نستخلص من جائحة كورونا، واختلاف الوضعيات وطرق التصرف المختلفة معها عبر العالم دروسا للمستقبل، دروسا حول وجودنا ووضعنا الإنساني، وعدم يقينية حياتنا، وعلاقتنا بالموت، ويقظة التضامن، والعلم، والطب، والسياسة، فها هي كورونا تعود لتنعش ذاكرة الإنسان بعد أن طمستها الأوبئة الكبرى التي شهدها العصر الوسيط، والأزمات الاقتصادية السابقة، حيث ظن الإنسان أنه كائن جبار استطاع أن يفرض سيطرته المطلقة على الطبيعة، وها هي كورونا تعود لتوقظ روح التضامن، وتدفع إلى مقاومة الفردانية الأنانية، وتنبّه إلى اختلاف الأوضاع البشرية، وفداحة التفاوت، والشكوك العلمية، وتلفت الأنظار نحو مختلف التحديات التي تواجه الإنسان، ومنها تحدي العولمة المأزومة، والتحدي الوجودي، والسياسي، والإيكولوجي، والاقتصادي، إنها باختصار تدعو لتغيير المسار من أجل مستقبل الإنسان.

التعليقات:

[i] - الجنون الحماسي نحو أفق ما بعد الإنسانية، ارتقى إلى الأوج بأسطورة الضرورة التاريخية للتقدم، وكذا سيطرة الإنسان ليس فقط على الطبيعة، بل مصيره أيضا، في إطار التنبؤ بأن الإنسانية ستبلغ الأبدية، وتتحكم في كل شيء بفضل الذكاء الاصطناعي. والحال، أننا مؤثّرين/ متأثرين، مالكين/مملوكين أقوياء/ضعفاء. إن أمكننا مثلا تأخير الموت بالتقدم في السن، فيستحيل بالنسبة إلينا استبعاد الطوارئ القاتلة التي تهشم أجسادنا، أو التخلص من جراثيم وفيروسات قادرة على التحول باستمرار لتقاوم العلاجات، والمضادات الحيوية، ومضادات الفيروسات، والتلقيحات (إدغار موران في حوار شيق، 2020/ https://intelligentcia.ma/29468.html) .

[ii] - هو: فيروس "كورونا المستجد كوفيد-19" من سلالة كورونا وهو مرض سريع الانتشار وقد تم التعرف عليه للمرة الأولى في عدد من المصابين بأعراض الالتهاب الرئوي في مدينة ووهان بمقاطعة هوبي بالصين. (محمد فتحي عبد العال، د.ت، ص5) .

[iii] - أشار إدغار موران إلى أنه قد كان من الأقلية التي تنبأت بالكوارث المتوالية المترتبة عن جموح العولمة التقنية الاقتصادية، بما في ذلك تلك الكوارث الناتجة عن تدهور المحيط الحيوي، وتدهور المجتمعات. لكنه لم يتوقع كارثة فيروسية بهذا النوع، ويقول بأن هناك من تنبأ بهذه الكارثة، وهو بيل غيتس، حيث أعلن في مؤتمر عقد في أبريل 2012 أن الخطر المباشر على البشرية ليس هو الخطر النووي، بل الخطر الصحي. وقد لاحظ في وباء الإيبولا الذي تم احتواءه بسرعة، إعلانا لخطر عالمي محتمل بسبب فيروس شديد العدوى. وقد استعرض بيل غيتس التدابير الوقائية اللازمة، بما في ذلك معدات المستشفيات الملائمة. لكن على الرغم من هذا التحذير العام، لم يتم فعل أي شيء في الولايات المتحدة الأمريكية أو أي مكان آخر؛ لأن الراحة الفكرية والعادة تكره الرسائل المزعجة (إدغار موران، وباء كورونا أدخل البشرية في مغامرة مذهلة وجعلنا ندرك أننا نعيش في عالم الشك والمأساة على حد سواء ، 2020، http://orient.ma/avis) .

[iv] - إدغار موران(Edgar Morin) فيلسوف وعالم اجتماع فرنسي معاصر. ولد في باريس في 8يوليو 1921 . في بداية القرن العشرين هاجرت أسرة موران من سالونيك في اليونان إلى مرسيليا، ثُم إلى باريس حيثُ ولد إدغار هناك، وهو من يهود سفارديون . وعندما غزا الألمان فرنسا في عام 1940، قام إدغار بمساعدة اللاجئين وانضم إلى المقاومة الفرنسية، واستخدم اسم موران كاسم مستعار بوصفه عضواً في المقاومة الفرنسية .ثم انضم إلى الحزب الشيوعي الفرنسي سنة 1941. قام بتأسيس مجلة"Arguments" بالفترة (1954-1962)، وقام بإصدار كتابه"Autocritique" في سنة 1959. كان الكتاب يوضح تمسكه ثم خروجه من الحزب الشيوعي . في سنة 1960 سافر إدغار إلى أمريكا الاتينية، وقام بزيارة البرازيل، تشيلي، بوليفيا، بيرو، المكسيك .ثم عاد إلى فرنسا ونشر كتابه " L'Esprit du Temps', a work on popular culture" من مؤلفاته ثقافة أوروبا وبربريتها إلى أين يسير العالم هل نسير إلى الهاوية الفكر والمستقبل مدخل إلى الفكر المركب، عنف العالم ، المنهج إنسانية البشرية، الهوية البشرية (إدغار موران/ https://ar.wikipedia.org/wiki) .

[v] - أطلقت الأزمة الصحية العنان لتداعيات أزمات متسلسلة. تشمل هذه الأزمة المتعددة أو الهائلة، الوجودي وصولا غاية السياسي مرورا بالاقتصاد، ثم من الفردي إلى الكوني مرورا بالعائلات، والأديان، والدول (2020، https://intelligentcia.ma/29468.html) .

[vi] - مثال ذلك أن الجمهورية التشيكية سارعت إلى سرقة شحنة كمامات كانت في طريقها نحو إيطاليا، وفي عملية مماثلة قامت الولايات المتحدة الأمريكية باختلاس مخزون من الكمامات الصينية، المتوجهة أصلا إلى فرنسا.(2020، https://intelligentcia.ma/29468.html).

[vii]- تشير كلمة كوكبية عند موران إلى المشكلة التي يصعب معالجتها بسبب تعقيدها. فما يجري على هذا الكوكب له علاقة في التداخل بين التطورات الاقتصادية، والاجتماعية، والدينية، والقومية، والميثولوجية والديموغرافية.. إلخ. (موران، 2005، ص73).

[viii]- من الخطأ الاعتقاد في نظر موران أن كلمة العولمة التي تستخدم منذ 1990 تحمل على الافتراض بأن التطور بدأ فقط في نهاية القرن العشرين، والحال إن العولمة "الكوكبة" هي المرحلة الأخيرة المعروفة بعملية بدأت مع الغزو الأمريكي وتطور الملاحة حول العالم بهدف إقامة أمتن الروابط بين كل أجزاء العالم. بالطبع، هذه العملية تسارعت مع ظهور الاستعمار والعبودية؛ اللذان سيشكلان حقبة طويلة جدا من التاريخ الإنساني، وفي الواقع لم يتم القضاء على العبودية إلا في القرن التاسع عشر بينما كانت عملية إنهاء الاستعمار تتعمم بعد منتصف القرن العشرين. إن المفارقة في هذه الحقبة من التاريخ الإنساني القاسية جدا؛ هي أن هذه الأفكار بوصفها أفكارا استنهاضية كان مصدرها دائما بلدان الهيمنة نفسها (موران، 2005،ص74، 75).

[ix] - على صعيد الدّولة الوطنيّة كشفت كورونا الخلل في سياسات أعطت الأولويّة للرّأسمال على حساب العمل وضحّت بالاحتياط والوقاية من أجل مزيد من المردوديّة والتّنافسيّة، وعلى الصعيد الاجتماعي برزت التّفاوتات ، وعلى الصّعيد الحضاري كشفت غياب .بين الضعفاء والفقراء، وأصحاب المنتجعات والقصور الفخمة وعلى المستوى الفكري كشفت عن حجم الثّقب الأسود في تفكيرنا، وهو التّضامن، ومظاهر التّسمم الاستهلاكيّ، الثّقب الّذي منعنا من تبصّر ورؤية تعقيدات الواقع، أما على المستوى الوجودي فإنها قد دفعت بالإنسان إلى التساؤل عن الاحتياجات الحقيقيّة، وعن التطلّعات الّتي أخفاها الإغتراب في الحياة اليوميّة (جائحة-كورونا-قراءات-فلسفية، 2020، (https://hadfnews.ps/post/69368/

[x]- من المسائل التي ركز عليها موران في ما يخص الإخلالات التي شابت سياسة فرنسا حتى تهاوت، إلى وضع كارثي، جعلها تواجه جائحة كبرى بنوع من الاستهانة لكون البؤرة في أقصى جنوب آسيا، وبكثير من الاستعلاء إذ لم تبادر مؤسساتها الصحية الرسمية بالإتصال بنظيراتها الصينية كي تعلم على الأقل أصل الأزمة وسبل مواجهتها (جريدة العرب: السنة 43،العدد11756) .

[xi]- حول معالجة الإختلالات أمامنا إرث من التيارات المضادة الساعية نحو الإصلاح، ومنها التيار المضاد المقاوم للحياة المبتذلة والخاضعة كليا لمبدأ المنفعة، و التيار المضاد الذي لا يزال خجولا والذي يدعو إلى التحرر من الطغيان الكاسح للمال، إنه تيار يسعى إلى تعويض هذا الطغيان لعلاقات إنسانية وتضامنية تعمل على الحد من سيطرة مبدأ الربح، والتيار المضاد الذي لا يزال خجولا هو الآخر ، ويتعلق الأمر برد فعل ضد ارتفاع وتيرة العنف، انه تيار يتغذى من الأخلاقيات الداعية إلى إعادة السلام الى النفوس والى العقول (موران، 2002، ص66) .

[xii]- حول فكرة التطور يقول موران بأننا نستخدم بطيب خاطر عبارة الـ"تطور الإنساني"، فكلمة "إنساني" تحيل إلى نموذج إنساني غربي، نعرف جيدا بأنه أسطورة منمذجة من المركزة الاجتماعية الغربية العالمية الواهمة، التي تعني أن الغرب هو الذي يرعى المصالح العالمية البشرية. والتطور بطابعه التقني والاقتصادي أساسا يجهل ما هو غير محسوب، وما هو غير قابل للقياس كالحياة، والألم، والفرح، والبؤس، ونوعية الحياة، والجمال والعلاقات مع الوسط الطبيعي. بعبارة أخرى لا يأخذ بعين الاعتبار الثروات الإنسانية غير المحسوسة مثل الكرم، الأعمال المجانية، الكرامة، الضمير. (موران، 2005، ص82).

- قائمة المصادر والمراجع:

- إدغار موران، تربية المستقبل، ترجمة عزيز لزرق ومنير الحجوي(الدار البيضاء، المغرب:دار توبقال للنشر، منشورات اليونسكو باريس- فرنسا، 2002) .

- إدغار موران، إلى أين يسير العالم، ترجمة أحمد العلي،(بيروت، لبنان: الدار العربية للعلوم ناشرون،2009).

- جان بودريار، إدغار موران، عنف العالم ترجمة عزيز توما(سوريا: دار الحوار للنشر والتوزيع، سوريا، 2005).

- إدغار موران، نحو سياسة حضارية، ترجمة أحمد العلمي(المملكة العربية السعودية، بيروت، لبنان: الدار العربية للعلوم، ناشرون، 2010).

- إدغار موران: هل نسير إلى الهاوية، ترجمة عبد الرحيم حزل(المغرب: إفريقيا الشرق، 2012) .

- إدغار موران، الفكر والمستقبل،(الدار البيضاء، المغرب: دار توبقال للنشر، 2004).

- إيمانويل فالرشتاين، نهاية العالم كما نعرفه، ترجمة فايز الصباغ (المنامة، البحرين: البحرين للثقافة والآثار، مكتبة 409، 2017).

- محمد فتحي عبد العال: كورونا جائحة العصر، د.ت.

- جريدة العرب: السنة 43، العدد11756 .

https://www.almadapaper.net/view.php?cat=231137-

https://www.aljazeera.net/news/cultureandart/ -

https://ar.lemaghreb.tn/item/42680-

https://hadfnews.ps/post/69368/-

https://intelligentcia.ma/29468.html-

https://www.alquds.co.uk -

http://orient.ma/avis-